رواية

آنا غافالدا

معاً...

« إنّ ما يمنع الناس من العيش معاً

هو حماقتهم وليست اختلافاتهم... »

@ketab_n
Follow Me
20.9.2014

المركز الثقافي العربي

آنا غافالدا

معــاً...

رواية

ترجمة: حسين عمر

المركز الثقافي العربي

Twitter: @ketab_n

آنا غافالدا
معـــــــاً...
Twitter: @ketab_n

الكتاب

معاً ...

تأليف

آنا غافالدا

ترجمة

حسين عمر

الطبعة

الأولى ، 2012

عدد الصفحات: 672

القياس: 21 x 14

الترقيم الدولي :

ISBN: 978-9953-68-536-3

جميع الحقوق محفوظة

© المركز الثقافي العربي

الناشر

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء ـ المغرب

ص . ب : 4006 (سيدنا)

42 الشارع الملكي (الأحباس)

هاتف : 303339 0522 ـ 307651 0522

فاكس : 305726 522 212+

Email: markaz@wanadoo.net.ma

بيروت ـ لبنان

ص . ب : 5158 ـ 113 الحمراء

شارع جاندارك ـ بناية المقدسي

هاتف : 750507 01 ـ 352826 01

فاكس : 343701 1 961+

Email: cca_casa_bey@yahoo.com

Twitter: @ketab_n

إلى موغيت كليمان

(2003–1919)

جسدٌ غيرُ مطلوب

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

القسم الأوّل

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

1

لم تكن بوليت ليستافييه مجنونة كما كان يقال عنها. لا شكّ أنّها كانت تعرف الأيام لأنّه لم يعد لديها ما تفعله سوى أن تحصيها، أن تنتظرها، وأن تنساها. كانت تعلم جيداً أنّ هذا اليوم هو الأربعاء. كانت جاهزة! فقد ارتدت معطفها وأخذت سلتها وقسائم الحسم على الأسعار وانتظرت وصول سيارة إيفون... ولكن ها هو هرّها يموء جائعاً أمام الباب. حينما انحنت لتضع قصعة الحليب أمام الهرّ، وقعت وارتطم رأسها بالدرجة الأولى من السلّم.

كانت بوليت ليستافييه تقع غالباً، ولكن كان ذلك سرّاً من أسرارها. لم تكن تتحدّث عنه لأحدٍ. «لأيّ كان، هل تسمعينني؟». كانت تتوعّد نفسها بهذه العبارة بصمت. «لإيفون، ولا للطبيب، ولا حتى للصبي...».

تضطرّ لأن تقوم ببطء، وتنتظر إلى أن تعود الأمور طبيعية. تفرك كدماتها بمحلول السانتول وتخفي آثارها.

لم تكن آثار كدمات بوليت مزرقّة أبداً. كانت مصفرّة، مخضرّة أو ضاربة للبنفسجي، وكانت تبقى لفترات طويلة على

Twitter: @ketab_n

جسدها. لفترات طويلة جداً. أحياناً لأشهرٍ عديدة. كان من الصعب إخفاؤها. يسألها الناس البسطاء لماذا تلبس دائماً وكأنّها في عزّ الشتاء. لماذا ترتدي جوارب ولا تنزع سترتها أبداً.

وكان حفيدها الصغير، خاصّة، يعذّبها بإلحاحه:

- إذاً يا جدّتي؟ ما هذا؟ انزعي كلّ هذه الأسمال، ستموتين من شدّة الحرارة!

كلا، لم تكن بوليت ليستافييه مجنونة على الإطلاق. كانت تدرك أن هذه الكدمات التي تغطّي جسمها باستمرار ستسبّب لها مصاعب ذات يوم...

كانت تدرك كيف تنتهي حياة النساء المسنّات مثلها. اللواتي يلزمن بيوتهنّ لئلا يسقطن أرضاً. العجائز اللواتي لا يستطعن تمرير خيطٍ من ثقب إبرة ولا يعود بوسعهنّ أن يتذكّرن كيف يُرفَع صوت التلفاز. اللواتي يجرّبن كل أزرار لوحة التحكّم وينتهين إلى إطفاء الجهاز وهنّ يبكين غيظاً.

يبكين بدموعٍ خفيفة ومريرة. ويمسكن برؤوسهنّ أمام تلفازٍ مطفأ.

ماذا إذاً؟ لم يعد هناك أيّ شيء؟ لم يعد هناك قط صخبٌ في هذا البيت؟ لم تعد هناك أصوات؟ على الإطلاق؟ بذريعة نسيان لون الزرّ؟ ولكنّ الصغير كان قد وضع لكِ علامات على جهاز التحكّم! علامة لتبديل القنوات، وعلامة للتحكّم بالصوت وعلامة لإطفاء الجهاز! هيا يا بوليت! كفّي عن البكاء وانظري إلى العلامات!

كفاكنّ صراخاً بي أنتنّ الأخريات... لقد زالت العلامات

Twitter: @ketab_n

منذ زمنٍ طويل... لقد زالت عن الجهاز بعد لصقها بوقتٍ قصير... وقد مرّت أشهرٌ وأنا أبحث عن الزرّ، ولم أعد أسمع شيئاً، أرى فقط الصور مع همهمة خفيفة...

لا تصرخن هكذا، سوف تزيدونني صمماً...

2

- بوليت؟ بوليت، أأنتِ هنا؟

صرخت إيفون مستاءةً. كانت تشعر بالبرد، فشدّت وشاحها على صدرها وصرخت من جديد. لم تكن تريد الوصول متأخرةً إلى المتجر.

عادت إلى سيارتها متنهدة، أوقفت المحرّك وأخذت قلنسوتها.

لا بدّ أن تكون السيّدة بوليت وسط الحديقة. كانت السيدة بوليت تذهب باستمرارٍ إلى الحديقة. وتجلس على مقعدٍ قرب أقفاص الأرانب الخاوية. كانت تبقى هناك لساعات كاملة، أحياناً منذ الصباح وحتى المساء. تجلس مستقيمة، ساكنة، صابرة، يداها فوق ركبتيها، ونظرتها شاردة. تحدّث نفسها، تستذكر الأموات وتكلّم الأحياء.

تتحدّث إلى الأزهار وإلى قدميها الغائصتين بين الخضار وإلى طيور القرقب وإلى ظلّها. فتفقد رشدها ولا تعود تعرف الأيام. كان اليوم هو الأربعاء وهو يوم التسوّق. وصلت إيفون، التي تأتي وتأخذها كلّ أسبوع منذ أكثر من عشرة أعوام. ورفعت مزلاج الباب الصغير وهي تئنّ قائلة: «عسى ألّا يكون هناك مكروه...».

Twitter: @ketab_n

هذا إن لم يكن مكروهاً أن يشيخ المرء، أن يكون وحيداً، أن يصل متأخراً إلى المتجر ولا يجد عربات الأغراض قرب صناديق المحاسبة. . .

ولكن الحديقة كانت خالية.

بدأت المرأة الشرسة تقلق. ذهبت إلى الجهة الخلفية ولم تجدها . وضعت يديها على طرفي فمها وهي تصرخ منادية بوليت.

«يا يسوع الحبيب!» صرخت إيفون حينما شاهدت جسد صديقتها ممداً على أرضية المطبخ.

تحت تأثير الانفعال، رسمت إيفون شارة الصليب كيفما كان وخلطت بين الابن والروح القدس، وراحت تبحث عن أداةٍ في المستودع. حطّمت زجاج النافذة بواسطة معزقٍ وبذلت جهداً كبياراً لتعتلي حرف النافذة.

لاقت صعوبة في العبور إلى الحجرة، جثت على ركبتيها ورفعت رأس السيدة العجوز العائم في سائلٍ ورديّ اللون حيث كان الدم قد امتزج بالحليب.

- أوه! بوليت! هل متِّ؟ هل متِّ هنا؟

كان الهرّ يلعق الأرضية وهو يموء، غير مكترثٍ بالمأساة، ولا بكسرات الزجاج المتناثرة من حوله.

3

لم تكن إيفون متحمسة، ولكنّ المسعفين طلبوا منها الصعود إلى عربة الإسعاف لتسوية المسائل الإدارية وإجراءات إدخالها إلى قسم الطوارئ.

Twitter: @ketab_n

- هل تعرفين هذه السيّدة؟

كانت مصدومة.

- أعتقد أنني أعرفها! كنّا معاً في البلدية.

- إذاً هيا اصعدي.

- وسيارتي؟

- لن تُسرَق سيارتكِ! سوف نعيدكِ في الحال...

قالت بانقياد:

- حسناً... سأذهب...

كانت عربة الإسعاف غير مريحة. دلّوها على مقعدٍ صغيرٍ بلا مسند بجانب النقّالة، جلست عليه غير مرتاحة. شدّت بقوة على حقيبة يدها وكادت أن تنقلب عند كلّ منعطف.

كان معها رجلٌ شاب، يزعق لأنّه لا يجد وريداً في ذراع المريضة فأثار ذلك إيفون.

- لا تزعق هكذا، لا تزعق هكذا... ماذا تريد منها أوّلاً؟

- أن أشكّ لها المحقن.

- أن تفعل ماذا؟

أدركت، من نظرة الصبي، أنّه من الأفضل أن تهدأ وواصلت مونولوجها الخفي: «انظروا إلى هذا... انظروا إلى هذا كيف يهرس ساعدها... يا له من شقاء... أفضّل أن لا أرى... أيتها القديسة مريم، صلّي لها... هيه أنت! أنت تؤلمها هكذا!».

انتصب واقفاً وضبط دولاباً صغيراً في قطّارة السيروم

Twitter: @ketab_n

(المصل). أحصت إيفون القطرات وصلّت كيفما كان. منعها صخب صفارة الإنذار من التركيز.

وضعت يد صديقتها على ركبتها وراحت تمسّدها كما تمسّد طرف تنورتها. منعها الحزن والهلع من أن تكون أكثر رقّةً وحناناً...

تنهّدت إيفون كارمينو ونظرت إلى تلك التجاعيد، تلك الندب، تلك البقع الغامقة المنتشرة في كلّ مكانٍ من يد صديقتها، تلك الأظافر التي كانت لا تزال رفيعة، ولكنّها قاسية ومتّسخة ومتشققة. وضعت يدها بجانب يد صديقتها وقارنت بينهما. بالتأكيد كانت أصغر سنّاً منها وأكثر بدانة، ولكن أيضاً أقلّ شقاءً منها في حياتها. فقد عملت في ظروفٍ أقلّ قسوةً وحظيت بالعطف والحنان في بيتها. فهي، ومنذ زمنٍ طويل، لم تعد تجهد نفسها بالعمل في حديقة المنزل... ظلّ زوجها يزرع البطاطس، أمّا بقية الخضار، فكانت تفضّل شراءها من المتجر، إذ كانت نظيفة. ولم تعد مضطرّة لتنظيف قلوب الخسّ بسبب الرخويات... ثمّ كان لها عالمها الخاصّ: ابنها جيلبير وابنتها كاترين وحفيداتها... أمّا بوليت، فماذا بقي لها؟ لا شيء. لا شيء يُذكَر. زوجٌ ميّت، وابنة مومس، وولدٌ لا يأتي أبداً لرؤيتها. هومٌ وذكريات تشكّل سلسلة من الآلام...

شردت إيفون كارمينو حالمة: إذاً، أهذه هي الحياة؟ أهي بهذه الخفّة؟ أهي بهذا الجحود؟ ومع ذلك، كم كانت امرأة جميلة! وكم كانت طيّبة؟ كم كانت متألقة... وماذا بعد؟ إلى أين ذهب كلّ ذلك إذاً؟

Twitter: @ketab_n

في تلك اللحظة، أخذت شفتا السيّدة العجوز تتحرّكان. في لحظة واحدة، أزاحت إيفون كل تلك الفلسفة التي كانت تُرهق ذهنها:

- بوليت، أنا إيفون. كلّ شيء على ما يرام، عزيزتي بوليت... جئتُ لمساعدتكِ و...

غمغمت بوليت:

- هل متُّ؟ هلّ قضي الأمر، هل متّ؟

- كلا بالطبع، عزيزتي بوليت! كلا بالطبع! لم تَمُتِ، أنتِ حيّة!

أغمضت بوليت عينيها من جديد وهي تئنّ:

- آه، آه...

كانت هذه «الآه» مريعة. كلمة صغيرة يائسة ومحبطة ومستسلمة.

آه، لم أمت... آه حسناً... آه هذا أسوأ... آه اعذريني...

لم توافقها إيفون الرأي:

- هيا يا عزيزتي! يجب أن تعيشي يا عزيزتي بوليت! يجب أن تعيشي، رغم كلّ شيء!

هزّت السيّدة العجوز رأسها يميناً ويساراً. بصعوبة وبطء. أهو تحسّرٌ مشوبٌ بالحزن والعناد. أم هو تمرّد على الموت.

ربّما هو الاحتمال الأوّل...

ثمّ ساد الصمت. لم تعد إيفون تدري ماذا تقول. تمخّطت وأمسكت بيد صديقتها ومسّدتها بلطف.

Twitter: @ketab_n

- سوف يضعوني في دارٍ للمسنّين، أليس كذلك؟

انتفضت إيفون:

- كلا، سوف لن يضعوكِ في دارٍ للمسنّين! كلا! ولماذا تقولين هذا؟ سوف يعالجونك وهذا كلّ ما في الأمر! بعد عدّة أيام ستعودين إلى بيتكِ!

قال الرجل المرافق:

- كلا. أنا أعرف جيداً أن هذا غير صحيح...

- آه! هذا على سبيل المثال، ولكنْ هناك أمرٌ آخر! ولماذا إذاً، أيّها الصبيّ؟

أشار لها المسعف بحركة من يده ليطلب منها التحدّث بصوتٍ أخفض.

- وهرّي؟

- سوف أهتمّ بأمره... لا تقلقي.

- وعزيزي فرانك؟

- سنستدعي حفيدكِ، سنستدعيه لاحقاً. أنا سأتكفّل بالأمر.

- لم يعد لدي رقم هاتفه. لقد أضعته...

- أنا سأعثر عليه!

- ولكن لا يجب إزعاجه، إنّ عمله شاقّ، أنتِ تعرفين...

- نعم بوليت، أعرف جيداً، سأترك له رسالة هاتفية. أنتِ تعرفين الوضع اليوم، كلّ الصبيان معهم هواتف نقّالة... لم نعد نزعجهم بالهاتف...

- أخبريه أنّ... أنّني... أنّ...

Twitter: @ketab_n

أجهشت السيّدة العجوز بالبكاء.

في حين بدأت عربة الإسعاف صعودها نحو المستشفى، غمغمت بوليت ليستافييه باكية: «حديقتي... بيتي... أعيدوني إلى بيتي من فضلكم...».

كان المسعف وإيفون قد نهضا.

4

- إلى متى يعود آخر طمثٍ لك؟

كانت قد أصبحت خلف الستار وهي تنزع سروالها. تنهّدت. كانت تعلم أنّ هذا السؤال سوف يُطرح عليها. كانت تعلم ذلك. ولذلك تحسّبت للأمر... كانت قد ربطت شعرها بملقطٍ فضيٍّ ثقيل وصعدت إلى ذلك الميزان اللعين وهي تستجمع قواها قدر المستطاع. بل وحاولت أن تضغط على الميزان قليلاً لترفع مؤشّره... ولكن هيهات، لم يكن ذلك كافياً وستتلقى مباشرةً درسها الأخلاقي القصير...

رأته مباشرة حينما لمس بطنها، أضلعها، وركيها البارزين جداً، ثدييها المضحكين، وفخذيها الهزيلين، كان كلّ ذلك يغيظه.

انتهت إلى أن شدّت حزامها بهدوء. لم يكن هناك ما تخشاه هذه المرّة. كانت عند طبيب العمل وليس المدرسة. كلامٌ عن القوام واللياقة ومن ثمّ تخرج.

- إذاً؟

جلست الآن أمامه وابتسمت له.

Twitter: @ketab_n

كان ذلك سلاحها الفتّاك، ضربتها السرية، وسيلتها الفعّالة. أن تبتسم لمحدّثك الذي يعانقك، ليس هناك أفضل من هذه الوسيلة للحصول على شيءٍ مختلف. ولكن للأسف، كان هذا الشخص قد تعلّم في نفس المدرسة... وضع مرفقيه على الطاولة وشبك يديه ثم أطلق ابتسامة أخرى مؤثّرة. كانت مهيّأة للاستجابة. ربّما كان عليها ألا ترتاب في أمرٍ آخر، كان لطيفاً ولم تستطع الامتناع عن إغماض عينيها حينما وضع يديه على بطنها...

- إذاً؟ من دون كذب؟ وإلّا أفضّل ألّا تجيبيني.

- لزمنٍ طويل...

كشّر، وقال:

- بالتأكيد، بالتأكيد... ثمانية وأربعون كيلوغراماً لطولٍ يبلغ متراً وثلاثة وسبعين سنتيمتراً، إذا ما سارت الأمور هكذا، ستصبحين قريباً بين الصمغ والورقة...

سألت بسذاجة:

- ورقة ماذا؟

- ورقة الإعلان...

- آه! ورقة الإعلان! اعذرني لم أسمع بهذا التعبير...

كادت أن تجيب بشيءٍ ما، ثمّ امتنعت. انحنى لكي يأخذ وصفة وهو يتنهّد قبل أن يحدّق من جديد في عينيها.

- ألا تأكلين؟

- بلى بالتأكيد آكل!

فجأةً استبدّ بها إعياء شديد. ضاقت ذرعاً بكلّ هذا الجدل

Twitter: @ketab_n

حول وزنها. كانت منهكة. منذ ما يقارب سبعة وعشرين عاماً وهم يصدعون رأسها بهذا الحديث. ألا يمكن الحديث عن أمرٍ آخر؟ ولكنّها كانت موجودة! وكانت حيويّة. كانت حيويّة تماماً. نشيطة كالآخرين، تفرح كالآخرين، تحزن كالآخرين، مقدامة كالآخرين، حسّاسة وموهنة كأيّ فتاة أخرى. كان هناك شخصٌ ما في الداخل، هناك شخصٌ ما...

رجاءً، ألا يمكن الحديث معها عن أمرٍ آخر اليوم؟

- أنتِ توافقينني، أليس كذلك؟ ثمانية وأربعون كيلوغراماً، هذا ليس وزناً مناسباً...

قالت يائسة:

- نعم، نعم... أوافقك الرأي... منذ زمنٍ طويل لم ينزل وزني إلى هذا الحدّ... أنا..

- أنتِ ماذا؟

- كلا. لا شيء.

- أخبريني.

- أنا... أنا عشت لحظات عصيبة أكثر من هذه، أعتقد...

لم يصدر عنه ردّ فعل.

- هل ستملأ لي هذه الاستمارة؟

أجاب، محمحماً:

- نعم، نعم، سأفعل، أوه... ما هذه الشركة؟

- أيّ شركة؟

- هذه، التي نحن بصددها، شركتك...

Twitter: @ketab_n

- توكلين.

- عفواً؟

- توكلين.

ردّد الأحرف:

- تاء، واو، كاف،لام، ياء، نون.

- ربّما كان من الأفضل تسميتها باسمٍ فرنسي، ولكنني أعتقد بأنّهم مغرمون بلغة اليانكي.. أنتَ ترى، إنّها أكثر احترافية، تُسمّى دريم تيم الرائعة.

لم يكن يرى شيئاً. وسأل:

- ما هي بالضبط؟

- ماذا؟

- هذه الشركة؟

استندت ومدّت ذراعيها أمامها لكي تتمطّى وتحدّثت بنبرة مضيفة طيران جدية للغاية عن حدود مهماتها الجديدة:

- توكلين، أيّها السيدات والسادة، تستجيب لكلّ طلباتكم بخصوص النظافة. للأفراد والحرفيين، للمكاتب والنقابات، للمكتبات والوكالات، للمشافي والمساكن، للمنازل أو المعارض، شركة توكلين هنا لإرضائكم. توكلين ترتّب، توكلين تنظّف، توكلين تكنّس، توكلين تشطف، توكلين تلمّع، توكلين تصقل، توكلين تعقّم، توكلين تزيّن، توكلين تُطهّر وتوكلين تزيل الروائح. مواعيد تناسبكم. رشاقة. حفظٌ لأسراركم. عملٌ متقن وأسعارٌ مدروسة. توكلين، محترفون في خدمتكم!

Twitter: @ketab_n

ألقت هذا الخطاب الرائع دفعة واحدة ومن دون أن تلتقط أنفاسها. ظلّ طبيبها الفرنسي مذهولاً لذلك:

- أهذا تهريجٌ؟

- كلا بالطبع، ثمّ إنّك سترى دريم تيم، إنّها خلف الباب...

- ماذا تفعلين بالضبط؟

- لقد أخبرتك للتوّ.

- كلّا، أنتِ... أنتِ!

- أنا؟ حسناً، أنا أرتّب، أنظّف، أكنّس، أجلي، وألمّع وأقوم بكلّ الأمور.

- أأنتِ مدبّرة منز...؟

- عا... عاملة نظافة، أفضّل...

احتار في أمره، وسأل:

- لماذا تقومين بهذا العمل؟

حملقت فيه.

- كلا، ولكنني أعني لماذا «هذا العمل»؟ لماذا لا تقومين بعملٍ آخر؟

- لم لا؟

- ألا ترغبين في ممارسة نشاط أكثر... أوه...

- أكثر قيمةً؟

- نعم.

- كلا.

Twitter: @ketab_n

ظلّ على حاله للحظة، وقلم الرصاص في الهواء، وفمه نصف مفتوح ثمّ نظر إلى ساعته ليعرف التاريخ وسألها من دون أن يرفع رأسه:

- الكنية؟

- فوك.

- الاسم؟

- كاميل.

- تاريخ الميلاد؟

- 17 شباط 1977.

- تفضّلي، آنسة فوك، أنت مؤهّلة للعمل...

- رائع. كم تطلب منّي؟

- لا شيء، إنّ... أوه... إنّ توكلين هي التي ستدفع.

ردّدت وهي تنهض بحركة مسرحية ظاهرة:

- أووه توكلين! ها أنا مؤهّلة لتنظيف المراحيض، هذا مذهل...

رافقها حتى الباب.

لم يعد يبتسم واستعاد قناعه كشخصية مهمّة حيّة الضمير.

في نفس اللحظة التي ضغط فيها على الرسغ، مدّ لها يده:

- بضعة كيلوغرامات رغم كلّ شيء؟ لإسعادي...

هزّت رأسها. لم تعد تجدي معها هذه الحيل. الابتزاز والمشاعر النبيلة. كانت قد تجرّعت منها الكثير.

قالت:

Twitter: @ketab_n

- سنرى ما يمكننا فعله. سنرى...

دخلت سامية بعدها.

نزلت سلالم الشاحنة وهي تفتّش في جيوب سترتها بحثاً عن سيجارة. كانت مامادو البدينة وكارين جالستين على مقعدٍ وهما تعلّقان على المارّة وتحتجّان لأنّهما كانتا تريدان العودة إلى منزلهما.

قالت مامادو ممازحة:

- إذاً؟ ماذا تفعلين هنا في الداخل؟ هل جعلكِ ناسكة أم ماذا؟

جلست كاميل على الأرض وابتسمت لها. ابتسامة مختلفة. ابتسامة شفّافة، هذه المرّة. لم تكن تمارس خبثها مع صديقتها العزيزة مامادو، فهي قوية جداً...

بصقت كارين قراضة ظفرٍ من فمها، وسألت:

- أهو ظريف؟

- إنّه رائع.

قالت مامادو بحماسة:

- آه، كنتُ أعرفه جيّداً! كنت أشكّ في ذلك كثيراً! وقد قلتُ ذلك لكِ ولسيلفي، التي كانت عارية تماماً في الداخل!

- سيصعدكِ على ميزانه...

صرخت مامادو:

- مَنْ؟ أنا؟ أنا؟ يعتقد أنني سأصعد على ميزانه!

كانت مامادو تزن ربّما مائة كيلوغرامٍ على أقلّ تقدير، كان فخذاها يحتكان ببعضهما بعضاً.

Twitter: @ketab_n

- هيهات! إذا ما اعتليتُ ميزانه سأهشّم الميزان وأهشّمه هو معه! وماذا أيضاً؟

قالت كارين:

- وسيحقنك بالحقن.

- حقن ماذا؟

طمأنتها كاميل:

- كلا، كلا، سيصغي إلى قلبكِ ورئتيكِ فقط...

- هذا لا ضير منه.

- وسيلمس بطنكِ أيضاً...

قالت عابسةً:

- ولكن لنر، ولكن لنر، لنلتقي عنده. إذا ما مسّ بطني، سألتهمه نيئاً... إنّ الأطباء البيض الصغار وجبة شهية...

رفعت من نبرة صوتها وسحبت طرف قميصها الفضفاض.

- نعم، نعم إنّها وجبة شهية... لقد أخبرني أجدادي بذلك. مع جذور نبات المينهوت وعرف الدجاج... ما أطيبها من وجبة...

- والسيّدة بريدار، ماذا سيفعل بها؟

كانت السيّدة بريدار، واسمها الأوّل جوزي، الأكثر بغياً وفسقاً وفجوراً وهزأةً من بينهنّ جميعاً. وكانت أيضاً زعيمتهنّ. «زعيمتهنّ في الابتزاز» كما كان واضحاً على شارتها. كانت بريدار تفسد حياتهنّ، ضمن حدود وسائلها المتوفّرة بالتأكيد، ولكن، كان ذلك متعباً نسبياً...

Twitter: @ketab_n

- لبريدار، لا شيء. حينما يشمّ رائحتها، سيطلب منها أن ترتدي ثيابها فوراً.

لم تكن كارين مخطئة. فقد كانت جوزي بريدار، فضلاً عن كلّ الصفات التي ذُكِرَت، تعرق كثيراً.

ثمّ جاء دور كارين وأخرجت مامادو من حقيبتها حزمة أوراق ووضعتها على ركبتي كاميل التي وعدتها أن تلقي نظرة عليها وتحاول أن تفكّ طلاسمها.

- ما هذا؟

- هذا سجلّ الإعانة العائلية.

- أقصد كلّ هذه الأسماء المسجّلة هنا.

- حسناً هذه عائلتي.

- أيّة عائلة؟

- أيّة عائلة، أيّة عائلة؟ حسناً إنّها عائلتي! فكّري بعقلكِ يا كاميل.

- كلّ هذه الأسماء، هي عائلتكِ؟

أجابت بتفاخر:

- نعم كلّها.

- ولكن كم ولداً لديكِ؟

- لديّ خمسة، وأخي لديه أربعة...

- ولكن لماذا جميعهم هنا.

- أين، هنا؟

- أوه... على الورقة.

Twitter: @ketab_n

- هذا أريح لأنّ أخي وزوجته يقيمان عندنا ولأنّه لدينا نفس صندوق البريد...

- ولكن كلا، هذا لا يجوز هنا، يقولون إن هذا لا يجوز... يقولون إنّه لا يمكنكِ أن تكوني أماً لتسعة أولاد...

- ولماذا لا يمكنني؟ والدتي لديها اثنا عشر ولداً!

- مهلاً، لا تغضبي يا مامادو، أنا أقول لكِ بالضبط ما هو مذكور. إنّهم يطلبون منكِ أن توضّحي الأمر وتحضري بطاقتكِ العائلية.

- ولماذا؟

- حسناً أعتقد أنّ ما قمتِ به غير شرعي. لا أعتقد أنّ من حقّكما أنتِ وأخيكِ أن تضمّا أولادكما في نفس البطاقة...

- نعم، ولكن ليس لدى أخي أيّ شيء.

- أهو يعمل؟

- طبعاً يعمل! يعمل في الطرق السريعة.

- وزوجة أخيكِ؟

برطمت مامادو، وقالت:

- لا تفعل شيئاً! ولا أيّ شيء. إنّها لا تتحرّك، هذه المومس الشريرة، لا تحرّك أبداً مؤخرتها الضخمة!

ابتسمت كاميل في داخلها، وهي تتخيّل كيف تكون «مؤخّرة ضخمة» في نظر مامادو.

- هل لديهما أوراق ثبوتية؟

- طبعاً!

Twitter: @ketab_n

- حسناً إذاً، يمكنهما أن يعدّا بطاقتين منفصلتين.

- ولكنّ زوجة أخي لا تريد الذهاب إلى مركز الإعانة العائلية، وأخي يعمل ليلاً وينام نهاراً...

- فهمت، ولكن الآن، تريدين الحصول على مخصّصات كم ولد؟

- أربعة أولاد.

- أربعة؟

- نعم، هذا ما أريد أن أقوله لكِ منذ البداية، ولكنّكِ، ككلِّ البيض، تعتبرين نفسكِ على حقّ ولا تصغين أبداً!

زفرت كاميل بشيءٍ من العصبية.

- المشكلة التي أريد إخباركِ بها، هي أنّهم قد أغفلوا سيسيتي...

- وأيّ رقم سيسيتي؟

- إنّها ليست رقماً، يا غبيّة! إنّها ابنتي الأخيرة، الصغيرة سيسي...

- آه! سيسي!

- نعم.

- ولماذا اسمها غير موجود؟

- ما بكِ يا كاميل، أتفعلين هذا عمداً أم ماذا؟ هذا هو سؤالي الذي طرحته عليكِ منذ قليل!

لم تعد تعرف ماذا تقول...

- الأفضل أن تذهبي إلى مركز الإعانة مع أخيكِ وزوجته ومعكم كلّ الأوراق وتشرحوا وضعكم للمرأة...

Twitter: @ketab_n

- لماذا تقولين «المرأة»؟ أيّ امرأة؟

قالت كاميل محتدّة:

- أيّاً كانت!

- آه، حسناً، حسناً، لا تغضبي هكذا. سألتُكِ هذا السؤال لأنني اعتقدتُ بأنّكِ تعرفينها. . .

- مامادو، لا أعرف أحداً في مركز الإعانة. لم أذهب إليه في حياتي، هل فهمتِ؟

أعادت إليها أوراقها، كانت بينها إعلانات وصور سيارات وفواتير هاتف.

سمعتها وهي تغمغم: «قالت المرأة وأنا سألتها أيّ امرأة، هذا طبيعي لأنّ هناك رجالاً أيضاً، إذاً كيف استطاعت أن تعرف، إن كانت لم تذهب إلى هناك أبداً، كيف استطاعت أن تعرف أنّ ليس هناك سوى سيّدات؟ هناك رجال أيضاً. . . أهذه السيّدة **أعرف كلّ شيء** أم ماذا؟

- هيه؟ هل حردتِ هناك؟

أجابت بلغة ركيكة:

- كلا، لم أحرد. قلتِ بأنّكِ ستساعدينني ولكنّكِ لم تفعلي. وهذا كلّ ما في الأمر!

- سأذهب معكِ.

- إلى مركز الإعانة؟

- نعم.

- وستتكلّمين مع المرأة؟

Twitter: @ketab_n

- نعم.

- وإن لم تكن هي؟

أوشكت كاميل أن تفقد شيئاً من برودة أعصابها حينما عادت سامية.

- إنّه دوركِ، يا مامادو... تفضّلي هذا هو رقم الطبيب...

- لأفعل به ماذا؟

- لأفعل به ماذا؟ لأفعل به ماذا؟ لا أدري. لتتصلي بالطبيب طبعاً! هو من طلب منّي أن أعطيكِ الرقم...

كان قد سجّل رقمه على وصفة طبية وكتب: **لقد وصفتُ لكِ عشاءً شهيّاً، اتّصلي بي.**

كوّرت كاميل فوك الورقة ورمتها.

نهضت مامادو بتثاقل وأشارت إليها بسبابتها، ثمّ أضافت:

- أتعرفين لو أنّكِ تدبّرين حلاً لابنتي سيسي، سأطلب من أخي أن يجلب لكِ حبيباً...

- ظننتُ أنّ أخيكِ يعمل في الطرقات السريعة؟

- في الطرقات السريعة وفي السحر وفكّ السحر.

رفعت كاميل عينيها إلى السماء.

قاطعتها سامية:

- وأنا؟ هل يستطيع أن يدبّر لي حبيباً؟

مرّت مامادو من أمامها. وصرخت في وجهها:

- أنتِ أيتها اللعينة، أعيدي لي دلوي أولاً، ومن ثم نتكلّم مع بعضنا!

Twitter: @ketab_n

- تبّاً، أنتِ تضجرينني بهذا الموضوع! هذا الدلو ليس لكِ، إنّه دلوي أنا! كان دلوكِ أحمر اللون!

قالت الأخرى وهي تبتعد:

- لعينة، اذهبي، لعيبينة...

لم تكن قد انتهت من صعود السلالم حينما تحرّكت الشاحنة. حظاً سعيداً هنا في الداخل، كانت كاميل تبتسم وهي تمسك بحقيبتها، حظاً سعيداً...

- أنذهب إلى هناك؟

- سأتبعكِ.

- ماذا ستفعلين؟ ستستقلين المترو معنا؟

- كلا، سأعود مشياً.

- آه صحيحٌ أنّكِ تسكنين في الأحياء الجميلة...

- تتكلّمين...

- هيّا، إلى اللقاء صباحاً...

- سلاماً أيتها الفتيات...

كانت كاميل مدعوة إلى العشاء في بيت بيير وماتيلد. تركت رسالة لإلغاء الدعوة والاعتذار منهما على مجيب هاتفهما الصوتي.

فابتعدت كاميل فوك النحيلة جداً. والتي زاد وزنها ثقلُ حقيبة ظهرها والحجارة والحصى المتراكمة داخل جسمها. ربّما هذا هو ما كان عليها أن تخبِر طبيب العمل به قبل قليل. لو كانت لديها الرغبة في ذلك... أم القوّة؟ أو ربّما الوقت؟ الوقت بالتأكيد، طمأنت نفسها من دون أن تكون مقتنعة بذلك تماماً.

Twitter: @ketab_n

كان الوقت شيئاً لم تعد تدركه. انقضت أسابيع وأشهر كثيرة من دون أن تبالي به بأيّ شكل. وخطبتها المسهبة منذ قليل، مونولوجها العبثي ذاك الذي حاولت من خلاله أن تقنع نفسها بأنّها لا تزال قويّة كغيرها، لم تكن سوى كذبة خالصة.

أيّة كلمة استخدمت سابقاً؟ «حيويّة»، أهذا صحيح؟ كان ذلك مضحكاً، لم تكن كاميل فوك حيويّة.

كانت شبحاً يعمل ليلاً ويكدّس الحصى في النهار. تتنقّل ببطء وتتكلّم قليلاً وتنسحب بهدوء.

كانت لا تزال امرأة شابّة، وهشّة البنية.

لا ينبغي الاعتماد على المشهد السابق، الخفيف جداً، السهل جداً، المريح جداً. كانت كاميل فوك تكذب. كانت تخدع ذاتها وترغم نفسها كي لا تلفت الانتباه.

ومع ذلك فكّرت ثانية بذلك الطبيب... سخرت من رقم هاتفه النقّال ولكنّها فكّرت في أنّها ربّما تكون قد فوّتت فرصتها... فقد بدا الطبيب طويل البال وأكثر اهتماماً من الآخرين... ربّما كان عليها... لقد أخطأت في لحظة ما... كانت متعبة، ربّما كان عليها أن تضع هي الأخرى مرفقيها على الطاولة، وتروي له الحقيقة. أن تخبره أنها إذا كانت لم تعد تأكل إلّا القليل جداً، فذلك لأنّ حصىً تملأ بطنها، وأنّها تستيقظ كلّ صباح بشعورٍ وكأنّها تلوك حصى، وهي لم تفتح عينيها بعد، وأنّها كانت تختنق. وأنّ العالم المحيط بها لم يعد له أيّة أهمية، وأنّ كلّ يومٍ جديد هو بمثابة عبءٍ لا يُحتَمَل. ولذلك، كانت تبكي. ليس لأنّها كانت حزينة، وإنّما لتتجاوز كلّ ذلك. كانت

Twitter: @ketab_n

تلك الدموع المنحدرة تساعدها على تحمّل حصاها واستعادة أنفاسها.

أكان سيسمع؟ أكان سيفهم؟ طبعاً. ولهذا السبب لزِمَت الصمت.

لم تشأ أن تنتهي كما انتهت أمّها. ورفضت أن تسير على دربها، فإذا ما بدأت، لا تدري إلى أين يقودها هذا الأمر. سيقودها إلى مكانٍ بعيدٍ جداً. بعيد جداً وعميق جداً ومظلم جداً. ولم تكن تملك الجرأة على الالتفات إلى الوراء.

كانت تجرؤ على الخداع ولكن ليس على الالتفات إلى الوراء.

نزلت إلى المتجر أسفل بيتها وأرغمت نفسها على شراء مأكولات. فعلت ذلك إكراماً لعطف ذلك الطبيب الشابّ ومن أجل ضحكة مامادو. تلك الضحكة المجلجلة لهذه المرأة، هذا العمل الواهن عند توكلين، السيّدة بريدار، حكايات كارين الغريبة، التوبيخات، السجائر المتبادلة، الوهن الجسدي، ضحكاتهنّ الحمقاء المجنونة، وأمزجتهنّ السيّئة أحياناً. كان كلّ هذا يساعدها على العيش. نعم، يساعدها على العيش.

دارت مرّات عديدة حول رفوف المتجر قبل أن تقرّر، واشترت موزاً وأربع قوارير من اللبن الرائب وزجاجتي مياه معدنية.

شاهدت صبي عمارتها الملفت للانتباه. ذاك الصبيّ الغريب بنظارته المرتّقة بلصقة مشمّعة وسراويله البالية، وأساليبه المريخية. لا يكاد يمسك بغرضٍ، حتى يضعه في مكانه في الحال، يخطو

Twitter: @ketab_n

بضع خطوات، ثمّ يقف مذهولاً، ويعود ويأخذه ثانية ويهزّ رأسه ثمّ يغادر مسرعاً الطابور حينما يأتي دوره أمام صندوق المحاسبة ليعود ويضعه مرّة أخرى في مكانه. بل وشاهدته ذات مرّة وهو يخرج من المخزن ليدخل إليه من جديد ويشتري مرطبان المايونيز الذي كان قد أرجعه قبل قليل. المهرّج الحزين الغريب الذي كان يُضحك الزبائن ويتلعثم أمام البائعات ويعتصر قلبها.

كانت تصادفه أحياناً في الشارع أو أمام بوابة عمارتهما فيرتبكان وينفعلان ويقلقان. في هذه المرّة أيضاً، كان يتأوّه أمام الرمز الرقمي لفتح البوابة.

سألت:

- هل من مشكلة؟

- آه! أوه! عفواً! (كان يفتل يديه) مساء الخير يا آنسة، اعذريني على... اعذريني على إزعاجكِ، أنا... أنا أزعجكِ، أليس كذلك؟

كان ذلك فظيعاً. لم تكن تدري إن كان عليها أن تسخر منه أم تشفق عليه. كان خجله المرضيّ، وطريقته الغامضة جداً في الكلام، والكلمات التي يستخدمها وحركاته، كان كلّ ذلك يعكّر صفو مزاجها على نحوٍ مريع.

- لا، لا، لا مشكلة! أنسيت الرمز؟

- يا للشيطان! كلا! أقصد لا أدري. لا أقصد... يا إلهي، أنا...

- ربّما غيّروه؟.

- أتعتقدين ذلك جدياً؟

Twitter: @ketab_n

سألها وكأنها قد أخبرته بنهاية العالم.

- سنرى ... 342 بـ7...

سُمِع صليل قفل الباب.

- أوه، لأنّني مشوّش الذهن... لأنّني مشوّش الذهن... أنا...ومع ذلك هذا ما فعلته، أنا أيضاً... لا أفهم...

قالت له وهي تدفع الباب:

- لا مشكلة.

قام بحركة مفاجئة لدفعها إلى مكانه وأراد أن يمرّر ذراعه على كتفها ولكنّه أخطأ هدفه فوجّه ضربة قوية إلى قفا رأسها.

- الويل لي! عسى لا أكون قد آلمتكِ؟ كم أنا أخرق، حقّاً، أرجوكِ المعذرة... أنا...

ردّدت للمرّة الثالثة:

- لا مشكلة.

لم يتحرّك.

رجته أخيراً:

- آه... هلا رفعت قدمكَ لأنّك تدوس على أصابع قدمي وتؤلمني للغاية...

كانت تضحك. وكان ذلك مثيراً للأعصاب.

حينما أصبحا في البهو، هرع نحو الباب المزجّج ليتيح لها الدخول بلا عائق.

اعتذرت منه وهي تشير إلى عمق الباحة:

- للأسف، لن أصعد من هناك.

Twitter: @ketab_n

- أتقيمين في الباحة؟

- آه... ليس بالضبط... وإنّما تحت...

- آه! ممتاز... (كان يسحب ممسك كيسه الذي علق في المقبض المعدني للباب) لا بدّ أن يكون هذا... أن يكون... ممتعاً جداً...

قالت وهي تبتعد ممتعضة:

- آه... نعم... هذه طريقة لرؤية الأمور...

صرخ:

- سهرة ممتعة يا آنستي، وبلّغي تحياتي لوالديكِ!

والداها... كان هذا الشخص ذو عاهة... تذكّرت أنّها باغتته ذات ليلة، وهي التي اعتادت العودة في منتصف الليل، في الباحة وهو يرتدي منامة وجزمة صيد وفي يده علبة حلوى. كان مرتبكاً وسألها إن شاهدت هرّاً. أجابت بالنفي وسارت معه لبضع خطوات بحثاً عن الهرّ الضائع. سألته بقلق: «كيف هو؟»، فأجاب: «للأسف، لا أعرف». «لا تعرف كيف هو قطّك؟». تجمّد في مكانه: «لماذا عليّ أن أعرف ذلك؟ لم يكن لدي هرٌّ أبداً!». استاءت وتركته مزروعاً في الباحة وهي تهزّ رأسها. لا بدّ أنّ هذا الشخص محبطٌ جداً.

«الأحياء الجميلة...» فكّرت من جديد بجملة كارين وهي ترتقي الدرجة الأولى من الدرجات المائة والاثنتين والسبعين التي كانت تفصلها عن كوخها.

الأحياء الجمنيلة، أنتِ محقّة... كانت تقيم في الطابق السابع في غرفة خدمة لعمارة فاخرة تطلّ على شان دي مارس

Twitter: @ketab_n

وبهذا المعنى، نعم كانت تقيم في مكانٍ أنيقٍ، فإذا ما جلست على كرسيّ صغير واستدارت إلى اليمين، كان يمكنها أن تشاهد أعلى برج إيفل. ولكن عدا ذلك، يا حلوتي، لم يكن الحال كذلك فعلاً...

ارتقت السلّم لاهثةً وهي تجرّ خلفها قواريرها. حاولت ألّا تتوقّف أبداً ولا في أيّ طابق. حصل لها ذلك ذات ليلة ولم تستطع الصعود مجدّداً. جلست في الطابق الرابع ونامت مسندةً رأسها على ركبتيها. كان الاستيقاظ شاقّاً. كانت متجمدة من البرد واحتاجت إلى عدّة ثوانٍ قبل أن تدرك أين هي.

خافت من هبوب عاصفة فأغلقت كوّة النافذة قبل أن تغادر لاهثة وتتخيّل الحرارة المستعرة هناك في الأعالي... حينما كانت تُمطِر كانت تتبلّل وحينما كان الجوّ لطيفاً مثلما هو اليوم، كانت تشعر بالاختناق، وفي الشتاء، كانت ترتعش برداً. كانت كاميل تعرف جيداً هذه الظروف المناخية إذ كانت تعيش هنا منذ أكثر من عام. لم تكن تتذمّر، فهي لم تكن تحلم بذلك المأوى وكانت لا تزال تتذكّر الهيئة القلقة لبيير كيسلر حينما دفع باب غرفة المهملات هذه أمامها وهو يقدّم لها المفتاح.

كانت غرفة صغيرة ومتّسخة ومزدحمة.

حينما صادفها قبل أسبوع على عتبة بابه، جائعة، تائهة وصامتة، كانت كاميل فوك قد أمضت ليالي عديدة في الشارع.

خاف في البداية، حينما شاهد ذلك الظلّ على درج منزله:

- بيير؟

- مَنْ هناك؟

Twitter: @ketab_n

أنّ الصوت:

- بيير...

- مَنْ أنت؟

ضغط على الزرّ وأصبح خوفه أكبر:

- كاميل؟ أهذه أنتِ؟

قالت بأسى وهي تدفع أمامها حقيبة صغيرة:

- بيير... يجب أن تحتفظ لي بهذا... هذا عتادي وسأخبّئه لنفسي سوف أخبّئ كلّ شيء... كلّ شيء... لا أريد أن يأخذوا منّي أدواتي وإلّا سوف أموت... سوف أموت، أتفهم؟

اعتقد بأنّها تُهذي:

- كاميل! عمّا تتكلّمين؟ ومن أين تأتين؟ ادخلي!

ظهرت ماتيلد من خلفه وتهاوت المرأة الشابّة على حصيرتهما.

جرّدوها من ثيابها وأخذوها لتنام في الغرفة الداخلية. سحب بيير كيسلر كرسياً إلى جانب سريرها ونظر إليها، فزعاً:

- هل نامت؟

- أشعر...

- ماذا حدث؟

- لا أعرف شيئاً عن ذلك.

- ولكن انظر في أيّ حالةٍ مزرية هي!

- هسسس...

استيقظت في منتصف ليلة اليوم التالي وذهبت إلى الحمام

Twitter: @ketab_n

بهدوء لئلا توقظهما. آثر بيير وماتيلد، اللذان لم يكونا نائمين، أن يدعاها وشأنها. أبقياها على هذه الحال لعدّة أيام، وتركا لها نسخة من المفاتيح ولم يطرحا عليها أيّ سؤال. كان هذا الرجل وهذه المرأة رحمةً لها.

حينما عرض عليها الإقامة في غرفة للخادمة كان قد تركها شاغرة في عمارة والديه بعد وفاتهما، أخرج من تحت سريرها الحقيبة الصغيرة التي قادتها إلى بيتهما.

قال لها:

- تفضّلي.

هزّت كاميل رأسها رافضة:

- أفضّل تركها هنا....

قاطعها بجفاء:

- غير ممكن... ستأخذينها معكِ. لا داعي لتركها عندنا!

رافقتها ماتيلد إلى متجرٍ كبيار وساعدتها في اختيار مصباحٍ وحشيةٍ وألبسة داخلية وبعض أواني المطبخ وسخّان كهربائي وثلّاجة صغيرة.

سألتها قبل أن تدعها تغادر:

- هل معكِ نقود؟

- نعم.

- هل ستكونين بخير، يا صديقتي العظيمة؟

ردّدت كاميل حابسة دموعها:

- نعم.

Twitter: @ketab_n

- هل تريدين الاحتفاظ بمفاتيحنا؟

- كلا... كلا... ستسير الأمور على ما يُرام. أنا... ماذا يمكنني أن أقول.. ماذا...

كانت تبكي.

- لا تقولي شيئاً.

- أأقول شكراً؟

قالت ماتيلد وهي تضمّها:

- نعم، شكراً، لا بأس، هذا جيّد.

جاءا لرؤيتها بعد مرور بضعة أيام.

كان صعود السلالم قد أضناهما وتهاويا على الحشية.

ضحك بيير وقال بأنّ هذا يذكّره بشبابه وأنشد «البوهيميييية». شربوا الشمبانيا في أقداح بلاستيك، وأخرجت ماتيلد من كيسٍ كبيار كومةً من الأطعمة المدهشة. أثارت الشمبانيا ومشاعر العطف الجرأة لديهما على طرح بعض الأسئلة. أجابت على بعضها، ولم يلحّا عليها.

بينما كانا على وشك المغادرة، وكانت ماتيلد قد نزلت بضع درجات، استدار بيير كيسلر وأمسكها من معصميها.

- يجب أن تعملي، يا كاميل... عليكِ أن تعملي الآن...

أخفضت عينيها:

- أشعر أنني عملتُ كثيراً في هذه السنين الأخيرة... كثيراً، كثيراً...

ضمّها ثانية بشدّة إلى حدّ إيلامها.

Twitter: @ketab_n

- لم يكن ذلك عملاً وأنتِ تعلمين هذا جيّداً!

رفعت رأسها وقابلت نظرته، قائلة:

- ألهذا ساعدتني؟ لتقول لي هذا الكلام؟

- كلا.

كانت كاميل ترتجف.

ردّد وهو يتركها:

- كلا، كلا. لا تتفوّهي بحماقات. أنت تعلمين أننا لطالما اعتبرناكِ كابنتنا...

- عبقرية أم سفيهة؟

ابتسم لها وأضاف:

- اعملي. لا خيار لكِ في كلّ الأحوال...

أغلقت الباب ورتّبت المائدة الصغيرة وعثرت على كاتالوغ كبيار لدار سينوليه في قاع الحقيبة. وذكّرتها وريقة: **لا يزالُ حسابك مفتوحاً**... لم تتجرّأ على تصفّح الكاتالوغ وشربت ما تبقّى في القارورة.

أطاعته وعملت.

اليوم، هي تنظّف قذارة الآخرين وهذا يواتيها تماماً.

في الحقيقة، كانت الحرارة قاتلة هناك في الداخل... وقد أخطرتهنّ جوزي الرائعة: «لا تتذمّرن، أيتها الفتيات، فنحن نعيش آخر أيامنا الحلوة، وبعدها سيحلّ الشتاء، وتحلّ علينا معه الأيام العصيبة! إذاً، لا تتذمّرن!».

كانت محقّة لمرّة واحدة. فقد اقتربت نهاية سبتمبر وغدت

Twitter: @ketab_n

الأيام قصيرة بوضوح. فكّرت كاميل بأنّ عليها أن تنظّم أمورها بطريقة مختلفة هذه السنة، أن تنام أبكر، وتستيقظ بعد الظهيرة لتشاهد الشمس. كان هذا النوع من التفكير يفاجئها هي ذاتها وأدارت مجيب هاتفها الصوتي بشيءٍ من اللامبالاة. جاء الصوت أخيراً:

«أنا ماما... لم أعد أدري إن كنتِ تعرفين عَمّنْ أتحدّث عنها... ماما، أتعرفين؟ هذه هي الكلمة التي يلفظها الأبناء الطيّبون حينما يتوجّهون إلى والدتهم، أعتقد... لأنّ لديكِ والدة، هل تتذكّرين ذلك؟ اعذريني لأنّني أذكّركِ بهذه الذكرى السيئة، ولكن لأنّ هذه ثالث رسالة أتركها لكِ منذ الثلاثاء... أريد فقط أن أعرف إن كنّا لا نزال نعيش معـ...».

قطعت كاميل التسجيل وأعادت زجاجة اللبن إلى الثلاجة. تربّعت وأخذت تبغها وبذلت جهداً لكي تلفّ لنفسها سيجارة. خانتها يداها. حاولت مراراً أن تلفّ ورقة السيجارة من دون أن تمزّقها. ركّزت تفكيرها على حركاتها وكأنْ ليس هناك ما هو أهمّ لديها في الدنيا وعضّت على شفتيها إلى حدّ الإدماء. كان من الإجحاف إزعاجها بهذه الطريقة بسبب ورقة في حين كانت تعيش يوماً شبه طبيعي. تكلّمت واستمعت وضحكت بل وعاشرت الناس. تظارفت أمام ذلك الطبيب ووعدت مامادو. لم يجعلها ذلك تشعر بأيّ شيء ومع ذلك... كان قد مرّ زمنٌ طويل وهي لم تعد بأيّ شيء. أبداً. ولا لأيّ شخص. وها هي بضع جملٍ صادرة عن آلة تنخرُ في رأسها وتجرّها إلى الوراء وترغمها على الاستلقاء، محطّمة وكأنّها تنوء تحت ثقل أنقاض لا تُحتَمَل...

Twitter: @ketab_n

5

- سيّد ليستافييه!

- نعم، يا ريّس!

- لديك مكالمة...

- كلا، يا ريّس!

- ماذا، كلا؟

- أنا مشغول، يا ريّس، اطلب منهم أن يتّصلوا بي لاحقاً...

هزّ الرجل الطيّب رأسه واستدار في مكتبه.

- سيّد ليستافييه!

- نعم، يا ريّس!

- إنّها جدّتك...

ساد هرجٌ ومرج وسط جمع العاملين.

ردّد الصبي الذي كان يجرّد قطعة لحم من العظم:

- أخبرها بأنني سوف أتّصل بها لاحقاً.

- أنت تثير المتاعب، يا ليستافييه! تعال وخذ هذا الهاتف اللعين! لستُ عاملة المقسم!

مسح الرجل الشاب يديه بالخرقة المعلّقة بطاولته ومسح جبينه بكمّه وقال للصبيّ الذي كان يعمل على طاولة العمل المجاورة له، متوعّداً:

- هيه أنت، لا تلمس شيئاً، وإلّا... سوف...

قال الآخر:

Twitter: @ketab_n

- هذا جيّد، اذهب واطلب هدايا الميلاد، الجدّة تنتظر...

- مغفّل، إذهب...

دخل إلى المكتب وأمسك بالسماعة وقال متلهفاً:

- جدّتي؟

- مرحباً يا فرانك... لستُ جدّتك، السيّدة كارمينو هي التي تتحدّث ...

- السيّدة كارمينو؟

- أوه! كم تعذّبت للعثور عليك. اتّصلتُ أوّلاً بالوكالات التجارية وأخبروني بأنّك لم تعد تعمل فيها، فاتّصـ...

قاطعها فجأةً:

- ما الذي حدث؟

- يا إلهي، إنّها بوليت...

- انتظري، لحظة من فضلكِ.

نهض، أغلق الباب، أمسك بالسماعة من جديد، جلس، هزّ رأسه، شَحُب وجهه، بحث على الطاولة عن شيءٍ يكتب به، ثمّ تفوّه ببضع كلمات وأغلق السماعة.

رفع طاقيته وأمسك برأسه بين يديه وأغمض عينيه وبقي على تلك الحال لعدّة دقائق. كان رئيس الطهاة ينظر إليه عبر الباب المزجّج. وأخيراً، دسّ قصاصة الورق في جيبه وخرج.

- هل أنت بخير؟

- بخير، يا رئّس...

- أليس من أمرٍ خطير؟

Twitter: @ketab_n

- عنق الفخذ.

أجاب الآخر:

- آه، هذا شائع عند المسنّين... حدث هذا لأمّي منذ عشرة أعوام، ولو أنّك تراها اليوم، إنّها أرنب بريّة حقيقية.

- قل، يا ريّس...

- وكأنّك ستطلب منّي أجرك اليومي...

- كلا، سأقوم بالعمل في فترة الظهيرة وسأعوّض توقّفي في المساء من فترة استراحتي، ولكنني أودّ أن أغادر بعد...

- ومَنْ سيحلّ محلّك هذا المساء؟

- غيوم، يمكنه القيام بذلك، إنّه...

- وهل سيجيد العمل؟

- نعم، يا ريّس.

- وكيف لي أن أعرف أنّه سيجيد العمل؟

- أنا أخبرك بذلك، يا ريّس.

عبس الآخر، ووبّخ صبياً كان يمرّ من هناك، وأمره أن يغيّر قميصه.

التفت من جديد نحو رئيس قسمه وأضاف:

- هيّا! ولكنّني أحذّرك، يا ليستافييه، إن حصل أيّ خطأ خلال الدوام المسائي، أو كانت هناك أيّ ملاحظة، سوف أحمّلك مسؤولية ذلك، اتّفقنا؟

- اتّفقنا، يا ريّس.

عاد إلى مكانه وأمسك بسكينه من جديد.

Twitter: @ketab_n

- ليستافييه، إذهب واغسل أوّلاً يديك! نحن هنا، لسنا في الريف!

غمغم وهو يغمض عينيه:

- إخرس. اخرسوا جميعاً...

انكبّ على عمله بصمت. بعد لحظة تجرّأ زميله الذي حلّ محلّه على السؤال:

- هل تسير الأمور سيراً حسناً؟

- كلا.

- لقد سمعتُ ما قلته للريّس... إنّه عنق الفخذ، أليس كذلك؟

- نعم.

- هل الإصابة خطيرة؟

- كلا، أعتقد كلا، ولكنّ المشكلة هي أنني وحيد...

- وحيدٌ في ماذا؟

- وحيدٌ في كلّ شيء.

لم يفهم غيوم ولكنّه آثر أن يتركه وشأنه مع همومه.

- إذا كنتَ قد سمعت وأنا أتكلّم مع العجوز، فهذا يعني أنّك فهمت ما عليك القيام به هذا المساء...

- نعم.

- هل يمكنك القيام بالمهمّة؟

- ستسير الأمور...

واصلا العمل بصمت، أحدهما منكبٌّ على أرانبه والآخر على ربع خروف.

Twitter: @ketab_n

- دراجتي...

- ما بها؟

- سأعيرك إيّاها يوم الأحد...

- الجديدة؟

- نعم.

همس الآخر:

- حسناً، إنّه يحبّ جدّته... حسناً. لا بأس.

كشّر فرانك، وقال:

- شكراً.

- وبعد؟

- ماذا؟

- أين جدّتك العجوز؟

- في تور.

- ماذا إذاً؟ ستحتاج إلى دراجتك يوم الأحد، إن كان عليك الذهاب لرؤيتها؟

- سوف أتدبّر أمري بطريقة أخرى...

قاطعهما صوت رئيس القسم:

- الصمت! من فضلكما، الصمت!

شحذ غيوم سكّينه واستغل الضجيج الناجم عن ذلك ليغمغم:

- هذا جيّد، اذهب... سوف تعيرني إيّاها حينما تتعافى...

- شكراً.

Twitter: @ketab_n

- لا تشكرني. سوف أسرق منصبك...

هزّ فرانك ليستافييه رأسه مبتسماً.

لم يتفوّه بكلمة أخرى. وبدا له الدوام أطول مما هو في العادة. شقّ عليه أن يركّز وصرخ حينما أرسل رئيس الطهاة قسائم الطلبات وجهد لئلا يحرق نفسه. كاد أن يخفق في طهو ضلع ثور ولم يكفّ عن شتم نفسه بصوتٍ خفيض. فكّر في الفوضى التي ستعصف بحياته خلال بضعة أسابيع. كان من الصعب سابقاً التفكير فيها والذهاب لرؤيتها حينما كانت في صحّة جيّدة، أمّا الآن، فيا لها من بلبلة، اللعنة... لم يكن ينقصه إلّا هذا... كان قد اشترى دراجة نارية باهظة الثمن بقرضٍ طويل الأجل وكان عليه دفع الأقساط. كيف سيمكنه تسديدها وسط كلّ هذا؟ أخيراً... لم يجرؤ على الاعتراف بذلك، ولكنّه كان أيضاً سعيداً بهذا الحظّ غير المتوقّع... فالمعلّم تيتي سوف يأخذ درّاجته وسيكون بوسعه أن يجرّبها على الطريق السريع...

إذا ما سار كلّ شيء على ما يُرام، سيمكنه الاستمتاع بقيادتها وسيكون هناك في أكثر من ساعة بقليل...

ظلّ وحيداً في المطبخ خلال قطع اللحم مع عمال غسل الأواني. قام بجرد بضاعته وأحصى قطع اللحم وترك مدوّنة طويلة موجّهة إلى غيوم. لم يكن لديه الوقت ليمرّ ببيته، فاستحمّ في حجرات تغيير الثياب وبحث عن شيءٍ ينظّف به واقي وجهه ثمّ غادر المكان مشوّش الذهن.

كان سعيداً وقلقاً في آنٍ واحد.

Twitter: @ketab_n

6

كانت الساعة أقلّ من السادسة بقليل حينما أوقف دراجته في مرأب المستشفى. أخبرته موظّفة الاستقبال بأنّ موعد الزيارات قد انتهى وأنّ بإمكانه العودة في اليوم التالي بدءاً من الساعة العاشرة. ألحّ عليها، فتصلّبت في موقفها.

وضع خوذته وقفازيه على طاولتها، ثمّ حاول أن يقنعها بلا انفعال:

- انتظري، انتظري... لم نفهم على بعضنا جيّداً... لقد وصلتُ من باريس الآن، وعلي أن أعود في الحال، وبالتالي إن استطعتِ...

ظهرت ممرّضة، وقالت:

- ماذا يحدث؟

توجّه نحوها:

- مرحباً... اعذريني على إزعاجكِ، ولكن عليّ أن أقابل جدّتي التي وصلت البارحة إلى هنا في حالة إسعاف، وأنا...

- ما اسمك؟

- ليستافييه.

- آه! نعم!

أعطت إشارة لزميلتها، ثم قالت له:

- اتبعني...

شرحت له الوضع باختصار، وعلّقت على العملية، وذكرت المدّة التي تستغرقها عملية إعادة التأهيل وطلبت منه تفاصيل حول

Twitter: @ketab_n

نمط حياة المريضة. شقّ عليه أن يستجمع أفكاره، وفجأةً تضايق من رائحة المكان ومن هدير محرّك الدرّاجة الذي كان لا يزال يدوّي في أذنه.

فتحت الممرّضة الباب وقالت مبتهجةً:

- ها هو حفيدكِ! أترين؟ لقد أخبرتكِ بأنّه سيأتي! حسناً، سأدعكما بمفردكما، مرّ عليّ في مكتبي وإلّا لن يدعوكَ تخرج...

لم ينتبه لأن يشكرها. فما شاهده، هنا في السرير، مزّق قلبه.

دار من حول نفسه أوّلاً ليستعيد بعضاً من رباطة جأشه. نزع قميصه الرياضي وكنزته وبحث عن مكانٍ يعلّقهما عليه.

- الجوّ حار هنا، أليس كذلك؟

كان صوته غريباً.

- كيف حالكِ؟

السيّدة العجوز، التي حاولت ببسالة أن تبتسم له، أغمضت عينيها وبكت.

كانوا قد نزعوا طقم أسنانها. فبدا خدّاها غائرين وكانت شفتها العليا مرخية داخل فمها.

- إذاً؟ مارستِ الطيش مرّة أخرى، أليس كذلك؟

تطلّبت منه هذه النبرة المداعِبة جهداً خارقاً.

- تحدّثتُ معْ الممرّضة، وقد أخبرتني بأنّ العملية الجراحية قد أُجريت بنجاح. وها أنتِ الآن مع قطعة معدنية جميلة...

Twitter: @ketab_n

- سوف يضعوني في دارٍ للعجزة...

- كلا! ما هذا الكلام؟ سوف تمكثين هنا لبضعة أيام، وستذهبين إلى دارٍ للنقاهة. هذه ليست داراً للعجزة، هذا أشبه بمستشفى ولكنّه أصغر حجماً. سوف يدلّلونكِ ويساعدونكِ على المشي من جديد ومن ثمّ، مباشرةً، إلى حديقة السيّدة بوليت!

- كم يوماً سيستغرق هذا؟

- بضعة أسابيع... وبعد ذلك، سيتوقّف الأمر عليكِ... عليكِ أن تثابري...

- وستأتي لرؤيتي؟

- طبعاً، سوف آتي! لديّ درّاجة جميلة...

- ألا تسير بها بسرعة كبيارة؟

- سل سل سل، سلحفاة حقيقية...

- كاذب...

ابتسمت له وسط دموعها.

- كفّي عن هذا، يا جدّتي، وإلّا سأبكي وأنتحب، أنا أيضاً...

- كلا، ليس أنت. أنت لا تبكي أبداً، أنت... حتى حينما كنت قاصراً، حتى حينما التوى ذراعك، لم أرك قط تذرف دمعةً...

- ومع ذلك كفّي.

لم يجرؤ على الإمساك بيدها بسبب الأنابيب الموصولة بها.

- فرانك؟

Twitter: @ketab_n

- أنا هنا، يا جدّتي...

- أنا أتألّم.

- هذا طبيعي، سيزول هذا، يجب أن تنامي لبعض الوقت.

- أنا أتألّم كثيراً.

- سأخبر الممرّضة بذلك قبل أن أغادر، سوف أطلب منها أن تعطيك مسكّناً...

- ألن تغادر في الحال؟

- كلّا!

- حدّثني قليلاً. حدّثني عن نفسك...

- انتظري، سوف أطفئ النور، هذا الضوء رديءٌ جداً...

رفع فرانك الستارة، وفجأةً، ساد الغرفة ظلٌّ خفيف. ثمّ حرّك الأريكة من مكانها ليكون بجانب اليد الأمينة ويأخذها بين يديه.

شقّ عليه في البداية العثور على كلماته، وهو الذي لم يحسن قط الحديث عن نفسه.. بدأ بالحديث عن أمور ثانوية، كالطقس في باريس والتلوّث ولون دراجته من طراز سوزوكي، وكلّ هذه التفاهات.

ومن ثمّ، وبمساعدة الغروب والوجه شبه الهادئ لجدّته، وجد ذكريات وأسراراً أكثر قيمة. روى لها سبب انفصاله عن صديقته الصغيرة وأخبرها عن اسم الفتاة التي يتهيّأ لاصطيادها، وتقدّمه في فنّ الطبخ وتعبه... قلّد شريكه الجديد في السكن وسمع جدّته تضحك بلطف.

Twitter: @ketab_n

- أنت تبالغ. . .

- أقسم لك أنني لا أبالغ! سوف ترين ذلك حينما تأتين لرؤيتنا وستدركين. . .

- أوه، ولكنني لا أرغب في المجيء إلى باريس، أنا. . .

- إذاً، نحن سنأتي، وستعدّين لنا وجبة شهيّة!

- أتعتقد ذلك؟

- نعم. سوف تحضّرين لنا قالباً من الحلوى بالبطاطس. . .

- أوه، كلا، ليس هذا الطبق. . . إنّه بسيطٌ جداً. . .

ثمّ تحدّث عن جوّ المطعم وتوبيخات رئيس الطهاة، وعن ذاك اليوم الذي جاء فيه وزيرٌ ليهنّئهم في المطبخ، وعن مهارة الشاب تاكومي، وعن سعر الكمأة. تحدّث لها عن أخبار مومو والسيّدة مانديل. وأخيراً صمت لكي يصغي إلى أنفاسها ويُدرِك أنّها قد نامت. فنهض من دون أن يثير ضجيجاً.

في اللحظة التي أوشك فيها على الخروج، نادته:

- فرانك؟

- ماذا؟

- لم أخبر والدتك، أنت تعرف. . .

- حسناً فعلتِ.

- أنا. . .

صمت

- يجب أن تنامي الآن، كلما نمتِ أكثر كلّما تماثلتِ للشفاء أسرع.

Twitter: @ketab_n

- حسناً فعلتُ؟

هزّ رأسه ووضع إصبعه على فمه.

- نعم. هيّا، نامي الآن...

شعر بأن الأضواء قد دوّخته واستغرق وقتاً لا بأس به إلى أن وجد طريقه. صادفته الممرّضة عرضاً.

قدّمت له كرسياً، وفتحت الملفّ الذي يعنيه. بدأت بطرح بعض الأسئلة العملية والإدارية، ولكن الصبي لم يستجب لها.

- كيف حالك؟

- أنا متعب...

- ألم تتناول شيئاً؟

- كلا، أنا...

- انتظر، لدينا هنا ما يلزم...

أخرجت من درج طاولتها علبة سردين وعلبة بسكويت.

- هل هذا يكفي؟

- وأنتِ؟

- لا مشكلة! انظر! لقد تناولت الكثير من الحلوى! أتأخذ القليل من العصير مع هذا؟

- كلا شكراً. سآخذ علبة كوكا من الموزّع...

- هيّا، أنا سأصبّ لنفسي كوباً صغيراً لكي أصحبك، ولكن... هذا سرٌّ بيننا، اتفقنا؟

تناول القليل من الطعام، وأجاب عن كلّ أسئلتها، واستعاد متاعه.

Twitter: @ketab_n

- تقول إنّها تتألّم...

- سيتحسّن حالها غداً. لقد أضفنا مسكّنات ألمٍ إلى حقنها، وستستيقظ في حال أفضل...

- شكراً.

- هذا واجبي.

سار سريعاً، وحرص على ألا يثير ضجيجاً. ليس الآن. لقد تحمّل طويلاً... وكان بوسعه أن يقاوم لبعض الوقت.

7

- قهوة؟

- كلا، كوكا من فضلك.

شربت كاميل الكوكا بجرعاتٍ صغيرة. كانت جالسة في مقهى يقع قبالة المطعم الذي أعطتها أمّها موعداً فيه. أمسكت بيديها الكأس من جانبيها وأغمضت عينيها وهي ترتشف منها ببطء. لطالما أتلفت وجبات الغداء هذه، المتأخرة جداً، أمعاءها. كانت تخرج ملوية على نفسها، مترنحة، وكأنّها قد سُلِخَت حيّةً. وكأنّ أمّها كانت تنكبّ، بتدقيقٍ ساديٍّ مفرط، على إعادة فتح الآلاف من النُدَب الصغيرة، واحدة فواحدة. لمحتها كاميل في المرآة خلف القوارير وهي تجتاز باب مطعم بارادي دي جاد. أشعلت سيجارة، نزلت إلى المغاسل، دفعت حسابها وعبرت الشارع. وضعت يديها في جيبيها وشبكتهما على بطنها.

لمحت شبحها المحنيّ وجاءت تجلس قبالتها وهي تأخذ نفساً طويلاً:

Twitter: @ketab_n

- صباح الخير ماما!

فردّت:

- ألا تقبّليني؟

قالت بصوتٍ أخفض:

- صباح الخير ماما.

- كيف حالك؟

- لماذا تسألينني هذا السؤال؟

تشبّثت كاميل بحرف الطاولة لئلا تنهض مباشرة.

- أسألكِ هذا السؤال لأنّ هذا هو ما يقوله الناس عموماً لبعضهم حينما يلتقون...

- ولكنني لستُ «الناس»، أنا...

- أنتِ ماذا، إذاً؟

- أوه، أرجوكِ، لا تبدأي!

أشاحت كاميل بصرها ونظرت إلى الديكور المقزّز للمطعم، المصمّم من الجصّ ومنقوشات آسيوية. كانت العروق مرصّعة بالبلاستيك والأثاث من الفورمايكا الصفراء.

- المكان جميل...

- كلا، إنّه مقزّز. ولكن لا قدرة لي على دعوتكِ إلى برج آرجان. من جهة أخرى، حتى لو كانت لدي القدرة على ذلك لما دعوتكِ إليه... فالنقود التي تأكلين بقيمتها، ستكون أموالاً مهدورة...

وأكملت باستهزاء ومرارة:

Twitter: @ketab_n

- لاحظي جيداً، يمكنك الذهاب إليه من دوني لأنّك تملكين المال! مصائبُ قومٍ عند قومٍ فوا...

توعّدتها كاميل:

- كفّي عن هذا في الحال، كفّي وإلّا سأنصرف. إن كنتِ بحاجة إلى المال، أخبريني وسأقرضك إياه.

- صحيحٌ أنّ الآنسة تعمل... عملٌ شريف... بل ومغرٍ... مدبّرة منزل... ليس من المعقول أن يكون يقوم بهذا العمل شخص بهذه الفوضوية... سوف لن تكفّي عن إدهاشي، هل تعلمين؟

- كفى، ماما، كفى. لا يمكننا الاستمرار بهذه الطريقة. لا يمكننا، أتفهمين؟ أقصد، أنا لا أستطيع. قولي شيئاً آخر من فضلك، قولي شيئاً آخر.

- كانت لديك مهنة جميلة، وأفسدتِ كلّ شيء...

- مهنة جميلة.... لا تهمّني... ثمّ إنني لستُ نادمة عليها... لم أكن سعيدة فيها...

- ما كنتِ لتبقي فيها مدى الحياة... ثمّ ما معنى كلمة «سعيدة»؟ هذه الكلمة الجديدة الدارجة هذه الأيام، هذه الكلمة...سعيدة! سعيدة! إذا كنتِ تعتقدين بأننا موجودون على هذه الأرض لكي نتلهّى كالأطفال ونقطف شقائق النعمان، تكونين ساذجة جداً، يا ابنتي...

- كلا، كلا، اطمئني، لا أعتقد ذلك. كنتُ في المدرسة المناسبة وأعرف أننا موجودون لنشقى. لقد ردّدتِ على مسامعي ذلك كثيراً...

Twitter: @ketab_n

سألتهما النادلة:

- هل اخترتما طلبكما؟

كانت كاميل لتعانقها.

نثرت أمّها أقراصها على الطاولة وأحصتها بإصبعها.

- ألم تضيقي ذرعاً بكلّ هذه القاذورات؟

- لا تتحدّثي عمّا لا تعرفينه. لو لم أتناولها، لمتُّ منذ أمدٍ طويل...

- ماذا تعرفين عنها؟ ولماذا لا تنزعين أبداً هذه النظارة الفظيعة. لا شمس هنا...

- أنا أفضل حالاً معها. هكذا أرى العالم كما هو...

قرّرت كاميل أن تبتسم لها وأن تربّت على يدها. فإمّا أن تفعل ذلك أو تنقضّ على رقبتها وتخنقها.

انبسطت أسارير أمّها، تأوّهت قليلاً، تذكّرت عزلتها، آلام ظهرها، وحماقات زميلاتها وشقاء المنزل المشترك. أكلت بشهية، وعبست حينما طلبت ابنتها زجاجة ثانية من الجعّة.

- تفرطين في الشراب.

- هذا صحيح! هيّا، اشربي معي! لمرّة واحدة لا تتفوّهي بترّهات...

- لم تأتِ قط لرؤيتي...

- ها أنذا هنا؟ ماذا أفعل هنا؟

- دائماً هذا آخر ما تفعلينه، أليس كذلك؟ مثل والدكِ...

تجمّدت كاميل في مكانها.

Twitter: @ketab_n

فقالت بنبرة انتصار:

- آه! لا تحبّين أن أتحدّث عنه، أليس كذلك؟

- ماما، أرجوكِ... لا تذهبي بهذا الاتجاه...

- سأذهب إلى حيث أشاء. ألم تنهي طبقكِ؟

- كلا.

هزّت أمّها رأسها علامةً على استهجانها.

- انظري إلى نفسك... وكأنّكِ هيكل عظمي... إن كنتِ تعتقدين بأنّكِ تثيرين رغبة الفتيان...

- ماما...

- ما معنى «ماما»؟ من الطبيعي أن أهتمّ بكِ، نحن لا ننجب الأطفال إلى الدنيا لنراهم يذبلون!

- وأنتِ، لماذا جئت بي إلى الدنيا؟

في اللحظة التي نطقت فيها بهذه الجملة، أدركت كاميل أنّها قد تمادت كثيراً وأنّها في طريقها للتأهّل إلى دور الثمانية. رقم بلا مفاجأة، مكرّر لألف مرّة وبتركيزٍ شديد: ابتزازٌ عاطفيّ، دموع التماسيح وتهديدٌ بالانتحار.

بكت أمّها، وعاتبتها على هجرها تماماً كما فعل والدها قبل خمسة عشر عاماً، وذكّرها بأنّ ليس لها قلب وسألها عن سبب بقائها في هذه الدنيا.

- أعطني سبباً واحداً للبقاء هنا، سبباً واحداً فقط؟

لفّت كاميل سيجارة لنفسها.

- هل سمعتِني؟

Twitter: @ketab_n

- نعم.

- إذاً؟

- ...

- شكراً، عزيزتي، شكراً، هذا أبلغ جواب...

تأفّفت ووضعت قسيمتي الوجبتين على الطاولة ثمّ انصرفت.

لم تتأثّر بذلك، فلطالما وجدت في الرحيل المفاجئ شيئاً من التعظيم، كان سقوط ستارة دور الثمانية إن صحّ التعبيار.

عادةً ما تنتظر الفنانة إلى حين نفاد الحلوى، ولكن هذه المرّة كانت في مطعمٍ صيني، ولم تكن الأمّ تحبّ فطائر الليتشيه ولا حلوى النوغا التي يقدّمونها...

نعم، عدم التأثّر.

كان ذلك تمريناً صعباً، ولكنّ كاميل كانت قد صقلت وسائل بقائها منذ زمن... ففعلت ما تفعله عادةً وحاولت أن تركّز لتردّد ذهنياً على نفسها بعض الحقائق. بعض الجمل المبسّطة والمفعمة بالحكمة. عكّازتان صغيرتان معدّلتان للمشي السريع كانتا تسمح لها بالاستمرار في رؤيتها... لأنّ هذه اللقاءات القسرية، هذه النقاشات العبثية والهدّامة لم يكن لها أيّ معنى ما لم تكن متأكّدة من أنّها تلائم والدتها. والحال أنّها كانت، وللأسف، تلائم تماماً كاترين فوك. كان إذلال ابنتها يسلّيها كثيراً. وحتى إذا كانت تختزل لقاءاتهما في حركة إذلالٍ ومهانة، فإنها كانت تجد نفسها راضية عن ذلك. راضية وشبعانة. حاملةً معها حسن نيتها المزعوم وانتصاراتها المثيرة للعواطف إلى المرّة المقبلة.

Twitter: @ketab_n

استغرقت كاميل وقتاً إلى أن أدركت هذا الأمر، ولكنّها لم تدرك ذلك بمفردها. قُدِّمَت لها مساعدة من جانب بعض الأشخاص من محيطها، خاصّة حينما كانت لا تزال صغيرة للحكم عليها، أشخاص أعطوها مفاتيح لفهم سلوك والدتها. نعم ولكن كان ذلك في الماضي، وكلّ الذين ساعدوها لم يعودوا موجودين الآن...

واليوم، كانت تذيق الصغيرة الأمرّين.

بطريقة غريبة.

8

رُفِعت الأطباق الفارغة عن الطاولة، وأصبح المطعم فارغاً من روّاده. لم تتزحزح كاميل من مكانها. كانت تدخّن وتطلب أكواباً من القهوة لئلا تُطرَد من المطعم.

كان في نهاية الصالة رجلٌ أدرد، كان عجوزاً آسيوياً يتكلّم ويضحك بمفرده.

كانت المرأة الشابّة التي تخدمهما تقف خلف البار، تمسح كؤوساً، وتوجّه له، من حينٍ لآخر، بعض التحذيرات بلغتهما. كان العجوز يعبس ويصمت للحظة ثمّ يستأنف مونولوجه الأحمق.

سألت كاميل:

- أستغلقون؟

أجابت وهي تضع قدحاً أمام العجوز:

- كلا، فقط هذا آخر طلب، ولكن يبقى المطعم مفتوحاً. أتريدين فنجاناً آخر من القهوة؟

Twitter: @ketab_n

- كلا، كلا شكراً. هل يمكنني أن أبقى لبعض الوقت؟

- نعم، طالما أنتِ هنا، سيشغله ذلك!

- أتقصدين أنني أنا من أُضحكه هكذا؟

- أنتِ، أو أيّاً كان...

تفرّست كاميل في الرجل العجوز وبادلته ابتسامته.

الغمّ الذي أغرقتها أمّها فيه تلاشى تدريجياً. كانت تصغي إلى ضجيج المياه وصوت القدور المنبعث من المطبخ، وإلى الراديو، وتلك الأغاني الرتيبة غير المفهومة والرنانة التي كانت الفتاة تردّدها متمايلةً. راقبت الرجل العجوز الذي كان يلتقط فتائل طويلة من المعجنات بقطعٍ من الخبز فيسيل المرق على ذقنه؛ وشعرت فجأةً بأنّها في قاعة طعام منزلٍ حقيقي...

عدا فنجانٍ من القهوة وعلبة تبغها، لم يعد أمامها أيّ شيء. وضعتهما على الطاولة المجاورة وبدأت بمسح غطاء الطاولة.

ببطءٍ، ببطءٍ شديد، مرّرت وأعادت تمرير راحة يدها على الورق الرديء، الخشن والمبقّع.

قامت بتلك الحركة مطوّلاً.

هدأت روحها، وتسارعت دقّات قلبها.

كانت خائفة.

كان عليها أن تحاول. عليكِ أن تحاولي. نعم ولكن، مرّ زمنٌ طويل وأنا...

تمتمت:

- اخرسي، اخرسي، أنا هنا. سيسير كلّ شيءٍ على ما

Twitter: @ketab_n

يُرام، يا عظيمتي. انظري، إمّا الآن أو أبداً... هيّا... لا تخافي...

رفعت يدها لبضعة سنتيمترات عن الطاولة وانتظرت إلى أن يتوقّف ارتعاشها. هذا جيّد، أنتِ ترين... التقطت حقيبة ظهرها ونبشت ما بداخلها... كانت موجودة.

أخرجت علبة الحليّ الخشب ووضعتها على الطاولة. فتحتها، وأخذت حجراً صغيراً مستطيل الشكل ومرّرته على خدّها، كان ناعماً وبارداً. ومن ثمّ حلّت قطعة نسيج وأخرجت منها عود حبر، ففاحت منه رائحة صندل قوية. وأخيراً، مدّت سماطاً عليه أعواد الخيزران وريشتان.

كانت الريشة الأضخم مصنوعة من شعر الماعز، وكانت الأخرى أرفع بكثير ومصنوعة من وبر الخنزير.

نهضت وتناولت قارورة ماء ومفكّرتين وانحنت انحناءة خفيفة احتراماً للعجوز المعتوه.

وضعت المفكّرتين على مقعدها بحيث تستطيع أن تمدّ ذراعها من دون أن تلمس الطاولة، وصبّت بضع قطرات من الماء على الحجر الأردوازي وبدأت بهرس الحبر. بلغ صوت معلّمها أذنيها: **دوّري حجركِ ببطء شديد، يا عزيزتي كاميل... أوه! أبطأ! ولوقتٍ أطول! ربّما لمائتي مرّة، لأنّكِ، كما ترين، وأنتِ تفعلين هذا، تمرّنين معصمكِ وتهيّئين روحكِ لأمورٍ عظيمة... لا تفكّري بأيّ شيء، لا تنظري إليّ، أيتها التعسة! ركّزي على معصمكِ، وسيملي عليكِ الخط الأوّل ووحده الخط الأوّل هو المهمّ فهو الذي سيمنح الحياة وينفخ الروح في رسمكِ...**

Twitter: @ketab_n

حينما أصبح الحبر جاهزاً، خالفت تعليماته وبدأت بتمرينات صغيرة على زاوية من غطاء الطاولة لتستحضر ذكريات بعيدة جداً. رسمت أولاً خمس بقع، متدرجة من الأكثر سواداً إلى الأقل سواداً لتستذكر ألوان الحبر، ثمّ جرّبت مختلف الأفكار واكتشفت أنّها كانت قد نسيتها كلّها تقريباً. بقي البعض منها: الوتر المحلول، الشعرة، قطرة المطر، الخيط المجدول ووبر الثور. ثمّ جاء دور العلامات. كان معلّمها قد علّمها أكثر من عشرين علامة، لم تتذكّر منها سوى أربع: الدائرة، الصخرة، الأرزّ والقشعريرة.

كفى، أنتِ جاهزة الآن... أمسكت بالريشة الأرفع بين إبهامها وإصبعها الوسطى ومدّت ذراعها فوق الغطاء وانتظرت لبضع ثوانٍ إضافية.

أغمض العجوز، الذي لم يفقد شيئاً من حيلته، عينيه وشجّعها.

استفاقت كاميل فوك من نومٍ طويل وفي عينها الساخرة عصفور دوريّ، ثمّ عصفوران، ثمّ سرب من العصافير.

لم تكن قد رسمت أيّ شيء منذ عام.

* * *

في طفولتها، كانت تتكلّم قليلاً، أقلّ من الآن. أرغمتها أمّها على متابعة دروسٍ في البيانو وكانت تكره ذلك. ذات مرّة، بينما كان أستاذها متأخراً، أمسكت قلماً كبيراً وأخذت ترسم. رسمت بدقّة، إصبعاً على كلّ مفتاحٍ من مفاتيح البيانو. أثار ذلك

Twitter: @ketab_n

حنق والدتها، أمّا والدها، ولتهدئة الجميع، عاد في الأسبوع التالي ومعه عنوان رسّامٍ يعطي الدروس مرّة واحدة في الأسبوع.

مات والدها بعد ذلك بفترة قصيرة، ولم تعد كاميل تفتح فمها. حتى أثناء دروسها في الرسم مع السيّد دوغتون، الذي كانت تحبّه كثيراً، لم تعد تتكلّم.

لم يغضب العجوز الانكليزي من ذلك واستمرّ في تحديد مواضيع لها، أو تعليمها تقنيات الرسم بصمت. كان يحدّد النموذج وكانت هي تقلّده فيكتفي بإشارة من رأسه ليقول نعم أو لا. كان كلّ شيء بينهما على ما يُرام في ذلك المكان فقط. حتى صمته بدا مناسباً لهما. لم يكن مضطراً للبحث عن كلماته باللغة الفرنسية وكانت هي تركّز على نحوٍ أفضل من زملائها في الدرس.

إلا أنّه ذات يوم، وبينما غادر كلّ التلاميذ الآخرين، خرق اتفاقهما الضمني ووجّه إليها الكلام بينما كانت تتسلّى بأقلام الباستيل.

- أتعرفين، يا كاميل، بمن تذكّرينني؟

هزّت رأسها.

- حسناً، أنتِ تذكّرينني برسامٍ صيني يُدعى شو تا. . . أتريدين أن أروي لكِ حكايته؟

ردّت كاميل بالإيجاب، ولكنّه كان قد أدار ظهره لكي يُطفِئ غلايته.

- لم أسمعكِ يا كاميل، ألا تريدين أن أرويها لكِ؟

كان يحدّق فيها الآن.

Twitter: @ketab_n

- أجيبيني، أيتها الفتاة الصغيرة.

رمته بنظرة شريرة.

- عفواً؟

أجابت أخيراً.

- بلى.

أغمض عينيه علامة على الرضا، قدّم لنفسه قدحاً من الشاي، وجلس بقربها.

- حينما كان طفلاً، كان شو تا سعيداً جداً.

شرب جرعة من الشاي.

- كان أميراً من سلالة مينغ... وكانت أسرته في غاية الثراء والسلطة. كان والده وجدّه من الرسامين والنسّاخين المشهورين وورِث الصغير شو تا مواهبهما. تصوّري أنّه ذات يوم، وهو لم يبلغ بعد الثامنة من عمره، رسم زهرةً، زهرة لوتس بسيطة راقدة على صفحة ماء بركة... كانت رسمته جميلة جداً، جميلةٌ جداً بحيث قرّرت والدته تعليقها في صالون بيتهم. كانت تؤكّد أن بفضله، كان المرء يحسّ بنسمة عليلة في تلك القاعة الفسيحة بل وكان يمكنه أن يشمّ العطر الفواح لتلك الزهرة حين يمرّ أمامها. هل تفهمين؟ حتى العطر! ولا بدّ أنّ أمّه لم تكن مجاملة... فمع زوجٍ وأبٍ فنانين، كانت قد شاهدت الكثير من اللوحات الأخرى...

انحنى من جديد على كوبه.

- هكذا ترعرع تا، وسط اللامبالاة، والسعادة، واليقين بأنّه سيكون، هو الآخر، ذات يوم فناناً عظيماً... ولكن للأسف،

Twitter: @ketab_n

حينما بلغ الثامنة عشرة من عمره، استولى آل ماندشو على السلطة وحلّوا محلّ آل مينغ. كان آل ماندشو قوماً من القساة والطغاة الذين لا يحبّون الرسامين والكتّاب، فمنعوهم من العمل. وكان ذلك أسوأ ما يمكن فرضه عليهم... لم تعد عائلة شو تا تعرف السلام قط، ومات الأب يأساً. بين ليلة وضحاها، تحول ابنه، الذي كان يحبّ اللهو والغناء والفكاهة وإلقاء القصائد الطويلة، إلى شخصٍ لا يمكن تخيّله... أوه! مَن القادم؟ سأل السيّد دوغتون، وقد لمح هرّه الذي وقف على حافة النافذة وانخرط معه، عمداً، في حديثٍ مطوّلٍ أبله.

وأخيراً، غمغمت:

- ماذا فعل؟

أخفى ابتسامته في لحيته المشعثة وتابع وكأنّ شيئاً لم يكن:

- قام بأمرٍ لا يمكن تصديقه. شيءٌ لن تخمّنيه أبداً... قرّر أن يسكت إلى الأبد. إلى الأبد... هل تسمعينني؟ لم يعد يتفوّه بكلمة واحدة! كان ممتعضاً من سلوك الناس من حوله، الناس الذين تنكّروا لتقاليدهم ومعتقداتهم لنيل رضا آل ماندشو، ولم يعد يرغب في التكلّم إليهم. فليذهبوا إلى الشيطان! كلّهم! هؤلاء العبيد! هؤلاء الجبناء! فكتب على باب داره كلمة **صمت** وإذا ما حاول بعض الأشخاص التحدّث إليه رغم ذلك، كان يبسط أمام وجهه مروحة كتب عليها أيضاً كلمة **صمت** ويحرّكها بكلّ اتجاه لكي ينفّرهم...

كانت الفتاة ترهف إليه سمعها.

- المشكلة هي أن لا أحد يستطيع العيش من دون التعبير

Twitter: @ketab_n

عن رأيه. لا أحد... هذا مستحيل... وبالتالي فإنّ شو تا، الذي كان لديه مثل الجميع، مثلي ومثلكِ، الكثير من الأشياء التي كان عليه أن يقولها، وجد فكرة عبقرية. غادر إلى الجبال، بعيداً عن كلّ هؤلاء الناس الذين خانوه، وبدأ يرسم... منذ ذلك الحين، راح يعبّر عن رأيه ويتواصل مع ما تبقّى من العالم بهذه الطريقة: عبر رسوماته... أتريدين أن تريها؟

راح وجلب كتاباً ضخماً أبيض وأسود اللون من مكتبته ووضعه أمامها:

- انظري كم هذا جميل... كم هذا بسيط... فقط فكرة واحدة... فكرة واحدة وكفى... زهرة، سمكة، جرادة، انظري إلى هذا البطّ، وكأنّه غاضب وإلى هذه الجبال، هنا، وسط الضباب... انظري كيف رسم الضباب، وكأنّه لا شيء، سوى الفراغ... وهذه الصيصان؟ إنّها تبدو لطيفة للغاية بحيث نرغب في مداعبتها. انظري إنّ حبره يشبه الزغب... حبره خفيفٌ وعذب...

ابتسمت كاميل.

- أتريدين أن أعلّمك الرسم مثله؟

هزّت رأسها.

- أتريدين أن أعلّمكِ؟

- نعم.

حينما أصبح كلّ شيءٍ جاهزاً، حينما انتهى من تعليمها كيفية مسك الريشة وشرح لها حكاية الخطّ الأول المهمّ جداً، ظلّت للحظة حائرة. لم تفهم جيداً واعتقدت بأنّ عليها أن تنجز كلّ

Twitter: @ketab_n

الرسمة قطعةً واحدة من دون أن ترفع يدها. كان ذلك مستحيلاً.

فكّرت طويلاً في موضوعٍ، نظرت حولها ومدّت ذراعها.

رسمت خطّاً طويلاً متموجاً، حدبةً، حدّاً، حدّاً ثانياً، وأنزلت ريشتها في خطٍّ طويلٍ متعرج وعادت إلى الخطّ المتموّج الأوّل. ولأنّ أستاذها لم يكن ينظر إليها، استغلّت ذلك لكي تغشّ، رفعت الفرشاة لتضيف لطخة سوداء كبيرة وستّ شطبات. فضّلت أن تخالف تعليماته بدل أن ترسم هرّاً بلا شوارب.

كان الهرّ مالكولم، نموذجها، لا يزال نائماً على حرف النافذة، وأنهت كاميل، في اهتمامٍ حقيقي، رسمتها بمستطيلٍ رفيعٍ حول الهرّ.

ثمّ نهضت وذهبت لتداعبه، وحينما عادت، لاحظت أنّ أستاذها يحدّق فيها بطريقة غريبة، شبه شريرة:

- أأنتِ مَنْ رسمتِ هذا؟

إذاً كان قد رأى أنّها قد رفعت ريشتها لعدّة مرات... فكشّرت.

- أأنتِ مَنْ رسمتِ هذا، يا كاميل؟

- نعم...

- تعالي إلى هنا من فضلك.

تقدّمت بخطوات واثقة جدّاً وجلست بجانبه.

كان يبكي:

- رائعٌ ما رسمتِه هنا، أتعلمين، إنّه رائع... إننا نسمع مواء هرّك المرسوم... أوه، يا كاميل...

Twitter: @ketab_n

أخرج من جيبه منديلاً كبيراً، مليئاً ببقع الألوان، وتمخّط بصخب.

- اسمعيني، أيتها الفتاة الصغيرة، لستُ إلّا رجلاً عجوزاً ورسّاماً رديئاً، ولكن اسمعيني جيّداً... أنا أعلم أنّ حياتك ليست سهلة، وأتخيّل بأنّها ليست مسليّة دائماً في البيت، كما علمتُ من والدكِ، ولكن...لا، لا تبكي... تفضّلي، خذي منديلي... ولكن، هناك أمرٌ يجب أن أخبركِ به: الناس الذين يكفّون عن الكلام، يصبحون مجانين. شو تا، على سبيل المثال، لم أخبرك بذلك منذ قليل، جُنّ وغدا بائساً جداً... في غاية البؤس وفي غاية الجنون. ولم يعرف السكينة إلّا عندما غدا عجوزاً. سوف لن تنتظري إلى أن تصبحي عجوزاً، أليس كذلك؟ قولي لي أن كلا. أنتِ موهوبة جداً، أتعلمين؟ أنتِ أكثر موهبةً من جميع تلامذتي على الإطلاق، ولكن هذا ليس سبباً، يا كاميل... هذا ليس سبباً. لم يعد عالم اليوم كما كان عالم شو تا، وعليكِ أن تستعيدي الكلام. أنتِ مرغمة، أتفهمين؟ وإلّا سوف يحبسونكِ مع المجانين ولن يرى أحدٌ قط رسوماتكِ الجميلة...

قطع وصول أمّها حديثهما. نهضت كاميل ونبّهتها بصوتٍ أجشّ ومرتجّ:

- انتظريني... لم أنتهي من ترتيب أغراضي بعد...

ذات يوم، بعد فترة قصيرة، تلقّت طرداً غير محزومٍ جيّداً، مع كلمة قصيرة:

صباح الخير،

اسمي ايلين ولسون، على الأرجح لا يعني اسمي شيئاً

Twitter: @ketab_n

بالنسبة لكِ، ولكنني كنتُ صديقة سيسيل دوغتون الذي كان أستاذك في الرسم سابقاً. يحزنني أن أخبركِ بأنّ سيسيل قد رحل عنّا منذ شهرين. أعلم أنّكِ تودّين أن أخبركِ (اعذريني على لغتي الفرنسية الضعيفة) بأننا قد دفناه في منطقة دارتمور التي كان يحبّها كثيراً في مقبرة لها إطلالة جميلة جداً. لقد وضعت ريشه وألوانه معه في القبر.

قبل موته، طلب منّي أن أعطيكِ هذا الطرد. أعتقدُ أنّه سيكون سعيداً لو أنّكِ استخدمتِه وأنتِ تفكّرين به.

ايلين و.

لم تستطع كاميل أن تتمالك دموعها وهي تكتشف لوازم الرسم الصيني من أستاذها العجوز، اللوازم نفسها التي كانت تستخدمها آنذاك...

* * *

جاءت النادلة، حائرةً، وأخذت الفنجان الفارغ من أمامها وألقت نظرةً على غطاء الطاولة. كانت كاميل قد رسمت عليه عدّة نباتات من الخيزران. كانت أعوادها وأوراقها أصعب ما رسمته. **إنّ ورقة واحدة، ورقة صغيرة، ورقة بسيطة تتمايل في الرياح، تتطلّب من هؤلاء الأساتذة سنوات من العمل، أحياناً حياةً بأكملها... العبي مع المتضادات. ليس لديك سوى لونٍ واحدٍ ومع ذلك يمكنك أن توحي بشيءٍ ما... ركّزي أفضل. إن أردتِ أن أنقش خاتمكِ ذات يوم، عليكِ أن ترسمي أوراقاً أخفّ من هذه بكثير...**

Twitter: @ketab_n

إنّ الدعامة، السيئة المواصفات، تنتفخ وتشرب الحبر على نحوٍ أسرع بكثير.

سألت الشابّة:

- أتسمحين؟

مدّت نحوها حزمة من الأغطية البيض. تراجعت كاميل ووضعت شغلها على الأرض. أنّ العجوز، فوبّخته النادلة.

- ماذا يقول؟

- إنّه يحتجّ لأنّه لا يستطيع رؤية ما ترسمين...

أضافت:

- إنّه شقيق جدّي... وهو مشلول...

- أخبريه بأنّ اللوحة المقبلة ستكون له...

عادت الفتاة نحو البار وتفوّهت ببضع كلمات وجّهتها له. هدأ ونظر إلى كاميل نظرة قاسية.

تفرّسته مطوّلاً ثم بدأت ترسم، على كامل وجه الغطاء. رسمت رجلاً نحيلاً فرحاً يشبهه ويجري وسط حقلٍ للأرزّ. لم تكن قد ذهبت قط إلى آسيا، ولكنّها ارتجلت خلفية للصورة من جبلٍ يغطّي قمته ضباب وأشجار صنوبرٍ وصخور بل والكوخ الصغير للرسام شو تا على سفح الجبل. رسمته بقبّعته من طراز **نايكه** وسترته، ولكنّها تركت ساقيه عاريتين مرتدياً فقط تنورة تقليدية. أضافت بضع قطرات من الماء متناثرة من قدميه وعصبة من الصبية السائرين فيْ إثره.

تراجعت قليلاً لتحكم على عملها.

Twitter: @ketab_n

كانت تفاصيل عديدة تغيظها بالطبع، ولكن في النهاية، بدت سعيدة، سعيدة فعلاً، فوضعت طبقاً تحت الغطاء كمسندٍ وفتحت عبوة القرمز وغطّت ريشتها فيها. نهضت، وأفرغت طاولة العجوز ثمّ عادت وحملت لوحتها وأفردتها أمامه.

لم يبدِ ردّ فعلٍ.

عفواً، قالت في نفسها، لا بدّ أنّني قد أخطأتُ في شيءٍ ما...

حينما عادت حفيدة شقيقه من المطبخ، أطلق أنيناً طويلاً أليماً.

قالت كاميل:

- أنا متأسفة، اعتقدتُ أنّ...

قامت بحركة لتقاطعه وراحت لتجلب نظّارة كبيرة من خلف طاولة الشرب ودسّتها تحت القبّعة. انحنى بطريقة احتفالية وبدأ يضحك. ضحكة طفولية، شفّافة ومرحة. ثمّ بكى وعاد يضحك ثانية مترنحاً وشابكاً ذراعية على صدره.

- يريد أن يشرب معكِ الساكي الياباني.

- رائع...

جلبتْ قارورة، فصرخَ، تنهّدتْ وذهبت من جديد إلى المطبخ.

عادت بزجاجةٍ أخرى، متبوعة ببقية العائلة. سيّدة بالغة، رجلان في الأربعينات من عمريهما وفتى مراهق. سادت ضحكات وصرخات ومجاملات من كلّ نوع. ربّت الرجلان على كتفه وضرب الصبي كفّاً بكفّ على طريقة الرياضيين.

Twitter: @ketab_n

ثمّ عاد كلّ إلى مكانه ووضعت الفتاة زجاجتين صغيرتين أمامهما. حيّاها العجوز ثمّ أفرغ كأسه قبل أن يملأه ثانية.

- أحذّركِ، سوف يروي لكِ قصّة حياته.

قالت كاميل:

- لا مشكلة... أوووه... هذا قويّ، أليس كذلك؟

ابتعدت الفتاة ضاحكة.

باتا بمفردهما الآن. الجدّ يهذر وكاميل تُصغي إليه بانتباه وتأخذ جرعة صغيرة جدّاً كلّما قدّم لها القارورة.

شقّ عليها أن تنهض وتلمّ أغراضها. بينما كانت تقف بالقرب من باب الخروج، بعد أن انحنت مراراً عديدة أمام الرجل لتستأذنه بالانصراف، أقبلت الفتاة نحوها لتساعدها في سحب مقبض الباب الذي كانت تلحّ على دفعه وهي تضحك ببلاهة.

- أنتِ هنا في بيتكِ، اتّفقنا؟ يمكنكِ أن تأتي وتأكلي حينما تشائين. إن لم تأتِ، سيغضب... ويحزن أيضاً...

حينما وصلت إلى عملها كانت منهارة تماماً.

سألتها سامية محتدّة:

- يا أنتِ، هل قابلتِ رجلاً؟

اعترفت كاميل، مرتبكة:

- نعم.

- أهذا صحيح؟

- نعم.

Twitter: @ketab_n

- كلا، هذا ليس صحيحاً... وكيف هو؟ أهو ظريف؟

- ظريفٌ للغاية.

- وكم عمره؟

- اثنان وتسعون عاماً.

- كفّي عن ترّهاتكِ، يا غبية، كم عمره؟

- حسناً، يا بنات، كما تشاؤون، اتّفقنا!

أشارت جوزي إلى ساعتها.

ابتعدت كاميل مقهقهةً، متثاقلة الخطى.

9

مرّت أكثر من ثلاثة أسابيع. كان فرانك، الذي يعمل يوم الأحد لساعات إضافية في مطعمٍ، يأتي كلّ يوم اثنين لعيادة جدّته.

كانت موجودة في دارٍ للنقاهة تقع على بعد بضعة كيلومترات إلى شمال المدينة، وتترقّب وصوله منذ مطلع النهار.

أمّا هو، فقد كان مضطراً لضبط ساعته المنبّهة. كان ينزل كشبحٍ إلى مقهى الزاوية ويشرب فنجانين أو ثلاثة من القهوة باستمرار ويركب دراجته ويأتي ليجلس بجانبها على أريكة مهترئة من الجلد الاصطناعي الأسود.

حينما جلبوا لها وجبتها، وضعت العجوز سبابتها على فمها وأشارت، بحركةٍ من رأسها، إلى الصبي الضخم المتكوّر على نفسه الذي كان في غرفتها. أحاطته بنظرتها وحرصت على أن تبقى بلوزته على صدره.

Twitter: @ketab_n

كانت سعيدة. كان موجوداً. موجوداً تماماً. كان لها فحسب...

لم تجرؤ على استدعاء الممرّضة لترفع لها سريرها، أمسكت بشوكتها بهدوء وتناولت طعامها في صمت. أخفت أشياء في درج طاولتها، قطعاً من الخبز، وحصّتها من الجبن وبعض الفاكهة لتعطيها له عندما يستيقظ. ومن ثمّ، دفعت الطاولة الصغيرة وشبكت يديها على بطنها وابتسمت.

أغمضت عينيها ونعست مهدهدةً بأنفاس حفيدها وفيض ذكريات ماضيها. كانت قد فقدته مرّات كثيرة في ما مضى... مرّات كثيرة... بدا لها أنّها أمضت حياتها بحثاً عنه... في عمق الحديقة، بين الأشجار، عند الجيران، مختبئاً في إسطبلاتهم أو جالساً أمام تلفازهم، ثمّ في المقهى بالطبع، والآن على مزقٍ من الورق كان قد خربش عليها أرقام هاتفٍ لم تكن قط صحيحة...

ومع ذلك فعلت كلّ ما استطاعت إليه سبيلاً... أطعمته، قبّلته، دلّلته، طمأنته، عنّفته، عاقبته وواسته، ولكن كلّ ذلك لم يجدِ في شيء... ما إن تعلّم هذا الصبي المشي، حتى لاذ بالفرار وعندما نبتت ثلاث شعرات في ذقنه، انتهى الأمر. رحل.

كانت تعبس أحياناً وسط هواجسها، وترتجف شفتاها. الكثير من الأحزان، الكثير من الإخفاقات والكثير من الحسرات... كانت هناك لحظات عصيبة جداً، عصيبة للغاية... أوه، ولكن كلا، لم يعد عليها التفكير في ذلك، فقد استيقظ، أشعث الشعر، رسمت خطوط الأريكة آثارها على وجهه.

- كم الساعة؟

Twitter: @ketab_n

- إنها تقارب الخامسة...

- أوه، اللعنة، هل مضى كلّ هذا الوقت؟

- فرانك، لماذا تقول دائماً اللعنة؟

- أوه، تباً، هل مضى كلّ هذا الوقت؟

- أأنت جائع؟

- لا بأس، ولكنني ظمآن... سوف أقوم بجولة...

وانتهى الأمر، فكّرت العجوز، انتهى الأمر...

- وستنصرف؟

- كلا، لن أنصرف، اللعـ... تبّاً!

- إن صادفت رجلاً أصهب ويرتدي بلوزة بيضاء، يمكنك أن تسأله متى سأخرج من هنا؟

قال وهو يعبر الباب:

- نعم، نعم.

- رجلٌ طويل القامة ويضع نظّارة...

كان قد أصبح في الممرّ.

- إذاً؟

- لم أشاهده...

- ماذا؟

خاطب جدّته بلطف:

- هيّا يا جدّتي... ألن تنتحبي؟

- كلا، ولكنني...أفكّر في هرّي، في طيوري... ثمّ إنّ المطر يهطل منذ أسبوع وأنا قلقة على أدواتي... لأنني لم أرتّبها، سوف تصدأ، هذا مؤكّد...

Twitter: @ketab_n

- سوف أمرّ على البيت عند مغادرتي وسوف أؤمّن عليها...

- فرانك؟

- ماذا؟

- خذني معكَ...

- أوه... لا تفتحي لي هذه السيرة في كلّ مرّة... لم أعد أحتملها...

استدركت وقالت:

- الأدوات...

- ما بها؟

- يجب تزييتها...

نظر إليها نافخاً:

- إذا كان لديّ الوقت، مفهوم؟ حسناً، هذا ليس كلّ شيء، ولكن نحن لدينا درسنا في الجمباز... أين صاحبك المتسكع؟

- لا أدري.

- جدّتي...

- خلف الباب.

- هيّا، انتصبي أيتها العجوز، سوف أعرض عليكِ طيوراً!

- أوففف، لا طيور هنا، ليس هناك سوى عقبان وجوارح...

ابتسم فرانك، كان يحبّ كثيراً سوء نيّة جدّته.

Twitter: @ketab_n

- هل أنتِ بخير؟

- كلا.

- مما تشكين؟

- أنا أتألّم.

- أين يؤلمك؟

- كلّ جسمي.

- كلّ مكان، لا يمكن ذلك، هذا غير صحيح. أخبريني عن مكانٍ محدّد.

- لديّ صداع.

- هذا طبيعي. كلّنا يحدث لنا ذلك... هيّا أخبريني عن رفيقاتك...

- كلا، استدر. لا أريد رؤية هؤلاء، لا أطيقهنّ.

- ذاك الرجل، العجوز الذي يرتدي قميصاً، لا بأس به، أليس كذلك؟

- هذا ليس قميصاً، أيّها الأحمق، إنّها منامته، وهو فضلاً عن ذلك لا يسمع. ومغرورٌ أيضاً...

وضعت قدماً أمام الأخرى وأخذت تغتاب رفيقاتها، وأصبح كلّ شيءٍ على ما يُرام.

- هيّا، سأنصرف...

- الآن؟

- نعم، الآن. إن أردتِ أن أهتمّ بمعزقكِ... سأستيقظ باكراً غداً وليس لدي مَنْ يجلب لي فطوري إلى السرير...

Twitter: @ketab_n

- وهل ستتّصل بي؟

هزّ رأسه.

- تقول هذا ثمّ لا تفعل أبداً...

- لا وقت لديّ.

- قل لي صباح الخير فقط وأغلق السماعة.

- حسناً. في الواقع، لا أدري إن كنتُ سأستطيع المجيء في الأسبوع القادم... إن رئيس الطهاة الثمل يريدنا أن نذهب معه...

- إلى أين إذاً؟

- إلى ملهى الطاحونة الحمراء.

- أهذا صحيح؟

- كلا، هذا ليس صحيحاً! نذهب إلى ليموزان لزيارة الصبي الذي يبيعنا حيواناته...

- يا لها من فكرة غريبة...

- إنّه رئيس قسمنا، يقول... إنّ هذا أمرٌ مهمّ...

- سوف لن تأتي إذاً؟

- لا أدري.

- فرانك؟

- نعم...

- الطبيب...

- أدري، الأصهب، سأحاول أن أجده... وأنتِ، مارسي جيّداً تمارينكِ، اتّفقنا؟ لأنّ المدلّك الطبي ليس راضياً تماماً كما فهمت...

Twitter: @ketab_n

وإذ رأى وجه جدّته المندهش، أضاف، مداعباً:

- ها أنتِ ترين أنني أتّصل أحياناً...

رتّب العدّة، وتناول آخر حبّات الفريز المتبقية في الحديقة ثمّ جلس لبرهةٍ فيها. جاء الهرّ يتمسّح بساقيه مغرغراً.

- لا تقلق، أيّها الأب الضخم، لا تقلق. سوف تعود...

أخرجه رنين هاتفه النقّال من غفلته. كانت فتاةٌ على الخطّ. تحدّث معها بشبق، فقهقهت.

اقترحت عليه الذهاب إلى السينما.

سار بسرعة تفوق 170 كيلومتراً في الساعة طيلة المسافة بحثاً عن حيلة لكي يخدعها فلا يضطرّ لحضور الفيلم. لم يكن يحبّ السينما كثيراً. كان ينام دائماً قبل نهاية الفيلم.

10

نحو أواسط نوفمبر، حينما بدأ البرد يشتدّ، قرّرت كاميل أخيراً أن تذهب إلى متجرٍ لشراء لوازم لتحسين ظروف بقائها على قيد الحياة. أمضت فيه يوم السبت بأكمله، تجوّلت في كلّ أقسامه، لمست الألواح الخشب، أُعجِبَت بالأدوات، بالمسامير، باللوالب، بمقابض الأبواب، بقضبان الستائر، بعبوات الدهانات، وحجرات الحمام والخلاطات الملبّسة بالكروم. ثمّ ذهبت إلى قسم البستنة وقامت بجرد كلّ البضائع: القفازات، الجزمات المصنوعة من الكاوتشوك، معاول الحديقة، شواية الدجاج، قواديس البذار، وجريبات البذور من كلّ نوع. أمضت الكثير من الوقت في مراقبة البضاعة التي يعاينها الزبائن. السيّدة

Twitter: @ketab_n

الحبلى وسط الورق المرسوم بالبّاستيل، والزوجان الشابّان اللذان يتجادلان بشأن مصباحٍ جداريٍّ قبيح، أو الرجل النشيط المتقاعد قبل أوانه بحذائه من طراز TBS مع مفكّرته الحلزونية في يدٍ ومازورته في الأخرى.

كانت الحياة قد علّمتها أن ترتاب في ما تعتبره يقيناً وفي المشاريع المستقبلية، ولكن كاميل كانت واثقة من أمرٍ واحد: ذات يوم، بعد زمنٍ طويل، حينما تصبح مسنّة، أكبر سنّاً مما هي عليه الآن، بشعرٍ أبيض، وآلاف التجاعيد والبقع السمر على يديها سيكون لها بيت يخصّها. بيت حقيقي فيه حوض نحاس لإعداد مربيات وفطائر في علبة معدن بيضاء مخبّأة في قاع خزانة. وطاولة مزرعة طويلة وسميكة وستائر من الكريتون. ابتسمت. لم تكن لديها أيّة فكرة عن ماهية الكريتون، ولا إن كان سيعجبها ولكنّها كانت تحبّ هذه الكلمات: ستائر من الكريتون... وقد تكون لديها غرفة ضيوف، مَنْ يدري؟ وربّما أصدقاء؟ حديقة أنيقة، دجاج سيعطيها بيضاً لذيذاً، قططٌ لكي تجري خلف الفئران وكلابٌ لكي تجري خلف القطط. مربّع صغير لنبتات عطرية، مدفأة، أرائك محفورة وكتب من حولها في كلّ اتجاه. أغطية بيض، فوط دائرية مطرّزة، جهاز موسيقى لتصغي إلى نفس الأوبرا التي كان يسمعها والدها وموقد فحم ستطهو عليه البيض بالجزر كلّ صباح...

بيضٌ بالجزر لذيذ... أيّ شيءٍ كان...

بيتٌ صغير كتلك البيوت التي يرسمها الأطفال ببابٍ ونافذتين من كلّ جانب. بيتٌ بالٍ، رزين، صموت، تغزوه عريشة

Twitter: @ketab_n

عنبٍ ونباتات الورود المتسلقة. بيتٌ على درجه نتوءات صخرية تلتصق بها تلك الحيوانات الصغيرة السود والحمر اللون. درجٌ دافئ يختزن كلّ حرارة تجلس عليه مساءً لتنتظر عودة المالك الحزين...

ومن ثمّ ركنٌ زجاجيٌّ تستخدمه مشغلاً لها... أخيراً، لم يكن ذلك مؤكّداً... حتى تلك اللحظة، كانت يداها تخونانها، وربّما كان من الأولى بها ألا تعتمد عليهما بعد الآن...

هل يمكن ألا تأتي الطمأنينة من هنا أخيراً؟

فجأةً، تساءلت قلقة: من أين إذاً؟ من أين، من أين؟

تمالكت نفسها ونادت على بائعٍ قبل أن ترتبك وتحتار في ما تقول. كان الكوخ الخشب الصغير جميلاً، ولكنّها إلى ذلك الحين كانت لا تزال تعاني البرد القارص في أعماق ممرٍّ رطبٍ، وربّما يستطيع ذاك الشاب الذي يرتدي قميصاً رياضياً أصفر فاتحاً أن يساعدها. سألها:

- أتقولين إنّ الهواء ينفذ عبره؟

- نعم.

- أهو مكيّف سقفي من ماركة فيلوكس؟

- كلّا إنّه يركّب في كوّة جدارية.

- ألا تزال هكذا آلات موجودة؟

- للأسف...

- هاك، هذا ما يلزمكِ...

مدّ نحوها بكرة من اللباد اللاصق «لسدّ منافذ البرد في

Twitter: @ketab_n

النوافذ» المصنوع من البوليكلوريد الفينيل، المتين والكتيم والقابل للغسل. هناءٌ حقيقي.

- هل لديكم شبك للنوافذ؟

- كلا.

- مطرقة؟ مسامير؟

- كلا.

كانت تتبعه كجروٍ صغيرٍ في كلّ المتجر بينما كان يملأ سلّته.

- ولكي أتدفأ؟

- ماذا لديكِ الآن؟

- مكيّف كهرباء ينفصل ليلاً ويعطي رائحة عفونة!

قام بدوره بجدّية تامة وألقى عليها خطاباً بليغاً. وبنبرة الخبير المتمرّس، أخذ يمدح ويشرح ويقارن بين مزايا أجهزة التكييف التي تعطي الهواء أو الأشعة أو الأشعة فوق الحمراء ومزايا الخزفيات ومكيّفات الزيت وناقلات الحرارة.

أُصيبت بالدوّار.

- ماذا آخذ إذاً؟

- ما ترينه مناسباً...

- ولكنني حائرة...

- خذي مدفأة زيت، فهي ليست غالية جداً وتدفّئ جيّداً. خذيها من ماركة أوليو كالور، فهي لا بأس بها...

- هل لها عجلات؟

تردّد وهو ينظر إلى البطاقة التقنية للجهاز:

Twitter: @ketab_n

- آهه.. .**مثبّت حرارة آلي، حبل تغذية، استطاعة قابلة للتعيير، جهاز ترطيب مدمج، ووو، عجلات!** نعم يا آنستي!

- رائع، هكذا يمكنني وضعها قرب سريري...

- آه... إن استطعتُ السماح لنفسي... أتعلمين أنّ فتى في السرير أمرٌ جيّد، هذا يثير الدفء...

- نعم، ولكن ليس لديه حبل تغذية...

ابتسم قائلاً:

- كلا...

وهي ترافقه إلى كوّته لتأخذ سند الكفالة، شاهدت مدافئ مزيّفة بجمرٍ زائف وحطبٍ زائف ولهبٍ زائف وأثاثٍ زائفة.

- أوه! وهذا؟ ما هذا؟

- مدفأة كهربائية، ولكن لا أنصحكِ بها، هذا نوع من الخدعة...

- بلى، بلى! أرني!

كانت مدفأة من ماركة شيربون الانكليزية. ليس هناك سواهم ليخترعوا شيئاً بهذا القبح والرداءة. بحسب قوة موقد النار (1000 أو 2000 وات)، كانت ألسنة اللهب ترتفع أو تنخفض. كادت كاميل أن تطير فرحاً.

- هذا رائع، وكأنّها مدفأة حقيقية.

- هل رأيتِ سعرها؟

- كلا.

- 532 يورو، هذا شيءٌ تافه... آلة هشّة... لا...

Twitter: @ketab_n

- مهما يكن من أمر، لا أفهم شيئاً في اليورو...

- ولكن ذلك ليس صعباً، احسبي نحو 3500 فرنك لقاء جهازٍ لن يدفّئك جيداً مثل كالور الذي يقدّر ثمنه بـ 600 فرنك...

- أريده.

كان ذاك الصبي ذكياً وأغمضت عينيها كلياً كزيز الحصاد وهي تمدّ بطاقتها الزرقاء. ضمّنت عملية الشراء خدمة التسليم أيضاً. وحينما أعلنت بأنّها تسكن في الطابق السابع ومن دون مصعد. نظرت إليها المحاسبة نظرة مواربة وأخبرتها بأنّ ذلك يرتّب عليها عشرة يورو إضافية...

أجابت وهي تضغط على ردفيها:

- بلا مشاكل.

كان الصبي محقّاً. كان هذا أمراً بسيطاً.

نعم، كان أمراً بسيطاً، ولكنّ المكان الذي تقيم فيه لا يستحقّ أفضل من هذا. غرفة من خمسة عشر متراً مربّعاً فوق السطوح، منها ستّة أمتار فقط شاغرة، فيها حشية مطروحة على الأرض، وصنبور صغير للماء في ركنٍ منه أشبه بمبولة عامّة تستخدمه مجلى للصحون وحمام. وفيها أيضاً مشجب لتعليق الثياب وصندوقان كرتونيان موضوعان فوق بعضهما يستخدمان كخزانة رفوف. وسخّان كهربائي موضوع على طاولة متنقلة. وثلاجة صغيرة تلعب أيضاً دور طاولة عمل وغرفة طعام وطاولة منخفضة. كرسيان صغيران بلا مساند، مصباح هالوجين، مرآة صغيرة، وصندوق كرتون يستخدَم كخزانة مطبخ. وماذا أيضاً؟

Twitter: @ketab_n

الحقيبة الاسكتلندية التي وضعت فيها ما تبقّى لها من لوازم، و... كلا، هذا كلّ شيء. كان هذا كلّ ما هو موجود في بيتها. كانت المراحيض على الطريقة التركية في نهاية الممرّ إلى اليمين وكان الدوش فوق المراحيض...

لم يكن لديها جيران أو ربّما كان هناك شبحٌ حيث كانت تسمع أحياناً همهمةً خلف الباب رقم 12. وكان على بابها قفلٌ. واسم المستأجرة السابقة مثبّتاً بأحرف بنفسجية جميلة: لويز لودوك.

خادمة صغيرة من القرن الماضي...

كلا، لم تندم كاميل على شراء مدفأتها مع أنّ سعرها كان يساوي نصف راتبها تقريباً....

آه! مهما يكن... باه... بالنسبة لما تفعله براتبها... استغرقت في أحلام اليقظة في الحافلة وهي تتساءَل مَنْ بوسعها أن تدعو لتدشين مدفأتها...

بعد بضعة أيام، تملكتها الشجاعة:

- أنت تعلم، لديّ مدفأة!

- عفواً؟ آه! أوه! هذه أنتِ... صباح الخير يا آنستي. جوّ حزين، أليس كذلك؟

- لقد قلتَها! ولماذا نزعت قلنسوتك إذاً؟

- آه حسناً... كنتُ... كنتُ أحيّيكِ، أليس كذلك؟

- ولكن كلا، هيا اعتمرها! سوف تهلك برداً! كنتُ أبحث عنك. أردتُ أن أدعوك لتناول العشاء في ركن النار ذات مساء...

Twitter: @ketab_n

سأل بصوت مخنوق:

- أنا؟

- نعم! أنت!

- أوه، كلا، ولكنني... أوه، لماذا؟ حقّاً هذا...

- هذا ماذا؟

قالت ذلك فجأة وهي متعبة، في حين كانا على وشك أن يتجمّدا برداً أمام متجرهما المفضّل.

- هذا... أوه...

- أهذا غير ممكن؟

- كلا، هذا... هذا شرفٌ كبير!

- آه... هذا شرفٌ كبير... ولكن كلا، سوف ترى، سيكون الأمر بسيطاً جداً. اتّفقنا إذاً؟

- حسناً، نعم... أنا... يبهجني أن أقاسمكِ مائدتكِ..

- أوه... في الحقيقة هي ليست مائدة، أنت تعرف...

- نعم... نعم.

- هي بالأحرى نزهة... وجبة خفيفة بلا تكلّف...

- ممتاز، أنا أعشق النزهات! يمكنني أن أجلب أيضاً غطائي وسلّتي، إن شئتِ...

- سلّة ماذا؟

- سلّة النزهة.

- تلك التي تحتوي على آنية للمائدة؟

- في الحقيقة، صحونٌ، وملاعق وسكاكين وشوك، وشرشفٌ، وأربع فوط، وفتاحة قوارير...

Twitter: @ketab_n

- أوه نعم، فكرة ممتازة! ليس لدي شيءٌ من كلّ هذا! ولكن متى؟ هذا المساء؟

- حسناً، هذا المساء... أخيراً... أنا...

- أنت ماذا؟

- أعني لم أُخبِر شريكي في الإيجار...

- فهمت. ولكنّه يستطيع المجيء أيضاً، هذه ليست مشكلة.

سأل مندهشاً:

- هو؟ كلا، هو لا. أولاً لا أعلم إن كان... إن كان فتى مناسباً... أنا... أنا لا أتحدّث عن أخلاقه... حتى وإن كنتُ لا أشاركه إياها... كلا، أفكّر بالأحرى في... أوه، كما أنّه ليس هنا هذا المساء. ولا أيّ مساءٍ آخر...

قالت كاميل محتدة:

- لنختصر الكلام، لا تستطيع المجيء لأنّك لم تخبر شريكك غير الموجود في كلّ الأحوال، أهذا صحيح؟

ارتبك وعبث بأزرار معطفه.

- حسناً، أنا لا أرغمك، مفهوم؟ لستَ مضطراً للقبول، أنت تعلم...

- هذا لأنّ...

- هذا لأنّ ماذا؟

- كلا، لا شيء. سوف آتي.

- هذا المساء أو غداً. لأنّني بعد ذلك سأعمل حتى نهاية الأسبوع...

Twitter: @ketab_n

غمغم:

- اتّفقنا، اتّفقنا، غداً... ستكونين موجودة، أليس كذلك؟

هزّت رأسها.

- ولكن فعلاً أمرك غريب! بالطبع سأكون موجودة طالما أنا أدعوك!

ابتسم لها بارتباك.

- إلى اللقاء غداً إذاً؟

- إلى اللقاء غداً يا آنستي.

- نحو الساعة الثامنة؟

- في الثامنة تماماً، سأدوّن ذلك.

انحنى وابتعد.

- هيه، يا أنت!

- عفواً؟

- يجب أن تصعد درج الخدمة. أقيم في الطابق السابع، الباب رقم 16، سوف ترى، إنّه الباب الثالث إلى يسارك...

بحركة من قبعته، أظهر لها بأنّه قد فهم.

11

- ادخل، ادخل، ولكنّك رائع!

قال خجلاً:

- أوه، هذه ليست إلّا قبّعة قش... كانت لشقيق جدّي، من أجل النزهة، فكّرتُ أنّها...

Twitter: @ketab_n

لم تصدّق كاميل عينيها. كانت القبّعة بهية. . . وكان قد مرّر من أسفل ذراعه عصاً في رأسها تُفيحة فضية، ويرتدي بزّة فاتحة مع عقدة عنقٍ حمراء، وقد مدّ نحوها سلّة كبيارة مصنوعة من أغصان الصفصاف.

- أهذه هي سلّتك؟

- نعم، ولكن انتظري، لدي أيضاً شيءٌ ما. . .

ذهب إلى عمق الممرّ وجلب باقة من الورود.

- كم هذا ظريف. . .

- تعلمين، هذه ليست زهوراً طبيعية. . .

- عفواً؟

- كلا، إنّها قادمة من أورغواي، أعتقد. . . كنتُ أفضّل وروداً طبيعية من الحديقة، ولكن في عزّ الشتاء، هذا. . . هذا. . .

- هذا غير ممكن.

- صحيح! هذا غير ممكن!

- هيّا بنا، ادخل، تصرّف وكأنّك في بيتك.

كان طويل القامة جداً بحيث اضطرّ لأن يجلس في الحال. بذل جهداً لكي يعثر على كلماته ولكن لمرّة واحدة، لم تكن المشكلة مشكلة تعثّرٍ في الكلام، وإنّما مشكلة. . . ذهول.

- هذا. . . هذا. . .

- هذا صغير.

- كلا، ولكن كيف أعبّر، هذا أنيق. نعم، هذا أنيقٌ جداً و. . . بهيٌّ جداً، أليس كذلك؟

Twitter: @ketab_n

ردّت كاميل ضاحكةً:

- بهيٌّ جداً.

ظلّ صامتاً للحظة.

- حقّاً؟ تعيشين هنا؟

- أوه، نعم...

- دائماً؟

- دائماً.

- طيلة السنة؟

- طيلة السنة.

- هذه غرفة صغيرة، أليس كذلك؟

- اسمي كاميل فوك.

- طبعاً، سررتُ بكِ. فيليبيار ماركيه دي لا دوربيلير.

قال ذلك وهو ينهض حيث لامس رأسه السقف.

- كلّ هذا؟

- نعم.

- هل لديك لقب؟

- كلّا على حدّ علمي.

- هل رأيتَ مدفأتي؟

- عفواً؟

- هناك... مدفأتي...

قال وهو يجلس ويمدّد ساقيه أمام ألسنة اللهب البلاستيك:

- آه ها هي! مُمتاز. ممتاز... وكأننا في بيت ريفي انكليزي، أليس كذلك؟

Twitter: @ketab_n

كانت كاميل فرحة. لم تخدع نفسها. كان ذاك الصبيّ شخصاً غريباً ولكنّه كائناً ممتازاً...

- إنّها جميلة، أليس كذلك؟

- رائعة! أتعمل جيّداً؟

- لا تشوبها شائبة.

- وماذا عن الحطب؟

- أوه، أنت تعلم، بوجود العاصفة... يكفي الانحناء...

- واأسفاه! لا أعرف ذلك إلّا جيّداً جداً... سوف ترين حطباً محرّجاً عند والديّ... مصيبة حقيقية... ولكن هنا، ما هذا؟ إنّه حطب السنديان، أليس كذلك؟

- أحسنت!

تبادلا الابتسامات.

- كأسٌ من الخمر، ما رأيك؟

- هذا ممتاز.

ذُهِلَت كاميل لمحتوى السلّة. لم ينقصها أيّ شيء. كانت الأطباق من الخزف، والملاعق والأشواك والسكاكين من الفضّة المذهّبة، والأكواب من الكريستال. وكانت فيها أيضاً مملحة ومبهرة ومزيتة وفناجين للقهوة والشاي وفوط كتانية مزركشة وزبدية للخضار وأخرى للحساء وطبق للفاكهة وعلبة لنكّاشات الأسنان وسكرية وآنية للسمك وغلاية. وكان كلّ شيء منقوشاً بشعار عائلة ضيفها.

- لم أر في حياتي شيئاً بهذا الجمال...

Twitter: @ketab_n

- هل فهمتِ لماذا لم أستطع المجيء البارحة.. لو أنّكِ تعرفين كم ساعة أمضيتُ في تنظيفها وتلميعها...

- كان يجب إخباري بذلك!

- هل تعتقدين حقّاً لو أنني تذرّعت قائلاً: «ليس هذا المساء، لأنّ سلّةً تحتاج إلى تنظيف»، أما كنتِ اعتبرتِيني مجنوناً؟

تمالكت نفسها ولم تعلّق بشيء.

مدّا غطاءً على الأرض وفرش السيد فيليبيار الملاعق والأشواك والسكاكين.

جلسا متربّعين، مبتهجين، فرحين، كطفلين يبدآن مأدبتهما الجديدة. اتّبعا آلاف الوسائل وبذلا جهوداً هائلة لئلا يكسرا شيئاً. كانت كاميل، التي لم تكن تجيد الطبخ، قد ذهبت إلى مطعم كوي غوبيتز واختارت طبقاً متنوعاً من التراما والسلمون والسمك المملّح. ملآ بعناية كلّ صفائح الجدّ الصغيرة واستعملا لأوّل مرّة ما يشبه محمصة خبز مبتكرة، مصنوعة من غطاءٍ قديم وورق الألمنيوم، لتسخين المأكولات على السخّان الكهربائي. كانت الفودكا جاهزة وكان يكفي رفع السدادة لصبّها. كان دخولهما وخروجهما يبرّد الغرفة ولكن المدفأة كانت تفرقع وتلعلع بنارها الربانية.

كالعادة، شربت كاميل أكثر مما أكلت.

- ألا يزعجكَ إن دخّنت؟

- أرجوك، تفضّلي.. في المقابل، أودّ أن أمدّد ساقيّ لأنني أشعر وكأنني مخدّر بالكامل...

Twitter: @ketab_n

- تمدّد على سريري...

- طبـ... طبعاً كلا، لن... لن أفعل شيئاً...

كان، في أقلّ انفعال، يفقد كلماته ويرتبك.

- بلى، هيّا! في الواقع، هي أريكة-سرير...

- في هذه الحالة...

- ألا يمكننا أن نرفع الكلفة، يا فيليبيار؟

شحُبَ وجهه.

- أو، كلا، أنا... في ما يخصّني، لا يمكنني ذلك، ولكن أنتِ... أنتِ...

- كفى! خمود النيران هناك عالياً! لم أقل شيئاً! فضلاً عن ذلك، أرى أنّ المخاطبة بصيغة الجمع أمرٌ جيّد، إنّه أمرٌ جد ظريف، جدّ...

- رائع؟

- نعم!

لم يأكل فيليبيار كثيراً هو الآخر، ولكنّه كان بطيئاً جداً وحذراً جداً بحيث توقّعت مدبّرة المنزل الصغيرة أن تبتهج بوجبة باردة. فقد كانت اشترت أيضاً جبناً أبيض لتناوله بعد الوجبة. في الحقيقة، كانت قد بقيت مشلولة أمام واجهة محلٍّ للحلوى حائرةً تماماً وغير قادرة على اختيار نوع الحلوى. أخرجت ركوتها الإيطالية وشربت عصيرها في كوبٍ رقيقٍ جداً كانت واثقة من أنّها تستطيع كسره قضماً.

لم يكونا ثرثارين. لم يعد لهما عادة تقاسم وجباتهما. لم

Twitter: @ketab_n

يعد البروتوكول سارياً تماماً وشقّ على كليهما التخلّص من عزلتهما. .. ولكنّهما كانا من ذوي التربية الحسنة وبذلا جهوداً لكي يحسنا التصرّف مع بعضهما. رفّها عن نفسيهما، ودقّا قدحاً بقدح وتذكّرا الحارة. محاسبات سلسلة المتاجر - كان فيليبيار يحبّ الشقراء، وكانت كاميل تفضّل ذات الشعر الباذنجاني اللون- السوّاح، الألعاب النارية على برج إيفل وبراز الكلاب. وبخلاف كلّ توقّع، اكتشفت في ضيفها أنّه محدّث ممتاز، وهو يطلق باستمرار الحديث ويأخذ من هنا ومن هناك ألف موضوعٍ تافهٍ وساخرٍ. كان مولعاً بتاريخ فرنسا واعترف لها بأنّه يقضي معظم وقته في سجون لويس الحادي عشر، وفي غرفة انتظار فرانسوا الأوّل، وإلى طاولة الفلاحين الفانديين[1] في القرون الوسطى، أو في غرفة البواب مع ماري أنطوانيت، المرأة التي يكنّ لها محبّة حقيقية. كانت تطرح فكرة أو حقبة تاريخية فيسرد لها فيضاً من التفاصيل الشائكة. الألبسة، دسائس البلاط، رفع ضريبة الملح أو سلالة الكابيتيين[2].

كان ذلك مسلياً جداً.

شعرت وكأنّها على موقع آلان ديكو للانترنت.

نقرة وموجز.

- وهل أنت مدرّس أو شيءٌ من هذا القبيل؟

---

(1) الفانديون: رجال الدين والفلاحون الذين قاموا ضد الثورة الفرنسية العام 1793، دفاعاً عن الدين والملكيّة.

(2) نسبة إلى هوغ كابيت مؤسس السلالة الكابتينية التي حكمت فرنسا منذ العام 996 حتى العام 1792.

Twitter: @ketab_n

- كلا، أنا... أعني أنني... أعمل في متحف...

- هل أنت أمين المتحف؟

- يا لها من كلمة كبيرة! كلّا ولكنني مسؤول القسم التجاري...

قالت متعجبة:

- آه... لا بدّ أن هذا أمرٌ ممتع... في أيّ متحفٍ؟

- بحسب الاقتضاء، أتنقّل بين المتاحف... وأنتِ؟

- أوه، أنا... وظيفتي أقلّ أهمية، واحسرتاه، أعمل في مكاتب...

حينما لمح وجهها المرتبك، حرص على ألا يطيل الحديث حول الموضوع.

- لديّ جبنٌ أبيضُ لذيذ مع مربّى المشمش، هل تحبّ هذا؟

- نعم بسرور! وأنتِ؟

- أنا، كلا، شكراً، لقد أفرطتُ في تناول كلّ هذه المأكولات الروسية الخفيفة...

- لستِ بدينة..

وخشية أن يتفوّه بكلمة جارحة، أضاف في الحال:

- ولكنّكِ... ظريفة... إنّ وجهكِ يجعلني أحلم بوجه ديان دو بواتييه..

- أكانت جميلة؟

تورّد وجهه خجلاً.

Twitter: @ketab_n

- أوه! أكثر من جميلة! أنا... أنتِ... ألم تذهبي قط إلى قصر آنيت؟

- كلا.

- كان عليكِ أن تفعلي... إنّه مكانٌ مدهش قدَّمه لها عشيقها، الملك هنري الثاني...

- حقّاً؟

- نعم، إنّه جميلٌ جداً، إنّه أشبه بنشيدٍ للحب يخلّد حبّهما في كلّ مكانٍ منه. في الحجر والرخام والسبائك والخشب وعلى قبرها. ثمّ إنّه مؤثّر أيضاً... إذا ما كنتُ أتذكّر جيداً، لا تزال علب مراهمها وأمشاطها موجودة هناك، في حجرة زينتها. سأصطحبكِ إلى هناك ذات يوم...

- متى؟

- ربّما في الربيع؟

- في نزهة؟

- سنترك الأمر إلى ذلك الحين...

ظلّا صامتين للحظة. حاولت كاميل ألّا يلاحظ خُفّيها المثقوبين، وفعل فيليبيار الأمر نفسه بشأن البقع الشبيهة ببقع الملح، والتي تركتها الرطوبة على طول الجدران. اكتفيا باحتساء الفودكا بجرعات صغيرة.

- كاميل؟

- نعم.

- هل حقّاً، تعيشين هنا كلّ يوم؟

Twitter: @ketab_n

- نعم.

- ولكن أوه... بالنسبة... أوه... للمراحيض...

- على الدرج.

- ماذا؟

- هل تريد الذهاب إليها؟

- كلا، كلا، كنتُ أسأل فقط.

- هل تهتمّ بأمري؟

- كلا، أعني... بلى... هذا... وضعٌ قاسٍ جداً، ماذا...

- هذا لطفٌ منك... ولكن لا بأس. لا بأس، اطمئنّ، ثمّ إنّ لدي الآن مدفأة جميلة!

لم يعد بالحماس الذي كان عليه.

- كم عمركِ؟ طبعاً إن لم يكن هذا سرّاً...

- ستّة وعشرون عاماً. سأبلغ السابعة والعشرين في شهر شباط (فبراير)...

- مثل أختي الصغيرة...

- ألديكَ أختٌ؟

- ليست واحدة، وإنّما ستّ!

- ستّ أخوات؟

- نعم، وأخٌ واحد...

- وتعيش وحيداً في باريس؟

- نعم، أعني مع شريكي في السكن...

Twitter: @ketab_n

- هل تتفاهمان جيداً؟

ولأنّه لم يجب، ألحّت عليه:

- ليس تماماً؟

- بلى، بلى... لا بأس! وفي كلّ الأحوال، لا نلتقي أبداً...

- ماذا؟

- لنقل إنّ هذا ليس بالضبط قصر آنيت!

ضحكت.

- أهو يعمل؟

- هو لا يفعل سوى هذا. يعمل، ينام، يعمل، ينام. وحينما لا ينام يصاحب الفتيات... إنّه شخصية فضولية لا تجيد التعبير عن نفسها إلا صراخاً. يشقّ علي أن أفهم ما يعجبهنّ فيه. لدي فكرتي حول المسألة، ولكن حسناً..

- ماذا يعمل؟

- إنّه طباخ.

- حقاً؟ وهل يعدّ لك أطباقاً شهية؟

- إطلاقاً. لم أره قط في المطبخ. إلّا صباحاً لكي يستخدم ركوتي...

- أهو أحد أصدقائك؟

- كلا! عثرتُ عليه عبر إعلان، إعلان صغير على طاولة محاسبة مخبز مقابل للبيت: **طبّاخٌ شاب في مطعم فير غالان يبحث عن غرفة لقضاء قيلولته خلال فترة استراحته بعد الظهيرة.**

Twitter: @ketab_n

في البداية، لم يكن يأتي إلّا لبضع ساعات في اليوم ومن ثمّ أصبح يكثر من حضوره...

- هل هذا يغيظك؟

- كلا على الإطلاق. بل أنا من اقترحتُ عليه... لأنّ بيتي، سوف ترين، كبير... ثمّ إنّه يجيد كلّ شيء. وهذا يناسبني جداً أنا الذي لا أجيد تبديل مصباحٍ كهربائي ... إنّه يجيد كلّ شيء وأعتقد أنّه وغدٌ لئيم... منذ أن حضر، ذابت فاتورة الكهرباء مثل الثلج تحت الشمس...

- هل شغّل العداد.

- إنّه يشغّل كلّ ما يلمسه، أشعر... لا أعرف مقدار جدارته كطبّاخ، ولكنه كمصلّح، بارع جداً. وبما أنّ كلّ شيء منهار في بيتي... كلا... ثمّ إنني لا أزال أحبّه كثيراً... لم أحظَ قط بفرصة التكلّم معه، ولكن لديّ الانطباع بأنه... لا أدري... أحياناً، أحسّ بأنني أعيش مع شخصٍ يُعدّ طفرة..

- كما هو الحال في آليان؟

- عفواً؟

- كلا. لا شيء.

لأنّ سيغورني ويفر لم تنشئ قط علاقة جنسية مع ملكٍ، آثرت أن تهمل الموضوع...

رتّبا البيت معاً. وإذ شاهد فيليبيار مغسلتها الصغيرة جدّاً، توسّل إليها أن تدعه هو ينظّف الآنية. وبما أنّ متحفه مغلق يوم الاثنين، ليس لديه ما يفعله سوى ذلك في اليوم التالي...

افترقا بطريقة احتفالية.

Twitter: @ketab_n

- في المرّة القادمة، أنتِ ستأتين إلى بيتي...

- بكلّ سرور.

- ولكن ليست لديّ مدفأة، للأسف...

- لا تبالي! لا يحظى الجميع ببيتٍ ريفيٍّ في باريس...

- كاميل؟

- نعم.

- ستحرصين على نفسكِ، أليس كذلك؟

- سأحاول. ولكن أنت أيضاً، يا فيليبيار...

- أنا... أ...

- ماذا؟

- يجب أن أخبركِ... الحقيقة هي أنني لا أعمل حقاً في متحفٍ، أنتِ تعلمين.. وإنّما خارجه... أعني في حوانيت، ماذا أقول... أنا... أبيع بطاقات بريدية...

- وأنا، لا أعمل حقّاً داخل مكتب، أنت تعلم... وإنّما خارجه أيضاً... أقوم بأعمال التنظيف...

تبادلا ابتسامة قدرية وافترقا مرتبكين تماماً.

مرتبكين ومرتاحين.

كان عشاءً روسياً ناجحاً جداً.

12

- ماذا نسمع؟

- لا تقلقي، إنّه دودوش الطويل...

Twitter: @ketab_n

- ولكنّ ماذا يفعل؟ وكأنّه فيضانٌ يجتاح المطبخ...

- لا تبالي، تعالي إلى هنا...

- كلا، دعني.

- هيّا، تعالي... تعالي... لماذا لا تنزعين قميصكِ؟

- أشعر بالبرد.

- قلتُ لكِ تعالي.

- إنّه عجيب، أليس كذلك؟

- متجمّد تماماً... ليتكِ رأيتِيه يغادر قريباً، بعصاه وقبّعة المهرّج خاصته... ظننتُ أنّه ذاهبٌ إلى حفلة تنكرية...

- إلى أين يذهب؟

- لمقابلة فتاة، أعتقد...

- فتاة!

- نعم، أعتقد ذلك، لا أعرف شيئاً عن ذلك... لا يهمّنا ذلك... هيّا، استديري، تبّاً...

- دعني.

- هيه، أوريلي، أنتِ تغيظينني هكذا...

- أوريليا، وليس أوريلي.

- أوريليا، أوريلي، سيّان. حسناً... وجورباكِ، هل ستحتفظين بهما في قدميكِ طيلة الليل أيضاً؟

13

في حين كان ذلك ممنوعاً شكلياً، strictly forbidden،

Twitter: @ketab_n

وضعت كاميل ثيابها فوق حرف مدفأتها، وبقيت في السرير لأطول وقت ممكن، وارتدت ثيابها تحت لحافها ودفأت أزرار سروالها الجينز بين يديها قبل أن ترتديه.

لم يبدُ اللباد اللاصق المصنوع من البولي كلوريد الفينيل فعّالاً واضطرت لأن تبدّل مكان فراشها لئلا تعود تحسّ بالتيار الهوائي اللاسع لجبينها. أصبح سريرها خلف الباب ولم يبق سوى ممرّ ضيّق للدخول والخروج. وظلّت باستمرار تجرّه إلى هنا وهناك لكي تتحرّك في الحجرة. يا له من بؤس، يا له من بؤس، قالت في نفسها... ومن ثمّ، سارت الأمور، اصطكّت أسنانها برداً، تبوّلت في مغسلتها ممسكة بالجدار لئلا تجازف بانتزاعها من مكانها. أمّا بالنسبة لحمّاماتها التركية، فحدّث ولا حرج...

كانت متّسخة إذاً. ربّما لم تكن متّسخة وإنّما أقلّ نظافة من المعتاد. كانت تذهب لمرّة أو مرّتين في الأسبوع إلى بيت آل كيسلر حينما تكون متأكّدة من غيابهم. كانت تعرف مواعيد مدبّرة منزلهم وكانت هذه الأخيرة تمدّ لها منشفة إسفنجية كبيرة وهي تتنهّد. لم يكن أحدٌ مغفّلاً. كانت تغادر دائماً مع طبقٍ صغيرٍ من الطعام أو غطاء إضافي... بيد أنّ ذات يوم، ضبطتها ماتيلد بينما كانت تجفّف شعرها:

- ألا تريدين العودة للعيش هنا في وقتٍ ما؟ ألا تريدين استعادة غرفتك؟

- كلا، أشكرك، أشكركما أنتما الاثنين. أنا بخير...

- أتعملين؟

أغمضت كاميل عينيها.

Twitter: @ketab_n

- نعم، نعم...

- أين تعملين؟ هل أنتِ بحاجة إلى المال؟ أخبرينا، يمكن لبيير أن يقرضكِ سلفة، تعلمين...

- كلا، لم أنجز شيئاً حتى الآن...

- وكلّ اللوحات الموجودة عند أمّكِ؟

- لا أدري... يجب فرزها... لا أرغب في...

- واللوحات التي رسمتِ فيها صوركِ الشخصية؟

- ليست للبيع.

- ماذا تفعلين بالضبط؟

- رُقع...

- هل عبرتِ ساحة فولتير؟

- ليس بعد.

- كاميل؟

- نعم.

- ألا توقفين مجفّف الشعر اللعين هذا؟ لكي نسمع بعضنا قليلاً؟

- أنا مستعجلة.

- ماذا تفعلين بالضبط؟

- عفواً؟

- ما معنى حياتكِ، هنا... ماذا تشبه حياتكِ الآن؟

لكي لا تضطرّ لأن تجيب عن سؤالٍ من هذا النوع، قفزت كاميل على السلالم كلّ أربع درجات دفعة واحدة ودخلت باب أوّل مزيّن.

Twitter: @ketab_n

14

طلبت من الشاب الذي ظهرت صورته في المرآة فوق رأسها:

- احلق لي شعري.

- عفواً؟

- أودّ أن تحلق لي شعر رأسي، من فضلك.

- حلاقة على الصفر؟

- نعم.

- كلا. لا يمكنني فعل ذلك...

- أجل، أجل، يمكنك ذلك. هيّا ابدأ.

- كلا، لسنا في الخدمة العسكرية هنا. أريد أن أقصّر شعرك ولكن ليس على الصفر. هذا ليس نمط محلّنا... أليس كذلك يا كارلو؟

كان كارلو يقرأ مجلّة تيرسيه ماغازين خلف صندوق المحاسبة.

- ما الخطب؟

- تريد السيّدة الصغيرة أن نجزّ لها شعرها...

أشار كارلو بحركة أراد من خلالها أن يقول إنّ ذلك لا يعنيني، لقد فقدتُ للتوّ عشرة يورو في الطابق السابع، وبالتالي لا تغيظوني...

- خمسة ملليمترات...

- عفواً؟

Twitter: @ketab_n

- سوف أقصّه بطول خمسة ملليمترات، وإلّا لن تعودي تجروئين حتى على الخروج من هنا...

- لديّ قبّعتي.

- لديّ مبادئي.

ابتسمت له كاميل، وهزّت رأسها علامة على الموافقة وشعرت بصرير المقصّ على مؤخرة رأسها. تناثرت خصلات من الشعر على الأرض بينما كانت تحدّق في الفتاة المضحكة التي كانت تقابلها في المرآة. لم تتعرّف عليها ولم تعد تتذكّر ماذا كانت تشبه في اللحظة التي خلت. كانت تسخر منها. من الآن فصاعداً، سيكون أقلّ قسوة عليها الذهاب والاستحمام على الدرج وكان هذا هو الأمر الوحيد الذي يهمّها.

سألت صورتها المنعكسة في المرآة بصمت: إذاً؟ أهذه هي الفكرة؟ أن أتدبّر أمري، مع احتمال أن أقبّح نفسي، مع احتمال أن أنسى نفسي، لكي لا أدين قطّ لأحدٍ؟

مرّرت يدها على جمجمتها الخشنة وتملّكتها رغبة جامحة في البكاء.

- أيعجبكِ هذا؟

- كلا.

- لقد حذّرتكِ...

- أعرف.

- سينمو شعركِ من جديد...

- أتعتقد ذلك؟

Twitter: @ketab_n

- أنا متأكّدٌ من ذلك.

- أهذا أيضاً أحد مبادئكَ...

- هل يمكنني أن أطلب منك قلماً؟

- كارلو؟

- امممم...

- هات قلماً للفتاة...

- لا نأخذ شيكاً بمبلغ أقلّ من خمسة عشر يورو...

- كلا، كلا، هذا لغرضٍ آخر...

أمسكت كاميل بدفترها ورسمت ما كانت تراه في المرآة.

فتاة صلعاء ذات نظرة قاسية تمسك بيدها قلم رصاصٍ حاد تحت الأنظار اللاهية لصبيٍّ كان يستند إلى عصا مكنسته. كتبت تاريخ اللوحة ونهضت لكي تدفع.

- أهذا أنا، هنا؟

- نعم.

- عجباً، أنتِ ترسمين بطريقة مذهلة!

- أنا أحاول...

15

لم يكن المسعف هو نفسه من جاء في المرّة الأخيرة، وإلّا لتعرّفت إيفون عليه، وقد ظلّ يحرّك من دون كلل ملعقته الصغيرة في الفنجان:

- أهي ساخنة جداً؟

Twitter: @ketab_n

- عفواً؟

- القهوة؟ أهي ساخنة جداً؟

- كلا، لا بأس، شكراً. حسناً، جيّد، هذا ليس كلّ شيء، ولكن يجب أن أعدّ تقريري، أنا...

ظلّت بوليت خائرة القوى في الطرف الآخر من الطاولة. كان حسابها زهيداً.

16

سألتها مامادو:

- هل كان لديك قملٌ في رأسكِ؟

كانت كاميل تلبس بلوزتها. لم ترغب في الكلام. كان هناك الكثير من الحصى والكثير من البرد وكانت ضعيفة.

- هل استأتِ؟

هزّت رأسها وأخرجت عربة الحاويات وتوجّهت نحو المصاعد.

- ستصعدين إلى الطابق الخامس؟

- نعم، نعم...

- ولماذا دائماً أنتِ تنظّفين الطابق الخامس؟ هذا غير طبيعي! لا ينبغي تركك تفعلين ذلك! هل تريدين أن أتكلّم مع رئيسة القسم؟ أنتِ تعلمين أنني لا أبالي بالصراخ! نعم! لا أبالي!

- كلا، شكراً. الطابق الخامس أو سواه، لا فرق عندي...

الفتيات كنّ يتجنّبن هذا الطابق لأنّه كان طابق رؤساء الأقسام والمكاتب المغلقة. أمّا الطوابق الأخرى ذات المساحات

Twitter: @ketab_n

المفتوحة «أوبنز سبايسز» كما كانت تقول بريدار، فكان العمل فيها أسهل وتنظيفها أسرع. كان يكفي إفراغ حاويات القمامة وصفّ الأرائك على الجدران وتشغيل الشراقات. بل كان يمكن للفتاة العمل بانشراح، وتسمح لنفسها بركل الأثاث لأنّه كان غير مرغوبٍ فيه ويزدريه الجميع.

في الطابق الخامس، كانت كلّ غرفة تتطلّب مراسم مهيبة: تفريغ الحاويات، والمنافض وتفريغ فرّامات الورق، تنظيف المكاتب مع الحرص على عدم لمس أيّ شيء، وعدم تحريك أيّ أوراق من مكانها، وكذلك تنظيف الحجرات الصغيرة المجاورة ومكاتب السكرتيرات. وأولئك الفاجرات اللواتي كنّ يلصقن أوامرهنّ في كلّ مكان وكأنّهنّ يتوجّهن إلى خادمتهنّ الخاصّة... **سوف تفعلين لي هذا وذاك، وفي المرّة الماضية، حرّكتِ هذا المصباح وكسرتِ الشيء الفلاني**... الملاحظات الجوفاء التي كانت تغيظ كارين أو سامية إلى أقصى درجة، في حين لم تكن كاميل تبالي بها أبداً. حينما كانت تجد ملاحظة قاسية جداً، كانت تكتب تحتها بلغة ركيكة عبارة: **أنا ما بيفهم الفرنسية** وتلصقها جيداً في منتصف شاشة الحاسوب.

في الطوابق السفلى، كان ذوو الياقات البيض يرتّبون جزئياً فوضاهم، أمّا هنا، فكان كلّ شيء يُترَك على حاله. لكي يُظهروا أنّهم مرهقون، وأنّهم قد غادروا منهَكين بلا شكّ، ولكنّهم قادرون على العودة في أيّ لحظة لاستعادة مكانتهم، منصبهم ومسؤولياتهم في القيادة العظيمة لهذا العالم. حسناً، لم لا؟ كانت كاميل تقول متنهّدة. لنقبل. لكلٍّ أوهامه... ولكن كان هناك شخصٌ، في نهاية الممرّ، بدأ يثير حفيظتها. سواء كان شخصية

Twitter: @ketab_n

مهمّة كبيرة أم لا، فإنّ ذاك الرجل كان وسِخاً. علاوة على كونه قذراً للغاية، كان مكتبه العفن يثير الازدراء.

لعشر مرّات، ربّما لمائة مرّة، أفرغت الأقداح الطافحة بأعقاب السجائر والتقطت قطع الشطائر اليابسة من دون حتى أن تفكّر في ذلك، ولكن هذه المرّة، كلا. في ذلك المساء، لم تكن رائقة المزاج. فلملمت كل فتات ذاك الشخص، وخرقه البالية المليئة بالشعر، والعلكة الملصوقة على حواف منفضته وأعواد ثقابه ومحارمه الورقية المكبّبة، وكوّمتها على طاولته وتركت له ملاحظة: **أيّها السيّد، أنت إنسانٌ قذر. أرجوك أن تترك هذا المكان أكثر نظافة قدر المستطاع. ملاحظة: أنظر إلى قدميك، هناك بجانبهما هذا الشيء المريح جداً الذي يُدعى حاوية...**

وزخرفت ملاحظتها برسمة خبيثة فيها خنزيرٌ صغير يلبس يلبس رداءً من ثلاث قطع وينحني لكي يرى أيّ غرابة تختفي تحت مكتبه. ثمّ راحت تبحث عن زميلاتها لكي يساعدنها في إنهاء تنظيف البهو.

سألت كارين متعجّبة:

- لماذا تقهقهين هكذا؟

- لا لشيء.

- أنتِ فعلاً غريبة الأطوار...

- ماذا سنفعل بعد الآن؟

- ننظّف أدراج الجناح بـ...

- مرّة أخرى؟ لقد نظّفناها للتوّ!

رفعت كارين كتفيها.

Twitter: @ketab_n

- أنذهب إلى هناك؟

- كلا. علينا أن ننتظر جوزي من أجل التقرير...

- تقرير ماذا؟

- لا أدري. يبدو أنّنا نستعمل الكثير من المواد...

- كان علينا أن نعرف... في المرّة السابقة، لم نأخذ ما يكفي منها... سأخرج إلى الرصيف، أتأتين معي؟

- الجو بارد جداً...

فخرجت كاميل بمفردها واستندت إلى فانوسٍ.

«2/ 12/ 2003... الساعة 0:34 درجة الحرارة: 4 درجات مئوية تحت الصفر...». سار الشريط بأحرف ساطعة على واجهة محلّ لبيع النظارات.

حينها أدركت ما كان عليها أن تردّ به على ماتيلد كيسلر في الحال حينما سألتها هذه الأخيرة، بنبرة في غاية الانزعاج: ماذا تشبه حياتها الآن.

«2/ 12/ 2003 الساعة 0:34 درجة الحرارة: 4 درجات مئوية تحت الصفر...».

هذا هو.

لهذا.

17

- أعرف! أعرفُ ذلك جيداً! ولكن لماذا تهوّلين كلّ شيء هكذا؟ أقصد أنّ هذا أمرٌ بسيط!

Twitter: @ketab_n

- اسمع يا عزيزي فرانك، أوّلاً، حدّثني بنبرة غير هذه النبرة، وثانياً لستَ مؤهّلاً لتعطيني دروساً. منذ ما يقارب اثنتي عشرة سنة وأنا أهتمّ بأمرها وأمرّ لرؤيتها لعدّة مرّات في الأسبوع وأصطحبها إلى المدينة وأعتني بها. أكثر من اثنتي عشرة سنة، أتسمعني؟ وحتى الآن، لا يمكن القول بأنّك كنتَ مهتماً بأمرها... لا كلمة شكر ولا إشارة للعرفان بالجميل ولا شيء على الإطلاق. حتى في المرّة السابقة، حينما رافقتها إلى المستشفى وأتيت كلّ يومٍ لزيارتها في البداية، لم تكلّف نفسك عناء مكالمة هاتفية أو إرسال زهرة إليّ، أليس كذلك؟ حسناً، لقد آن الأوان لأخبرك بأنني أقوم بهذا من أجلها وليس من أجلك. لأنّ جدّتك إنسانة صالحة... صالحة، أتفهم؟ أنا لا ألومك أيّها الصبي الصغير، أنت شاب، وتقيم بعيداً ولك حياتك، ولكنك تعرف، أحياناً، هذا يزعجني، كلّ هذا يزعجني. يزعجني... أنا أيضاً، لديّ أسرتي، اهتماماتي ومشاكلي الصحية الصغيرة، ولذلك أخبرك بكلّ وضوح: عليك أن تقوم بمسؤولياتك الآن...

- أتريدين أن أفسد حياتها وأن أتركها في مأوى فقط لأنّها نسيت قدراً على النار، أهذا ما تريدين؟

- هيّا! أنت تتحدّث عنها وكأنّك تتحدّث عن كلب.

- كلا، ليس الأمر كذلك! وأنتِ تعلمين جيداً عن ماذا أتحدّث! تعلمين جيداً إذا ما وضعتها في مأوى للمحتضرين العجزة، سوف لن تتحمّل الصدمة! سحقاً! لقد شاهدتِ المهزلة التي فعلتها بنا في المرّة الماضية!

Twitter: @ketab_n

- لستَ مضطراً لتكون فظّاً، أتعلم؟

- اعذريني، سيّدة كارمينو، اعذريني... ولكنني أعرف أكثر إلى أين وصلت... أنا... أنا لا أستطيع أن أتصرّف معها بهذه الطريقة، أتفهمين؟ بالنسبة لي، وكأنني أقتلها...

- إذا ما ظلّت وحيدة، هي مَنْ ستقتل نفسها...

- وماذا إذاً؟ ألن يكون ذلك أفضل؟

- هذه طريقتك في رؤية الأمور، ولكنني لا أوافقك في هذا. لو لم يصل ساعي البريد في اللحظة المناسبة في المرّة الماضية، لاحترق البيت بأكمله والمشكلة هي أن الساعي لن يكون موجوداً على الدوام، لا الساعي... ولا أنا أيضاً. ولا أنا أيضاً، يا فرانك... لقد أصبح كلّ هذا العبء ثقيلاً... هذه مسؤوليات تفوق طاقتي... كلّما أصل إلى بيتكم، أتساءَل عمّا سأجده، والأيام التي لا أمرّ فيها عليها، لا أستطيع أن أنام. حينما اتّصل بها ولا تردّ علي، يجعلني ذلك مريضةً وأذهب إليها دائماً لأرى ما قد تكون أقدمت عليه من سوء تصرّف. لقد أفسد الحادث عقلها ولم تعد اليوم نفس المرأة. تتجوّل بثوب النوم طيلة النهار، لم تعد تأكل، لم تعد تتكلّم، لم تعد تقرأ بريدها... البارحة فقط، وجدتها أيضاً مطروحة في الحديقة... كانت متجمّدة تماماً، المسكينة... كلا لم أعد أحتمل، أنا دائماً أتخيّل الأسوأ... لا يمكننا تركها على هذه الحالة... لا يمكننا. عليك أن تفعل شيئاً...

- ...

- فرانك؟ ألو؟ هل أنت معي؟

Twitter: @ketab_n

- نعم...

- يجب الرضوخ للواقع، يا عزيزي...

- كلا. سوف أضعها في ملجأ طالما ليس لديّ من خيار، ولكن لا ينبغي أن تطلبي مني الرضوخ، هذا غير ممكن.

- ملجأ، مأوى محتضرين، سجن.. لماذا لا تقول «دار التقاعد» بكل بساطة؟

- لأنني أعلم جيّداً كيف سينتهي الأمر...

- لا تقل هذا. هناك أماكن ممتازة. والدة زوجي على سبيل المثال، إنّها...

- وأنتِ يا إيفون؟ ألا يمكنكِ التكفّل بذلك؟ سوف أدفع لكِ أجركِ... وأعطيكِ كلّ ما تريدين...

- كلا، هذا لطفٌ منك، ولكن كلا، أنا كبيرة في السنّ. لا أريد القيام بذلك، لديّ أصلاً عزيزي جيلبير لأهتمّ به... ثمّ إنّها تحتاج إلى متابعة طبية...

- اعتقدتُ أنّها كانت صديقتكِ؟

- وهي كذلك.

- إنّها صديقتكِ، ولكن لا يضيركِ رميها في القبر...

- فرانك، اسحب فوراً كلّ ما قلته للتوّ!

- أنتنّ جميعاً هكذا... أنتِ، أمّي، الأخريات، الجميع! تقلن بأنّكنّ تحببن الناس، ولكن ما أن يُطلب منكنّ أن تشمّرن عن سواعدكن، لا يعود هناك أحد...

- أرجوك، لا تضعني في نفس مصاف أمّك! آه، هذا لا أقبله! كم أنت جاحد، يا ولدي... جاحدٌ وشرير!

Twitter: @ketab_n

أغلقت السماعة.

كانت الساعة الثالثة ولكنه عرف بأنّه سوف لن يستطيع أن ينام.

كان منهكاً.

ضرب الطاولة بيده، ضرب الجدار، ضرب كلّ شيءٍ كان في متناول يده.

ارتدى ثيابه ليذهب ويركض ويجلس على أوّل مقعدٍ يصادفه.

صدرت منه في البداية كلمة آخٍ قصيرة، وكأنّ أحدهم قد قرصه. ثمّ ارتخى كلّ جسمه. بدأ يرتجف من قمّة رأسه حتى أخمص قدميه، شعر بأن صدره ينفلق وأطلق زفيراً هائلاً. لم يشأ أن ينهار ولكنّه لم يعد قادراً على السيطرة على نفسه وبكى كطفلٍ مسكين، كشخصٍ يتهيّأ لضرب إنسانٍ أحبّه أبداً، أحبّه أبداً.

تلوّى على نفسه، وقد سحقه الحزن وتلطّخ بالمخاط والدموع.

حينما اقتنع في النهاية بأنّ ليس هناك ما يفعله لإيقاف كلّ هذا، لفّ بلوزته حول رأسه وشبك ذراعيه.

كان متألماً وشعر بالبرد وبالخجل.

ظلّ تحت رشّاش الحمام، مغمض العينين ومرخيّ الوجه إلى أن نفد الماء الساخن. جرح نفسه وهو يحلق ذقنه. لم يشأ أن يفكّر في الأمر. ليس الآن، ليس الآن. فمقاومته كانت ضعيفة، وإذا ما استسلم، ستنهش الآلاف من الصور رأسه. لم يرَ جدّته قط في أيّ مكان عدا هذا البيت. في الحديقة صباحاً، وفي مطبخها لبقية الوقت وجالسة قرب سريرها في المساء...

Twitter: @ketab_n

في طفولته، كان يعاني من الأرق ويرى كوابيس ويصرخ ويناديها ويؤكّد لها بأنّه حينما أغلقت الباب، انزلقت ساقاه إلى حفرةٍ وأنّه اضطرّ لأن يتشبّث بقضبان السرير كي لا يلحق بهما. اقترح عليها جميع المعلّمين استشارة طبيب نفساني، وهزّ الجيران رؤوسهم ونصحوها بأن تأخذه إلى طبيبٍ شعبي لإعادة أعصابه إلى نصابها. أمّا زوجها، فقد أراد أن يمنعه من النمو. كان يقول لها: أنتِ مَنْ دلّلتِه! أنتِ مَنْ أفسدتِ هذا الصبي! تبّاً له! عليك أن تحبّيه أقل! عليكِ أن تتركيه يبكي لبعض الوقت، وأن يتبوّل على نفسه، وسترين أنه ينام...

كانت تقول نعم نعم بلطف للجميع ولم تكن تصغي لأحد. كانت تعدّ له كوباً من الحليب الساخن ممزوجاً بالسكر وماء زهر الليمون، وتسند رأسه بينما يشرب وهو جالس على كرسي. وتجلس بجانبه وهي تتنهّد مشبوكة الذراعين وتغفو معه. وقبله غالباً. لم تكن حالته خطيرة، طالما هي موجودة، كانت الأمور تسير سيراً حسناً.

كان بوسعه أن يمدّد ساقيه...

قال فرانك:

- أعلمك بأنه لم يعد هناك ماء ساخن...

- آه، هذا مزعج... أنا مشوّش الذهن، أنت...

- ولكن كفّ عن الاعتذار، سحقاً! أنا من أفرغت الماء الساخن، اتّفقنا؟ أنا من فعلت ذلك. فلا تعتذر!

- عفواً، اعتقدتُ أنّ...

- أوه، أنت تغيظني؟ إذا أردت أن تتملّق دائماً فهذه مشكلتك في نهاية المطاف...

Twitter: @ketab_n

غادر الغرفة وراح يهندس هندامه. كان عليه من كلّ بد أن يشتري بدلات جديدة، ولكن لم يكن لديه الوقت، لم يكن لديه الوقت أبداً، الوقت لفعل أيّ شيء، اللعنة!

لم يكن لديه في الأسبوع سوى يوم واحد، وسوف لن يذهب لقضائه في دارٍ للعجزة في بيتوشنوك ليشاهد جدّته تنوح!

كان الآخر قد جلس في أريكته مع كلّ شهاداته ونياشينه.

- فيليبيار...

- عفواً؟

- اسمع... أوه... أعتذر الآن... أنا... لديّ الآن مشاغل، وأنا غاضب... كما أنني قد هلكتُ...

- لا أهمية لهذا...

- بلى، هذا مهمّ.

- ما هو مهمّ، هو أنك يجب أن تقول «اعذرني» وليس «أعتذر». لا يمكنك أن تعتذر لوحدك، هذا غير سليم لغوياً...

حدّق فيه فرانك للحظة قبل أن يهزّ رأسه:

- أنت فعلاً شخصٌ غريب...

وقبل أن يعبر الباب، أضاف:

- هيه أنت، انظر في الثلاجة، لقد جلبتُ لك شيئاً. لم أعد أعرف ما هو. لحم بطّ، أعتقد...

رفض فيليبيار بلطف.

وقف في المدخل يرغي ويزبد لأنّه لا يجد مفاتيح درّاجته.

أدّى خدمته من دون أن ينبس ببنت شفة ولم يتذمّر حينما

Twitter: @ketab_n

جاء رئيس القسم وأخذ من يديه قدراً ليثير اهتمامه. وكزّ على أسنانه حينما أعادوا إليه شريحة بطّ لأنها غير مشويّة جيّداً، وحكّ لوح التسخين بقوّة لينظّفه جيداً من كلّ ما علق بمعدنه.

ترك المطبخ وانتظر في ركنٍ أن ينتهي رفيقه كيرماديك من فرز شراشفه وإحصاء أطباقه. حينما رآه هذا الأخير، جالساً في ركن وهو يتصفّح جريدة **موتو جورنال**، سأل ساخراً:

- ماذا يريد الطاهي المحترف؟

قلب ليستافييه رأسه إلى الخلف ووضع سبابته على فمه.

- أنا قادم، ثلاثة أعمال بسيطة أخرى وسأكون عندك...

كانا ينويان القيام بجولة على الحانات، ولكن فرانك كان مغمى عليه ثمالةً عند الخروج من الحانة الثانية. في تلك الليلة، وقع ثانية في حفرة، ولكن ليست حفرة طفولته. إنها حفرة أخرى.

18

- حسناً، إذاً، كان ذلك لأعتذر، ماذا أقول... أقصد، لكي أطلبها منك...

- لتطلب منّي ماذا، يا غلام؟

- اعتذاراتي...

- لقد سامحتك، اذهب... لم تكن تفكّر بكلماتك، أعرف ذلك جيّداً، ولكن مع ذلك يجب أن تنتبه... أنت تعلم، يجب الاعتناء بالناس الصادقين معك... حينما تصبح مسنّاً، سوف ترى أنّك لن تصادف الكثير منهم...

- هل تعلمين، لقد فكّرت بما قلتِه لي البارحة، وحتى إذا

Twitter: @ketab_n

كان من الصعب عليّ قول ذلك، أعرف جيداً أنّكِ محقّة...

- طبعاً أنا محقّة... أعرف المسنّين جيداً، أعاني ذلك كلّ يوم...

- إذاً أوه...

- ماذا؟

- المشكلة هي أنّني لا أملك الوقت للاهتمام بذلك، أعني أن أجد مكاناً وكلّ هذا...

- أتريد أن أتكفّل بذلك؟

- يمكنني أن أدفع لكِ ساعاتكِ، أنتِ تعلمين...

- لا تعاود بذاءاتك، يا صغيري، أودّ كثيراً أن أساعدك ولكن أنتَ، عليك أن تخبرها بذلك. أنت مَنْ عليه أن يشرح لها الوضع...

- هل ستأتين معي؟

- أتمنّى ذلك، إن كان هذا يناسبك، ولكنّها تعرف تماماً ما رأيي بها... منذ أن أوهمتها...

- يجب أن نجد لها شيئاً مناسباً، إذاً؟ مع غرفة جميلة وخاصّة حديقة كبيرة...

- هذا مكلف جداً، أنت تعلم...

- كم يكلّف؟

- أكثر من مليون شهرياً...

- أوه... انتظري، إيفون، عن أيّة عملة تتحدّثين، هنا؟ اليورو هي العملة المعتمدة الآن...

Twitter: @ketab_n

- أوه، اليورو... أنا، أحدّثك كعادتي في الحديث ومن أجل بيتٍ مناسب، يجب رصد أكثر من مليون فرنك فرنسي قديم شهرياً...

- ...

- فرانك؟

- هذا... هذا ما أكسبه...

- عليك الذهاب إلى صندوق الإعانة العائلية لتطلب إعانة سكن، وترى كم يمثّل تقاعد جدّتك، وثمّ ترفع ملّف APA إلى المجلس العام...

- وما هو APA؟

- هذه إعانة للأشخاص المعدمين أو المعوّقين.

- ولكنّها... ليست معوّقة فعلاً، أليس كذلك؟

- كلا، ولكن عليها أن تلعب اللعبة حينما يرسلون إليها خبيراً. لا ينبغي أن تبدو قويّة البأس، وإلّا سوف لن تحصلوا على شيءٍ يُذكَر...

- أوه، اللعنة، ما هذه الفوضى... عفواً.

- أرفض السماع.

- لن يكون لدي قط الوقت لتعبئة كل تلك الأوراق... هلّا مهّدتِ لي الأرضية قليلاً؟

- لا تقلق، سوف أطرح الموضوع على النادي يوم الجمعة القادم، وأنا متأكّدة من تحقيق النجاح!

- أشكركِ، سيّدة كامينو...

Twitter: @ketab_n

- لا شكر على واجب... هذا أقلّ ما يجب فعله، هيا...

- حسناً، حسناً، سأذهب للعمل...

- يبدو أنّك تطبخ الآن كرئيسٍ للطهاة؟

- مَنْ أخبركِ بهذا؟

- السيّدة مانديل...

- آه...

- أوه لا لا، لو تعرف، لا تزال تتحدّث عن ذلك! لقد أعددت لهم أرانب برية على الطريقة الملكية، ذلك المساء...

- لم أعد أتذكّر.

- هي لا تزال تتذكّر، هل يمكنك أن تصدقني! أخبرني، يا فرانك؟

- ماذا؟

- أعلم أنّ هذا ليس شأني، ولكنّ أمّك؟

- ما بها أمّي؟

- لا أدري، ولكنني كنتُ أقول في نفسي ربّما يجب الاتصال بها، هي الأخرى يمكنها أن تساعدك في دفع المبلغ...

- هنا، أنتِ الفظّة، يا إيفون، أنتِ تعرفينها جيداً...

- الناس يتغيّرون أحياناً...

- لكن ليس هي.

- ...

- كلا، ليس هي... حسناً، سأنصرف، أنا متأخر...

- إلى اللقاء، يا صغيري.

- لحظة من فضلكِ؟

- ماذا؟

Twitter: @ketab_n

- حاولي أن تجدي شيئاً أقلّ كلفة بقليل...

- سأرى، سأخبرك...

- شكراً.

كان الجوّ بارداً جداً ذلك اليوم الذي فرِح فيه فرانك باستعادته لدفء المطبخ ووظيفته الشاقّة. كان رئيس الطهاة على مزاجٍ رائق. كان عدد الزبائن كبيراً وكان قد علم توّاً بأنّه سيلقى استحساناً من مجلّة تخصّصية.

- مع هذا الطقس، سنقدّم هذا المساء، يا أطفالي، كبد الإوز! آه، لقد تمّ الانتهاء من إعداد السَلَطات والخضراوات وكلّ هذه الأمور! أريد شيئاً جميلاً ولذيذاً وأريد أن يخرج الزبائن من هنا في غاية الرضا! هيّا! أوقدوا لي النار، يا صغاري!

19

شقّ على كاميل النزول على السلالم. كانت آلام جسدية تكبحها وتعاني من صداعٍ نصفيٍّ فظيع. شعرت وكأنّ أحداً يغرس سكيناً في عينها اليمنى ويقلّب نصلها فيها كلّما أتت بحركة. حينما وصلت إلى البهو، تمسّكت بالجدار لتستعيد توازنها. كانت ترتجف وتلهث. فكّرت في أن تعود وتنام ولكنّ فكرة صعودها سبعة طوابق من جديد بدت لها أكثر مشقّة من الذهاب إلى العمل. على الأقلّ، في المترو، ستستطيع الجلوس...

في اللحظة التي عبرت فيها الرواق، اصطدمت بدبٍّ. كان جارها الذي يرتدي عباءة طويلة مبطّنة بالفرو.

Twitter: @ketab_n

اعتذر قائلاً:

- أو عفواً يا سيّدتي، أنا...

رفع عينيه.

- كاميل، أهذه أنتِ؟

وإذ لم تمتلك القدرة على أيّ محادثة ودّية، مرّت من تحت ذراعه.

- كاميل! كاميل!

دسّت أنفها في وشاحها وأسرعت الخطى. وقد أرغمها هذا الجهد على أن تتكئ إلى حائط لئلا تقع.

- كاميل، هل أنتِ بخير؟ يا إلهي، ولكن... ماذا فعلتِ بشعركِ؟ يا له من منظرٍ فظيع! شعركِ؟ شعرك الجميل جداً...

- يجب عليّ الانصراف، لقد تأخّرت...

- ولكن البرد قارص، يا صديقتي! لا تمشي حاسرة الرأس، أنت تجازفين بحياتكِ... تفضّلي، خذي قبّعتي العسكرية على الأقلّ...

بذلت كاميل جهداً لكي تبتسم.

- أهي لعمّك أيضاً؟

- تبّاً لك، كلا! بل لوالد جدّي، الذي رافق ذاك الجنرال الصغير في حملاته على روسيا...

ألبسها قبّعته وأسدلها حتى حاجبيها.

أرغمت نفسها على أن تمزح قائلة:

- أتعني أنّ هذه القبّعة قد شاركت في معركة أوسترليتز؟

Twitter: @ketab_n

- تماماً! ومعركة بياريزينا أيضاً، واحسرتاه... ولكنّك شاحبة تماماً... هل أنت متأكّدة من أنّكِ على ما يُرام؟

- متعبة بعض الشيء...

- أخبريني، كاميل، ألا تبردين كثيراً هناك في الطابق العلوي؟

- لا أدري... حسناً، أنا... سأذهب... شكراً على القبّعة.

بعد أن تخدّرت بدفء القطار، نامت ولم تستيقظ إلّا في نهاية الخط. جلست بعكس اتجاه سير القطار وأنزلت قبعتها على عينيها لتبكي من شدّة الإنهاك. أوه، هذه القبّعة القديمة، تفوح منها رائحة عفنٍ فظيعة...

حينما نزلت أخيراً في المحطّة المناسبة، كان البرد الذي استبدّ بها قارصاً جداً بحيث اضطرت للجلوس تحت سقف موقفٍ للحافلات. تمدّدت فيه وطلبت من الشاب الذي كان بجانبها أن يوقف لها سيارة أجرة.

صعدت إلى بيتها زحفاً على الركبتين ووقعت من طولها على فراشها. لم تكن قادرة على أن تتجرّد من ثيابها وفكّرت، لبرهةٍ، في الموت حالاً. مَنْ سيعلم بأمرها؟ مَنْ سيهتمّ لذلك؟ مَنْ سيبكيها؟ كانت ترتجف من الحرارة وغطّاها عرقها ككفنٍ جليدي.

20

استيقظ فيليبيار نحو الساعة الثانية فجراً يريد أن يشرب كوباً من الماء. كان بلاط المطبخ بارداً جداً وكانت الريح تصفع

Twitter: @ketab_n

مربّعات النافذة. حدّق للحظة في الجادة المقفرة وهو يدمدم بمقتطفات من أغانٍ طفولية. . . **ها قد أقبل الشتاء، قاتل الناس الفقراء**... كان ميزان الحرارة الداخلي يشير إلى ستّ درجات مئوية تحت الصفر. ولم يستطع الامتناع عن التفكير بتلك المرأة المسكينة في الطابق العلوي. أتكون نائمة؟ وماذا فعلت بشعرها، منكودة الحظّ هذه؟

كان عليه أن يفعل شيئاً. لم يكن بوسعه أن يتركها على تلك الحالة. ولكنّ تربيته وعاداته الحسنة وحشمته كانت تربكه في نقاشات مملّة لا متناهية في داخل نفسه...

هل من المناسب إزعاج فتاة في وقتٍ متأخّرٍ من الليل؟ كيف ستفسّر ذلك؟ وأخيراً هل يمكن ألّا تكون لوحدها؟ وماذا لو كانت عارية؟ أوه، كلا... فضّل ألّا يفكّر في ذلك... وكما في مسلسل **تانتان** الكوميدي، تشاجر الملاك والشيطان على الوسادة المجاورة لوسادته.

وفي النهاية... كانت الشخصيات مختلفة بعض الشيء...

قال ملاكٌ يرتعش برداً: «هيّا، لقد ماتت هذه الفتاة الصغيرة برداً...»، وردّ عليه الآخر، منقبض الجناحين: «أنا أعرف جيداً يا صديقي، ولكن هذا لن يحدث. سوف تحصل على أخبارها غداً صباحاً. نم الآن، أرجوك».

حضر نزاعهما الصغير من دون أن يشارك فيه، استدار عشر مرّات، عشرين مرّة، رجاهما أن يسكتا، وانتهى إلى سرقة وسادتهما لئلا يواصلان الجدال.

في الساعة الثالثة وأربع وخمسين دقيقة، بحث عن نعليه في العتمة.

Twitter: @ketab_n

منحه شعاع الضوء المتسرّب من أسفل بابها الشجاعة.

- آنسة كاميل؟

ثمّ بصوتٍ أقوى بقليل:

- كاميل؟ كاميل؟ أنا فيليبيار...

لا جواب. حاول لآخر مرّة قبل أن يسلك طريقه. كان قد وصل إلى نهاية الممرّ، حينما سمع صوتاً مخنوقاً.

- كاميل، أأنتِ هنا؟ لقد قلقتُ عليكِ و... أنا...

أنّت كاميل:

-... الباب... مفتوح...

كان بيت الدرج بارداً كالصقيع. شقّ عليه الدخول بسبب الفراش واصطدم بكومة من الخِرَق. انحنى ورفع غطاءً، ثمّ غطاءً آخر، ثمّ فراشاً وأخيراً سقط على وجهه. كانت مبلّلة.

وضع يده على جبينها.

- أنتِ في حمّى شديدة! لا يمكنكِ البقاء هكذا... لا هنا... ولا وحيدة... وماذا عن مدفأتكِ؟

- لا قدرة لي على نقلها...

- هل تسمحين لي باصطحابكِ معي؟

- إلى أين؟

- إلى بيتي.

- لا رغبة لي في التحرّك...

- سأحملكِ بين يديّ.

- كأميرة فاتنة؟

Twitter: @ketab_n

ابتسم لها:

- هيا بنا إذاً، أنتِ محمومة إلى درجة أنّكِ تهذين الآن...

سحب الفراش إلى وسط الغرفة، ونزع حذاءها الضخم ورفعها بغاية اللطف.

- واحسرتاه، لستُ قوياً كأميرٍ حقيقي... أوه... هل يمكنكِ أن تلفّي ذراعيكِ حول رقبتي، من فضلك؟

أرخت رأسها على كتفه، فدوّخته الرائحة الحادّة الفائحة من رقبتها.

لم يكن نقلها يسير على ما يرام. كان يصدم حسناءه عند المنعطفات وكاد أن يقع عند كلّ درجة. لحسن الحظ، كان قد فكّر في أخذ مفتاح باب الخدمة ولم يكن عليه أن ينزل سوى ثلاثة طوابق. عبر المكتب، والمطبخ، وأوشك أن يوقعها لعشر مرّات في الممرّ ووضعها في النهاية على سرير عمّته ايدمي.

- اسمعيني، عليّ أن أكشف عنك قليلاً، أتصوّر... أنا... أقصد حضرتكِ... أقصد أنّ هذا مربك جداً، ماذا...

كانت قد أغمضت عينيها.

حسناً.

وجد فيليبيار ماركيه دي لا دوربيليير نفسه في موقفٍ حرجٍ للغاية.

فكّر في مآثر أجداده، ولكنّ اتفاقية عام 1793 والاستيلاء على شوليه وشجاعة كاتلينو وبسالة لا روش جاكلان، بدا كلّ ذلك فجأةً شيئاً بسيطاً...

Twitter: @ketab_n

كان الملاك الغاضب جاثماً الآن على كتفه مع دليل البارونة ستاف تحت ذراعه. نذر نفسه له: «إذاً، يا صديقي، أنتَ راضٍ عن نفسك الآن، أليس كذلك؟ آه، إنّه في أحسن حال، فارسنا المقدام! تهانيّ، حقّاً. . .والآن؟ ماذا سنفعل، الآن؟». كان فيليبيار تائهاً تماماً. غمغمت كاميل:

- . . . ماء. . .

هرع منقذها إلى المطبخ، ولكن مفسد البهجة كان بانتظاره على حافة البالوعة: «ولكن، نعم! تابع. . . وماذا عن التنين إذاً؟ ألن تذهب لمصارعة التنين؟»، فأجابه فيليبيار: «هيه أنت، اخرس!»، وعاد إلى مريضته وقد ارتاح قليلاً. في النهاية لم يكن الأمر معقّداً جداً. كان فرانك هو المحقّ، أحياناً تكون شتيمة مناسبة أجدى من خطابٍ طويل. بعد أن انتعش بهذه الطريقة، جعلها تشرب واستجمع شجاعته: عرّاها.

لم يكن ذلك بسيطاً لأنّها كانت مغلّفة أكثر من بصلة. نزع أوّلاً معطفها، ثمّ سترتها الجينز. ثمّ جاء دور بلوزة، وبلوزة ثانية، بياقة ملفوفة وأخيراً ما يشبه قميصاً بكمّين طويلين. حسناً، قال في نفسه، لا يمكنني أن أتركه لها، ربّما أستطيع عصره وتنشيفه. . . حسناً، لا يهمّ، سوف أرى. . . أقصد حمالة نهديها. . . يا للهول، بحقّ كلّ قديسي السماء! لم تكن ترتدي حمّالة! سريعاً، بسط الشرشف على صدرها. حسناً. . . إلى الأسفل الآن. . . كان أكثر حرية. سحب بكلّ قواه ساقي بنطالها. حمداً لله، لم يسلت سروالها الداخلي الصغير معه. . .

- كاميل؟ هلّ لديك القدرة على أن تستحمّي؟

Twitter: @ketab_n

لا جواب.

هزّ رأسه استهجاناً، ذهب إلى الحمام، ملأ إبريقاً بالماء الساخن وسكب فيه قليلاً من ماء الكولونيا ولبس في يده قفاز حمّام.

الشجاعة، أيّها الجندي!

حلّ الشرشف ورطّبها بطرف القفاز أوّلاً، ثمّ بشكل أكثر جرأةً.

فرك رأسها، رقبتها، وجهها، ظهرها، إبطيها، نهديها طالما اضطرّ لذلك، ثمّ هل يمكن اعتبارهما نهدين؟ بطنها وساقيها. بالنسبة للبقية، لعمري، سوف ترى... عَصَرَ القفاز ووضعه على جبينها.

كانت بحاجة إلى أقراص أسبرين الآن... أمسك بشدّة بدرج المطبخ الذي أفرغ كلّ محتوياته على الأرض. عجباً! أسبرين، أسبرين...

وقف فرانك على عتبة الباب، مرّر يده تحت قميصه الرياضي وأخذ يحكّ أسفل بطنه. قال متثائباً:

- ماذا يحدث هنا؟ ما كلّ هذه الفوضى؟

- أبحث عن أسبرين...

- في خزانة الحائط...

- شكراً.

- هل رأسك يؤلمك؟

- كلّا أريده لصديقة...

- زميلتك في الطابق السابع؟

Twitter: @ketab_n

- نعم.

ضحك فرانك هازئاً:

- انتظر، أكنتَ معها، هناك؟ كنتَ هناك في الطابق العلوي؟

- نعم. تقدّم، من فضلك...

- توقّف، لا أصدّق ذلك... حسناً، إذاً أنت صبيٌّ بكر؟

كانت تعليقاته الساخرة تتبعه في الممرّ:

- هيه؟ أصابتك بالصداع النصفي منذ الليلة الأولى، أهذا صحيح؟ سحقاً، لقد أخطأت التسديد يا صبي...

أغلق فيليبيار الباب من خلفه، استدار ودمدم بوضوح: «اسكت، أنت أيضاً...».

انتظر أن يأخذ قرص الأسبرين مفعوله، ثمّ أزعجها للمرّة الأخيرة. خال له أنّه قد سمعها تهمس «بابا...» إلّا إذا كانت تقول «لا... لا...» لأنّها على الأرجح لم تعد ظمآنة. لم يكن يعرف.

بلّ القفاز ثانية، سحب الشرشف وظلّ في مكانه للحظة.

كان منذهلاً، مذعوراً وفخوراً بنفسه.

نعم، كان فخوراً بنفسه.

21

أوقِظَت كاميل بموسيقى U2. ظنّت في البداية أنّها في منزل آل كيسلر وعادت إلى النوم. غمغمت قائلة كلا، كلا، هذا غير ممكن... لا بيير ولا ماتيلد ولا خادمتهما لا يستطيعون

Twitter: @ketab_n

التخلّص من بونو بكامل حجمه بهذه الطريقة. كان هناك خللٌ ما، هنا... فتحت عينيها ببطء وأنّت من ألم رأسها وانتظرت في العتمة لعلّها تتعرّف على شيءٍ ما.

ولكن أين كانت؟ ماذا...؟

أدارت رأسها. لم يستجب جسدها. رفضت عضلاتها ومفاصلها والبقية الباقية من لحمها أدنى حركة. صرّت على أسنانها ونهضت لبضعة سنتيمترات. ارتجفت وطفحت من جديد بالعرق.

كان دمها ينبض في صدغيها. انتظرت للحظة، جامدة ومغمضة العينين، لكي يسكن الألم.

فتحت برقّة عينيها وعرفت أنّها كانت في سرير غريب. كان الضوء بالكاد يرشح من بين فرجات المصاريع الداخلية للباب وكانت ستائر واسعة من القطيفة، نصف فالتة عن سكتها، تتدلّى بائسة من كلّ جانب. كانت تقابلها مدفأة من الرخام تعلوها مرآة منقّطة بالكامل. كانت الغرفة مفروشة بنسيج مزهّر لم تستطع تمييز ألوانه. كانت هناك لوحات في كلّ مكان. وصور شخصية لرجالٍ ونساء بالزي الأسود بدوا مندهشين مثلها من وجودها في هذا المكان. ثمّ التفتت نحو طاولة السرير فرأت دورقاً منقوشاً في غاية الجمال وبجانبه كوبٌ من خردل سكوبيدو. كانت تموت عطشاً وكان الدورق مليئاً بالماء ولكنها لم تجرؤ على لمسه: تُرى في أيّ قرنٍ مُلِء؟

تبّاً، أين كانت ومَنْ قادها إلى هذا المتحف؟

كانت هناك ورقة مثنيّة فوق شمعدانٍ صغير: «لم أجرؤ على

Twitter: @ketab_n

إزعاجكِ هذا الصباح. ذهبتُ إلى العمل. سأعود نحو الساعة السابعة. ثيابك مطوية فوق الكرسي. هناك لحم بطّ في الثلاجة وقارورة مياه معدنية عند قدم السرير. فيليبيار».

فيليبيار؟ ولكن ماذا كانت تفعل في سرير ذاك الصبي؟

النجدة.

ركّزت ذهنها لعلّها تجد بقايا فجورٍ مستبعد، ولكنّ ذكرياتها لم تذهب أبعد من جادة برون... هناك كانت جالسة منكمشة على نفسها تحت موقفٍ للحافلات وطلبت من رجلٍ طويل القامة يرتدي معطفاً داكناً أن يوقِف لها سيارة أجرة... أكان فيليبيار؟ كلا... كلا، لم يكن هو، وإلّا لتذكّرته...

كان أحدهم قد أوقف الموسيقى. وسمعت أيضاً وقع خطى وهمهمات وباباً يُصفَق، ثمّ باباً ثانياً ولم يعد هناك أيّ شيء. ساد الصمت.

كانت لديها رغبة جامحة ولكنّها انتظرت لحظة أخرى، منتبهة إلى أدنى ضجّة وخائفة من فكرة تحريك هيكلها البائس.

دفعت الأغطية ورفعت اللحاف الذي بدا لها أكثر ثقلاً من حمارٍ نافق.

حينما لامست أرضية الغرفة، التوت أصابع قدميها. كان بابوجان من جلد الجدي ينتظرانها عند حافة السجّادة. نهضت ورأت أنّها ترتدي بيجاما رجالية، انتعلت المشّايتين ووضعت سترتها الجينز على كتفيها.

أدارت مقبض الباب بهدوء ووجدت نفسها في ممرّ شاسع، مظلم، طوله على الأقلّ خمسة عشر متراً.

Twitter: @ketab_n

بحثت عن المغاسل...

كلّا، هناك خزانة، وهنا غرفة أطفال فيها سريران توأمان وحصان أرجوحة مقروضٌ بأكمله بالعثّ. هنا... لا تعرف... ربّما مكتب؟ كان هناك الكثير من الكتب الموضوعة على طاولة أمام النافذة التي بالكاد يدخلها الضوء. كان سيفٌ ووشاحٌ معلّقان على الجدار وكذلك ذيل حصان معلّق بطرف حلقة من الصُفْر. ذيلٌ حقيقي لحصانٍ حقيقي. كان شيئاً خاصّاً ثميناً كرُفات قدّيس...

هنا! المراحيض!

مصراع الباب من الخشب وكذلك مقبض خرطوم الماء. وحوض المرحاض، نظراً لعمره، لا بدّ أنّه قد رأى أجيالاً من المؤخّرات... تردّدت كاميل قليلاً في البداية، ولكن لا، كان كلّ شيء يعمل بطريقة ممتازة. كان صخب انبجاس الماء من الخرطوم مفاجئاً. وكأنّ شلالات نياغارا قد سقطت فوق رأسها...

داخت، ولكنّها واصلت رحلتها في البحث عن علبة أسبرين. دخلت إلى غرفة تسودها فوضى عارمة. ثياب متناثرة في كلّ مكان وسط مجلّات وعلب فارغة وأوراق مبعثرة: بطاقات دفع، نشرات مطبخ، كراريس صيانة GSXR وكذلك نشرات مختلفة من الخزينة العامّة. كان قد وضِعَ على السرير الجميل من طراز لويس السادس عشر فراشٌ شنيع مرقّع وكانت مبخرة موضوعة على الخشب المطعّم لطاولة السرير. حسناً، كانت رائحة حيوانية تفوح من الداخل...

Twitter: @ketab_n

المطبخ في نهاية الممرّ. حجرة باردة، رمادية، حزينة، بلاطها قديم باهت اللون منمّق بمسامير مزخرفة الرأس، سوداء اللون. طاولات العمل من المرمر والخزانات جميعها تكاد تكون خاوية. لا شيء ينبئ بأنّ أناساً يعيشون هنا سوى هدير ثلاجة قديمة.. عثرت على أنبوبة أقراص الأسبرين، أخذت كأساً من قرب المجلى، وجلست على كرسيّ من الفورميكا. كان ارتفاع السقف مدوّخاً وأثار بياض الجدران انتباهها. لا بدّ أنّ هذا طلاءٌ قديمٌ جداً، ذو أساسٍ رصاصيّ، وأنّ السنوات قد منحته طبقة ناعمة من الأكسيد. لم يكن متكسّراً ولم يكن شبيهاً ببياض قشر البيض، وإنّما أشبه ببياض الأرزّ بالحليب أو مُحَلّيات لا طعم لها تقدّمها مطاعم الجنود...أجرت في ذهنها بعض العمليات ووعدت أن تعود ذات يوم ومعها مصباحان أو ثلاثة لتراه بشكلٍ أوضح. تاهت في الشقّة واعتقدت أنّها سوف لن تعثر ثانية على غرفتها. ارتمت على السرير وفكّرت للحظة في أن تتّصل بالثرثارة الأخرى التي تعمل لدى توكلين ونامت في الحال.

22

- كيف حالكِ؟

- أهذا أنت يا فيليبيار؟

- نعم...

- أأنا في سريرك، هنا؟

- سريري؟ ولكن، ولكن... ولكن كلا، هيّا... أبداً أنا....

Twitter: @ketab_n

- أين أنا؟

- في شقة عمّتي ايدمي، العمّة مي، بالنسبة للمقرّبين.. كيف تشعرين بحالكِ، عزيزتي؟

- منهكة. وكأنّ محدلة قد دهستني...

- لقد استدعيتُ طبيباً...

- أوه، ولكن كلا، لا داعي لذلك!

- لا داعي لذلك؟

- أوه... أجل... لقد أحسنت صنعاً... سوف أحتاج إلى إجازة من العمل على أيّة حال...

- لقد سخّنت الحساء...

- لستُ جائعة...

- أرغمي نفسكِ على تناول الطعام. يجب أن تستردّي صحتكِ بعض الشيء وإلّا لن يكون جسمك قادراً على دفع الفيروس خارج الحدود... لماذا تبتسمين؟

- لأنّك تتحدّث وكأنّك تتحدّث عن حرب المائة عام...

- أتمنى أن تكون الفترة أقصر من ذلك! آه، تفضّلي، أتسمعين؟ لا بدّ أنّه الطبيب...

- فيليبيار؟

- ماذا؟

- لا أملك شيئاً، ليس معي... لا دفتر شيكات ولا نقوداً، لا شيء...

- لا تقلقي. سنتحدّث في ذلك لاحقاً... في لحظة توقيع اتفاقية السلام...

Twitter: @ketab_n

23

- إذاً؟

- إنّها نائمة.

- ماذا؟

- أهي فرد من عائلتك؟

- صديقتي...

- كيف تكون صديقتك؟

ارتبك فيليبيار:

- حسناً، إنّها... إنها جارتي، إنّها جارة صديقة.

- أتعرفها جيداً؟

- كلا، ليس جيّداً.

- أتعيش بمفردها؟

- نعم.

عبس الطبيب.

- أهناك ما يقلقك؟

- يمكننا قول ذلك... هل لديك طاولة؟ مكانٌ أستطيع الجلوس عليه؟

قاده فيليبيار إلى المطبخ. أخرج الطبيب رزمة وصفاته.

- أتعرف كنيتها؟

- فوك، أعتقد...

- تعتقد أم أنّك متأكّدٌ من ذلك؟

Twitter: @ketab_n

- عمرها؟

- ستّة وعشرون عاماً.

- أأنت متأكّد؟

- نعم.

- أهي تعمل؟

- نعم، نعم في شركة للصيانة.

- عفواً؟

- تنظّف المكاتب...

- هل نتحدّث عنها نفسها؟ المرأة الشابة التي ترقد في السرير الكبير ذي الطراز البولوني في نهاية الممرّ؟

- نعم.

- هل تعرف كيف تستخدم وقتها؟

- إنّها تعمل ليلاً.

- ليلاً؟

- أقصد، مساءً... حينما تخلو المكاتب...

تجرأ فيليبار على السؤال:

- تبدو مستاءً؟

- أنا كذلك. إنّها على الأرجح صاحبتك... على الغالب، حقّاً... هل أدركتَ ذلك؟

- كلا، أقصد بلى... كنتُ أرى أنّ لديها وجهاً ناعماً، ولكنني... أقصد أنني ذهبت أبحث عنها البارحة مساءً فقط لأنّ ليس لديها تدفئة ولأنّ...

Twitter: @ketab_n

- اسمعني، سوف أخبرك بالأمور صراحةً: نظراً لشحوبها ولوزنها ولضغط دمها، كان عليّ أن أنقلها إلى المستشفى على الفور، ولكن حينما ذكرتُ هذا الاحتمال، استبدّ بها هلعٌ شديد بحيث... أقصد ليس لديّ ملفّ، أتفهم؟ لا أعرف لا ماضيها ولا سوابقها ولا أريد أن أتسرّع، ولكن حينما تتحسّن حالتها، عليها أن تخضع لسلسلة من الفحوصات، هذا حتمي...

كان فيليبيار يلوي يديه.

- بانتظار ذلك، هناك أمرٌ مؤكّد: عليك أن تعيد إليها نشاطها، أن ترغمها على أن تتغذّى وأن تنام، وسوى ذلك... حسناً، سأمنحها حالياً إجازة لعشرة أيام. وهذه الوصفة من أجل دوليبران وفيتامين ثِ، ولكنني، أكرّرها لك: كلّ هذا لا يحلّ محلّ طبقٍ من لحم الأضلاع نصف المشوي، وطبقاً من المعجنات والخضار والفاكهة الطازجة، أفهمت؟

- نعم.

- هل لها عائلة في باريس؟

- لا أدري. وماذا عن الحمّى المستبدّة بها؟

- إنّها نزلة بردٍ شديدة. لا شيء يمكننا فعله... سوى انتظار أن يمرّ هذا... احرص على ألّا تتغطّى كثيراً، وجنّبها التيارات الهوائية وألزمها السرير لبضعة أيام...

- حسناً...

- والآن أنتَ من تبدو قلقاً! ربّما أكون قد سوّدت الصورة، ولكنّها ليست بهذه القتامة في الواقع... ستحرص عليها، أليس كذلك؟

Twitter: @ketab_n

- نعم.

- أخبرني، أهذا بيتك؟

- آه، نعم...

- كم مساحته؟

- أكثر من ثلاثمائة متر مربع بقليل...

- حسناً! ربّما أبدو لك متطفلاً، ولكن ماذا تعمل في حياتك؟

- سفينة نوح.

- عفواً؟

- كلا، لا شيء. بكم أدين لك؟

24

- كاميل، هل نمتِ؟

- كلا.

- انظري، لدي مفاجأة لكِ...

فتح الباب ودفع أمامه مدفأتها الزائفة.

- اعتقدتُ أنّ هذا سيسعدكِ..

- أوه... هذا لطفٌ منك، ولكنني سوف لن أبقى هنا، أنت تعرف... سوف أصعد إلى غرفتي غداً...

- كلا.

- كيف كلّا؟

- سوف تصعدين مع مقياس للضغط، وبانتظار ذلك،

Twitter: @ketab_n

ستمكثين هنا لكي ترتاحي، الطبيب هو الذي طلب ذلك، ومنحكِ إجازة لعشرة أيام...

- كلّ هذا؟

- نعم...

- يجب أن أرسلها...

- ماذا؟

- ورقة الإجازة...

- سأجلب لكِ مغلّفاً.

- كلا، ولكن... لا أريد البقاء طويلاً، أنا... لا أريد.

- أتفضّلين الذهاب إلى المستشفى؟

- لا تمزح معي بهذا الخصوص...

- أنا لا أمزح، يا كاميل.

شرعت تبكي.

- سوف تمنعهم، إذاً؟

- هل تتذكّرين حرب رجال الدين والفلاحين؟

- أوه...ليس أكثر من هذا، كلا...

- سوف أعيرك كتباً... وموقّتاً، تذكّري أنّكِ في بيت آل ماركيه دي لا دوربيليير وأننا لا نخشى رجال الشرطة هنا.

- رجال الشرطة؟

- الجمهورية. يريدون أن يضعوكِ في مستشفى حكومي، أليس صحيحاً؟

- بالتأكيد...

Twitter: @ketab_n

- إذاً ليس لديكِ ما تخشينه. سأسكب زيتاً يغلي من أعلى بيت الدرج.

- أنت مخبول تماماً.

- كلّنا فيه شيء من الخبل، أليس كذلك؟ أنتِ، مثلاً، لماذا حلقتِ شعركِ؟

- لأنّه لم تعد لديّ القدرة قط على أن أغسل شعري على الدرج...

- هل تتذكّرين ما قلته لكِ بشأن دايان بواتييه؟

- نعم.

- إذاً، لقد وجدتُ مؤخّراً شيئاً ما في مكتبتي، انتظري...

عاد مع كتاب جيبٍ مغبرّ اللون، جلس على حافة السرير وتنحنح:

- كان كلّ البلاط - عدا مدام ايتانب، بالطبع (سأخبرك بالسبب بعد قليل)- متّفقاً على أنها في غاية الجمال. كان الناس يقلّدون مشيتها، وحركاتها، وزينتها. كانت تصلح، من جهة أخرى، لترسيخ أصول الجمال التي كانت النساء كلّهنّ يسعين بشدّة، خلال مائة عام، إلى التشبّه بها:

ثلاثة أشياء بيض: البشرة، الأسنان، اليدان.

ثلاثة أشياء سود: العينان، الحاجبان، الأهداب.

ثلاثة أشياء حمر: الشفتان، الخدّان، الأظافر.

ثلاثة أشياء طويلة: القامة، الشعر، اليدان.

ثلاثة أشياء قصيرة: الأسنان، الأذنان، القدمان.

Twitter: @ketab_n

ثلاثة أشياء ضيّقة: الفم، الخصر، مقدّم القدم.

ثلاثة أشياء ضخمة: الذراعان، الفخذان، بطّة الساق.

ثلاثة أشياء صغيرة: حلمتا الثديين، الأنف، الرأس.

هذا كلامٌ جميل، أليس كذلك؟

- وترى أنني أشبهها؟

- نعم، أقصد في بعض المعايير...

كان محمرّ الوجه مثل حبّة طماطم.

- ليس... ليس كلّ شيء بالطبع، ولكنّكِ... ترين، هذه مسألة مظهر، مسألة أناقة، مسألة... مسألة...

- أأنتَ مَنْ جرّدتني من ثيابي؟

كانت نظارته قد سقطت على ركبتيه، وأخذ يتمت... يتمتم كما هي عادته دائماً.

- أنا... أنا... نعم أقصد، أنا... أنا... في غاية... في غاية العفّة، أعد... أعدكِ بذلك، لقد غطّ... غطّيتكِ أوّلاً، أنا...

مدّت له نظارته التي تثبّت على الأنف.

- هيه أنت، لا تضع نفسك في هكذا حالات! أريد فقط أن أعرف، هذا كلّ شيء... أوه... هل كان الآخر حاضراً؟

- مَ... مَنْ هو؟

- الطبّاخ...

- كلا. بالطبع كلا، هيا...

- أحبّ هذا أكثر...أوووه... رأسي يؤلمني بشدّة...

Twitter: @ketab_n

- سأنزل إلى الصيدلية... هل تحتاجين إلى شيءٍ آخر؟

- كلا. شكراً.

- ممتاز. آه، نعم، يجب أن أخبركِ... ليس لدينا هاتف هنا... ولكن إن أردتِ أن تتصلي بأحد، لدى فرانك هاتف نقّال في غرفته و...

- لا بأس، شكراً. أنا أيضاً لديّ هاتف نقّال... عليّ فقط أن أجلب الشّاحن من الطابق العلوي...

- سوف أذهب لو أردتِ...

- كلا، كلا، يمكننا الانتظار...

- ليكن.

- فيليبيار؟

- نعم؟

- شكراً.

- هيّا بنا...

ظلّ واقفاً أمامها ببنطاله القصير جداً، وسترته المطبّقة عليه وذراعيه الطويلتين جداً.

- إنّها المرّة الأولى منذ زمنٍ طويل التي يهتمّ بي أحدٌ بهذا الشكل...

- هيّا بنا...

- أجل، هذا صحيح... أعني... من دون أن ينتظر مقابلاً... لأنّك... أنت لا تنتظر شيئاً، أليس كذلك؟

كان مستاءً:

Twitter: @ketab_n

- كلا، ولكن ماذا... ماذا... ستتخيّلين؟

كانت قد أغمضت عينيها من جديد.

- لا أتخيّل شيئاً، لقد أخبرتك بذلك: ليس لديّ أيّ شيءٍ أعطيه.

25

لم تعد تعرف في أيّ يومٍ كانت، أهو السبت؟ أهو الأحد؟ لم تكن قد نامت هكذا منذ سنوات.

مرّ فيليبيار عليها ليعرض عليها قصعة من الحساء.

- سأنهض. سآتي للوقوف معك في المطبخ...

- أأنتِ متأكّدة؟

- نعم! في النهاية لستُ مصنوعة من السكّر!

- اتّفقنا، ولكن لا تأتي إلى المطبخ، فالجو فيه باردٌ جداً. انتظريني في الصالون الأزرق الصغير...

- عفواً؟

- آه، نعم، هذا صحيح... يا لحماقتي! لم يعد أزرق اللون الآن لأنّه فارغ... الغرفة المشرفة على الممرّ، هل رأيتِ؟

- هناك حيث توجد أريكة؟

- أوه، أريكة، هذا مبالغٌ فيه... فرانك هو الذي عثر عليها ذات مساء على الرصيف ورفعها مع أحد أصدقائه... إنّها قبيحة جداً ولكنّها مريحة، أعترف بذلك...

- أخبرني، يا فيليبيار، ما هو هذا المكان بالضبط؟ في بيت

Twitter: @ketab_n

مَنْ نكون، هنا؟ ولماذا تعيش وكأنّك في منزلٍ مملوك بوضع اليد؟

- عفواً؟

- كما لو كنتَ مخيّماً؟

- أوه، هذه حكاية ميراثٍ دنيئة للأسف... مثلما نجدها في كلّ مكان... حتى في أحسن العائلات، أنتِ تعلمين...

بدا منزعجاً بحق.

- نحن هنا في بيت جدّتي لأمّي التي توفّيت في السنة الماضية وبانتظار أن يسوّى أمر الإرث، طلب مني والدي المجيء والإقامة هنا، تجنّباً للـ... ماذا سمّيتِها قبل قليل؟

- «واضعو اليد»؟

- نعم، «واضعو اليد»! ولكن ليس هؤلاء الصبية الذين يشكّون الدبابيس في أنوفهم، كلا، وإنّما رجالٌ أفضل كسوةً وأقلّ أناقة بكثير: أبناء عمومتنا الجرمانيين...

- هل يطلّ أبناء عمومتكم على هذا المكان؟

- بل أعتقد أنّهم قد صرفوا المال الذي ظنّوا أنّ الفقراء قد سحبوه! فاجتمع مجلسٌ من العائلة عند الكاتب العدل، كان من نتيجته تعييني بواباً، ناطوراً، وحارساً ليلياً. طبعاً، كان هناك بعض محاولات التخويف في البداية... فقد سُرق الكثير من الأثاث كما استطعتِ التأكّد من ذلك، وفتحتُ غالباً الباب للحجّاب والبوابين، ولكن يبدو كلّ شيء وقد استعاد النظام الآن. الآن، الكاتب العدل والمحامون هم الذين عليهم تسوية هذه القضية المضنية...

- كم من الوقت ستبقى هنا؟

Twitter: @ketab_n

- لا أدري.

- وهل يوافق والداك على أن تستضيف أناساً مجهولين مثل الطباخ ومثلي؟

- بالنسبة للكِ، أتصوّر أنّ لا داعي لأن يعلما بذلك... أمّا بالنسبة لفرانك، فعلى العكس، لقد أراحهما وجوده معي... فهما يعلمان كم أنا مضغوط... ولكن، حسناً، فهما لا يعلمان، ولحسن الحظ، شيئاً عن وضعه. يعتقدان بأنني التقيتُ معه عن طريق الخورنية!

ضحك.

- أكذبتَ عليهما؟

- لنقل إنني كنتُ أقلّه... مراوغاً معهما....

كانت قد هزُلَت كثيراً بحيث تستطيع أن تدسّ أطراف قميصها تحت بنطالها الجينز من دون أن تحلّ أزراره.

كانت أشبه بشبحٍ. كشّرت في المرآة الكبيرة لغرفتها لتثبت لنفسها العكس، عقدت وشاحها الحرير حول رقبتها، وارتدت سترتها وجازفت في تلك المتاهة الهوسمانية[1] التي لا تصدّق.

انتهى بها المطاف بأن وجدت الأريكة الشنيعة الغائرة وقامت بجولة في المكان لتكتشف الأشجار المغطاة بطبقة رقيقة من الجليد في شان مارس.

(1) نسبة إلى أسلوب البارون جورج أوجين هوسمان (1809-1891)، محافظ السين بين أعوام 1853-1869، الذي قام بإعداد وإدارة برنامج إعادة بناء العاصمة باريس بناءً على طلب نابليون الثالث في عهد الإمبراطورية الثانية. (المترجم)

Twitter: @ketab_n

بينما كانت تعود، بهدوء، ولا يزال ذهنها مكدّراً ويداها في جيبيها، انتفضت ولم تستطع الامتناع عن إطلاق صرخة قصيرة.

كان رجلٌ طويل القامة، مرتدياً بالكامل ألبسة من الجلد الأسود وينتعل جزمة ويعتمر قبّعة، يقف خلفها تماماً.

قالت أخيراً:

- أوه، مرحباً...

لم يجب الآخر بشيء ودار على أعقابه.

نزع قبّعته في الممرّ ودخل إلى المطبخ وهو يحكّ رأسه:

- هيه يا فيلو، قل لي، من هذا اللوطي في الصالون؟ أهو أحد أصحابك الكشّافة أم ماذا؟

- عفواً؟

- اللوطي الواقف خلف أريكتي...

فقد فيليبيار، الذي كان متوتّراً بسبب فداحة مصيبته المطبخية، قليلاً من لا مبالاته الأرستقراطية، وقال مصحِّحاً:

- اللوطي، كما تقول، يُدعى كاميل، إنّها صديقتي وأرجوك أن تتصرّف بتهذيب لأنني أنوي أن أستضيفها هنا لبعض الوقت...

- أوه، لا بأس... لا تنفعل هكذا... أقلت إنّها فتاة؟ هل تقصد الماكر نفسه؟ النحيل الضامر الأقرع؟

- هي فعلاً فتاة...

- أأنت متأكّد؟

أغمض فيليبيار عينيه.

Twitter: @ketab_n

- أهذا هو، صاحبتك؟ أقصد أهذه هي؟ أخبرني إذاً، ماذا أعددت لها، هنا؟ كرنب مخلّل؟

- تخيّل، هذا حساء...

- هذا؟ حساء؟

- تماماً. حساء الكرّاث والبطاطس من عند **ليبيغ**...

- هذه قذارة. فضلاً عن ذلك، لقد تركتَها تحترق، ستكون كريهة ومنفرة... ماذا أضفتَ إليها؟

أضاف هذا السؤال الأخير فزعاً وهو يرفع الغطاء عن القدر.

- أوه... جبن من ماركة البقرة الضاحكة وقطعٌ من لبّ الخبز...

- لماذا فعلت ذلك؟

- إنّه الطبيب... هو الذي طلب منّي إنعاشها...

- حسناً، ليتها تنتعش بهذه العصيدة الكريهة! في رأيي، ستقتلها بدل ذلك، نعم...

عند هذا، أخذ علبة جعة من الثلاجة، وأغلق على نفسه باب غرفته.

حينما عاد فيليبيار إلى محميته، كانت لا تزال قلقة وحائرة بعض الشيء:

- أهذا هو؟

غمغم فيليبيار وهو يضع الصينية الكبيرة على صندوقٍ من الكرتون:

- نعم.

Twitter: @ketab_n

- ألا ينزع أبداً قبّعته؟

- بلى، ولكن حينما يعود مساء الاثنين، يكون دائماً رديئاً جداً... عموماً، أتحاشى مصادفته في ذلك اليوم...

- أهذا لأنّ لديه الكثير من العمل؟

- كلا، فهو لا يعمل يوم الاثنين... لا أدري ماذا يفعل... يغادر في الصباح الباكر جداً ويعود سيئ الخلق... أعتقد أنّها مشاكل عائلية... تفضّلي، اسكبي لنفسك الحساء وهو ساخن...

- أوه... ما هذا؟

- حساء.

قالت كاميل وهي تحاول أن تحرّك العصيدة الغريبة:

- آه؟

- حساءٌ على طريقتي... نوعٌ من حساء الخضر الروسي إن شئتِ...

ردّدت ضاحكة:

- آآآه... ممتاز...

مرّة أخرى، كان عصبياً.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

القسم الثاني

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

1

- هل لديكَ دقيقتان من الوقت؟ يجب أن نتحدّث مع بعضنا...

كان فيليبير يتناول دائماً شوكولا على الفطور وكانت متعته هي إطفاء الغاز تماماً قبل أن يطفح الحليب. وكان ذلك، علاوة على كونه طقساً وهَوَساً، انتصاره اليومي. مفخرته ونصره غير المرئي. كانت فورة الحليب تخمد فيبدأ النهار: إنّه يسيطر على الوضع.

ولكن في ذاك الصباح، وإذ كان مشتّت الذهن، بل ومنزعجاً من اللهجة التهجمية لشريكه في السكن، أدار المفتاح الخاطئ. فار الحليب وطغت رائحة كريهة فجأةً على جوّ الغرفة.

- عفواً؟

- قلت: يجب أن نتحدّث مع بعضنا.

أجاب فيليبير بهدوء وهو يضع غلاية الحليب المبلّلة:

- فلنتحدّث، أنا أصغي إليك...

- كم من الوقت ستبقى هذه هنا؟

- العفو، ماذا قلت؟

Twitter: @ketab_n

- أوه، دعنا من خبثك؟ فتاتك؟ كم من الوقت ستبقى هنا؟

- ستبقى هنا قدر ما تشاء...

- أنت مغرم بها، أليس كذلك؟

- كلا.

- كاذب. أرى جيّداً مناورتك الصغيرة.. أساليبك الجميلة ومظاهرك الإقطاعية وكلّ هذه الأمور...

- أتغار؟

- سحقاً، كلا! لا ينقصني سوى هذا! أن أغار من كومة عظام؟ هيه أنت، ليس مكتوباً هنا، القس بيير!

قال ذلك وهو يشير إلى جبينه.

- لا تغار منّي، بل منها. ربّما تشعر بأنّك محاصرٌ هنا قليلاً وحريتك محجوزة؟

- إذاً، هنا، على الفور... العبارات الكبيرة.. كلّما تفتح فمك، وكأنّ كلماتك لا بدّ أن تبقى مكتوبة في مكانٍ ما بحيث يكون لها وقعٌ حسنٌ فيه...

- ...

- مهلاً، أنا أعلم أنّك في بيتك، أعلم ذلك جيداً. هيا... ليست هذه هي المشكلة. تدعو مَنْ تشاء، وتستضيف مَنْ تشاء، بل وتقيم مآدب خيرية إن كان هذا يلائمك، ولكن سحقاً، أنا لا أعلم ... كنّا نشكّل فريقاً صغيراً متفاهماً نحن الاثنين، أليس كذلك؟

- أهذا ما تراه؟

Twitter: @ketab_n

- نعم هذا ما أراه، صحيحٌ أنا لي طبعي وأنت لك كلّ وساوسك الواهية، ومهاراتك، وقلاقلك الاستحواذية القهرية، ولكن على العموم، كانت الأمور تسير سيراً حسناً حتى اليوم...

- ولماذا تتغيّر الأمور؟

- بففف... يبدو جيداً أنّك لا تعرف الفتيات، أنت... احذر، لا أقول هذا لكي أجرحك، إيه؟ ولكن هذا صحيح، ماذا... تضع فتاةً في مكانٍ ما ويتحوّل ذلك فوراً إلى ماخور.... يتعقّد كلّ شيء، ويصبح كلّ شيء مزعجاً بل وحتى أوفى الأصدقاء ينتهون بالحرد، أنت تعلم... لماذا تسخر من هذا؟

- لأنّك تعبّر عن رأيك مثل... مثل راعي بقر... لم أكن أعلم أنني كنتُ... كنتُ صديقك.

- حسناً، سأتجاوز الموضوع. فقط أعتقد أنّه كان بوسعك أن تحدّثني في الأمر مسبقاً، هذا كلّ شيء.

- كنتُ سأحدّثك في الأمر.

- متى؟

- الآن، هنا، مع كوب الحليب، لو أنّك أتحت لي الفرصة لإعداده...

- أعتذر... أقصد لا، سحقاً، لا يمكنني الاعتذار بمفردي، أهذا صحيح؟

- تماماً.

- هل ستذهب إلى العمل؟

Twitter: @ketab_n

- نعم.

- أنا أيضاً، هيّا بنا. سأشتري لك شوكولا في الأسفل...

بينما كانا في الباحة، قال فرانك آخر ما لديه:

- فضلاً عن ذلك، نحن لا نعرف مَنْ تكون هذه... بل ولا نعرف من أين جاءت هذه الفتاة...

- سأُريك من أين جاءت... اتبعني.

- لا تعتمد عليّ لكي أصعد الطوابق السبعة مشياً على القدمين...

- بلى. سأعتمد عليك بالضبط. اتبعني.

منذ أن تعارفا، كانت هذه هي المرّة الأولى التي يطلب فيها فيليبير شيئاً منه. تذمّر قدر استطاعته وتبعه على درج الخدمة.

- اللعنة، كم الجوّ بارد في الداخل!

- هذا لا شيء... انتظر إلى أن نصبح تحت الأسقف...

حلّ فيليبير القفل ودفع الباب.

ظلّ فرانك صامتاً لبضع ثوانٍ.

- أهنا تسكن؟

- نعم.

- أأنت متأكّدٌ من ذلك؟

- تعال، سأُريك شيئاً آخر...

قاده إلى نهاية الممرّ، ركل باباً آخر مخلّعاً وأضاف:

- هذا حمّامها... في الأسفل، المرحاض، وفوقه، الدوش... اعترف بأنّ هذا شيءٌ مبتكر...

Twitter: @ketab_n

نزلا السلالم بصمت.

لم يستأنف فرانك الكلام إلّا بعد فنجانه الثالث من القهوة:

- حسناً، أمرٌ واحدٌ فقط إذاً... اشرح لها وضعي، كيف سأنام بعد الظهر وكلّ هذه الأمور...

- نعم، سوف أخبرها. سنخبرها نحن الاثنان. ولكن في رأيي، سوف لن يطرح هذا الأمر مشكلة لأنّها ستنام هي أيضاً...

- لماذا؟

- إنّها تعمل ليلاً.

- ماذا تفعل؟

- أعمال منزلية.

- عفواً؟

- إنّها مدبرة منزل...

- أأنت متأكّد؟

- ولماذا ستكذب عليّ؟

- لا أدري، أنا... هذا جائز، قد تكون فتاة تُطلب للمنادمة هاتفياً...

- لكانت أفضل... أفضل حالاً، أليس كذلك؟

- نعم، أنت محقّ... أنت، لستَ مغفّلاً!

أضاف ذلك وهو يصفع بقوّة ظهره.

- انـ... انتبه، لقد أوقعتَ فطيرتي، غبـ... غبي... انظر، لقد انتزعت...

Twitter: @ketab_n

لم يهتمّ فرانك، كان يقرأ عناوين صحيفة **لوباريزيان** الموضوعة على الطاولة.

تناقشا معاً.

- أخبرني!

- ماذا؟

- أليست لدى هذه الفتاة عائلة؟

أجاب فيليبير وهو يعقد وشاحه:

- أنت تعرف، لطالما تحاشيتُ طرح هذا السؤال عليك...

رفع الآخر بصره ليبتسم له.

لدى الوصول إلى أفران المطبخ، طلب من مساعده أن يسكب له حساء الأضلاع.

- هيه أنت؟

- ماذا؟

- حساءٌ لذيذ، إيه؟

2

قرّرت كاميل ألّا تعود تأخذ نصف القرص من الليكسوميل الذي وصفه لها الطبيب كلّ مساء. من جهة، لم تعد تطيق تلك الحالة من شبه الغيبوبة التي تجد نفسها فيها، ومن جهة أخرى، لم تكن تريد أن تدمن عليه. طيلة فترة طفولتها، شاهدت والدتها في حالة هستيرية من فكرة النوم من دون تناول أقراصها وظلّت تلك النوبات تراودها باستمرار.

Twitter: @ketab_n

كانت قد خرجت من قيلولة طويلة، ولم تكن لديها أدنى فكرة عن الوقت ولا كم الساعة ولكنّها قرّرت أن تستيقظ وتتحرّك وترتدي ثيابها لتصعد أخيراً إلى غرفتها وترى إن كانت مستعدة لأن تستأنف حياتها المتواضعة في الحالة التي تركتها عند مغادرتها.

لدى عبورها المطبخ لكي تصل إلى دَرَج الخادمات، رأت كلمة مكتوبة مدسوسة تحت قارورة فيها سائلٌ مصفرّ اللون.

يُسخّن في طنجرة، ولكن لا تدعوه يغلي. تُضاف العجينة حينما يبدأ السائل بالارتجاج ويُترك الخليط يُطهى لأربع دقائق وهو يُحرّك بهدوء.

لم تكن الكتابة بخطّ فيليبير.

كان قفل بابها قد انتُزِع والقليل الذي كانت تملكه على هذه الأرض، آخر متعلّقاتها، مملكتها الصغيرة، كان كلّ شيء قد أُتلِفَ.

هرعت بعفوية نحو الحقيبة الحمراء الصغيرة التي أفرغَت محتوياتها على الأرض. كلا، كان الوضع سليماً، لم يأخذوا أيّ شيءٍ وكانت أوراق رسوماتها لا تزال موجودة...

ملويّة الفم ومعتصرة القلب، أخذت ترتّب المكان بعض الشيء لترى ما كان ناقصاً...

لم يكن ينقصها أيّ شيء والسبب هو أنّها لم تكن تملك شيئاً. أجل، كانت تملك مذياع - منبّه... ها هو... كلّ هذه المجزرة كانت في سبيل عملية تصليحٍ أرغمتها على شراء خمسين كرة من صينيّ...

Twitter: @ketab_n

لملمت ثيابها وكدّستها في صندوقٍ من الكرتون وانحنت لكي تمسك بحقيبتها وتغادر من دون عودة. انتظرت إلى أن تصبح على الدرج لكي تخفّف من انفعالها بعض الشيء.

حينما وصلت إلى أمام المكتب، تمخّطت ووضعت كلّ متاعها على الدرج وجلست على درجة لتلفّ سيجارة. كانت السيجارة الأولى منذ وقت طويل... انطفأت إنارة الدرج، ولكن لم يكن ذلك أمراً خطيراً، بل على العكس.

على العكس، غمغمت، على العكس...

فكّرت في تلك النظرية الضبابية التي تزعم بأنّه طالما يغرق المرء لا يسعه أن يحاول القيام بأيّ شي وأنّ عليه أن ينتظر ملامسة القاع لكي يضرب تلك الضربة الصغيرة من كعبه التي، وحدها، تتيح له الصعود من جديد إلى سطح الماء...

حسناً.

- كان الأمر على ما يرام، هنا، أليس كذلك؟

ألقت نظرةً على صندوقها الكرتون، ومرّرت يدها على وجهها ذي التقاطيع البارزة وتنحّت جانباً من طريق دويبة كانت تجري بين شقّين.

- أوه... طمئني... هل كان الأمر على ما يرام، هناك؟

حينما دخلت إلى المطبخ، كان هو مَنْ قفز:

- آه! أأنتِ هنا؟ اعتقدتُ أنّكِ قد نمتِ...

- مرحباً.

- ليستافييه فرانك.

Twitter: @ketab_n

- كاميل.

- أَ... أرأيتِ كلمتي؟

- نعم، ولكنني...

- أتنقلين أغراضك؟ أتحتاجين لمساعدة؟

- كلا، أنا... أنا، والحقّ يُقال، لا أملك أكثر من هذا... لقد تمّ السطو على منزلي.

- سحقاً.

- نعم، كما قلت... لا أرى كلمات أخرى، هناك... حسناً، سأذهب وأنام ثانية، هناك، لأنني دائخة و...

- هل تريدين أن أعدّ لك المرق؟

- عفواً؟

- المرق؟

- أيّ مرق؟

قال بنزق:

- الحساء!

- أوه عفواً... كلا. شكراً. قبل كلّ شيء، سأنام لبعض الوقت...

صرخ فيها بينما أصبحت في الممرّ:

- هيه أنتِ! إن كنتِ دائخة فهذا لأنّكِ لا تتناولين ما يكفي من الطعام!

تنهّدت. الدبلوماسية، الدبلوماسية... بدا ذاك الشخص لطيفاً، وكان الأَوْلى بها ألّا تفوّت المشهد الأوّل. فعادت إلى المطبخ وجلست إلى طرف الطاولة.

Twitter: @ketab_n

- أنت محقّ.

تمتم. كان عليها أن تعلم... بالطبع كان محقّاً... وسحقاً... سوف يتأخّر الآن...

أدار لها ظهره وراح يستعجل في تناول الطعام.

سكب محتوى الطنجرة في صحنٍ عميق وأخرج من الثلاجة قطعة من سوبالان فتحها بلطف. كان شيئاً أخضر اللون منثوراً فوق الحساء الذي كان البخار يتصاعد منه.

- ما هذا؟

- كزبرة.

- وهذه الشرائط الصغيرة من المعكرون، ماذا تسمّونها؟

- دُرر اليابان.

- أوه، أهذا صحيح؟ اسمها جميل...

أخذ بلوزته وصفق باب المدخل وهو يهزّ رأسه:

- **أوه، أهذا صحيح؟ اسمها جميل...**

فتاة في غاية البلاهة.

3

تنهّدت كاميل وأمسكت بالصحن تلقائياً وهي تفكّر بسارقها. من وجّه هذه الضربة؟ شبح الممرّ؟ زائرٌ شارد؟ أيكون قد مرّ من السطوح؟ هل سيعود؟ هل كان عليها أن تتحدّث في الأمر مع بيير؟

منعتها الرائحة، أو بالأحرى الأبخرة المتصاعدة من

Twitter: @ketab_n

الحساء، من التفكير في الأمر لوقت أطول. هممم، هذا مذهل وكادت أن تضع فوطتها على رأسها لتقوم بعملية استنشاق. ولكن ماذا كان يوجد في داخله؟ كان لون الحساء متميّزاً. كان ساخناً، دسماً، مسمرّاً مائلاً إلى اللون الذهبي الشبيه بصفرة الكَدْميوم... كان منظره بالفقاعات نصف الشفّافة والسنان الزمرّدية للعشب المنثورة عليه ممتعاً للنظر... ظلّت لعدّة ثوانٍ واقفة بإجلالٍ أمام الصحن والملعقة معلّقة في الهواء، ثمّ شربت أوّل جرعة من الحساء بكلّ هدوء لأنّه كان ساخناً جداً.

وجدت نفسها في نفس حالة مارسيل بروست: «مصغية إلى ما كان يحدث من أمرٍ غير مألوف في داخلها»؛ وأكملت صحنها بورعٍ وهي تغمض عينيها بين ملعقة وأخرى.

أيكون ذلك ببساطة لأنّها كانت تتضوّر جوعاً من دون أن تدري ذلك، أو ربّما لأنّها كانت ترغم نفسها على ابتلاع أنواع الحساء المعلّبة التي كان يقدّمها لها فيليبير منذ ثلاثة أيام وهي ممتعضة، أو ربّما أيضاً لأنّها قلّلت من التدخين، ولكن على أيّ حال، كان هناك أمرٌ مؤكّد: في حياتها، لم تستمتع بهذا القدر بتناول الطعام بمفردها. نهضت لتذهب وترى إن كان قد بقي شيءٌ من الحساء في قاع الطنجرة. كلّا للأسف... رفعت صحنها إلى فمها لئلا تترك فيه قطرة واحدة، تلمّظت، وغسلت الصحن والملعقة وأمسكت بالعلبة الفارغة وكتبت عليها «لذيذٌ جداً!» وهي ترسم بعض الفقاعات على كلمة فرانك، ثمّ اندسّت في السرير ووضعت يدها على بطنها إلممدودة جيّداً.

شكراً أيّها اليسوع الصغير.

Twitter: @ketab_n

4

انقضت نهاية نقاهتها بسرعة. لم تر قط فرانك، ولكنها عرفت متى يكون موجوداً: أبواب مصفقة، جهاز التسجيل، التلفاز، أحاديث حميمية على الهاتف، ضحكات مجلجلة وشتائم مقذعة، لم يكن أيّ شيءٍ من كلّ هذا طبيعياً، كانت تشعر به. كان يثور ويترك حياته تدوّي في الأركان الأربعة للشقّة مثل كلبٍ يتبوّل في كلّ مكان لكي يحدّد مكان تواجده. في بعض الأحيان، راودتها الرغبة في الصعود إلى غرفتها لتستعيد استقلاليتها ولا تعود تدين لأحدٍ بشيء. وأحياناً أخرى، كانت ترفض الفكرة. كانت ترتعد لمجرّد فكرة أن تنام من جديد على الأرض وأن تصعد الطوابق السبعة متشبّثة بالسلّم لئلّا تقع.

كان الموقف معقّداً.

لم تعد تعرف أين كان مكانها ثمّ إنّها أحبّت كثيراً فيليبير أيضاً... لماذا ينبغي عليها دائماً أن تجلد ذاتها وتحطّم رباطها وهي تكزّ على أسنانها؟ أَمِنْ أجل استقلالها؟ أنتِ تتحدّثين عن غزوٍ... لم يكن لديها سوى هذه الكلمة على شفتيها منذ سنوات، ثمّ ماذا في النهاية؟ إلى أين تريد الوصول؟ إلى ذلك الكوخ لتمضي فترات ما بعد الظهيرة وهي تدخّن سيجارة تلو الأخرى مجترّة مصيرها؟ كان ذلك مؤثّراً. ستبلغ السابعة والعشرين من عمرها ولم تحتفظ بشيءٍ مفيدٍ حتى الآن. لا أصدقاء ولا ذكريات ولا أيّ سبب لأدنى تعاطفٍ مع ذاتها. ما الذي حدث؟ لماذا لم تنجح في ضمّ يديها وفي الاحتفاظ بشيئين أو ثلاثة أشياء على شيءٍ من القيمة بين راحتيها؟ لماذا؟

Twitter: @ketab_n

كانت حالمة. كانت مرتاحة. وعندما جاء ذاك القرد الأميركي الكبير وجعلها تقرأ، حينما أغلقت الباب بهدوء ورفعت أبصارها إلى السماء لأنّ اللصّ الآخر كان يصغي إلى موسيقى «الزولو» خاصتها، ابتسمت له ونجت للحظة من عين العاصفة.

كانت قد استأنفت الرسم.

هكذا.

لا لشيء. لذاتها. للمتعة فقط.

أمسكت بكرّاسٍ جديد. الكرّاس الأخير. طوّعته وشرعت في رسم كلّ ما يحيط بها: المدفأة، ونقوش السجاد، ورتاج النافذة، وابتسامات الثنائي **سامي وسكوبيدو**، والإطارات، واللوحات، والجذع المنقوش للمرأة والمعطف الطويل القاسي للرجل. رسمت طبيعة صامتة لثيابها مع إبزيم حزامها المسترسل على الأرض، والغيوم، وأثر دخان طائرة عابرة، وقمم الأشجار خلف الزخارف الحديد للشرفة، وصورة شخصية لها في السرير.

بسبب بقع على المرآة وبسبب شعرها القصير، كانت تشبه صبيّاً مصاباً بجدري الماء...

رسمت من جديد كما كانت تتنفّس. كانت تقلّب الصفحات من دون تفكير وتتوقّف فقط لكي تصبّ القليل من الحبر الصيني في كوبٍ صغير وتعيد تعبئة مضخّة قلمها. لم تشعر بنفسها بهذا القدر من الهدوء والحيوية منذ سنوات...

ولكن، ما كانت تحبّه أكثر من أيّ شيءٍ آخر، هي مواقف فيليبير. كان مأخوذاً للغاية بقصصها، كان وجهه يصبح فجأةً معبّراً جداً، ومتّقداً جداً أو حزيناً جداً (آه! هذه المسكينة ماري أنطوانيت...) بحيث كانت تطلب منه الإذن لكي ترسمه.

Twitter: @ketab_n

طبعاً، تمتم قليلاً بشأن الشكل ثمّ سرعان ما نسي صخب الريشة التي كانت تجري على الورق.

أحياناً، كان المقطع يقول:

- ولكنّ مدام ايتانب لم تكن عاشقة من نوع مدام شاتوبريان، لم يعد الحبّ الجسماني يكفيها قط. إنّها تحلم قبل كلّ شيء بالحصول على الهبات لها ولعائلتها. والحال أنّ لديها ثلاثين أخاً وأختاً... شرعت في العمل، بشجاعة...

«إنّها بارعة، وأجادت الاستفادة من كلّ لحظات التوقّف التي تركتها لها الحاجة إلى الاستراحة بين عناقين، لتنتزع من الملك، المنتشي واللاهث، كلّ التعيينات أو الترقيات التي تريدها.

وفي النهاية، تقلّد جميع آل بيسلو وظائف مهمة وعموماً كنسية لأنّ عشيقة الملك كانت «متديّنة»...

«أنطوان سيغان، خالها، أصبح قسّ فلوري- سور- لوار، أسقف أورليان، كاردينالاً، وأخيراً مطران تولوز. شارل دو بيسلو، شقيقها الثاني، حصل على دير بورغوي وأسقفية كوندوم...».

رفع رأسه:

- أسقفية كوندوم... اعترفي أنّ هذا مضحك...

وأسرعت كاميل إلى رسم تلك الابتسامة، ذلك الانبهار المسلّي لصبيٍّ كان يقلّب صفحات تاريخ فرنسا كما يتصفّح آخرون مجلّة عادية.

أو كان يقول:

- ... وإذ أصبحت السجون غير كافية، فتح كاريبه،

Twitter: @ketab_n

المستبدّ المطلق السلطة، والمحاط بمساعدين جديرين به، سجوناً جديدة واستولى على سفنٍ في الميناء. وسرعان ما فتكت الحمّى الصفراء بآلاف الأشخاص المعتقلين في ظروفٍ فظيعة. وإذ لم تعمل المقصلة بالسرعة الكافية، أمر الحاكم الطاغية بإعدام الآلاف من السجناء رمياً بالرصاص وضمّ إلى فصائل الإعدام «كتيبة دافنين». ثمّ ولأنّ السجناء ظلّوا يتوافدون على المدينة، اخترع أحواض الإغراق.

من جهته، كتب العميد فيسترمان: «لم تعد هناك مقاطعة فاندي، مواطنون جمهوريون. لقد ماتت، تحت سيفنا الحرّ، بنسائها وأطفالها. لقد دفنتها المستنقعات في غابات سافناي. بحسب الأوامر التي أمرتني بها، قمتُ بسحق الأطفال تحت حوافر الخيل ونكّلتُ بالنساء اللواتي على الأقل سوف لن ينجبن بعد الآن قطّاع طرق. لم أترك سجيناً يعتب عليّ».

ولم يعد هناك أيّ شيء يرسَم سوى ظلٍّ على وجهٍ مضطرب.

- أترسمين أم تصغين إليّ؟

- أصغي إليك وأرسم...

- فيسترمان ذاك... هذا الوحش الذي خدم بلده الجميل الجديد تماماً بكثيرٍ من الحماسة، تخيّلي إذاً أنّه سيُعتَقَل مع دانتون بعد ذلك ببضعة أشهر وسيُقطع رأسه معه...

- لماذا؟

- اتُّهِم بالتخاذل... كان رجلاً بارداً...

في أحيانٍ أخرى، كان يطلب الإذن للجلوس في كرسيٍّ منجّد بقرب السرير وكان الاثنان يقرآن بصمت.

Twitter: @ketab_n

- فيليبير؟

- امممم...

- بطاقات البريد؟

- نعم...

- هل سيستغرق هذا وقتاً طويلاً؟

- عفواً؟

- لماذا لا تجعل منها مهنتك؟ لماذا لا تحاول أن تصبح مؤرّخاً أو أستاذاً؟ سيكون لك الحقّ في الغوص داخل كلّ هذه الكتب خلال ساعات عملك، بل وستقبض أجراً على القيام بذلك!

وضع كتابه على المخمل الرثّ لركبتيه العظميتين ورفع نظارته ليفرك عينيه:

- لقد حاولت... لدي إجازة في التاريخ وتقدّمت ثلاث مرّات لمسابقة الدخول إلى **مدرسة الشرائع**، ولكنني رسبتُ في كلّ دورة...

- ألم تكن مؤهّلاً؟

احمرّ خجلاً:

- أوه بلى! أقصد... أقصد... أعتقد ذلك بتواضع، ولكنني... لم أستطع قط تجاوز امتحان... أنا مغمومٌ جداً... في كلّ مرّة، أفقد النوم، والرؤية، وشعري، بل وأسناني! وكل سُبُلي. أقرأ الموضوعات وأعرف الإجابات ولكنني أعجز عن كتابة سطر. أقف مذهولاً أمام ورقة الاختبار...

Twitter: @ketab_n

- ولكنّك حصلت على الشهادة الثانوية؟ وإجازتك الجامعية؟

- نعم، ولكن بأيّ ثمن... وليس من المرّة الأولى أبداً... ومن ثمّ كان ذلك سهلاً بالفعل في نهاية المطاف... نلتُ إجازتي الجامعية من دون أن أضع قدمي قطّ في جامعة السوربون، ومن دون أن أذهب للاستماع إلى المحاضرات العظيمة لكبار الأساتذة الذين كنتُ معجباً بهم والذين لم تكن لهم أيّ علاقة ببرنامجي...

- كم كان عمركَ؟

- ستّة وثلاثين عاماً.

- ولكن، بوجود إجازة، قد تستطيع أن تدرّس في هذه الفترة، أليس كذلك؟

- هل تتخيّلينني في قاعةٍ مع ثلاثين تلميذاً؟

- نعم.

- كلا. إنّ مجرّد فكرة أن أتوجّه لجمهورٍ، مهما يكن محدوداً، تجعلني أتصبّب عرقاً بارداً. أنا... أعاني من مشكلة... مشكلة التكيّف الاجتماعي، أعتقد...

- ولكن في المدرسة؟ حينما كنتَ صغيراً؟!

- لم أذهب إلى المدرسة إلّا بدءاً من السادسة من عمري. وذهبت إلى مدرسة داخلية، وعلاوة على ذلك... كانت سنة فظيعة. كانت أسوأ سنوات عمري... وكأنه ألقي بي في بركة كبيرة وأنا لا أجيد السباحة...

- وبالتالي؟

Twitter: @ketab_n

- وبالتالي لا شيء. ما زلتُ لا أجيد السباحة.

- بالمعنى الحقيقي أم بالمعنى المجازي؟

- بالمعنيين، سيّدي الجنرال.

- ألم يعلّمك أحدٌ السباحة؟

- كلا. لماذا أتعلّمها؟

- أوه... لكي تسبح...

- ثقافياً، نحن ننحدر من جيلٍ من جنود المشاة ومن جهة أخرى، أنتِ تعلمين...

- ما هذا الكلام؟ لا أحدّثك عن شنّ معركة! أحدّثك عن الذهاب إلى شاطئ البحر! ثمّ لماذا لم تذهب إلى المدرسة في عمرٍ أبكر؟

- كانت أمّي هي التي تدرّسنا...

- مثل والدة سان لويس؟

- تماماً.

- ماذا كانت تُدعى؟

- بلانش دو كاستيل.

- هكذا. ولماذا؟ كنتم تسكنون بعيداً جداً؟

- كانت هناك مدرسة قروية في القرية المجاورة، ولكنني لم أبقَ فيها إلّا بضعة أيام...

- لماذا؟

- لأنّها كانت قروية بحقّ...

- آه! دائماً حكاية رجال الشرطة هذه، هذا صحيح؟

Twitter: @ketab_n

- هذا صحيح...

- ولكن كان ذلك منذ قرنين! لقد تطوّرت الأمور منذ ذلك الحين!

- تغيّرت، هذا أكيد. ولكن تطوّرت... أنا... لستُ متأكّداً من ذلك...

- ...

- هل صدمتكِ؟

- كلا، كلا، أنا أحترم... أحترم...

- مبادئي؟

- نعم، إن شئت، إن كانت هذه الكلمة تناسبك، ولكن ماذا تفعل إذاً لكي تعيش؟

- أبيع بطاقات بريد!

- هذا جنون... هذا شيءٌ من البلاهة...

- أنتِ تعلمين، مقارنةً مع والديّ، أنا متطوّرٌ... جداً، كما تقولين، لقد أخذت مسافةً عنهما بعد كلّ حساب...

- كيف هما والداك؟

- بحالٍ جيدة...

- أهما متحجّران؟ محنّطان؟ غارقان في قارورة من الفورمالين مع زهور الزنبق؟

- في الواقع هناك شيءٌ من هذا...

- طمئنّي، ألا يتنقّلان على كرسيٍّ يحمله حمّالون؟!

- كلا، ولكن هذا لأنّهما لم يعودا يعثران على حمّالين!

Twitter: @ketab_n

- ماذا يفعلان؟

- عفواً؟

- ما هو عملهما؟

- من ملاكي الأراضي.

- فقط؟

- هذا عملٌ كثير، تعلمين...

- ولكن أوه... أنتم أثرياء جداً؟

- كلا. على الإطلاق. بل على العكس...

- هذه الحكاية لا تُصدّق... وكيف خرجت من المدرسة الداخلية.

- بفضل غافيو.

- ومَنْ يكون هذا؟

- هذا ليس شخصاً، وإنّما قاموسٌ لاتيني ثقيل جداً دسسته في حقيبتي المدرسية واستخدمته وكأنّه مقلاع. كنتُ أمسك بحقيبتي من حمّالته وألوّح به و... أصرخ بصوتٍ عالٍ! كنتُ أهاجم العدو...

- فإذاً؟

- إذاً، ماذا؟

- واليوم؟

- حسناً عزيزتي، اليوم المسألة بسيطة جداً، أمام ناظريكِ نسخة رائعة من Homo Dégénéraris أي الإنسان غير الجدير بالحياة وسط المجتمع، المختل، الأخرق، والبالي تماماً.

Twitter: @ketab_n

كان يضحك.

- وماذا ستفعل؟

- لا أدري.

- ستراجع طبيباً نفسياً؟

- كلا، ولكنني التقيتُ فتاةً هناك حيث أعمل، فتاة مجنونة مضحكة ومتعِبة ألحّت عليّ بمرافقتها ذات مساء إلى درسها في المسرح. وقد تحرّت عن كلّ الأطباء النفسيين المحتملين والذين يمكن تخيّلهم وأكّدت لي أنّ هذا هو المسرح الأكثر فاعلية...

- حقّاً؟

- هذا ما تقوله...

- ولكن عدا ذلك، لا تخرج أبداً؟ ليس لديك أصدقاء؟ ولا أيّ صلة بأحد؟ لا... لا صلات مع القرن الحادي والعشرين؟

- كلا. ليس إلى هذا الحدّ... وأنتِ؟

5

استعادت الحياة إذاً مجراها. تحدّت كاميل البرد عند هبوط الليل، واستقلّت المترو بالاتجاه المعاكس للحشود المثابرة وتأمّلت في كل تلك الوجوه المنهكة.

تلك الأمهات النائمات فاغرات الفم على زجاج النوافذ المغطى بالبخار قبل الذهاب لجلب أبنائهن من مناطق شبيهة بالسرادق في الدائرة السابعة. وأولئك السيّدات بمجوهراتهن الرخيصة واللواتي يقلّبن بجفاء صفحات مجلّتهنّ **تيلي سيت جور**

Twitter: @ketab_n

(Télé 7 Jours) وهنّ يبلّلن سباباتهنّ المدبّبة، أولئك السادة بأحذيتهم الموكاسان الرشيقة وجواربهم الطريفة الذين يسلّطون الضوء على عروض مستبعدة وهم يلهثون بصخب. وأولئك الموظّفون الشبّان من ذوي البشرة الدهنية الذين يتلهّون بتكسير القرميد على أجهزة كومبيوتر محمولة مشتراة بالتقسيط...

وكلّ الآخرين، الذين ليس لديهم أيّ شيء يقومون به سوى التشبّث غريزياً بأعمدة الاستناد لكي لا يفقدوا توازنهم... الذين لا يرون شيئاً ولا أحداً. ولا إعلانات عيد الميلاد - أيام ذهبية، هدايا ذهبية، سلمون بلا مقابل وكبد إوزّ بأسعار الجملة -، لا صحيفة جارهم، ولا الرعديد الآخر بيده الممدودة وأنينه الأخنّ المبتذل، ولا حتى تلك الشابّة الجالسة قبالتهم تماماً، المنهمكة في رسم نظراتهم الكئيبة وثنايا معاطفهم الرمادية...

ومن ثمّ، تبادلت كلمتين أو ثلاث كلمات عادية مع ناطور العمارة، وبدّلت ثيابها ممسكة بعربتها، ارتدت بنطالاً دافئاً عادياً وبلوزة من النيلون الفيروزي مكتوبٌ عليها **محترفون في خدمتكم** وتدفّأت شيئاً فشيئاً وهي تنشط كمتفانية قبل أن تأخذ من جديد جرعة من البرد، وعدداً لا يُحصى من السجائر والمترو الأخير.

حينما لمحتها، دسّت جوزي الرائعة قبضتيها عميقاً في جيبيها ورمتها بابتسامة هازئة رقيقة.

قالت متذمّرة:

- نحيلة جداً... ها هنا شبحٌ... لقد خسرتُ عشرة يورو...

- عفواً؟

Twitter: @ketab_n

- رهانٌ مع الفتيات... اعتقدتُ أنّكِ لن تعودي...

- لماذا؟

- لا أدري، شيءٌ ما شعرتُ به هكذا... ولكن حسناً، لا مشكلة، سوف أدفع، إذاً! هيا، هذا ليس كلّ شيء، ولكن يجب الذهاب إلى هناك. مع هذا الطقس الرديء، يجعلوننا ننفر من كلّ شيء. هذا ما يجعلنا نتساءَل إن تعلّم أولئك الناس في حياتهم أن يقدّموا لأنفسهم حصيراً... أرني هذا، أرأيت البهو؟

كانت مامادو تجرجر قدميها:

- أوه، لقد نمتِ هذا الأسبوع مثل طفلٍ رضيعٍ بدين، أهذا صحيح؟

- كيف عرفتِ؟

- بسبب شعرك. لقد نما بسرعة كبيرة...

- أأنتِ بخير؟ لا تبدين بصحة جيدة؟

- لا بأس، لا بأس...

- ألديكِ هموم؟

- أوه هموم... لدي أطفال مرضى، زوجٌ يقامر بأجره، وشقيقة زوجي تثير أعصابي، وجارٌ يتغوّط في المصعد، والهاتف مقطوع، ولكن عدا ذلك أنا بخير...

- لماذا فعل ذلك؟

- مَنْ؟

- الجار؟

- لا أعرف لماذا، ولكنّني حذّرته وفي المرّة القادمة، سأطعمه

Twitter: @ketab_n

غائطه! يمكنكِ تصديقي في هذا! وهذا يجعلكِ تهزلين...

- وما بهم أطفالكِ؟

- أحدهم يسعل والآخر يعاني من التهابٍ معوي... حسناً، هيّا... لنكفّ عن الحديث عن كلّ هذا لأنّ هذا يؤلمني جداً وحينما أتألّم، لا أعود أصلح لأيّ شيء...

- وشقيقك؟ ألا يستطيع معالجتهم بكلّ تمائمه؟

- والشعر؟ ألا تعتقدين بأنّه قد يراه رابحاً أيضاً؟ أوه، كلا، لا تحدّثيني عن هذا الذي لا يصلح لشيء، هيّا...

لا بدّ أنّ خنزير الطابق الخامس قد أُغضِب وكان مكتبه شبه مرتّب. رسمت كاميل ملاكاً في ظهره جناحان يخرجان من بزّته وحوله هالة جميلة.

في الشقّة أيضاً، بدأ كلٌّ يأخذ معالمه. تحوّلت حركات الضيق التي ظهرت في البداية، ورقصة الباليه المتعثرة تلك، وكلّ حركاتهما القلقة، إلى إيقاعٍ رزين وروتيني لعلاقتهما.

كانت كاميل تستيقظ في وقتٍ متأخّرٍ من الصباح، ولكنّها كانت تتهيّأ دائماً لتكون في غرفتها نحو الساعة الثالثة حينما يعود فرانك. كان هذا الأخير يغادر ثانية نحو الساعة الخامسة والنصف ويصادف أحياناً فيليبير على الدرج. كانت تشرب معه كوب شاي أو تتناول عشاءً خفيفاً قبل أن تذهب وتعمل بدورها ولا تعود أبداً قبل الساعة الواحدة فجراً.

لم يكن فرانك ينام قط في تلك الساعة، كان يستمع إلى الموسيقى أو يشاهد التلفاز. وتنساب روائح العشب الفائحة من تحت باب غرفته. فتتساءل كيف استطاع الحفاظ على هذا الإيقاع

Twitter: @ketab_n

لرجلٍ طائش وسرعان ما تجد الجواب: لم يحافظ عليه.

فكان ذلك الإيقاع، حتماً، ينكسر أحياناً. فيطلق صرخةً وهو يفتح باب الثلاجة لأنّ الأطعمة غير مرتّبة أو غير مغلّفة جيّداً، فيضعها على الطاولة وهو يقلب إبريق الشاي وينعتهما بكلّ الألقاب:

- اللعنة! كم مرّة يجب أن أقول لكما؟ الزبدة، يجب وضعها في زبدية لأنّها تلتقط كلّ الروائح! والجُبن أيضاً! الفيلم الغذائي لم يُصوّر للكلاب، سحقاً! وهذا، ما هذا؟ خسّ؟ لماذا تركتماه في كيسه البلاستيك؟ البلاستيك، يُفسد كلّ شيء! لقد قلت لك ذلك من قبل، يا فيليبير! أين كلّ العلب التي جلبتها لك ذاك اليوم؟ حسناً، وهذا؟ الليمون الحامض، هنا... ماذا يفعل في خانة البيض؟ إنّ ليمونة مخدوشة تهترئ أو تنقلب على صحنٍ.

ثمّ كان يغادر مع جعته وينتظر المجرمان انفجار الباب لكي يستأنفا مجرى حديثهما:

- ولكنّها حقاً قالت: «**إن لم يعد هناك خبز، أعطوهم فطائر الحلوى...**».

- طبعاً لا... لم تلفظ قط حماقة كهذه... كانت امرأة ذكية جداً، تعلمين...

طبعاً، سيكونان قد وضعا فنجانيهما متنهّدين وأجابها بأنّه كان غاضباً من صبيٍّ لا يأكل هنا أبداً ولا يستخدم هذا الجهاز إلا لتخزين صناديق البيرة.... ولكن كلا، لا يستحقّ الأمر عناء ذلك.

لأنّه كان صيّاحاً، إذاً فليصح.

Twitter: @ketab_n

فليصح...

ثمّ إنّه لم يكن ينتظر سوى هذا. أدنى فرصة لكي ينقضّ عليهما. عليها هي بشكلٍ خاصّ. كان يضعها نصب عينيه ويغيظها كلّما صادفها. عبثاً أمضت معظم وقتها في غرفتها، فقد كانا يحتكّان ببعضهما أحياناً فتتعرّض لمضايقاته التي كانت، بحسب مزاجها، إمّا تعكّر صفوها أو تنتزع منها ابتسامة خفيفة.

- هيه، أنتِ، ماذا هناك؟ لماذا تهزئين؟ منظري هو الذي لا يروق لكِ، أليس كذلك؟

- كلا، كلا. لا لشيء، لا لشيء...

وكانت تسارع للانتقال إلى أمرٍ آخر.

كانت تأخذ حذرها في الغرف المشتركة. فتترك ذاك المكان النظيف جداً كما ترغبون في رؤيته حين دخولكم إليه، وتحبس نفسها في الحمّام حينما يكون غائباً، وتخفي كلّ لوازم زينته، وتمسح طاولة المطبخ جيّداً وتفرغ منفضته في كيس بلاستيك تحرص على عقده قبل وضعه في الحاوية، وتحاول أن تبدو رزينة قدر المستطاع، وتتساءل أخيراً إن كانت سوف لن تذهب أبكر مما هو متوقّع...

ربّما تبرد، لا يهمّ، ربّما لا تعود تصطدم بهذا المغفّل، وهذا أفضل.

قدّم فيليبير اعتذاره:

- ولكن يا كا... كاميل... أنتِ جميلة... وأكثر ذكاءً بكثير من أن تد... تدعي نفسكِ تتأثّرين بهذا... بهذا الرجل الضخم جداً، هيّا... أنـ... أنتِ فوق كلّ هذا في نهاية

Twitter: @ketab_n

المطاف؟

- كلا بحقّ. أنا في نفس المستوى بالضبط. ولذلك، أتلقّى كلّ شيء في وجهي.

- كلا! بالطبع لا! لستما من طينة واحدة، في النهاية! هل سبق لكِ و... وشاهدتِ كتابته؟ هل سبق لكِ وسمعتِه يضحك وهو يصغي إلى بذاءات مقدّم البرامج الواهن ذاك؟ هل سبق لكِ ورأيتيه يقرأ غير النشرة المخصّصة للدراجات النارية المستعملة؟ مهـ... مهلاً، ولكن كأنّ عمر هذا الصبي سنتان على المستوى العقلي! ليس له في الأمر يد، المســ... المسكين... أتـ... أتصوّر أنّه قد دخل إلى مطبخٍ وهو صغير جداً ولم يخرج منه أبداً منذ ذلك الحين... وبالتالي، ار... ارجعي... وكوني أكثر تسامحاً، أكـ... أكثر «بروداً» كما تقولين...

- ...

- هل تعلمين بماذا أجابتني والدتي حينما تجرأت على أن أذكر - باز... بازدراء - جزءاً يسيراً من الأهوال التي تعرّضتُ لها من قبل رفيقي الصغير في الغرفة؟

- كلا.

- «اعلم، يا بنيّ، أنّ لعاب الضفدع لا يبلغ الحمامة البيضاء»، هذا ما قالته لي...

- وهل خفّف عنك ذلك؟

- إطلاقاً! على العكس!

- جيّد، أنت ترى...

- نعم، ولكنّكِ، لستِ كذلك. لم تعودي في الثانية عشرة من عمركِ، ومن ثمّ ليس من الوارد شرب بول سوقيٍّ بليد...

Twitter: @ketab_n

- هل أرغموك على فعل ذلك؟

- للأسف...

- ثم نعم، أفهم أنّ الحمامة البيضاء، إيه...

- كما قلتِ، الحما... الحمامة البيضاء، لم تمرّ أبداً.

ثمّ مازحها وهو يشير إلى جوزة عنقه:

- من جهة أخرى، ما زلتُ أحسُّ به هنا.

- نعم... سوف نرى...

- ثمّ الحقيقة. إنّها مُرَّة وأنتِ تعرفينها كما أعرفها: إنّه غـ... غيور. غيورٌ كنمر. ضعي نفسكِ في مكانه أيضاً... كانت الشقّة له لوحـ... لوحده، يتجوّل فيها حينما يشاء وكيفما يشاء، غالباً بالسروال الداخلي أو خلـ... خلف فتاة حمقاء متيّمة. كان بوسعه أن يصيح وأن يشتم وأن يتجشّأ على هواه. وكانت علاقتنا تنحصر في بضعة أحاديث عملية حول حالة الصنابير أو خزين ورق التواليت...

«لم أكن أخرج من غرفتي تقريباً أبداً وكنتُ أضع سدادات قطنٍ في أذنيَّ حينما أحتاج إلى التركيز. كان الملك، هنا... إلى درجة أنّه لا بدّ قد شعر بأنّه في بيته... ثمّ فجأةً، حضرتِ. ليس عليه أن يسدّ فتحة بنطاله فحسب بل علاوة على ذلك عليه أن يخضع لتواطئنا، يسمعنا نضحك أحياناً ويلتقط نتفاً من أحاديثنا التي لا بدّ أنّه لا يفهم شيئاً منها... لا بدّ أنّ هذا صعـ... صعبٌ عليه، ألا تعتقدين ذلك؟

- لم أشعر بأنّني شغلت هذا القدر من المكان...

- كلا، على العكس، أنـ... أنتِ حذرة جداً، ولكنكِ تريدين أن... أن أخبركِ... أعتقدُ أنّكِ تخدعينه...

Twitter: @ketab_n

قالت متعجبة:

- عجباً! أنا؟ أنا أخدعه؟ آمل أنّك تمزح؟ لم أشعر قط بأنني بهذه السخافة...

- إإإ..إنّه ليس مثقّفاً، هذه حقيقة، ولكنّ هذا الشخص ليس غبياً، وأنتِ لستِ من نفس نوع صديقاته الصغيرات، أنتِ تعلمين... هل صادفتِ إحداهنّ خلال وجودكِ هنا؟

- كلا.

- إذاً، سوف ترين، هذا، هذا مدهش، حقاً... مهما يكن، أرجوكِ، كوني فوق العراك. افعلي ذلك من أجلي، يا كاميل...

- ولكنني سوف لن أبقى هنا لمدّة طويلة، تعرف ذلك جيداً...

- ولا أنا. ولا هو، ولكن إلى ذلك الحين، لنحاول أن نعيش في حسنِ جوارٍ... العالم مرعب كفاية من دوننا، أليس كذلك؟ ثمّ إنّكِ تجعـ ... تجعلينني أتلعثم حينما تتفوّهين بحما... حماقات...

نهضت لكي تطفئ الغلاية.

- يبدو أنّكِ لم تقتنعي...

- بلى، بلى، سأحاول. ولكن، حسناً، لستُ موهوبة جداً في علاقات القوّة... عموماً أستسلم قبل أن أبحث عن المبررات...

- لماذا؟

Twitter: @ketab_n

- لأنّ.

- لأنّ هذا أقلّ تعباً؟

- نعم.

- هذه ليست استراتيجية صحيحة، صدّ.. صدّقيني. على المدى الطويل، هذا سيدمّركِ.

- لقد دمّرني هذا.

- بشأن الاستراتيجية، سأحضر مؤتمراً مثيـ... مثيراً حول الفنّ العسكري لنابليون بونابرت في الأسبوع القادم، أتريدين أن ترافقيني؟

- كلا، ولكن هيّا، تفضّل، أنا أصغي إليك: حدّثني عن نابليون...

- آه، هذا موضوع واسع... أترغبين في شريحة من الليـ... الليمون؟

- مهلاً، يا ظريف! لم أعد ألمس الليمون! لم أعد ألمس شيئاً...

تهدّدها بصمت:

- فو... فوق العراك، قلتُ ذلك.

6

مأوى **الزمن المستعاد** للعجزة، مكانٌ سيهلك فيه الجميع، كان ذلك فعلاً مقبولاً كاسم... مهما يكن...

كان فرانك على مزاج سيئ. لم تعد جدّته توجّه له الكلام منذ أن عاشت هنا واضطرّ لأن يعصر دماغه لكي يجد أشياءً

Twitter: @ketab_n

يرويها لها. في المرّة الأولى، فوجِئ فرانك وراقبا بعضهما ككلبين من خزف طيلة فترة ما بعد الظهيرة... وفي النهاية، تسمَّر أمام النافذة وعلّق بصوت مرتفع على ما يحدث في موقف السيارات: العجائز الذين يُنقلون في سيارات والذين يُنزَلون منها والأزواج الذين يتشاتمون والأطفال الذين يركضون بين السيارات، الصبي الذي تلقّى صفعة خفيفة والفتاة التي تبكي وسيارة بورش ذات السطح القابل للطي، وسيارة دوكاتي، وسيارة بي إم دبليو 5 الجديدة وحركة عربات الإسعاف المتواصلة جيئة وذهاباً. نهارٌ مثيرٌ حقّاً.

كانت السيّدة كارمينو هي التي تكفّلت بعملية نقل الجدّة من المستشفى وقد وصلت بسهولة يوم الاثنين الأوّل من دون أن تشكّ للحظة في ما كان ينتظرها...

المكان أوّلاً... لأسبابٍ مالية، رجع إلى دار عامّة للعجزة بنيت على عجلٍ على تخوم المدينة بين أحد مطاعم سلسلة بوفالو غريل ومكبٍّ للنفايات الصناعية. منطقة تنظيم متّفق عليها، منطقة لا حول ولا قوّة لها، منطقة لها أولوية التمدين، قذارة. كتلة كبيرة من القذارة وضعت وسط مكانٍ ما. تاه ودار لأكثر من ساعة وسط المهاجع العملاقة وهو يبحث عن اسم شارعٍ لم يكن موجوداً ويقف عند كلّ مستديرة في محاولة لحلّ طلاسم مخططات غير مفهومة، وحينما وقف في النهاية ورفع قبّعته، كاد أن يُرفَع عن الأرض بفعل ريحٍ عاصفة. «كلا، ولكن، ما هذا الهذيان؟ منذ متى يُسكَن العجائز وسط التيارات الهوائية؟ لطالما سمعتُ أنّ الريح تنهش رؤوسهم، أنا... أوه اللعنة... أخبِروني

Twitter: @ketab_n

أنّ هذا غير صحيح... أنّها ليست هنا... الرحمة... أخبروني أنني مخطئ....

كانت الحرارة لاهبة مهلكة، وحالما اقترب من غرفتها، شعر بأنّ حلقه يضيق، يضيق، يضيق إلى درجة أنّه احتاج إلى بضع دقائق ليتمكّن من التفوّه بكلمة. كلّ هؤلاء العجائز القبيحين، الحزانى، الموهنين، المتأوّهين، النائحين، بضجيج أحذيتهم القديمة وأطقم أسنانهم الاصطناعية وصخب رشفهم للسوائل، وبطونهم الضخمة وأذرعهم المومياثية. هذا الذي في أنفه أنبوب، والآخر الذي يزقزق كالعصافير وحيداً في زاويته، وتلك، المنكمشة تماماً على نفسها على كرسيها المتحرك وكأنّها خارجة من نوبة تكزّز... تُشاهد حتى جوربيها وحفاضها...

وهذه الحرارة، اللعينة! لماذا لا يفتحون النوافذ أبداً؟ لقتلهم على نحوٍ أسرع؟

حينما عاد في المرّة التالية، أبقى على قبّعته إلى أن وصل إلى الغرفة 87 لئلا يرى كلّ تلك المناظر، ولكنّ ممرّضة صدمته وأمرته برفعها مباشرةً لأنه يخيف نزلاءها.

لم تعد توجّه له جدّته الكلام، ولكنّها تنظر إليه لكي تتحدّاه وتشعره بالخجل: «إذاً؟ أأنتَ فخورٌ بنفسك، يا صغيري؟ أجبني، أأنتَ فخورٌ بنفسك؟»، هذا ما كانت تردّده عليه بصمت بينما كان يرفع الستائر ويلقي نظرة على دراجته.

كان شديد التوتر ويعجز عن النوم. ظلّ يجرّ الأريكة إلى جانب سريرها، ويبحث عن الكلمات، عن الجمل، عن الطرائف، عن الترّهات ومن ثمّ، يقرّ بعجزه، ويدير التلفاز. لم

Twitter: @ketab_n

يكن ينظر إليها، كان ينظر إلى رقّاص الساعة خلف رأسها ويعدّ عكسياً زمن بقائه معها: بعد ساعتين سأغادر، بعد ساعة سأغادر، بعد عشرين دقيقة...

استثنائياً، جاء يوم الأحد في ذلك الأسبوع، لأنّ بوتلان لم يكن بحاجة إلى خدماته. عَبَرَ البهو كالإعصار، مكتفياً بهزّ كتفيه حينما اكتشف الديكور الجديد الصاخب جدّاً وكلّ أولئك العجائز المساكين المعتمرين لقبّعات مدبّبة.

سأل السيّدة التي استقلّت المصعد معه:

- ماذا يحدث، أهذا كرنفال؟

- يتمّ الإعداد لعرض صغير بمناسبة أعياد الميلاد... أنت حفيد السيّدة ليستافييه، أليس كذلك؟

- نعم.

- جدّتك ليست متعاونة تماماً...

- حقّا؟

- كلا. هذا أقلّ ما يقال... إنّها عنيدة جداً...

- كنتُ أعتقد بأنّها ليست هكذا إلّا معي. ظننتُ أنّها أكثر مرونةً معكم...

- أوه، إنّها لطيفة معنا. إنّها جوهرة. في لطفٍ مدهش. ولكن الأمور تسير بشكلٍ سيئ مع الآخرين... لا تريد أن تراهم وتفضّل ألا تأكل شيئاً على أن تنزل إلى قاعة الطعام المشتركة...

- ماذا إذاً؟ ألا تأكل؟

Twitter: @ketab_n

- بلى، لقد خضعنا لها... إنّها تأكل في غرفتها...

لأنّها لم تكن تنتظره إلّا في اليوم التالي، فوجِئت ولم تحظَ بفرصة ارتداء بزّة السيّدة العجوز المهانة. لمرّة واحدة، لم تكن في سريرها، مستلقية بحالة سيئة ومستقيمة كوتدٍ، بل كانت جالسة أمام النافذة تخيّط شيئاً ما.

- جدّتي؟

أُف، ستكون قد أرادت أن تتخّذ هيئتها البائسة ولكنّها لم تستطع الامتناع عن أن تبتسم له.

- أتشاهدين المنظر الطبيعي؟

كادت أن تقول له الحقيقة: «أتسخر منّي؟ أيّ منظر؟ كلا. كنتُ أترقّبك، يا عزيزي. أمضي أيامي بانتظارك... حتى حينما أعلم أنّك سوف لن تأتي، أقف هنا. أقف دائماً هنا... أنت تعلم، تعرّفت الآن على ضجيج الدراجة النارية من بعيد وانتظرت أن ترفع قناعك لكي أندسّ في سريري وأستقبلك...»، ولكنّها عدلت عن ذلك واكتفت بالدمدمة.

جلس عند قدميها واتّكأ على جهاز التدفئة.

- كيف حالك؟

- اممم.

- ماذا تفعلين؟

-...

- هل أنتِ مستاءة منّي؟

-...

ظلّا صامتين لأكثر من ربع ساعة، ثمّ حكّ رأسه، أغمض

Twitter: @ketab_n

عينيه، تنهّد، وحاد عن مكانه قليلاً ليجد نفسه أمامها تماماً، وقال بصوتٍ رتيب:

- اسمعيني، يا بوليت ليستافييه، اسمعيني جيّداً:

«كنتِ تعيشين وحيدة في منزلٍ كنتِ تعشقينه وكنتُ أنا أيضاً أعشقه. في الصباح، تستيقظين في الفجر وتحضّرين القهوة وتشربينها وأنتِ تنظرين إلى لون الغيوم لتعرفي الطقس الذي سيكون. ثمّ كنتِ تعيشين عالمكِ الصغير، أليس كذلك؟ هرّك، هررة الجيران، طيور أبي الحنّاء، طيور القرقب، وكل أنواع عصافير الدوري. كنتِ تمسكين بمقصّكِ وتقومين بتزيين منزلك بزهورك قبل أن تتزيّني. كنتِ تلبسين وتنتظرين مرور ساعي البريد أو اللحّام. ميشيل الضخم، ذلك الغشّاش الذي كان يعطيكِ دائماً شرائح وزنها 300 غرام حينما كنتِ تطلبين شرائح وزنها 100 غرام في حين كان يعلم أنّكِ لم تعودي تملكين أسناناً... أوه! ولكنّكِ لم تكوني تقولين شيئاً. كنتِ تخافين كثيراً أن ينسى أن يزمّر الثلاثاء التالي... وكنتِ تسلقين ما تبقّى لكي تعطي نكهة لحسائك المركّز. نحو الساعة الحادية عشرة، كنتِ تأخذين قفّتكِ وتذهبين إلى مقهى الأب غريفو لتشتري صحيفتكِ وخبزكِ البالغ 900 غرام. منذ زمنٍ طويل ما عدتِ تأكلين منه، ولكنّكِ مع ذلك كنتِ تأخذينه... بحكم العادة... أو للطيور... كنتِ غالباً تصادفين صديقة قديمة قرأت قبلكِ الزاوية الصحافية المخصّصة للوفيات فتحدّثكِ عن موتاكِ متحسّرة. ثمّ كنتِ تزوّدينها بأخباري، حتى وإن كنتِ لا تملكينها... بالنسبة لأولئك الناس كنتُ شهيراً مثل **بوكوز**، أليس صحيحاً؟ كنتِ تعيشين وحيدة منذ ما يقارب

Twitter: @ketab_n

عشرين عاماً، ولكنكِ واظبتِ على أن تضعي شرشفاً نظيفاً وتمدّي آنية جميلة وكوباً ذا قائم وأزهاراً في مزهرية. إذا ما كنتُ أتذكّر جيّداً، كنتِ تضعين، في الربيع، شقائق النعمان، وفي الصيف أزهار مرغريت وفي الشتاء، كنتِ تشترين باقة من السوق وأنتِ تردّدين عند كلّ وجبة بأنّها قبيحة وبأنّكِ قد دفعتِ ثمنها غالياً جداً... بعد الظهر، كنتِ تأخذين قيلولة قصيرة على الأريكة وكان قطّكِ الضخم يقبل بالمجيء والتمدّد على ركبتيك للحظات. وكنتِ تنهين ما بدأتِ به في الحديقة أو في بستان الفاكهة في نفس الصباح... لم تكوني تزرعين فيه الشيء المهمّ، ولكنّه مع ذلك كان يغذّيكِ بعض الشيء وكنتِ تفرحين حينما كانت ايفون تشتري الجزر من المتجر. بالنسبة لكِ، كان ذلك قمّة العار...

كانت السهرات أكثر طولاً، أليس كذلك؟ كنتِ تأملين أن أتّصل ولكنني لم أتّصل، فتديرين التلفاز وتنتظرين أن تنتهي كلّ تلك الحماقات. توقظكِ الإعلانات متوثّبة. تجولين في البيت وأنتِ تشدّين وشاحكِ على صدركِ وتغلقين مصاريع النوافذ. وذلك الضجيج، ضجيج المصاريع التي كانت تصرّ في العتمة، لا تزالين تسمعينه اليوم وأنا أعرف ذلك لأنّ الأمر هو نفسه بالنسبة لي. أقيم الآن في مدينة متعبة جداً بحيث لم يعد يُسمع أيّ شيء، ولكن ذلك الضجيج، ضجيج المصاريع الخشب وضجيج باب السقيفة، كان يكفي لأن أرهِف السمع حتى أسمعه...

صحيحٌ أنّني لم أكن أتّصلُ بكِ ولكنني كنتُ أفكّر فيكِ،

Twitter: @ketab_n

أنتِ تعلمين... وفي كلّ مرّة كنتُ آتي فيها لرؤيتكِ لم أكن بحاجة لتقارير القديسة ايفون التي كانت تنتحي بي جانباً وهي تلامس ذراعي لتدرك أنّ كلّ هذا ذاهب... لم أكن أجرؤ على أن أقول لكِ أيّ شيء، ولكنني كنتُ أرى جيداً أنّ حديقتكِ لم تعد نظيفة كما كانت وأنّ بستانكِ لم يعد كما كان... كنتُ أرى جيّداً أنّكِ أكثر تأنّقاً وأنّ شعركِ قد اكتسب لوناً غريباً فعلاً وأنّ تنورتكِ مقلوبة. كنتُ ألاحظ أن موقدكِ متّسخٌ وأنّ البلوزات القبيحة جداً التي كنتِ تنسجينها لي كانت مليئة بالثقوب وأنّ فردتيْ جوربيكِ كانتا مختلفتين وأنّكِ كنتِ تصطدمين بكلّ مكان... نعم، لا تنظري إليّ هكذا، يا جدّتي... لطالما رأيتُ كدماتكِ التي حاولتِ إخفاءها تحت ستراتكِ...

كان بوسعي أن أفاتحكِ بكلّ هذا قبل الآن بكثير... أن أرغمكِ على مراجعة أطباء وأن أوبّخكِ لكي تكفّي عن إرهاق نفسكِ بهذه المجرفة القديمة التي لم تعودي تستطيعين حتى رفعها. كان بوسعي أن أطلب من ايفون أن تتابعكِ وتراقبكِ وترسل إليّ نتائج تحاليلكِ... ولكن كلا، قلتُ لنفسي إنَّ من الأفضل أن أدعكِ وشأنكِ وأنّ في اليوم الذي لن تعود الأمور تسير على ما يُرام، حينها على الأقل سوف لن تندمي، ولا أنا أيضاً... على الأقل ستعيشين بطريقة جيّدة. سعيدة. حتى النهاية.

والآن، جاء هذا اليوم، ها نحن فيه... وعليكِ أن تتأقلمي، يا عزيزتي. وبدل أن تخاصميني، عليكِ بالأحرى أن تفكّري في الحظّ الذي تتمتعين به في أن تعيشي لأكثر من ثمانين عاماً في دارٍ بهذا الجمال و...

Twitter: @ketab_n

كانت تبكي.

... ومن ثمّ لستِ منصفة معي. هل الذنب ذنبي إن كنتُ بعيداً وإن كنتُ وحيداً؟ هل الذنب ذنبي إن كنتِ أرملة؟ هل الذنب ذنبي إن لم يكن لكِ أولادٌ آخرين سوى أمّي العوهاء لكي يهتمّوا بكِ اليوم؟ هل الذنب ذنبي إن لم يكن لدي أخوة وأخوات لكي نتقاسم أيام زيارتكِ؟

كلا، هذا ليس ذنبي. ذنبي الوحيد هو اختياري لمهنة بهذه القذارة. ليس لي سوى العمل كمغفّل. لا يمكنني فعل أيّ شيء، والأسوأ، كما ترين، هو أنني لا أجيد فعل أيّ شيءٍ آخر ولو أردتُ ذلك... لا أدري إن كنتِ تعرفين ولكنني أعمل يومياً عدا الاثنين، ويوم الاثنين، آتي لرؤيتكِ. هيّا، لا تدّعي الدهشة... لقد أخبرتكِ بأنّني يوم الأحد أعمل لساعاتٍ إضافية لكي أدفع اقساط دراجتي النارية، وبالتالي ترين، ليس لديّ يومٌ واحد لكي أبقى نائماً حتى الضحى، أنا... أستيقظ، كلّ صباح، في الثامنة والنصف، وفي المساء، لا أغادر العمل أبداً قبل منتصف الليل... ولذلك، أضطرّ لأن أنام بعد الظهر لكي أتحمّل عبء العمل.

انظري إذاً، هذه هي حياتي: حياةٌ لا تعني شيئاً. لا أفعل شيئاً. لا أرى شيئاً. لا أعرف شيئاً. والأسوأ هو أنني لا أفهم شيئاً... في هذا الماخور، ليس هناك سوى شيء وحيد إيجابي، شيء وحيد، هذه الغرفة التي كنتُ أشمئزُّ منها عند هذا الشخص الغريب الذي غالباً ما أحدّثكِ عنه. النبيل، أتعرفين؟ حسناً، حتى هذا الأمر ساء اليوم... لقد جلب لنا فتاةً وهي تعيش معنا

Twitter: @ketab_n

الآن.. وهي علاوة على ذلك ليست حتى صاحبته! لا أدري إن كان هذا الرجل سيعجب بها ذات يوم، أو عذراً، أقصد إن كان سيخطو الخطوة.. كلا، إنّها مجرّد فتاة مسكينة أخذها في كنفه. والآن، بات الجوّ كدراً جداً في الشقّة وسأكون مضطرّاً لأن أجد لنفسي شيئاً آخر... حسناً، ولكن هذا ليس بالأمر الصعب، لقد سبق وانتقلت لعدّة مرات بحيث بات الأمر مألوفاً بالنسبة لي... سوف أتدبّر أمري... في المقابل، بالنسبة لكِ، لا أستطيع تدبّر الأمر، أتفهمين؟ لمرّة واحدة، أعمل مع رئيسٍ جيّد، وأنا أروي لكِ دائماً كيف يصرخ ويزعق ولكن هذا لا يمنع كونه شخصاً محترماً. ليس مخادعاً بل وشخصٌ طيّب... أشعر بأنّني أتطوّر فعلاً معه، أتفهمين؟ وبالتالي، لا يمكنني أن أتركه دائماً لوحده، على الأقلّ ليس قبل شهر يوليو (تموز). لقد حدّثته بشأنكِ، وأخبرته بأنني أرغب في العمل في بلدتي لكي أكون قريباً منكِ، وأنا أعرف أنّه سيساعدني، ولكنني بالمستوى الذي بلغته اليوم، لم أعد أرضى بأيّ عملٍ كان. إذا عدتُ إلى هنا، فسيكون ذلك لكي أعمل مساعداً لرئيس الطهاة في مطعمٍ فاخر، أو رئيساً للطهاة في مطعم أقلّ مستوى. لم أعد أريد العملَ خادماً، لقد أعطيتُ بما فيه الكفاية... وبالتالي عليكِ أن تصبري وتكفّي عن النظر إليّ بهذه الطريقة وإلّا سأقولها لكِ بصراحة: لن أعود آتي لرؤيتكِ.

«أكرّرها لكِ، ليس لديّ إلّا يوم واحد أعطّل فيه في الأسبوع، وإذا كان هذا اليوم سيحبطني نفسياً، سأكون في وضعٍ كارثيّ... علاوة على ذلك، ستحلّ الأعياد قريباً، وسأعمل أكثر من المعتاد، وعليكِ أن تساعديني في هذا أيضاً، سحقاً...

Twitter: @ketab_n

مهلاً، أمرٌ أخير... هناك سيّدة طيّبة أخبرتني بأنّكِ لا ترغبين في رؤية الآخرين، لاحظي جيداً، أنا أفهمك لأنّ زملاءك ليسوا شباناً، ولكنّكِ تستطيعين على الأقلّ أن تؤمّني أصغرهم سنّاً... هذا ليس صعباً، هناك بوليت أخرى، موجودة هنا، مختبئة في غرفتها وهي ضائعة أيضاً مثلكِ... ربّما هي الأخرى تريد أن تتحدّث عن حديقتها وأحفادها المدهشين، ولكن كيف تريدين أن تعثر عليكِ إن كنتِ تمكثين هنا، تحردين مثل مراهقة؟».

كانت تنظر إليه، مذهولةً.

- ها قد ارتحت. لقد قلتُ كلّ ما في قلبي والآن لم يعد بوسعي أن أنهض لأنّ قفـ... ردفاي يؤلمانني. مفهوم؟ ماذا تخيّطين؟

- أهذا أنت، يا فرانك؟ أحقاً هذا أنت؟ هذه هي المرّة الأولى في حياتي، أسمعك تتحدّث طويلاً بهذا المقدار... ألستَ مريضاً؟

- كلا، لستُ مريضاً، أنا متعبٌ فقط. أنا مرهق، أفهمتِ؟

حدّقت فيه مطوّلاً ثمّ هزّت رأسها وكأنّها قد خرجت أخيراً من غفلتها. أزاحت ما كانت تشتغل عليه:

- أوه، هذا لا شيء... هذا لناديج، فتاةٌ لطيفة تعمل هنا في الصباح. أنا أرتق لها بلوزتها... هلّا مررت الخيط في الإبرة، لأنني لم أجد نظارتي؟

- ألا تريدين الجلوس في سريركِ لكي أجلس على الأريكة؟

ما أن ارتخى حتى نام.

Twitter: @ketab_n

غطّ في نومٍ عميق.

أيقظه ضجيج صينية الطعام.

- ما هذا؟

- إنّه العشاء.

- لماذا لم تنزلي؟

- العشاء يقدّم دائماً في أسرّتنا مساءً...

- ولكن كم الساعة الآن؟

- الخامسة والنصف.

- ما هذا الهذيان؟ أيطعمونكم في الخامسة والنصف؟

- نعم، هذه هي العادة في يوم الأحد. لكي يُتاح لهم الانصراف باكراً...

- أوف، ولكن ما هذا؟ رائحة عفونة، أليس كذلك؟

- لا أعرف ما هذا وأفضّل ألّا أعرف...

- ما هذا؟ أهذا سمكٌ؟

- كلا، يُقال عنها بالأحرى بريشة البطاطس، ألا تصدّق؟

- توقّفي، لهذا رائحة السمك... وهذا، ما هذا، هذا الشيء الكستنائي؟

- فاكهة مطبوخة بالسكّر...

- أليس كذلك؟

- أجل، أعتقد...

- أأنتِ متأكّدة؟

- أوه، لم أعد أعرف...

Twitter: @ketab_n

كانا عند هذا الحدّ من تحقيقهما حول الطعام، حينما ظهرت المرأة الشابّة:

- هل قُضي الأمر؟ هل هذا طيّب؟ هل انتهيتِ من الطعام؟

قاطعها فرانك:

- مهلاً من فضلك، لقد جلبتِ لها الطعام منذ دقيقتين فقط... اتركي لها الوقت الكافي لتأكل بهدوء!

أغلقت الأخرى الباب بجفاء.

- الأمور هكذا كلّ يوم، وتكون أسوأ يوم الأحد... إنهنّ مستعجلات على المغادرة... لا يمكننا إغاظتهنّ، أفهمت؟

مسحت السيّدة العجوز أنفها.

- أوه يا جدّتي المسكينة... ولكن ما كلّ هذه الفوضى... يا لها من فوضى...

طوت منديلها.

- فرانك؟

- نعم.

- أطلب منك المغفرة...

- كلا، أنا من أطلب المغفرة. لم يسر أيّ شيء كما أردت. ولكن هذا ليس أمراً خطيراً، سأبدأ بالاعتياد منذ...

عادت المرأة الشابّة وسألت:

- هل يمكنني أن آخذ الصينية الآن؟

- نعم، نعم، هيّا...

أضاف فرانك:

Twitter: @ketab_n

- هنّئي رئيسة الطباخين، يا آنستي، كان حقّاً طعاماً لذيذاً...

- حسناً، حسناً... سوف أنصرف، إيه؟

- أتريد الانتظار إلى أن أرتدي قميص النوم؟

- هيّا.

- ساعدني كي أنهض.

سمع هدير مياهٍ في الحمّام واستدار باحتشام بينما كانت تندسّ بين أغطيتها.

أطفئ الإنارة يا عزيزي...

أنارت قنديل السرير.

- تعال، اجلس هنا، لدقيقتين...

- دقيقتان إيه؟ مكان إقامتي ليس قريباً...

- دقيقتان.

وضعت يدها على ركبته وسألته آخر سؤالٍ توقّعه:

- أخبرني، هذه الفتاة التي حدّثتني عنها للتوّ... تلك التي تعيش معكما... كيف هي؟

- إنّها بليدة، مغرورة، نحيلة وعوهاء مثل زميلها...

- عجباً...

- إنّها...

- إنّها ماذا؟

- وكأنّها فتاة متعلمة... كلا، ليس وكأنّها، إنّها فتاة متعلمة. هي وفيليبير، يظلّان محبوسين في قمقمهما وككلّ

Twitter: @ketab_n

الدارسين، هما قادران على التحدّث لساعات عن أمورٍ يسخر الجميع منها ولكن الغريب في الأمر هو أنّها مدبّرة منزل...

- حقّاً؟

- في الليل...

- في الليل؟

- نعم... قلتُ لكِ، إنّها غريبة... ولو ترين كم هي نحيفة... سوف يُعتَصَر قلبكِ شفقةً عليها...

- ألا تأكل؟

- لا أعرف عن ذلك شيئاً. لا أبالي بذلك.

- ما اسمها؟

- كاميل.

- وكيف تكون؟

- لقد سبق وأخبرتك.

- وجهها؟

- هيه، لماذا تسألينني عن كلّ هذا؟

- لأستبقيك لوقتٍ أطول... كلا، لأنّ هذا يهمّني.

- حسناً، شعرها قصير جداً، تقريباً على الصفر، كستنائي اللون... عيناها زرقاوان، على ما أعتقد. لا أعرف بالضبط... إن لونهما فاتح على كلّ حال. إنّها... أوه، ثم قلتُ لكِ إنني لا أبالي بها!

- وأنفها؟

- طبيعي.

Twitter: @ketab_n

- ...

- أعتقد أنّ لديها نمشاً أيضاً... إنّها... لماذا تضحكين؟

- لا لشيء، أصغي إليكَ...

- كلا، سأنصرف، أنتِ تثيرين حفيظتي...

7

- أكره شهر سبتمبر (أيلول). وكلّ هذه الأعياد، إنّها تنهكني...

- أعرف، يا ماما. هذه المرّة الرابعة التي تردّدين لي ذلك مذ حضرت إلى هنا...

- ألا ينهككِ ذلك؟

- وإلّا؟ هل ذهبتِ إلى السينما؟

- ماذا تريدينني أن أفعل في السينما؟

- هل نزلتِ إلى ليون بمناسبة عيد الميلاد؟

- مرغمةً... أنتِ تعرفين خالكِ... إنّه يسخر من حالي ولكن إن تخلّفت عن دجاجته الرومية، يجعل من ذلك حكاية... هل ستصاحبينني هذه السنة؟

- كلا؟

- لماذا؟

- أنا أعمل.

سألت بلهجة تهكمية:

- أتكنّسين أُبَر التنّوب؟

Twitter: @ketab_n

- بالضبط.

- أتسخَرين منّي؟

- كلا.

- لاحظي جيداً، أنا أفهمكِ... إن انتظار كلّ هؤلاء المغفّلين حول حطبة ميلادٍ لبؤسٌ كبير، أليس صحيحاً؟

- أنتِ تبالغين، إنّهم ظرفاء.

- أوف... اللطف، هذا أيضاً يضنيني، تفضّلي...

قالت كاميل وهي تدقّق في الفاتورة:

- أنا من دعوتكِ، يجب أن أغادر...

سألتها أمّها أمام مدخل المترو:

- أخبريني إذاً، هل قصصتِ شعرك؟

- كنتُ أتساءَل إن كنتِ ستلاحظين ذلك...

- هذا حقّاً بشع. لماذا فعلتِ هذا؟

نزلت كاميل السلالم بسرعة كبيرة.

بسرعة الريح.

8

عرفتْ أنّها كانت موجودة حتى قبل أن تراها. من خلال الرائحة.

أثار نوعٌ من العطر اللذيذ والحلو قلبها. توجّهت نحو غرفتها بخطى سريعة ولمحتهما في الصالون. كان فرانك مطروحاً أرضاً ويضحك عالياً وهو ينظر إلى فتاةٍ تتخلّع في مشيتها. وكان قد رفع صوت الموسيقى إلى النهاية.

Twitter: @ketab_n

ألقت عليهما التحية عرضاً:

- مساء الخير.

وهي تغلق بابها، سمعته يدمدم: «هيّا، لا تبالي، لا شأن لنا بها، قلتُ لكِ... هيّا، تحرّكي أكثر، ماذا...».

لم تكن موسيقى وإنّما صخبٌ. شيءٌ من الجنون. كانت الجدران والأركان والأرضية تهتزّ. انتظرت كاميل بضع ثوانٍ إضافية وجاءت تقاطعهما:

- يجب أن تخفّض هذا الصوت... سنقع في مشاكل مع الجيران...

توقّفت الفتاة في مكانها وأخذت تقهقه.

- هيه، يا فرانك، أهذه هي؟ أهذه هي؟ هيه أنتِ؟ أأنتِ الكونشيتا؟

حدّقت كاميل فيها مطوّلاً. كان فيليبير محقّاً: كان ذلك مدهشاً.

مزيجٌ مركّزٌ من الحماقة والسوقية. نعلان متّصلان بالساق، بنطال جينز مزخرف، حمالة نهدين سوداء. بلوزة مخرّمة، شفتان من الكاوتشوك، كانت اللوحة كاملة.

- نعم، هذه أنا.

ثمّ توجّهت كاميل إلى فرانك:

- اخفض الصوت، من فضلك...

- أوه! أنتِ تزعجينني... اذهبي... اذهبي وتغوّطي في سلّتكِ...

Twitter: @ketab_n

- أليس فيليبير موجوداً؟

- كلا، إنّه مع نابليون. هيا، قلنا لكِ اذهبي ونامي.

ضحكت الفتاة بصوتٍ أعلى.

- أين المراحيض؟ هيه أنتِ، أين المراحيض؟

- اخفض الصوت وإلّا سأطلب رجال الشرطة.

- ولكن نعم، ليكن، اطلبيهم وكفّي عن إزعاجنا. هيا! انصرفي، قلتُ لكِ!

أيّ حظّ، كانت كاميل قد أمضت لتوّها بضع ساعات مع والدتها.

ولكن فرانك لا يستطيع أن يعرف هذا...

لا حظّ، إذاً.

دارت على أعقابها، دخلت إلى غرفته وداست على ماخوره، فتحت النافذة، فصلت جهاز التسجيل ورمته من الطابق الرابع.

عادت إلى الصالون وقالت بهدوء:

- لا بأس. لم أعد بحاجة لأن أطلبهم.

ثم استدارت وقالت:

- هيه أنتِ... أغلقي فمكِ أيتها العاهرة سوف تبتلعين ذبابة.

أغلقت الباب على نفسها بالمفتاح. طبّل وزمّر وصرخ وزعق وتهدّدها بالثأر منها أسوأ ثأر. خلال ذلك الوقت، نظرت إلى نفسها بالمرآة مبتسمةً وفوجِئت بصورتها الشخصية المثيرة. للأسف

Twitter: @ketab_n

لم تكن في حالةٍ تسمح لها برسم أيّ شيء كان. كانت يداها مبلّلتين جداً...

انتظرت أن تسمع الباب يُصفق لكي تغامر في الذهاب إلى المطبخ، وتأكل بعض الطعام وتذهب إلى النوم.

أخذ بثأره وسط عتمة الليل.

نحو الساعة الرابعة، استيقظت كاميل على الجلبة الآتية من الغرفة المجاورة لها. كان ينخر وكانت تئنّ. كان يئنّ وكانت تنخر.

نهضت وظلّت واقفة للحظة وسط العتمة وهي تتساءل إن لم يكن من الأفضل أن تلمّ أغراضها على الفور وتعود إلى منزلها.

كلا، همست، كلا، سيسعده ذلك كثيراً...

يا لها من جلبة، يا إلهي، يا لها من جلبة... لا بدّ أنّهما يتكلّفان، هذا مستحيل، لا بدّ أنّه يطالبها بأن تبالغ... مهلاً، أهي مزوّدة بآلة تأوّه هذه الداعرة الغبية أم ماذا؟

لقد غلبها.

كان قراره قد اتّخِذَ.

لم يعد بوسعها أن تنام ثانيةً.

استيقظت باكراً في اليوم التالي وانشغلت بصمت. رتّبت سريرها وطوت أغطيتها وبحثت عن كيسٍ كبير لتأخذها إلى المغسلة. لملمت أغراضها وكدّستها في نفس صندوق الكرتون الصغير الذي جلبتها فيه. كانت منزعجة. لم تكن منزعجة لصعودها إلى الطابق العلوي وإنّما لتركها تلك الغرفة... رائحة الغبار، الضوء، الخفقان الخافت للستائر الحرير، الفرقعات، الستارة المعدنية، ونعومة المرآة. ذلك الشعور الغريب بوجودها

Twitter: @ketab_n

خارج الزمن... بعيدة عن العالم... كان أجداد فيليبير قد انتهوا إلى تقبّلها وكانت قد تسلّت برسمهم بطريقة مختلفة وفي أوضاعٍ مختلفة. خصوصاً المركيز العجوز، بدا أكثر غرابةً مما كان متوقعاً. أكثر ابتهاجاً... أكثر شباباً... أطفأت المدفأة وتحسّرت على غياب ركوة للقهوة. لم تجرؤ على دفعها في الممرّ فتركتها أمام باب الغرفة.

ثمّ أخذت كرّاستها، وأعدّت لنفسها كوباً من الشاي وعادت وجلست في الحمّام. كانت قد عزمت على أن تأخذها معها. كانت أجمل قطعة في البيت.

نقلت كلّ أغراض فرانك، مزيل الرائحة من طراز اكس دو مينن الرجالي، فرشاة أسنانه القديمة، شفرات الحلاقة من طراز بيك، مرهم البشرة الحساسة - وكان هذا أفضل أغراضه - وثيابه التي كانت تفوح منها رائحة الشياط. وألقت بكلّ شيء في مغطس الحمّام.

في المرّة الأولى التي دخلت فيها هذا المكان. لم تستطع الامتناع عن إطلاق كلمة تعجّبٍ صغيرة «أوه!»، وشرح لها فيليبير أنّ الأمر كان يتعلّق بطرازٍ من طرز مؤسسات بورشر يعود إلى العام 1894. نزوة من أمّ جدّه التي كانت الأكثر تأنّقاً من بين باريسيات العصر الجميل. أكثر تأنّقاً من سواها بحيث كان جدّه يندهش حينما يذكرها ويروي طيشها ومجونها...

حينما تمّ تنصيب المدفأة، اجتمع كلّ الجيران لكي يشتكوا خوفاً من أن تُمرّر عبر السقف، ثمّ لكي يبدوا إعجابهم بها وينبهروا بها. كانت الأجمل في العمارة بل ربّما في الحيّ...

Twitter: @ketab_n

كانت سليمة، قديمة ولكنّها سليمة.

جلست كاميل على سلّة البياضات المتّسخة ورسمت شكل البلاط والأفاريز والمنقوشات والمغطس الكبير بقوائمه الأربع الشبيهة بقوائم أسد بالبراثن، وصنابير الكروم القديمة، ورشّاش الماء الضخم الذي لم يقذف شيئاً منذ الحرب العالمية الأولى، وحمّالات الصابون المتّسعة مثل أجران الماء المقدّس، وحمّالات المناشف نصف المخلوعة. العبوات الفارغة، **شوكينغ دي شياباريللي، ترانسباران دوبيغان أو شيك دو مولينوكس،** علب مسحوق الأرزّ من ماركة **ديافان،** السوسن الأزرق الممتدّ على طول حوض الاغتسال والمغاسل المتقنة والمزخرفة والمحمّلة بالكثير من الزهور والطيور بحيث احتارت على الدوام في وضع حقيبة زينتها البشعة على الرفّ المصفرّ. كان حوض المراحيض قد اختفى، ولكن حوض طرادة الماء كان لا يزال مثبتاً على الجدار وأنهت جردها برسم طيور السنونو المرفرفة هناك في العلى منذ أكثر من قرن.

أوشك دفترها أن ينتهي. كانت لا تزال فيه صفحتان أو ثلاث. . .

لم تمتلك الشجاعة على تصفّحه ورأت فيه ما يشبه إشارة. فنهاية الدفتر هي نهاية العطلة.

غسلت كوبها وغادرت المكان مغلقةً الباب بكلّ هدوء. في حين كانت شراشفها ترفرف، ذهبت إلى متجر دارتي أسفل متجر مادلين واشترت جهاز تسجيل لفرانك. لم تشأ أن تدين له بأيّ شيء. لم تحظ بالوقت لترى ماركته وركنت لمساعدة البائع.

Twitter: @ketab_n

كانت تحبّ كثيراً هذا، الركون للمساعدة. . .

حينما عادت، كانت الشقّة فارغة. أو صامتة. لم تحاول أن تعرف. وضعت صندوق الكرتون من طراز سوني أمام باب جارها في الممرّ، ووضعت الشراشف على سريرها القديم، حيّت معرض الأجداد، أغلقت مصراعَيْ الباب وجرجرت المدفأة إلى المكتب. لم تعثر على المفتاح. حسناً، وضعت صندوقها الكرتون فوق المدفأة وكذلك غلايتها، وغادرت إلى عملها.

حينما حلّ المساء وبدأ البرد يفعل فعله المحزن، شعرت بأنّ فمها يجفّ وبطنها يصبح قاسياً: بذلت جهداً تخيّلياً كبيراً لئلا تبكي وانتهت إلى الاقتناع بأنّها كانت مثل والدتها: ساخطة على الأعياد.

عملت بمفردها وبصمت.

لم تعد ترغب كثيراً في السفر. كان عليها أن تعود إلى الواقع. ولم تنجح في ذلك.

كانت ستصعد إلى هناك في الطابق العلوي، في غرفة لويز لودوك الصغيرة، وتضع حقيبتها.

أخيراً.

انتزعتها كلمة موجزة على مكتب السيّد لانسيانغوريه من أفكارها القذرة. كانت عبارة سوداء ومتراصة تسأل:

- مَنْ أنتِ؟

وضعت بخّاخ الملمّع وخرق المسح، وجلست في أريكة جلدية كبيرة وبحثت عن ورقتين بيضاوين.

على الأولى رسمت ما يشبه شخصية بات هيبولير الكرتونية، أشعث وأدرد. والذي كان يستند على مكنسة وهو يبتسم بخبث.

Twitter: @ketab_n

وتخرج من جيب بلوزته شرابةٌ حمراء مكتوبٌ عليها، **توكلين، محترفون، الخ**. وكان يؤكّد: **حسناً، هذا أنا**...

وعلى الورقة الأخرى، رسمت فتاة فاتنة من سنوات الخمسينات. يدها على وركها، مزمومة الفم، تلفّ ساقاً على ساق، صدرها مضغوطٌ في صدارٍ جميلة من الدانتيلا. كانت تمسك بريشة وتكتب: **ولكن كلا، لنرَ... هذه أنا**...

استخدمت قلماً من ماركة ستابيلو لتلوّن خدَّيها باللون الوردي...

بسبب هذه الحماقات، تخلّفت عن آخر رحلة للمترو وعادت سيراً على القدمين. باخ، كان ذلك أفضل... إنّها إشارة أخرى... كادت أن تلامس القاع، ولكن ليس تماماً، أكان ذلك صحيحاً؟

جهدٌ آخر.

بضع ساعات أخرى في البرد وسيكون الأمر جيداً.

حينما دفعت بوابة العربات، تذكّرت أنّها لم تكن معها مفاتيحها وأنّ عليها وضع أغراضها على درج الخدمة.

وربّما كتابة كلمة موجزة لمضيفها؟

توجّهت نحو المطبخ، وصُدِمت لرؤية ضوءٍ فيه. إنّه بالتأكيد السيد ماركيه دو لا دوربيلبير، الفارس ذو الوجه الحزين، وفي فمه بطاطس ساخنة، وسيلقي عليها حججه الواهية لاستبقائها. لبرهةٍ، فكّرت أن تعود على أعقابها. لم تتوفّر على الشجاعة لتصغي إلى أفكارها المضطربة. ولكن حسناً، نظراً لاحتمال ألّا تموت هذه الليلة، كانت بحاجة إلى جهاز التدفئة خاصته...

Twitter: @ketab_n

9

وقف عند الطرف الآخر من الطاولة وهو يلعب بعلبة البيرة الموضوعة أمامه.

أغلقت كاميل يدها على مقبض الباب وشعرت بأن أظافرها تغور في راحة كفّها.

قال لها:

- كنتُ أنتظركِ.

- حقّاً؟

- نعم...

- ...

- ألا تريدين الجلوس؟

- كلا.

ظلّا هكذا، صامتين، لوقتٍ طويل.

سألت أخيراً:

- ألم ترَ مفاتيح الدَرَج الصغير؟

- في جيبي...

تنهّدت:

- أعطني إياها.

- كلا.

- لماذا؟

- لأنني لا أريد أن تغادري. أنا مَنْ سأنسحب... إن غبتِ عن هنا، سيخاصمني فيليبير حتى مماته... اليوم فقط، حينما

Twitter: @ketab_n

رأى صندوقكِ الكرتون، صدع رأسي ومنذ ذلك الحين، لم يبارح غرفته... وبالتالي سأنصرف. ليس من أجلكِ، وإنّما من أجله. لا يمكنني أن أفعل به هذا. سيعود مثلما كان وهذا ما لا أريده. إنّه لا يستحقّ هذا. لقد ساعدني حينما كنتُ في ضيقٍ ولا أريد الإساءة إليه. لم أعد أريد أن أراه يتألّم ويتلوّى كدودة كلّما طرح أحدهم عليه سؤالاً، لم يعد هذا ممكناً... كانت حالته قد تحسّنت قليلاً قبل وصولكِ ولكن مذ أتيتِ أصبح شبه طبيعي وأنا أعرف أنّه قد قلّل من تناول الأدوية... لستِ بحاجة لأن ترحلي... أنا، لديّ صديقٌ يمكنه أن يأويني بعد الأعياد...

خيّم الصمت.

- هل يمكنني أن آخذ منك علبة بيرة؟

- تفضّلي.

سكبت كاميل لنفسها كوباً وجلست قبالته.

- هل يمكنني أن أشعل لنفسي عقب سيجارة؟

- تفضّلي، قلتُ لكِ. تصرّفي وكأنني لم أعد موجوداً...

- كلا، لا يمكنني فعل هذا. هذا مستحيل... حينما تكون في غرفةٍ، يكون الجوّ مكهرباً، يكون هناك الكثير من العدوانية بحيث لا يسعني أن أكون طبيعية، و...

- وماذا؟

- وأنا مثلك، تخيّل، أنا متعبة. لا لنفس الأسباب، أتصوّر... أنا أعمل أقلّ، ولكن الأمر مشابه. هذا شيءٌ آخر ولكنّه مشابه. رأسي هو المتعب، أفهمت؟ علاوة على ذلك، أريد أن أغادر. لقد أدركتُ جيداً أنّني لم أعد قادرة على أن أعيش حياة مشتركة وأنا...

Twitter: @ketab_n

- أنتِ؟

- كلا لا شيء. أنا متعبة، لقد قلتُ لك. وأنت، لا يمكنك التحدّث مع الآخرين بطريقةٍ طبيعية. يجب أن تصيح دائماً وأن تهاجمهم... أتصوّر أنّ هذا بسبب مهنتك، وأنّ جوّ المطابخ هو الذي أثّر فيك... لا أعرف شيئاً عن ذلك... ومن ثمّ لا أبالي والحقّ يُقال... ولكنْ، هناك أمرٌ واحدٌ مؤكّد: سوف أعيد إليكَ حياتك الخاصّة.

- كلا، أنا من سأهجركم، ليس لديّ الخيار، لقد أخبرتكِ... بالنسبة لفيلو، أنتِ أهمّ، أصبحتِ أكثر أهمية منّي...

أضاف ضاحكاً:

- إنّها الحياة.

وللمرّة الأولى، نظرا في عيني بعضهما بعضاً.

- كنتُ أغذّيه أفضل منكِ، هذا مؤكّد! ولكن، ليس لدي حقّاً أيّ شيءٍ أفعله بالشعر الأبيض لماري-أنطوانيت... إذاً... لا شيء أفعله، وهذا هو سبب هلاكي... آه، في الحقيقة! شكراً على جهاز التسجيل...

كانت كاميل قد نهضت:

- إنّه تقريباً نفس جهازك السابق، أليس كذلك؟

- بالتأكيد...

قالت بصوتٍ كئيب:

- رائع. حسناً، والمفاتيح؟

Twitter: @ketab_n

- أيّة مفاتيح؟

- هيّا...

- أصبحت أغراضكِ من جديد في غرفتكِ وقد أعددتُ لكِ سريركِ.

- بغطاءٍ من جانبٍ واحد؟

- تبّاً، ولكنكِ فعلاً مزعجة، إيه؟

كانت ستغادر المطبخ حينما أشار إلى دفتر رسمها:

- أأنتِ مَنْ رسمتِ هذا؟

- أين وجدته؟

- هيه... بعض الهدوء... كان هنا، على الطاولة... كنتُ فقط أشاهده وأنا أنتظركِ...

كانت ستأخذ الدفتر حينما أضاف:

- إذا قلتُ لكِ كلاماً لطيفاً، ألن تعضّيني؟

- حاول دائماً...

أخذ الدفتر، قلّب بضع صفحات، ثمّ وضعه وانتظر بضع ثوانٍ إضافية، إلى أن التفتت. ثم قال:

- هذا رائع، أتعرفين... فائق الجمال... فائق الإتقان في الرسم... هذا... أقصد، أقول لكِ هذا... لستُ خبيراً بهذا الشأن، إيه؟ ولكن منذ ما يقارب الساعتين وأنا أنتظركِ هنا، في هذا المطبخ القارص ولم أشعر بالوقت يمضي. لم أشعر بالملل للحظة واحدة. لقد... لقد شاهدتُ كلّ هذه الوجوه، عزيزي فيلو وكلّ هؤلاء الناس... كيف التقطتِهم، كيف جمّلتهم..

Twitter: @ketab_n

والشقّة... منذ أكثر من عام وأنا أعيش هنا وكنتُ أعتقد بأنّها فارغة، أقصد لم أكن أرى شيئاً... وأنتِ، أنتِ... أقصد، هذا في غاية الروعة...

- ...

- ولماذا تبكين الآن؟

- الأعصاب، أعتقد...

- ها هو شيءٌ آخر... أتريدين علبة بيرة أخرى؟

- كلا شكراً. سأذهب لأنام.

بينما كانت في الحمام، سمعته يطرق بقوّة باب غرفة فيليبير ويقول:

- «هيّا، يا بني! هذا جيد. سوف لن تطير منك! يمكنك أن تذهب وتتبوّل الآن!».

خُيِّل لها أنّ المركيز يبتسم لها بين ندمائه وهي تطفئ مصباحها ونامت في الحال.

10

أصبح الجوّ لطيفاً. ساد شيءٌ من البهجة، ومن الرقّة، **كان هناك شيءٌ ما في الهواء** (something in the air). كان الناس يركضون في كلّ مكان للعثور على هدايا وكانت جوزي قد جدّدت صبغة شعرها. أظهر بريقٌ أسمرُ محمرّ في غاية الجمال فتنتها وهي تضع نظّارة. كما كانت مامادو قد ابتاعت شعراً مستعاراً رائعاً. كانت قد أعطت لهنّ ذات مساء درساً في التزيين، بين طابقين، في حين كنّ أربعتهنّ يضربن قدحاً بقدح وهنّ يشربن قارورة الخمر الفوّار التي دُفِعَ ثمنها من الرهان.

Twitter: @ketab_n

- ولكن كم من الوقت بقيتِ عند المزيّن حتى نتفتِ كلّ جبينكِ هكذا؟

- أوه... ليس طويلاً... ساعتان أو ثلاث ساعات ربّما... كانت هناك تسريحات تستغرق وقتاً أكثر بكثير، تعرفين... بالنسبة لعزيزتي سيسي، يستغرق هذا أكثر من أربع ساعات...

- أكثر من أربع ساعات! وماذا تفعل خلال كلّ هذا الوقت؟ أتبقى هادئة؟

- بالطبع لا، لا تكون هادئة! تفعل مثلنا، تمزح، تأكل وتصغي إلينا ونحن نروي حكاياتنا... نحن نروي الكثير من الحكايات... أكثر منكنّ بكثير...

- وأنتِ يا كارين؟ ماذا فعلتِ بمناسبة عيد الميلاد؟

- ازداد وزني كيلوغرامين. وأنتِ يا كاميل ماذا فعلتِ بمناسبة عيد الميلاد؟

- نقص وزني كيلوغرامين... كلا، أنا أمزح...

- أكنتِ مع العائلة؟

كذبت عليهنّ:

- نعم.

قالت جوزي الرائعة وهي تنقر على ميناء ساعتها:

- حسناً هذا ليس كلّ شيء.

قرأت على طاولة المكتب:

- **ما اسمكِ؟**

Twitter: @ketab_n

ربّما يكون هذا محض صدفة، ولكنّ صورة زوجته وأطفاله كانت قد اختفت. كان متوقّعاً جداً، هذا الفتى... رمت الورقة وأدارت المكنسة الكهربائية.

في الشقّة أيضاً، كان الجوّ أقلّ جموداً. لم يعد فرانك ينام هنا وكان يمرّ كالسهم حينما يعود ليستلقي بعد الظهيرة. حتى إنّه لم يخرج جهاز التسجيل من علبته.

لم يلمّح فيليبير أدنى تلميح إلى ما كان قد دُبِّر ذات مساءٍ من خلف ظهره حيث ذهب إلى ضريح نابليون. كان صبياً لا يستطيع تحمّل عناء أيّ تغيير. كان توازنه متعلقاً بخيطٍ رفيع وبدأت كاميل فقط تتحقّق من خطورة تصرّفه حينما جاء يبحث عنها في تلك الليلة... كم سيكون قد أرغم نفسه... فكّرت من جديد في ما قال لها فرانك بخصوص أدويته...

أخبرها بأنّه قد أخذ عطلة وأنّه سيغيب حتى أواسط كانون الثاني (يناير).

- ستذهب إلى قصرك؟

- نعم.

- أيسعدك ذلك؟

- أعتقد ذلك، أنا سعيدٌ بلقاء أخواتي...

- ما أسماؤهنّ؟

- آن، ماري، كاترين، إيزابيل، ألينور وبلانش.

- يا لها من أسماء أميرات...

- نعم...

Twitter: @ketab_n

- واسمك؟

- أوه، أنا... أنا البطّ الصغير القبيح...

- لا تقل هذا يا فيليبير... أتعرف، لا أفهم أيّ شيء من حكاياتك عن الارستقراطية ولم أكن قط حساسةً جداً حيال التفاصيل، كي أكون صادقةً معك، بل وجدتُ أنّ هذا مضحكٌ بعض الشيء... قديمٌ... بعض الشيء، ولكنْ، هناك أمرٌ مؤكّد: أنتَ أمير. أميرٌ حقيقي.

احمرّ خجلاً:

- أوه، نبيلٌ صغير، نبيلٌ ريفيّ صغير في الأكثر...

- نبيلٌ صغير، نعم، هذا صحيح كلياً... أخبرني، أتعتقد أننا سنستطيع أن نرفع الكلفة بيننا في السنة القادمة؟

- آه! ها هي مرّة أخرى ثورويتي العزيزة! دائماً ثورات... أنا، سيشقّ عليّ أن أرفع الكلفة معكِ...

- أمّا أنا فلا. أودّ كثيراً أن أخاطبك: فيليبير، أشكرك على كلّ ما فعلته من أجلي، لأنّك لا تعرف ذلك، ولكنّك بالتأكيد أنقذت حياتي...

لم يُجِب بشيء. مرّة أخرى خفّض نظره.

11

استيقظت باكراً لترافقه إلى المحطّة. كان متوتراً جداً بحيث أخذت من يده بطاقته ليُدخلها في مكانها. ذهبا لشرب كوبٍ من الشوكولا الساخنة ولكنّه لم يلمس فنجانه. كلّما كانت ساعة المغادرة تقترب، كانت ترى وجهه ينقبض. كانت تشنّجات وجهه

Twitter: @ketab_n

تعاوده وأصبح من جديد الشخص المسكين الذي قابلته في المتجر الكبير. الرجل الطويل والمرتبك الذي اضطرّ لأن يبقي يديه في جيبيه لئلا يخدش وجهه إذا ما عدّل نظارته.

وضعت يدها على ذراعه:

- هل أنت بخير؟

- نعم... نعم، مم... ممتاز، أنتِ، أنتِ ترا... تراقبين الساعة، أليس... أليس كذلك؟

قالت:

- هسسسس، هيييه... كلّ شيء على ما يُرام، هنا... كلّ شيء على ما يُرام...

حاول أن يوافقها الرأي.

- أيوتّرك إلى هذا الحدّ أن ترى عائلتكَ؟

أجاب بالنفي في الوقت الذي كان يشير بالإيجاب برأسه:

- ككـ... كلا.

- فكّر بأخواتك الصغيرات...

ابتسم لها.

- مَنْ هي أحبّهنّ إليك؟

- إنّها... إنّها الصغرى...

- بلانش؟

- نعم.

- أهي جميلة؟

- إنّها... أكثر من جميلة... إنّها.. إنّها لطيفة معي...

Twitter: @ketab_n

كانا عاجزين عن التعانق، ولكنّ فيليبير أمسكها من كتفها على رصيف المغادرة، وقال:

- سوف... سوف تحرصين على نفسكِ جيدّاً، أليس كذلك؟

- نعم.

- هل ستذهبين لـ... لتقابلي عائلتكِ؟

- كلا...

تساءل عابساً:

- حقّاً؟

- أنا ليست لديّ أختٌ صغيرة...

- آه...

ومن خلال نافذة القطار، خاطبها بلهجة واعظة:

- وخاصةً لا تدعي نفسكِ تتأثّرين بعزيزنا ايسكورفييه، إيه!

طمأنته:

- طيّب، طيّب.

أضاف شيئاً آخر ولكنّها لم تسمعه بسبب صخب مكبّر الصوت. أجابت بنعم، نعم، وانطلق القطار.

قرّرت أن تعود مشياً على القدمين وأخطأت الطريق من دون أن تدرك ذلك. بدل أن تنعطف إلى اليسار وتنزل إلى جادة مونبارناس لتصل إلى **المدرسة العسكرية** ظلّت تسير بخطٍّ مستقيم لتجد نفسها في شارع **رين**. كان ذلك بسبب المحلّات التجارية والأشرطة المزخرفة والرسوم المتحركة...

Twitter: @ketab_n

كانت كحشرة، تنجذب بالضوء والدم الحارّ لحشود الناس.

رغبت أن تكون كذلك، أن تكون مثلهم، مستعجلة، هائجة، منشغلة. رغبت أن تدخل إلى المتاجر وتشتري أشياء بسيطة تدلّل بها من تحبّ. أبطأت خطوها: مَنْ كانت تحبّ في الحقيقة؟ هيا بنا، هيا بنا، استدركت وهي ترفع ياقة سترتها، لا تبدئي من فضلكِ، هناك ماتيلد وبيار وفيليبير وزميلاتكِ في المماسح... هنا، في هذا المتجر للمجوهرات، سوف تجدين بالتأكيد زينة رخيصة لمامادو، المغناج جداً... وللمرّة الأولى منذ زمنٍ طويل، فعلت نفس ما يفعله الجميع وفي نفس الوقت الذي يفعله الجميع: تنزّهت وهي تحصي شهرها الثالث عشر... للمرّة الأولى منذ زمنٍ طويل، لم تكن تفكّر بالغد. ولم يكن هذا مجرّد عبارة. كان ذلك الغد المقصود. اليوم التالي.

للمرّة الأولى منذ زمنٍ طويل، بدا لها أنّ اليوم التالي... مواجهته ممكنة. نعم هذا هو بالضبط: مواجهته ممكنة. كان لديها مكان تحبّ العيش فيه. مكانٌ غريبٌ وفريد، تماماً مثل الناس الذين يقيمون فيه. جسّت مفاتيحها في جيبها وفكّرت من جديد في الأسابيع المنصرمة. كانت قد تعرّفت على كائنٍ لا أرضي. كائنٌ كريم، مختلّ، كان يقف هناك، على بعد ألف مكان فوق السحابة ولم يبدو أنّه جذب أيّ إعجاب منها. وكان هناك الجُهْلول[1] الآخر أيضاً. حسناً، الأمور ستكون أكثر تعقيداً معه... عدا حكاياته عن الدرّاجين والطناجر، كان يشقّ عليها

(1) طائر من القواطع مرقّط يعيش قرب الماء. (المترجم).

Twitter: @ketab_n

التفاهم معه. ولكن على أيّ حال، هل تأثّر بدفتر رسمها، أي... متأثّر، كما كانت تفهم... متسائل لنَقُل. كان ذلك أكثر تعقيداً وربّما يكون أكثر بساطة: كانت طريقة الاستخدام مختصرة جداً.

نعم، كانت قد تقدّمت، فكّرت وهي تسير في إثر المتسكّعين الفضوليين.

في نفس الفترة من السنة الماضية، كانت في حالة يرثى لها بحيث كانت عاجزة عن أن تلفظ اسمها لفتيان السامو الذين ضمّوها وكذلك السنة التي قبلها. عملت كثيراً بحيث إنّها لم تدرك أنّ عيد الميلاد قد حلّ؛ وإذ حرص «وليّ نعمتها» على أن يذكّرها بذلك خشية أن تفقد الإيقاع... ماذا إذاً، كان بوسعها أن تقول ذلك، أليس كذلك؟ كان بوسعها أن تلفظ هذه الكلمات المعدودة التي نطقت بها منذ زمنٍ ليس ببعيدٍ جداً: إنّها بصحّة جيّدة، وتشعر أنّها بخير، وأنّ الحياة جميلة. أوف، لقد قيل هذا. هيّا، لا تخجلي، يا غبية. لا تلتفتي. لم يسمعكِ أحد تهمسين بهذه الحماقات، اطمئني.

كانت جائعة. دخلت إلى مخبزٍ واشترت بعض الخبز المحلّي. أرغفة صغيرة مثالية، خفيفة ومحلّاة. لعقت مطوّلاً أطراف أصابعها قبل أن تجرؤ على العودة إلى متجرٍ وتجد أشياء تافهة للجميع. عطرٌ لماتيلد، وحليّ للفتيات، وزوج من القفازات لفيليبير وسيجارٌ لبيار. هل يمكننا أن نكون أقلّ تقليدية بحشمة؟ كلا. كانت هذه هدايا عيد الميلاد الأكثر تفاهةً في العالم وكانت هدايا ممتازة.

أنهت جريها قرب ساحة سان-سولبيس ودخلت إلى مكتبة.

Twitter: @ketab_n

هناك أيضاً، كانت هذه المرّة الأولى منذ زمنٍ طويل... لم تعد تجرؤ على المغامرة في هكذا مكان. كان ذلك صعباً على الشرح، ولكن آلمها ذلك كثيراً، كان... كان هذا... كلا، لم يسعها أن تقول هذا... هذا الإرهاق، هذا الجبن، هذا الخطر الذي لم تعد تريد التعرّض له... الدخول إلى مكتبة، الذهاب إلى السينما، مشاهدة العروض أو إلقاء نظرة على واجهات المعارض الفنية، كان ذلك ملامسة لسطحيتها، لجُبنها، وتذكّرٌ بأنّها قد رمت الإسفنج ذات يومٍ يائسةً وأنّها لم تعد تجده منذ ذلك الحين...

الدخول إلى أيِّ مكانٍ من هذه الأمكنة، والذي يأخذ شرعيته من حساسية بعض الأشخاص، كان يذكّرها بأنّ حياتها غير مجدية...

آثرت فروع متاجر **فرانبري**.

من يستطيع أن يتفهّم هذا؟ لا أحد.

كان صراعاً داخلياً. الأكثر خفية من بين جميع الصراعات. والأكثر تعذيباً أيضاً. وبكم من ليالي الخدمة والعزلة وسخرة المراحيض عليها أن تعاقب نفسها حتى تصل إلى نهايته؟

تجنّبت في البداية فرع الفنون الجميلة الذي كانت تحفظه عن ظهر قلب لأنّها كانت قد أكثرت من التردّد إليه حينما جرّبت أن تدرس في مدرسة تحمل الاسم نفسه، كما أنّها لم تكن تنوي الذهاب إليه. كان الوقت مبكّراً جداً. أو أكثر تأخّراً على نحوٍ أدقّ. كان ذلك أشبه بحكاية ضربة الكعب الصغيرة... أكانت في لحظة من حياتها حيث لم يعد عليها الاعتماد على مساعدة السادة الكبار؟

Twitter: @ketab_n

منذ أن كانت في عمرٍ يسمح لها بمسك قلم رصاص، ردّدَ على مسامعها بأنّها موهوبة. موهوبة جداً. موهوبة للغاية. واعدة جداً، ماكرة جداً أو مدلّلة جداً. هذه المدائح، الصادقة أحياناً والمبهمة أحياناً أخرى، لم توصلها إلى أيّ مكان. واليوم حيث لم تعد صالحة سوى لملء دفاتر رسم مثل علقة، كانت تقول في نفسها بأنّها ستبادل كنز مهارتها بقليلٍ من الطهارة. أو بحجر أردواز سحري... هوب! لم يعد هناك أيّ شيء هناك في الطابق العلوي. لا تقنية ولا مراجع ولا مهارة، لا شيء. سنبدأ كلّ شيء من الصفر.

إذاً قلمٌ... يُمسَك بين السبابة والإبهام... كلا، يُمسَك كما تشائين. ثمّ هذا ليس صعباً، لا تعودي تفكّرين بذلك. لم تعد يداكِ موجودتين. هذا يحصل في مكانٍ آخر. كلا، هذا لن يجدي هنا، إنّه في غاية الجمال. لم يُطلَب منكِ أن تفعلي شيئاً جميلاً، أنتِ تعلمين... لا شأن للناس بالشيء الجميل. لهذا لدينا رسومات الأطفال والورق المصقول للمجلات. إذاً ارتدي قفازات، أنتِ، أيتها العبقرية الصغيرة، أيتها الصَدَفة الفارغة، أجل، قلتُ لكِ ارتدِيها، وربّما في النهاية، سوف ترين، سوف ترسمين دائرة غير متقنة تكاد تكون كاملة...

تسكّعت بين الكتب. شعرت بأنّها تائهة. كان هناك الكثير من الكتب، وكانت قد أضاعت خيط الواقع منذ زمنٍ طويل بحيث كانت كل تلك العصائب الحمر تسبّب لها الدوّار. نظرت إلى الأغلفة وقرأت الملخّصات وتحقّقت من أعمار الكتّاب وعبست حينما وجدت أنّهم كانوا أصغر منها سنّاً. لم يكن ذلك منهجاً

Twitter: @ketab_n

ذكياً للانتقاء. توجّهت نحو رفّ كتب الجيب. كانت نوعية الورق الرديئة والطباعة السيئة تخفّف من خوفها. كان غلاف هذا الكتاب، شابٌّ بنظارة شمسية، قبيحٌ جداً، ولكنّ البداية أعجبتها:

إذا كان عليّ أن أردّ حياتي إلى حقيقة وحيدة، فهذا هو ما سأقوله: كنتُ في السابعة حينما سار ساعي البريد على رأسي. ما كان لأيّ حادثٍ آخر أن يكوّن شخصيّتي أكثر. حياتي الفوضوية، العوجاء، دماغي المعلول، وإيماني بالله، صراعاتي بأفراحها وأتراحها، كلّ هذا، بطريقة أو أخرى، ينبع من تلك اللحظة، حيث، ذات صباحٍ صيفي، سحقت العجلة الخلفية اليسرى لسيارة البريد رأسي الطفولي على الحصى الملتهبة لمستودع سان كارلوس.

نعم، لم يكن ذلك سيئاً... علاوة على ذلك، كان الكتاب مربّعاً وسميكاً وكثيفاً. كانت فيه حوارات ومقاطع من رسائل مستنسخة وعناوين فرعية جميلة. استمرّت في تصفّحه، وفي نهاية الثلث الأوّل منه تقريباً، قرأت هذا المقطع:

«غلوريا، قال باري، متّخذاً لهجته المتصنّعة. ها هو ابنكِ ادغار. إنّه ينتظر منذ زمنٍ طويل اللحظة التي يلتقي بكِ فيها».

نظرت أمّي في كلّ الاتجاهات إلّا باتجاهي. «هل لا يزال لدينا بيرة؟»، سألت أمّي باري بصوتٍ خفيضٍ مزماري اعتصر أحشائي.

تنهّد باري وراح يجلب علبةً أخرى من البيرة من الثلاجة. «هذه آخر علبة، سوف نذهب ونجلب المزيد منها في ما بعد».

Twitter: @ketab_n

وضعها على الطاولة أمام أمّي، ثمّ هزّ بخفّة مسند كرسيها، وأعاد عليها: «غلوريا، هذا ابنكِ، إنّه هنا».

هزُّ مسند الكرسي، أتكون هذه هي التقنية؟

حينما وقعت على هذا المقطع، نحو نهاية الكتاب، أغلقته، واثقةً:

بصراحة، ليس لديّ أيّ أهليّة. أخرج مع كرّاسي ويصرّح الناس بكلّ ما يضمرون. أدقّ أبوابهم ويروون لي حياتهم، انتصاراتهم الصغيرة، غضبهم وحسراتهم الخبيئة. أمّا كرّاسي، الذي لا يكون على كلّ حال سوى للحيلة، فكنت أضعه عموماً في جيبي، وأصغي إليهم بأناة إلى أن يقولوا كلّ ما عندهم ليقولوه. بعد ذلك، كان يأتي الأسهل. أعود إلى البيت، أجلس أمام آلتي الكاتبة من طراز Hermès Jubilé وأقوم بما أقوم به منذ ما يقارب عشرين عاماً: أكتب كلّ التفاصيل المهمّة.

رأسٌ مهشّم في سنّ الطفولة، وأمٌّ مرتبكة، وكرّاسٌ صغير في قاع الجيب...

يا له من خيال...

أبعد من ذلك بقليل، رأت الألبوم الأخير لرسومات سانبيه. نزعت وشاحها ووضعته مع معطفها بين ساقيها لتتفرّج براحة أكثر. قلّبت الصفحات ببطء، وككلّ مرّة، تورّد خدّاها. لم تحبّ قط شيئاً بقدر ما أحبّت هذا العالم الصغير للحالمين الكبار، دقّة الخطوط، تعابير الوجوه، نساء الضواحي، مظلات سيّدات مسنّات والشاعرية اللامتناهية للأماكن. كيف رسم؟ أين وجد كلّ هذا؟ وجدت ثانيةً الشموع العسلية والمباخر والمذبح الباروكي

Twitter: @ketab_n

الكبير لمتزمتتها الصغيرة المفضّلة. هذه المرّة، كانت جالسة في عمق الكنيسة، أمسكت بهاتفٍ نقّال واستدارت واضعة يدها أمام فمها: «**ألو، مارت؟ أنا سوزان، أنا في كنيسة القديسة أولالي دو لا ريدانبسيون، هل تريد أن أطلب لك شيئاً؟**».

بعض العسل.

بعد ذلك ببضع صفحات، التفت نحوها رجلٌ كان يسمعها تضحك لوحدها، بيد أنّ ذلك لم يكن شيئاً مهمّاً. كانت سيّدة ضخمة تتحدّث إلى بائع حلوى منهمك في عمله. كان البائع يعتمر قبّعة مجعّدة، وله وجهٌ منوّر على نحوٍ غامض وبطنٌ مكوّرة رائعة. كانت السيّدة تقول: «**مرّ الزمن، لقد رمّمتُ حياتي، ولكنك تعرف يا روبرتو، لم أنسك قط...**»، وكانت تعتمر قبّعة على شكل قالب الحلوى، نوعٌ من حلوى البافارية بالقشطة شبيهة تماماً بالتي كان السيّد قد أعدّها للتوّ...

لم يكن هناك تقريباً أيّ شيء، بقعتان أو ثلاث بقع متناثرة من الحبر. ومع ذلك، كانت تُرى وهي ترفّ أهدابها بشيءٍ من الذبول المحزن، مع اللامبالاة القاسية للائي يعرفن أنّهنّ لا يزلن مرغوبات...

صغيرات شبيهات بآفا غاردنر دو بوا-كولومب، نساء شؤمٍ صغيرات مغسولات بغسول الريجيكولور.

ستّة خطوطٍ صغيرة ليقول كلّ هذا... كيف رسم؟

وضعت تلك التحفة من يدها وهي تفكّر أنّ العالم ينقسم إلى قسمين: الذين يفهمون رسومات سانبيه والذين لا يفهمونها.

Twitter: @ketab_n

كانت ساذجة ومانوية[1] جداً بحيث بدت لها هذه النظرية مناسبة تماماً. ولأخذ مثالٍ على ذلك، كانت تعرف شخصاً كان، كلّما تصفّح عدداً من مجلة **باري-ماتش** ولمح صورة من الصور الكوميدية، لا يستطيع الامتناع عن الاستهزاء: «لا أرى حقّاً ما يُضحك في هذا... لا بدّ أن يشرح لي أحدهم ذات يوم ممّ يجب أن يضحك المرء...». لا حظّ، كان ذاك الشخص أمّها. كلّا... لا حظّ...

في طريقها إلى صناديق الدفع، صادفت نظرة فويار. هنا أيضاً، لم يكن ذلك تعبيراً: كان ينظر إليها هي، ببشاشة.

صورة ذاتية بعصا وقبّعة من القش... كانت تعرف هذه اللوحة ولكنها لم تر قط صورةً بهذا الحجم الكبير. كان غلاف كاتالوغ ضخم. إذاً، أيكون هناك معرضٌ الآن؟ ولكن أين؟

أكّد لها أحد البائعين:

- **في القصر الكبير.**

- حقّاً؟

كانت صدفة عجيبة... فهي لم تكفّ عن التفكير فيه طيلة الأسابيع الماضية... غرفته ذات الطنافس المطلية، الوشاح المرميّ على أريكة القيلولة، الناموسيات المطرّزة، السجّاد المتشابك والضوء المنساب من المصابيح... لأكثر من مرّة، راودتها هذه الفكرة، فكرة أن تجد نفسها داخل لوحةٍ لفويار...

(1) نسبة إلى مذهب ماني الفارسي. (المترجم).

Twitter: @ketab_n

نفس ذلك الإحساس بالبطن الدافئة، شعور الشرنقة، اللازمني، المطمئِن، الخانق، والمرهِق أيضاً...

تصفّحت نسخة الدليل وفوجِئت بنوبة من الإعجاب الشديد. كانت جميلة جداً... جميلة جداً... صورة ظهر المرأة... صدارها الوردي، فستانها الضيّق والطويل الأسود، وذاك الانسجام الرائع بين وركيها... كيف استطاع أن يُترجِم هذه الحركة؟ هذا الانسجام الدقيق لوركي امرأة أنيقةٍ تُرى من الظهر؟

من دون أن يستخدم أيّ شيءٍ سوى القليل من اللون الأسود؟

كيف أصبحت هذه التُحفة ممكنة؟

كلّما كانت العناصر المستخدمة نقيّة، كان العمل أكثر نقاءً. في الرسم، هناك وسيلتان للتعبير: الشكل واللون، كلّما كانت الألوان أكثر نقاءً، كلّما كان جمال العمل أكثر نقاءً...

كانت هذه مقتطفات من نشرة التعليقات.

أخته النائمة، عنق ميزيا سيرت، المرضعات في حدائق صغيرة عامّة. زخارف أثواب الفتيات الصغيرات، صورة مالارميه الشخصية بقلم الرصاص، دراسات على صورة إيفون برانتان، ذاك الوجه اللطيف الجارح، والصفحات المخربشة لمفكّرته، ابتسامة لوسي بيلان، صديقته الصغيرة... إنّ تجميد ابتسامة هو أمر مستحيل ومع ذلك كان قد نجح في ذلك... منذ ما يقارب قرن، بينما جئنا نقاطعها في قراءتها، ابتسمت لنا تلك المرأة الشابّة بلطف وبدت وكأنّها تقول لنا: «آه، أهذا أنت؟» بحركة متعبة بعض الشيء من رقبتها...

Twitter: @ketab_n

وهذه اللوحة الصغيرة، هناك، لم تكن تعرفها... إنّها ليست لوحة بالأحرى، إنّها مجرّد ورق مقوّى.. .**الإوزّة**... هذا رائع، هذا الشيء... أربعة رجال، اثنان منهم بزيّ السهرة ويعتمران قبّعتي تشريفات يحاولان الإمساك بإوزّة ساخرة... هذه الكتل من الألوان، شدّة التباينات، وتنافر المنظورات... أوه! لا بدّ أنّه قد تسلّى كثيراً ذلك اليوم!

بعد ساعة كاملة وبعد أن آلمتها رقبتها، رفعت أخيراً أنفها ونظرت إلى السعر: آخ، تسعة وخمسون يورو... كلا. لم يكن ذلك معقولاً. ربّما في الشهر القادم... بالنسبة لها، كانت لديها فكرة أخرى: مقطوعة موسيقية سمعتها من الراديو في صباحٍ آخر وهي تكنس المطبخ.

حركات لها علاقة بالأسلاف، مكنسة من العصر الحجري، بلاط متهالك تماماً، كانت تدمدم بين قبّعتين نسائيتين، حينما جاء صوت سوبرانو ينزع، واحدة بعد الأخرى، شعرات ساعديها. اقتربت من مقدّمة البرنامج مستعيدة أنفاسها:

(Nisi Dominus, Vivaldi, Vespri Solenni per la Festa dell'Assunzione di Maria Vergine...).

حسناً، بعد الحلم بما فيه الكفاية، والذهول بما فيه الكفاية، والإنفاق بما فيه الكفاية، حان وقت الانصراف إلى العمل...

كان ذاك المساء أطول بسبب شجرة الميلاد التي نصبتها لجنة المشاريع في إحدى الشركات المكلّفة بذلك. هزّت جوزي رأسها استهجاناً وهي ترى كلّ الفوضى، وأخذت مامادو عشرات

Twitter: @ketab_n

حبّات المندرين وبعض المكسّرات لأطفالها. وقد تخلّفن جميعهنّ عن آخر مترو ولكن لم يكن ذلك خطيراً: سوف تدفع شركة توكلين أجور سيارة الأجرة لجميعهنّ! واختارت كلّ واحدة منهنّ سائقها مقهقهةً وتمنّين لبعضهنّ عيد ميلادٍ سعيداً مسبقاً لكون كاميل وسامية وحدهما تقيّدتا بالرابع والعشرين من الشهر.

12

في اليوم التالي، يوم الأحد، تناولت كاميل الغداء في بيت آل كيسلر. كان من غير الممكن الانقطاع عن ذاك البيت. لم يكونوا سوى ثلاثتهم وكان الحديث مرحاً. لم تكن هناك أسئلة حسّاسة، ولا أجوبة غامضة، ولا حالات صمتٍ مضجرة. كانت هدنة عيد ميلادٍ حقيقية. أجل! في لحظة، حينما سألت ماتيلد عن ظروف حياتها في غرفة خدمتهم، اضطرّت كاميل أن تكذب قليلاً. لم تشأ أن تذكر انتقالها من الغرفة. ليس بعد... الحذر... لم يكن المزعج الصغير قد رحل وكان يمكنه أن يتسبّب بدراما نفسية أخرى...

قالت وهي تلوّح بهديتها:

- أعرف ما هذا...

- كلا.

- بلى!

- هيّا إذاً، قولي... ما هذا؟

كانت العلبة مغلّفة. حلّت كاميل شريط الربط، ووضعته أمامها.

Twitter: @ketab_n

كان بيار يشرب الحليب. لو أنّها فقط تستطيع التصالح مع ذاك الأبله. . .

حينما انتهت، أدارت رسمتها نحوه: قبّعة القش، اللحية الصهباء، العينان الشبيهتان بزرّين كبيرين لسروالٍ داخلي، السترة الداكنة، إطار الباب والمقبض المبروم، وكأنّها قد استنسخت الغلاف حرفياً.

استغرق بيار بعض الوقت قبل أن يفهم:

- كيفَ رسمتِ؟

- لقد أمضيتُ، البارحة، أكثر من ساعة وأنا أرنو إليه.

- هل رسمتِ ذلك من قبل؟

- كلا.

- أوف. . .

ثمّ:

- هل تعافيتِ؟

- بعض الشيء. . .

- هكذا؟ الكلب الصغير المدرّب؟

سألها وهو يعرض أمامها صورة ادوار فويار.

- كلا، كلا. . . أنا. . . أنا أملأ دفاتر الرسم. . . أقصد تقريباً. . . لا شيء. . . أمور صغيرة، ماذا. . .

- هل تتسلّين فقط؟

- نعم.

اختلج بيار:

Twitter: @ketab_n

- آآآه ممتاز... هل ستعرضين عليّ ما رسمتِه؟

- كلا.

قاطعتهما ماتيلد الدبلوماسية جداً:

- وكيف حال والدتكِ؟ ألا تزال على حافة الهاوية؟

- بل في قاعها...

- إذاً لذا كلّ شيء على ما يُرام، أليس كذلك؟

ابتسمت كاميل:

- على أحسن ما يُرام.

أمضوا ما تبقّى من السهرة في الحديث عن الرسم. علّق بيار على عمل فويار، بحث تشابهات، وأجرى مقارنات وتاه وسط استطرادات لا متناهية. لمرّات عديدة، نهض ليذهب ويجلب من مكتبته براهين على حدّة ذهنه، وبعد برهة، اضطرّت كاميل لأن تجلس على حافة الأريكة لتترك مكانها لموريس (دونيس)، لبيار (بونار)، لفيليكس (فالوتون) ولهنري (دو تولوز-لوتريك).

كان، بصفته تاجراً، صعباً، ولكنّه، بصفته هاوياً متنوّر، كان يشيع سعادة حقيقية. بالتأكيد، كان يتفوّه بحماقات- ومَنْ لا يتفوّه بها في مجال الفنّ؟ - ولكنّه كان يقولها بطريقة جيّدة. تثاءبت ماتيلد وأنهت كاميل قارورة الشمبانيا (Piano ma sano).

حينما كاد وجهه يتوارى خلف النفثات الملتفة من دخان سيجاره، اقترح عليها من جديد أن يصحبها من جديد بالسيارة. رفضت. كانت قد أفرطت في الطعام وكان عليها أن تمشي لمسافة طويلة.

Twitter: @ketab_n

كانت الشقّة فارغة وبدت لها واسعة جداً، أغلقت على نفسها باب غرفتها وأمضت النصف الثاني من السهرة وهي تتأمّل هديتها.

نامت لبضع ساعات في فترة الصباح وانضمّت إلى زميلتها أبكر من العادة، كان ذلك مساء عيد الميلاد وكانت المكاتب تفرغ في الساعة الخامسة. كانتا تعملان بسرعة وصمت.

غادرت سامية أوّلاً وظلّت كاميل للحظة تمزح مع الحارس الليلي:

- ولكن بشأن اللحية والقلنسوة، هل كنتَ مرغماً؟

- كلا، كانت هذه مبادرة ذاتية منّي لإضفاء شيءٍ من المرح على الجوّ!

- وهل تمّ ذلك؟

- بففف، ماذا تقولين... كان الجميع غير مكترثين... لم يؤثّر ذلك سوى على كلبي... لم يتعرّف عليّ. تهجّم عليّ، هذا الأبله... أقسم لكِ، لديّ كلابٌ غبيّة، ولكن هذا زينتهم...

- ما اسمه؟

- ماتريكس.

- أهي كلبة؟

- كلّا، لماذا؟

- أوه... لا لشيء... حسناً، مرحباً، يا ماتريكس.

قالت ذلك متوجّهةً إلى الكلب الضخم من فصيلة دابرمان النائم عند قدميه.

Twitter: @ketab_n

- لا تتوقّعي أن يجيبك، لا يفهم شيئاً، أقول لكِ...

ضحكت كاميل:

- لا، لا، لا أتوّقع...

هذا الشخص، كان لوحده يضاهي الثنائي الكوميدي لوريل وهاردي.

كانت الساعة تقارب العاشرة مساءً. وكان الناس رشيقين، يهرولون في كلّ اتجاه وأذرعهم محمّلة بالهدايا. النساء كنّ يعانين من الألم في أقدامهنّ المحصورة في أحذيتهنّ الملمّعة، والأطفال يتراكضون هنا وهناك، والرجال يدقّقون في مفكّراتهم أمام الهواتف الداخلية للعمارات.

تابعت كاميل كلّ هذا بلهو. لم تكن مستعجلة، ووقفت في الطابور أمام واجهة مطعمٍ أنيقٍ للوجبات السريعة لكي تتناول غداءً لذيذاً. أو بالأحرى قارورة من شراب. عدا ذلك، كانت مرتبكة كثيراً... أخيراً، أشارت للبائع على قطعة من لحم الماعز ورغيفين صغيرين من الخبز بالجوز. باه... كان ذلك فقط لتتناوله مع نبيذ **بوياك**...

فتحت قارورتها ووضعتها ليس بعيداً من جهازٍ للتدفئة لكي تدفئ خمرتها. ومن ثمّ، جاء دورها. ملأت مغطس الحمام بالماء الساخن وظلّت فيه لأكثر من ساعة كاملة وأنفها على مستوى الماء الساخن. ارتدت منامتها، وجوربين سميكين واختارت بلوزتها المفضّلة. بلوزة من الكشمير الباهظ الثمن... من بقايا عصرٍ كامل... فكّت جهاز التسجيل خاصّة فرانك، وضعته في الصالون، وأعدّت لنفسها ركناً وأطفأت كلّ الأنوار والتفّت على

Twitter: @ketab_n

نفسها تحت لحافها الريشي في الأريكة القديمة. تصفّحت كرّاس الأغاني، **نيسي دومينوس** [1]، كان على الأسطوانة الثانية. حسناً، **صلاة المساء من أجل الصعود**، لم يكن القدّاس المناسب بالضبط وعلاوة على ذلك، كانت ستستمع إلى المزامير من دون ترتيب، كان ذلك أمراً بسيطاً...

أوه، ثمّ أيّ أهمية لذلك؟

أيّ أهمية لذلك؟

ضغطت على زرّ جهاز التشغيل، وأغمضت عينيها: كانت في الفردوس...

وحيدةً، في هذه الشقّة الفارهة وفي يدها قارورة من شراب الآلهة، كانت تسمع صوت الملائكة. حتى لآلئ الثريا كانت تهتزّ حبوراً.

(Cum dederit dilactis suis somnum.

Ecce, haereditas Domin filii: merces fructus ventris).

كان هذا المقطع رقم 5، والمقطع رقم 5، كان عليها أن تستمع إليه لأربع عشرة مرّة.

وفي المرّة الرابعة عشرة، انفجر قفصها الصدري إلى ألف قطعة.

ذات يوم، بينما كانا بمفردهما في السيارة، سألته لماذا يصغي دائماً إلى نفس الموسيقى، أجابها والدها: «الصوت

(1) الاسم الذي يُطلق على المزمور الرقم 127. (المترجم).

Twitter: @ketab_n

البشري أجمل من كلّ الأجهزة، إنّه الأكثر تأثيراً... وحتى أمهر الموسيقيين في العالم سوف لن يستطيع أن يمنحك الانفعال الناجم عن صوتٍ جميل... هذه هبة ربّانية لنا... هذا أمرٌ ندركه ونحن نشيخ، يبدو لي... أقصد، أنا على أيّ حال، استغرقتُ بعض الوقت إلى أن أقررتُ بذلك، ولكن، أخبريني... أتريدين شيئاً آخر؟ أتريدين أغنية **أمّ الأسماك؟**».

كانت قد شربت نصف القارورة، وأدرجت الأسطوانة الثانية، حينما أُشعِل الضوء.

كان ذلك مرعباً، وضعت يديها أمام عينيها وبدت لها الموسيقى فجأةً في غير محلّها. الأصوات غير اللائقة، شبه المخنخنة. في ثانيتين، تواجد الجميع في المطهَر.

- حسناً، أأنتِ هنا؟

- ...

- ألستِ في بيتكِ؟

- هناك في الطابق العلوي؟

- كلا، في بيت والديكِ...

- كلا، أنت ترى...

- هل اشتغلتِ اليوم؟

- نعم.

- آه عذراً... عذراً... اعتقدتُ أنّ لا أحد هنا...

- لا بأس...

- وماذا تفعلين؟ أهذا ألبوم كاستافيور؟

Twitter: @ketab_n

- كلا، هذا قدّاس...

- آه حقاً؟ هل أنتِ مؤمنة؟

كان عليها من كلّ بد أن تقدّمه لحارسها الليلي... سيخوض الاثنان معركة... أفضل حتى من عجزة المسلسل التلفزيوني Mupet Show...

- كلا، ليس بشكلٍ خاصّ... هلا أطفأت الضوء، من فضلك؟

اعتذر منها وغادر الغرفة ولكن الأمر لم يكن كما كان. كان الجوّ الآسر للموسيقى قد قوطِع. واستفاقت من السكرة، وحتى الأريكة لم تعد على شكل سحابة. ومع ذلك حاولت أن تركّز، أمسكت بالكرّاس من جديد وبدأت من حيث كانت:

(Deus in adiutorium meum intende).

يا ربّ، أعنّي!

نعم، كان هذا هو المعنى بالضبط.

كان الأحمق الآخر يبحث على ما يبدو عن شيءٍ ما في المطبخ ويزعق منتقماً من كلّ أبواب الخزانة:

- قولي إذاً، ألم تري جفنتين صفراوين من ماركة تابروير؟

يا للشقاء...

- الكبيرتان؟

- نعم.

- كلا. لم ألمسهما...

- آه، أزعجيني... لا نعثر أبداً على أيّ شيء في هذا الكوخ... ماذا تفعلين بآنية المائدة؟ أتلتهمينها أم ماذا؟

Twitter: @ketab_n

ضغطت كاميل على زرّ التوقّف متنهدة:

- هل يمكنني أن أطرح عليك سؤالاً متطفلاً؟ لماذا تبحث عن جفنة تابروير صفراء في الساعة الثانية فجراً من ليلة الميلاد؟

- لأنّني. أحتاج إليها.

حسناً، كان الأمر هنا شنيعاً. نهضت وأوقفت جهاز التسجيل.

- أهذا جهازي؟

- نعم... لقد سمحتُ لنفسي...

- سحقاً، إنّه في غاية الجمال... قولي إذاً أنّكِ لستِ غاضبة منّي!

- كلا، لستُ غاضبة منك، قُل لي إذاً...

فتح واسعاً عينيه الشبيهتين بعيني سمكة المغر:

- لماذا تردّدين كلامي، هنا؟

- لا لشيء. عيد ميلاد سعيد يا فرانك. هيّا تعالَ، سنبحث عن جفنتك... هناك، أنظر فوق المايكروويف...

عادت وجلست في الأريكة بينما كان منهمكاً في ترتيب الثلاجة. ثمّ عبر الغرفة من دون أن يتفوّه بكلمة وذهب لكي يستحمّ. اختبأت كاميل خلف كأسها: على الأرجح ستكون قد أفرغت أنبوبة الماء الساخن...

- سحقاً، ولكن مَنْ أخذ كلّ الماء الساخن، اللعنة؟

عاد بعد نصف ساعة، مرتدياً بنطال الجينز وعاري الصدر.

بلا مبالاة، انتظر لحظة إضافية قبل أن يرتدي بلوزته....

كانت كاميل تبتسم: لم تعد مقاصده تخفى عليها...

Twitter: @ketab_n

سألها وهو يشير إلى الطاولة:

- هل يمكنني؟

- تصرّف وكأنّك في بيتك...

- لا أصدّق، تأكلين؟

- جبناً وعنباً...

- وقبل ذلك؟

- لا شيء...

هزّ رأسه:

- هذا جبنٌ لذيذٌ جداً، أنت تعرف... وعنبٌ لذيذٌ جداً... ونبيذٌ لذيذٌ جداً أيضاً... أتريد بعضاً منها؟

- كلا، كلا، شكراً...

أوف، اعتقدت، إن مقاسمته زجاجة النبيذ قد تؤلم نهديها.

- كيف حالكِ؟

- عفواً؟

كرّر:

- أسألكِ كيف حالكِ؟

- أوه... نعم... وأنت؟

- متعب...

- هل ستعمل غداً؟

- كلا.

- هذا جيد، هكذا تستطيع أن ترتاح...

Twitter: @ketab_n

- كلا.

حديثٌ رائعٌ...

اقترب من الطاولة الخفيضة. أخذ علبة للأقراص المدمجة وأخرج مخدراته:

- هل ألفّ لكِ سيجارة منه؟

- كلا، شكراً.

- صحيحٌ أنّكِ جدّية...

قالت وهي تقدّم كأسها:

- أنا اخترتُ شيئاً آخر.

- أنتِ مخطئة.

- لماذا، هل الكحول أسوأ من المخدّر؟

- نعم. ويمكنكِ أن تصدّقيني لأنني رأيتُ في حياتي سكّيرين، أنتِ تعلمين... ثمّ إنّ هذا ليس مخدّراً وإنّما عبارة عن مهدّئ... إنّه مثل (Quality Street) بالنسبة للكبار...

- لو تقول ذلك...

- ألا تريدين أن تجرّبي؟

- كلا، أنا أعرف نفسي... أنا متأكّدة من أنني سأحبّه!

- وإذاً؟

- إذاً لا شيء... صحيحٌ أنني أعاني من مشكلة القوّة المحرّكة... لا أدري كيف أشرح ذلك... غالباً ما أشعر بأنّ زرّاً ينقصني... شيئاً أضبط به العيار... أذهب غالباً بعيداً في اتجاهٍ أو آخر... لا أستطيع قط إيجاد التوازن الصحيح وينتهي الأمر دوماً على نحوٍ سيئ، ميولي...

Twitter: @ketab_n

فوجئت بنفسها. لماذا هذه الثقة بالنفس؟ تُرى أهي سكرةٌ خفيفة؟

- حينما أشرب، أفرطُ في الشراب، حينما أدخّن، أقتل نفسي، حينما أحبّ، أفقد رشدي، وحينما أعمل، أستقتل... لا أجيد فعل أيّ شيء على نحو طبيعي، بهدوء، أنا...

- ومتى تكرهين؟

- هذا ما لا أعرفه...

- كنتُ أعتقدُ أنّكِ تكرهينني؟

ابتسمت:

- ليس بعد، ليس بعد... سوف ترى حينما يحدث ذلك... سوف ترى الفارق...

- حسناً... إذاً؟ هل انتهى قدّاسكِ؟

- نعم.

- إلى ماذا سنستمع الآن؟

- أوه... الحقّ يُقال، لستُ متأكدة تماماً من أننا سنحبّ الأشياء نفسها...

- ومع ذلك ربّما يكون لدينا شيءٌ مشترك... مهلاً... دعيني أفكّر... أنا متأكّدٌ من أنني سأجد مغنياً ستحبّينه أيضاً...

- هيّا حاول...

ركّز على إعداد وصلته. حينما أصبحت جاهزة، ذهب إلى غرفته ثمّ عاد وقرفص أمام جهاز التسجيل.

- ما هذا؟

Twitter: @ketab_n

- فخٌّ للفتيات...

- أهذا ريشار كوكسيانت؟

- كلا...

- خوليو ايغليسياس؟ لويس ماريانو؟ فريديريك فرانسوا؟

- كلا.

- هربيرت ليونار؟

- هسّ...

- آه! لقد عرفت! روش فوازين!

(I guess I'll have to say... This album is dedicated to you...).

- لاااااااا....

- بلللللى....

- مارفان؟

قال مباعداً بين ذراعيه:

- هيه! لقد قلتُ لكِ فخٌّ للفتيات...

- أنا أعشق...

- أدري...

- هل نحن قابلون للتنبّؤ بهذا القدر؟

- كلا لستِ قابلة للتنبؤّ لسوء الحظّ، ولكن مارفان، يفعل ذلك دائماً، لم أصادف فتاةً لا تنهار...

- ولا واحدة؟

- ولا واحدة، ولا واحدة، ولا واحدة... بالتأكيد أجل!

Twitter: @ketab_n

ولكنني لا أتذكّر. لا يُحسبْنَ... أو لم نحظَ بفرصة الذهاب إلى ذلك الحدّ...

- أعرفتَ الكثير من الفتيات؟

- ما معنى عرفتَ؟

- هيه! لماذا رفعته؟

- لأنني أخطأت، ليس هذا ما أردتُ وضعه...

- ولكن بلى، دعه! هذا مغنيّ المفضّل! تريد (Sexual Healing)، أليس كذلك؟ أوففف، إذاً أنتم، أنتم قابلون للتنبؤ... هل تعرف حكاية هذا الألبوم على الأقلّ؟

- أيّ ألبوم؟

- (Here my dear).

- كلا، لا أستمع إلى هذا كثيراً...

- أتريد أن أرويها لك؟

- مهلاً... سأستقرّ في مكاني... أعطني مخدّة...

أشعل لفافته وتمدّد على الطريقة الرومانية مسنداً رأسه على راحة يده.

- أنا أصغي إليكِ...

- حسناً، أوه... لستُ مثل فيليبير، إذاً، سأرويها لكَ إجمالاً... إذاً (Here my dear) يعني تقريباً: تفضّل، ها هي عزيزتي... كان الحبّ العظيم الأوّل لمارفان فتاةٌ تُدعى آنا غوردي. يُقال: إنّ الحبّ الأوّل هو دائماً الحبّ الأخير، لا أدري إن كان هذا صحيحاً، ولكن بالنسبة له على الأقلّ، من

Twitter: @ketab_n

الواضح أنّه ما كان ليصبح كما هو عليه لو لم يصادفها... كانت شقيقة أحد أركان شركة موتون للتسجيلات، أعتقد أنّه مؤسسها: بيري غوردي. كانت مشهورة جداً في الوسط الفني، وكان هو ينشط لإثبات ذاته. كان ينضح موهبةً، وهو بالكاد يبلغ العشرين من العمر بينما كانت هي بضعف عمره تقريباً حينما التقيا. حسناً، صعقة حبّ، شغف، أغنية عاطفية، خطوبة وكلّ ما تبقّى. وكانت الانطلاقة... هي مَنْ جعلته شهيراً، ووضعته على السكّة الصحيحة، وساعدته ووجّهته وشجّعته الخ. كانت بمثابة بيغماليون بالنسبة له، إن شئت...

- بمثابة ماذا؟

- بمثابة شيخٍ روحي، مدرّبٍ رياضي، وقود له... عانيا كثيراً للظفر بطفلٍ وانتهيا إلى تبنّي طفل، ثمّ جرت الأمور بسرعة، وفي العام 1977 بدأ رباطهما الزوجي يتحلّل. كان هو قد اشتُهر كثيراً وأصبح نجماً معبوداً... وكان طلاقهما، ككلّ حالات الطلاق، مدوّياً. تصوّر، كانت الرهانات مدهشة... كان ذلك عنيفاً ولتهدئة الجميع وتصفية حساباتهما، اقترح محامي مارفان أن تذهب كلّ عائدات ألبومه القادم إلى حساب زوجته السابقة. وافق القاضي وتحمّس نجمنا المعبود للفكرة: كان في ذهنه أن يعدّ على عجلٍ ألبوماً لكي يتخلّص من هذه السُخرة... ولكنه لم يستطع... لا يمكن للمرء أن يبخِس حكاية حبٍّ بهذه الطريقة. أقصد... أن هناك مَنْ بوسعهم فعل ذلك ولكن ليس هو... كلّما فكّر أكثر كلّما قال في نفسه إنّ المناسبة جميلة جداً... أو مرثية جداً... وبالتالي، انغلق على نفسه وألّف هذه

Twitter: @ketab_n

الأعجوبة الصغيرة التي تروي كلّ حكايتهما: لقاؤهما، شغفهما، العيوب الأولى، طفلهما، الغيرة، الحقد، الغضب... أتسمع هنا؟ **الغضب** حينما يفسد كلّ شيء؟ ثمّ الهدوء وبدء حبٍّ جديد... هذه هدية فائقة الجمال، ألا ترى ذلك؟ لقد تفانى تماماً، أخرج أفضل ما لديه من أجل ألبوم لن يدرّ عليه قرشاً واحداً في نهاية المطاف...

- هل أعجبها ذلك؟

- أعجبَ منْ، هي؟

- نعم.

- كلا، كرهت ذلك. جنّ جنونها غضباً ولامته لوقتٍ طويل على نشره لحياتهما الخاصّة على الملأ... تفضّل، ها هو الألبوم: (This is Anna's Song)... أتسمع كم هذا جميل... اعترف أنّ ليس لهذا رائحة الانتقام، إنّه... إنّه الحبّ...

- نعم...

- جعلك هذا مطرقاً في التفكير...

- أتؤمنين بذلك؟

- بماذا؟

- بأنّ الحبّ الأوّل هو دائماً الحبّ الأخير؟

- لا أدري... أتمنى ألا أؤمن بذلك...

استمعا إلى الأسطوانة حتى نهايتها من دون أن يتبادلا الكلام.

- حسناً، هيّا... الساعة تقارب الرابعة، سحقاً... سأكون لا أزال حياً، غداً...

نهض.

Twitter: @ketab_n

- ستذهب إلى عائلتك؟

- إلى ما تبقّى منها، نعم...

- ألم يتبقّ لك الكثير منها؟

- هكذا.

قالها وهو يقرّب إبهامه وسبابته من عينها.

ثمّ سألها:

- وأنتِ؟

- هكذا.

أجابت وهي تمرّر يدها فوق رأسها.

- حسناً، حسناً... أهلاً وسهلاً بكِ في النادي... هيّا... طابت ليلتكِ...

- أتنام هنا؟

- أيزعجكِ ذلك؟

- لا، لا، فقط لكي أعرف...

استدار:

- هل تنامين معي؟

- عفواً؟

- لا، لا، فقط لكي أعرف.

تلوّى من الضحك.

13

حينما استيقظت، نحو الساعة الحادية عشرة، كان قد غادر.

أعدّت لنفسها إبريقاً كبيراً من الشاي وعادت إلى سريرها.

Twitter: @ketab_n

إذا كان عليّ أن أردّ حياتي إلى حقيقة وحيدة، فهذا ما سأقوله: كنتُ في السابعة حينما سار ساعي البريد على رأسي...

تملّصت من حكايتها في نهاية فترة ما بعد الظهيرة لتذهب وتشتري تبغاً. إنّه يوم عطلة وسيكون ذلك صعباً، ولكن لا يهمّ، كان ذلك مجرّد ذريعة لتدع الحكاية تتضح ولكي تحظى بمتعة اللقاء بصديقها الجديد بعد ذلك بقليل.

كانت الشوارع العريضة للدائرة السابعة مقفرة. سارت طويلاً لكي تجد مقهى مفتوح الأبواب، واستغلّت ذلك لتتّصل بمنزل خالها. تبدّدت شكاوى والدتها (أفرطتُ في تناول الطعام، الخ) وسط فيض العواطف العائلية البعيدة.

كان هناك الكثير من أشجار التنّوب على الرصيف...

ظلّت للحظات تشاهد بهلوانات العجلات في ساحة تروكاديرو وتحسّرت على عدم جلبها لدفتر رسمها معها. أكثر من شقلباتهم، التي كانت غالباً متكلّفة ولا أهمية لها، كانت تحبّ عِدَدَهم الرائعة: ألواح قفزٍ مرتجّة، مخاريط صغيرة لامعة، عُلَبٌ فارغة مصفوفة، ألواح مقلوبة وألف طريقة أخرى لتهشّم الفم إذا ما فقد أحدهم توازنه....

فكّرت في فيليبير... تُرى ماذا يفعل في هذه اللحظة بالضبط؟

سرعان ما غابت الشمس ولفح البرد كتفيها. طلبت شطيرة من أحد مشارب البيرة الفارهة القريبة من المكان ورسمت على الغطاء الورقي الوجوه المتقزّزة لصبيان الحيّ الذين كانوا يقارنون بين الشيكات المهداة من أمهاتهنّ الطيّبات، ممسكين بخصور فتياتٍ منبهرات، يشبهن لعبة باربي.

Twitter: @ketab_n

قرأت بضع كلمات أخرى لإدغار مانت وعبرت نهر السين من جديد وهي ترتعش.

كانت العزلة تهلكها.

العزلة تهلكني، كانت تردّد على نفسها بصوتٍ خفيض، العزلة تهلكني...

ربّما الذهاب إلى السينما؟ بففف... ومع مَنْ سأتكلّم عن الفيلم بعد ذلك؟ ما جدوى الأحاسيس إذا كانت للذات الوحيدة؟ أمسكت برتاج الباب لتفتحه وأُصيبَت بالإحباط حينما وجدت الشقّة فارغة.

قامت ببعض الترتيبات في أثاث البيت ثمّ أمسكت من جديد بكتابها. كان الرجل العظيم يقول إنّ ما من حزنٍ لا يستطيع كتابٌ تخفيفه. هيّا لنرَ...

حينما سمعت صرير القفل، تظاهرت باللامبالاة وضمّت ساقيها تحتها وهي تتلوّى على الأريكة.

كان برفقة فتاة. فتاةٌ أخرى. أقلّ جاذبية.

مرّا سريعاً في الممرّ وأغلقا باب غرفته عليهما.

وضعت كاميل الموسيقى من جديد لكي تغطّي على لهوهم ومرحهم.

احم...

لعبة الكرات. هكذا تُسمّى، أليس كذلك؟ لعبة الكرات.

في النهاية، أخذت كتابها ولجأت إلى المطبخ في آخر الشقّة.

Twitter: @ketab_n

بعد ذلك بوقتٍ قليل، فاجأت حديثهما في المدخل. سألت مندهشةً:

- إذاً ألَن تأتي معي؟

- كلا، أنا منهك، لا رغبة لديّ في الخروج...

- مهلاً، أنتَ مزعج... أنا تخلّيتُ عن كلّ عائلتي لأكون معك... لقد وعدتني بأننا سنذهب لتناول العشاء في مكانٍ ما...

- قلتُ لكِ إنني منهك...

- على الأقلّ، نذهب ونشرب قدحاً...

- أأنتِ ظمآنة؟ أتريدين علبة بيرة؟

- ليس هنا...

- أوه... ولكن كلّ المحلّات مغلقة اليوم، وأنا سأعمل غداً!

- لا أعتقد ذلك... لم يعد لديّ سوى أن أنصرف، أليس كذلك؟

أضاف بنبرة ألطف:

- هيّا، لا توبّخيني... مرّي غداً مساءً إلى المطعم...

- متى؟

- نحو منتصف الليل...

- نحو منتصف الليل... لا يهمّ... هيّا بالسلامة، اذهب...

- هل حردتِ؟

Twitter: @ketab_n

- بالسلامة.

لم يتوقّع أن يجدها في المطبخ ملفوفة في لحافها الريشي.

- أَكنتِ هنا؟

رفعت عينيها من دون أن تجيب.

- لماذا تنظرين إليّ هكذا؟

- عفواً؟

- مثل خسيسة.

- ليس تماماً.

قال غاضباً:

- أجل، أجل، أرى ذلك جيّداً. هل من مشكلة؟ هل من شيءٍ خيّبكِ هنا؟

- هيه، كفى... دعني وشأني... لم أقل لك شيئاً. لا شأن لي بحياتك. افعل ما تشاء! لستُ والدتك!

- جيّد! أفضّل هذا...

سأل وهو يبحث في الثلّاجة:

- ماذا سنأكل؟ لا شيء بالطبع... لم يعد هناك أيّ شيء هنا... ماذا تأكلان أنتِ وفيليبير؟ تأكلان كتبكما؟ تأكلان الذباب؟

تنهّدت كاميل ولملمت أطراف وشاحها الكبير.

- ستخرجين؟ هل أكلتِ؟

- نعم.

- آه صحيح وكأنّكِ قد سمنتِ بعض الشيء...

Twitter: @ketab_n

قالت ملتفتة إليه:

- هيه، لا أتدخّل في حياتكَ فلا تتدخّل في حياتي، اتّفقنا؟ ربّما ما كان عليك أن تذهب وتعيش مع صديقٍ بعد الأعياد؟ أجل، هذا صحيح، أليس كذلك؟ حسناً، لم يبق لنا إذاً سوى أسبوعٍ واحد نبقى فيه معاً... وعلينا أن ننجح في ذلك. اسمع إذاً، سيكون من الأفضل ألّا نتبادل الكلام...

بعد ذلك بقليل، دقّ باب غرفتها.

- نعم؟

رمى علبة على سريرها.

- ما هذه؟

كان قد خرج.

علبةٌ مربّعة طريّة. كانت الورقة بشعة، مجعّدة تماماً وكأنّها قد استُخدِمت عدّة مرّات وتفوح منها رائحة غريبة. رائحة عفونة. صينية مطعم...

فتحتها كاميل بحذر واعتقدت في البداية أنّها ممسحةٌ إسفنجية. هدية مشبوهة من مدّعي الجمال المجاور. ولكن، كلا، كان وشاحاً، طويلاً جداً، رخواً جداً بل سيئ النسج: ثقبٌ، وخيطٌ، وعقدتان، ثقبٌ، خيطٌ وهكذا. أتكون هذه نقطة جديدة؟ كانت ألوانه خاصّة...

كان الطرد مرفقاً بكلمة قصيرة.

كتبتها معلّمة من بداية القرن، بحبرٍ أزرق باهت، مرتجفة وتعتذر:

Twitter: @ketab_n

آنستي،

لم يعرف فرانك أن يقول لي ما هو لون عينيكِ فوضعتُ قليلاً من كلّ شيء. أتمنى لكِ عيدَ ميلادٍ سعيداً.

بوليت ليستافييه

عضّت كاميل على شفتها. مع كتاب آل كيسلر، الذي كان يُعدّ مفيداً لكونه لا يزال يتضمّن شيئاً من قبيل «إيه، نعم، هناك مَنْ ينجزون أثراً فنياً...»، كانت تلك هديتها الوحيدة.

أه كم كانت قبيحة... آه كم كانت جميلة...

وقفت منتصبة على سريرها ودغدغت حول رقبتها على طريقة ثعبان بوا لتسلية المركيز.

بو بو بي دو أوووواه...

مَنْ تكون بوليت؟ أهي أمّه؟

أكملت قراءة كتابها وسط العتمة.

حسناً. كان عيد الميلاد قد انتهى.

14

من جديد الدورة نفسها: الرقاد، المترو، العمل. لم يعد فرانك يوجّه إليها الكلام وهي تجنّبته قدر المستطاع. في الليل، نادراً ما كان يحضر.

تحرّكت كاميل قليلاً. ذهبت لتشاهد بوتيشللي في لوكسمبورغ، زاو وو-كي في المعرض الوطني ولكنها رفعت عينيها إلى السماء حينما رأت رتل الانتظار بشأن فويار. ثمّ كان هناك في المقابل غوغان! يا له من خيار صعب ! كانت هناك

Twitter: @ketab_n

مأخوذة بين مدينة الرسم بون-آفين والمركيز وساحة فانتيميل...
كان ذلك فظيعاً...

وأخيراً، رسمت الناس الواقفين في الطابور، وسقف القصر الكبير ودرج القصر الصغير. اقتربت منها يابانية ألحّت ترجوها أن تذهب معها لشراء حقيبة من محلات فويتون. مدّت إليها أربع أوراق من فئة خمسمائة يورو وتململت وكأنّ المسألة كانت مسألة حياة أو موت. باعدت كاميل بين يديها:

«Look... Look at me... I am too dirty...».

قالت ذلك وهي تشير إلى جزمتيها الضخمتين وبنطالها الجينز الفضفاض، وبلوزتها الكبيرة كبلوزة سائق شاحنة، ووشاحها الغريب، والمعطف العسكري الذي أعاره إيّاها فيليبير...

«They won't let me go in the shop...».

عبست الفتاة، لفّت أوراقها النقدية من جديد واقتربت من شخصٍ آخر على بعد عشرة أمتار.

ومن جرّاء ذلك، سلكت جادة مونتاين. لكي ترى.

كان الحرّاس الليليون مدهشين حقّاً... كانت تكره هذا الحيّ الذي يُظهر فيه المال ما هو أقلّ إمتاعاً: الذوق الرديء، السلطة، والعجرفة. أسرعت الخطى أمام واجهة محلات مالو: الكثير من التذكارات. وعادت عبر الأرصفة.

في العمل، لم يكن هناك ما يُذكَر. كان البرد لا يزال قارصاً لا يُحتَمَل حينما أنهت تسجيل حضورها على قائمة الدوام.

Twitter: @ketab_n

عادت بمفردها، وأكلت بمفردها، ونامت بمفردها، واستمعت إلى فيفالدي وهي تلفّ ذراعيها حول ركبتيها.

كانت لدى كارين خطّة لسهرة ليلة رأس السنة. لم تكن راغبة أبداً في الذهاب إليها ولكنّها كانت قد دفعت ثلاثين يورو لقاء الاشتراك لكي تنعم بالسلام وتجد نفسها في طريقٍ مسدود.

وبّخت نفسها:

- يجب الخروج.

- ولكنني لا أحبّ هذا...

- لماذا لا تحبّين هذا؟

- لا أدري...

- أتخافين؟

- نعم.

- ممّ؟

- أخاف أن يُهزّ لبابي... ثمّ... أشعر أيضاً بالخروج حينما أتوه داخل نفسي... أتجوّل... هذا أيضاً أمرٌ عظيم...

- أتريدين أن تضحكي؟ هذا أمرٌ صغيرٌ جداً! هيّا، تعالي، إنّ لبابكِ ينثر رائحة نتنة...

كان هذا النوع من المناقشة بينها وبين وجدانها المسكين ينهك دماغها طيلة ساعات...

حينما عادت، ذاك المساء، وجدته على السلّم:

- أنسيتَ مفاتيحك؟

-...

Twitter: @ketab_n

- هل أنت هنا منذ وقتٍ طويل؟

قام بحركة منزعجة أمام فمه ليذكّرها بأنّه لا يستطيع التكلّم. هزّت كتفيها. لم تعد في سنّ اللعب بهكذا ترّهات.

راح لينام من دون أن يستحمّ، من دون أن يدخّن، من دون أن يسعى لإزعاجها. كان متضايقاً.

خرج من غرفته في الساعة العاشرة والنصف من صباح اليوم التالي، ولم يكن قد سمع صوت منّبهها بل ولم يتوفّر على القدرة لكي يحتجّ. كانت في المطبخ، جلس قبالتها، صبّ لنفسه فنجاناً من القهوة واستغرق لحظة قبل أن يقرّر شربه.

- كيف حالك؟

- متعب.

- ألا تأخذ أبداً عطلة؟

- بلى. الأيام الأولى من شهر كانون الثاني (يناير)... لكي أبدّل سكني...

نظرت عبر النافذة.

- هل ستكونين هنا نحو الساعة الثالثة عصراً؟

- لكي أفتح لك الباب؟

- نعم.

- نعم.

- ألا تخرجين أبداً؟

- بلى. يحصل لي ذلك أحياناً، ولكن الآن، سوف لن أخرج بما أنّك لا تستطيع العودة...

Twitter: @ketab_n

هزّ رأسه مثل شبح.

- حسناً، عليّ أن أذهب وإلّا سأعرّض نفسي للعقاب...

نهض لكي يغسل قدحه.

- ما هو عنوان والدتكَ؟

تجمّد أمام المجلى.

- لماذا تسألينني هذا السؤال؟

- لكي أشكرها...

شعر وكأنّ في حلقه قطًّا:

- تشكككك... تشكرينها على ماذا؟

- حسناً... أشكرها على الوشاح.

أجاب مصحّحاً، وقد ارتاح:

- آآآه... ولكن هذه ليست والدتي من أهدتكِ إيّاه وإنّما جدّتي! ليس هناك سوى جدّتي تنسج بهذه الجودة!

ابتسمت كاميل.

قال لها:

- هيه، لستِ مضطرّة لكي تضعي هذا الوشاح، تعرفين...

- أحبّه كثيراً...

- لم أستطع الامتناع عن الانتفاض حينما عَرَضته عليّ...

ضحكَ.

- مهلاً، هذا لا شيء... سوف ترين وشاح فيليبير...

- وما هو لونه؟

- برتقالي وأخضر.

Twitter: @ketab_n

- أنا واثقة من أنّه سيضعه... سوف يتحسّر ببساطة على عدم قدرته على لثم يدها لكي يشكرها...

- نعم، هذا ما قلته في نفسي وأنا أغادر... إنّها فرصة لأن تكونا أنتما الاثنان... أنتما الشخصان الوحيدان اللذان أعرفهما في العالم القابلان لأن ترتديا هذه الأشياء القبيحة جداً من دون أن تَبْدُوَا مضحكين...

حدّقت فيه:

- هيه، هل تعلم أنّك تفوّهت بكلام لطيفٍ هنا؟

- أهذا لطفٌ أن أصفكما بمهرّجين؟

- آه عفواً... اعتقدتُ أنّك كنت تتكلّم عن طبقتنا الطبيعية...

استغرق لحظة قبل أن يجيبها:

- كلا، كنتُ أتكلّم عن... عن حريتكما، أنا أؤمن... بهذه الفرصة التي تحظيان بها في أن تعيشا في لا مبالاة تامّة...

في تلك اللحظة، رنّ هاتفه النقّال. لا حظّ، لمرّة واحدة كان يحاول أن يقول شيئاً فلسفياً...

«أنا قادم، يا ريّس، أنا قادم... حسناً، حسناً، أنا جاهز... طيّب، جان-لوك ليس له سوى أن يقوم بذلك، إنّه... مهلاً، يا ريّس، أنا أحاول أن أوبّخ فتاةً أكثر ذكاءً منّي بكثير، وبالتالي، هذا يستغرق وقتاً أكثر من المعتاد... ماذا؟ كلّا، لم أتّصل به بعد... مهما يكن، لقد أخبرتك بأنّه لن يستطيع القيام بذلك... أنا أعلم أنّهم جميعاً مرهقون، أعلم ذلك... حسناً، سأهتمّ بالأمر... سنأتّصل به في الحال... ماذا؟ الكفّ عن الاهتمام بالفتاة؟ نعم، أنت محقّ بالتأكيد، يا ريّس...».

Twitter: @ketab_n

أخبرها وهو يبتسم لها ابتسامة ساذجة:

- كان هذا رئيس قسمي.

قالت مندهشة:

- حقّاً؟

نظّف قدحه، غادر المكان وأمسك بالباب بإحكام لئلا يُصفق.

نعم كانت هذه الفتاة ساذجة ولكنها لم تكن حمقاء وكان هذا هو الأمر الجيّد.

مع أيّ امرأةٍ أخرى، كان ليغلق السماعة وينتهي الأمر. في حين أنّه معها، أخبرها بأنّ المتّصل كان رئيس قسمه لكي يُضحِكها، وهي كانت خبيثة جداً بحيث تظاهرت بأنّها مذهولة لتعيد إليه طُرْفته. كان الحديث معها أشبه بلعب كرة الطاولة: كانت تمسك بالمضرب وترسل إليك ضربات ساحقة في زوايا لم تتوقّعها، فكنت تشعر بأنّك أقلّ غباءً.

نزل السلالم وهو يمسك بحرف الدرج وسمع طقطقة المسننات والتروس فوق رأسه. مع فيليبير، كان الأمر مشابهاً، كان يحبّ كثيراً أن يتناقش معه بسبب هذا الأمر...

لأنّه، كان يعرف أنّه ليس همجياً بالقدر الذي يبدو عليه، ولكنّ مشكلته كانت تكمن فقط في الكلمات... تخونه الكلمات دائماً وبالتالي يضطرّ لأن يتوتّر لكي يفصح عن مراده... هذا صحيح، كان ذلك مزعجاً حقاً، اللعنة!

ولكلّ هذه الأسباب كان يزعجه أن يغادر... ماذا سيفعل حينما يصبح في بيت كيرماديك؟ الإفراط في الشراب والتدخين ومشاهدة أفلام DVD وتصفّح المجلات في المراحيض؟

Twitter: @ketab_n

رائع.

العودة إلى خانة العشرين عاماً.

أكمل دوامه بشرود.

الفتاة الوحيدة في الكون القادرة على أن ترتدي وشاحاً نسجته جدّته وتبقى جميلة، سوف لن تكون قطّ له.

كانت الحياة حمقاء...

مرّ على محلّ الحلوى قبل أن يغادر، ووبّخ نفسه لأنّه لم يكن قد اتّصل بتلميذه السابق وعاد لكي ينام.

لم ينم سوى ساعة واحدة فقط لأنّه كان عليه الذهاب إلى المغسلة. لملم كلّ ثيابه ورتّبها في غطاء فراشه الريشي.

15

حتماً...

كانت لا تزال موجودة، هناك. جالسةً بالقرب من الآلة رقم 7 مع حقيبة بياضات مبلّلة بين ساقيها. كانت تقرأ.

جلس قبالتها من دون أن تلاحظ حضوره. كان ذلك يُبهره دائماً.. كيف كانت وفيليبير قادرين على التركيز.. كان ذلك يذكّره بإعلانٍ، رجلٌ يتناول بهدوء جبن **بورسان** في حين ينهار العالم من حوله. كانت أمورٌ كثيرة تذكّره بإعلانٍ ما... كان ذلك بالتأكيد لأنّه كان يشاهد التلفاز كثيراً في طفولته...

لعب لعبةً صغيرة: تخيّل أنّك قد عدتَ إلى مغسلة لافوماتيك العفنة هذه في جادة بوردونيه في 29 كانون الأول (ديسمبر) في الساعة الخامسة بعد الظهر ورأيت هذا الشبح للمرّة الأولى في حياتك، ماذا كنت ستقول في نفسك؟

Twitter: @ketab_n

عدّل جلسته في كرسيّه البلاستيك وغطّى يديه ببلوزته وأغمض عينيه.

أوّلاً، كنت لتعتقد أنّ هذا رجلٌ. كما اعتقدتَ في المرّة الأولى. ربّما ليس مجنوناً، وإنّما شخصٌ مخنّث جداً... وبالتالي، كنتَ ستكفّ عن النظر إليها برغبة. ومع ذلك... كانت الشكوك لتراودك رغم كلّ شيء... بسبب يديها، بسبب رقبتها، بسبب طريقتها الفريدة في تمرير ظفر إبهامها على شفتها السفلى... نعم، كنتَ لتتردّد... أتكون فتاة؟ فتاةٌ ترتدي كيساً. وكأنّها تسعى لإخفاء جسدها؟ ربّما ستحاول النظر باتّجاهٍ آخر ولكنّك لن تستطيع الامتناع عن العودة إليها. لأنّ هناك شيئاً ما، هنا... كان الهواء خاصّاً حول هذا الشخص. أو ربّما الضوء؟

نعم. كان الأمر كذلك.

لو أنّك عدتَ إلى مغسلة لافوماتيك العفنة هذه في جادة بوردونيه في 29 كانون الأول (ديسمبر) في الساعة الخامسة بعد الظهر ورأيت هذا الشبح تحت ضوء المصابيح الكابي، لقلت في نفسك مباشرة هذا الكلام: سحقاً... ملاك...

رفعت رأسها في تلك اللحظة، رأته، للحظة لم تُظهر أي ردّ فعل، وكأنّها لم تتعرّف عليه، وفي النهاية ابتسمت له. أوه، تقريباً لا شيء، ابتسامة خفيفة، إشارة عرفانٍ صغيرة بين رواد...

- أهذه أجنحتكِ؟

- عفواً؟

- كلا، لا شيء...

توقّفت إحدى الآلات المجفّفة عن الدوران وتنهّدت ملقية

Twitter: @ketab_n

نظرة على ساعة الحائط. اقترب متسكّعٌ من الآلة، أخرج منها بلوزة وقميص نوم ممزّقاً تماماً.

كان هذا هو المهمّ... تأكّدت نظريته بالوقائع... لا تضع أيّ فتاة طبيعية حوائجها للتجفيف بعد حوائج متسكّع وكان يعرف عَمَّ يتكلّم: كان له ما يقارب خمسة عشر عاماً من الخبرة في المغاسل الآلية...

تفحّص وجهها.

لم تكن هناك أدنى حركة تراجع أو تردّد، ولا أثر للعبوس. نهضت، وضعت ألبستها في الآلة وسألته إن كان بوسعه أن يبدّل لها ورقة نقدية بقطعٍ نقدية أصغر.

ثمّ عادت إلى مكانها وأمسكت بكتابها.

كانت محبطة بعض الشيء.

كان الناس الكاملون مزعجين.

قبل أن تستغرق في القراءة، سألته:

- أخبرني...

- نعم.

- لو أهديت آلة غسيل تقوم بالتنشيف أيضاً إلى فيليبير بمناسبة عيد الميلاد، هل تعتقد بأنّك ستتمكّن من تركيبها قبل أن تغادر؟

-...

- لماذا تبتسم هكذا؟ هل تفوّهتُ بحماقة؟

- كلا، كلا...

Twitter: @ketab_n

قام بحركةٍ بيده:

- لا يمكنكِ أن تدركي...

قالت وهي تربّت بالسبابة والوسطى على فمها:

- هيه، أنت تفرط في التدخين الآن، أليس كذلك؟

- في الواقع، أنتِ فتاة عادية...

- لماذا تقول لي هذا الكلام؟ طبعاً أنا فتاة عادية...

-...

- هل أنت خائب الظنّ؟

- كلا.

- ماذا تقرئين؟

- إنّه كتاب أسفار...

- أهو ممتع؟

- رائع...

- ماذا يروي؟

- أوه... لا أدري إن كان هذا سيستهويك...

قال ساخراً:

- كلا، أقول لكِ ذلك صراحةً، هذا لا يستهويني أبداً، ولكنني أحبّ أن تحكي... تعلمين أنني عدتُ وأصغيت إلى أسطوانة مارفان البارحة...

- حقّاً؟

- نعم.

- وإذاً؟

Twitter: @ketab_n

- حسناً، المشكلة هي أنني لم أفهم شيئاً... ولذلك سأذهب للعمل في لندن... كي أتعلّم الانكليزية...

- متى ستسافر؟

- في الحالة الطبيعية، كان عليّ أن أحجز مكاناً بعد فصل الصيف، ولكنني الآن في وضعٍ مربكٍ بسبب جدّتي... بسبب بوليت...

- ما بها؟

- بفف... لا أرغب في الحديث عن ذلك... بدل ذلك، اروي لي كتاب الأسفار خاصّتك...

قرّب كرسيه منها.

- هل تعرف ألبريشت دورر؟

- الكاتب؟

- كلا. الرسّام.

- لم أسمع قط عنه...

- بلى، أنا متأكّدة من أنّك قد شاهدت بعض رسوماته... هناك لوحات شهيرة جداً... أرنبٌ برّي... أعشاب طائشة... هندباء برّية...

-....

- بالنسبة لي، إنّه معبودي. أقصد... لديّ الكثير من اللوحات، ولكنّه هو معبودي الأوّل... هل أنت لديك معبودك؟

- آه...

- في عملك؟ لا أدري، أنا... ايسكوفييه، كاريم، كورنونسكي؟

Twitter: @ketab_n

- آه...

- بوكوس، روبوشون، دوكاس؟

- آه، تقصدين قدوات! نعم لديّ مَن أقتدي بهم ولكنّهم ليسوا معروفين... أقصد أقلّ شهرة... أقل صخباً، ماذا... هل تعرفين شابيل؟

- كلا.

- باكو؟

- كلا.

- ساندیرنس؟

- لوكاس كارتون سابقاً؟

- نعم... كيف عرفتِ؟

- مهلاً، أنا أعرفه هكذا، بالاسم، ولكنني لم أذهب إليه أبداً [1]...

- إنّه رجلٌ طيّب... لديّ كتابٌ في غرفتي... سأطلعكِ عليه... هو وباكو، بالنسبة لي، هما من الأساتذة... وإذا كانا أقلّ شهرة من الآخرين، فذلك فقط لأنّهما في مطبخهما... أقصد، لقد أخبرتكِ بذلك، لا أعرف شيئاً عن ذلك... هذه هي الفكرة التي كوّنتها لنفسي... ربّما أنا أخدع نفسي تماماً...

- ولكن مع ذلك تتكلّمون بين بعضكم كطبّاخين؟

- ليس كثيراً... لسنا ثرثارين جداً، تعلمين... نكون منهكين جداً وغير قادرين على الثرثرة. نعرض على بعضنا أشياءً،

---

(1) هي تقصد مطعماً بهذا الاسم في حين هو يتحدّث عن شخصية. (المترجم).

Twitter: @ketab_n

مهارات يدوية، نتبادل الأفكار، ووصفات الوجبات التي نعلّقها هنا وهناك، ولكن نادراً ما تتجاوز أحاديثنا هذه الأمور...

- هذه خسارة...

- لو كنّا نجيد التعبير عن أنفسنا ونصوغ جملاً جميلة، لما عملنا في هذه المهنة، هذا واضح. أقصد أنني كنتُ سأتوقّف في الحال عن هذا العمل.

- لماذا؟

- لأنّ... ليس لهذا العمل أيّ قيمة... هذا نوعٌ من العبودية... هل استعرضت حياتي؟ إنّها حياة تافهة. حسناً... أوه... لا أريد أبداً الحديث عن نفسي... إذاً، وماذا عن كتابكِ؟

- نعم، كتابي... بدقّة، هو عبارة عن المذكرات اليومية التي كتبها دورر خلال رحلته إلى هولندا بين عامي 1520 و.. 1521. هو نوعٌ من الكرّاسة أو المفكّرة... إنّه الدليل على أنني مخطئة في اعتباره معبودي. الدليل على أنّه هو أيضاً شخصٌ عادي. شخصٌ كان يحسب قروشه ويغضب حينما يتبيّن له بأنّه قد خُدِع من قبل رجال الجمارك، ويهمل دائماً زوجته ولا يستطيع الامتناع عن خسارة الأموال في القمار. شخصٌ ساذجٌ، نهمٌ، ذكوريٌّ، وأيضاً متعجرفٌ بعض الشيء... ولكن حسناً، كلّ هذا ليس مهمّاً جداً، على العكس، كان هذا يجعله إنساناً أكثر... و... أوه... هل أتابع؟

- نعم.

- عند الانطلاق، كانت رحلة بدأها بباعثٍ قويّ، أي نجاته

Twitter: @ketab_n

ونجاة عائلته والناس الذين كانوا يعملون معه في المشغل... إلى ذلك الحين كان تحت حماية الإمبراطور ماكسيميليان الأوّل. رجلٌ مصابٌ بداء العظمة طلب منه طلباً غير معقول: أن ينجز له تمثالاً وهو على رأس موكبٍ مهيب لكي يخلّده إلى الأبد... عملٌ سوف يُطبَع بعد ذلك بعدّة سنوات وسيكون طوله أكثر من أربعة وخمسين متراً... هل تتخيّل هذا الأمر؟

«بالنسبة لدورر، كانت تلك فرصة ليغتنمها... سنواتٌ من العمل المضمون... لسوء الطالع، مات الإمبراطور ماكسيميليان بعد ذلك بوقتٍ قصير، ومن جرّاء ذلك، تعرّض دخله السنوي للخطر... فكانت المأساة... وبالتالي، ها هو صاحبنا ينطلق في الطرقات مع زوجته وخادمته لكي يذهب ويُبهِج شارل كوينت، الإمبراطور المقبل، ومارغريت دوتريش، ابنة حاميه السابق، لأنّه كان يجب **من كلّ بدّ** أن يتجدّد ذلك الدخل الرسمي...

«كانت هذه هي الظروف... إذاً كان في البداية متوتراً بعض الشيء ولكن ذلك لم يمنعه من أن يكون سائحاً ممتازاً. منذهلاً بكلّ شيء، بالوجوه، بالعادات، بالأزياء، زائراً أترابه، زائراً الفنانين، معجباً بعملهم، زائراً كلّ الكنائس، مبتاعاً كدساً من الأشياء التافهة المنقولة حديثاً من **العالم الجديد**: ببغاء، سعدانٌ أفريقي، قوقعة سلحفاة، فروعٌ من المرجان، قرفة، خفٌّ من جلد الأيل، الخ. كان كصبيّ مراهق مع كلّ هذا... بل قام برحلة طويلة لكي يذهب لرؤية حوتٍ جانحٍ متحلّل على شاطئ بحر الشمال... وطبعاً، كان يرسم. مثل مجنون. كان في الخمسين من عمره، وفي ذروة فنّه وأيّاً كان يرسم: ببغاء، أو أسداً، أو

Twitter: @ketab_n

فيل بحر، أو شمعداناً أو إشارات مورسْ أو صورة صاحب نُزُله، إنّه... إنه...

- إنّه ماذا؟

- حسناً تفضّل، أنظر...

- كلا، كلا، لستُ خبيراً!

- ولكن لا حاجة لأن تكون خبيراً! أنظر إلى هذا العجوز، هنا، مثلما تخيّله... وهذا الفتى الوسيم، أترى كم هو فخور؟ كم يبدو واثقاً بنفسه؟ وكأنّه أنت، أنظر... نفس العجرفة، نفس المنخرين المتّسعين...

- آه، حقاً؟ أترينه وسيماً؟

- سحنته منفرة بعض الشيء، أليس كذلك؟

- إنّ ذلك بسبب القبّعة...

قالت مبتسمةً:

- آه، نعم... أنت محقّ، لا بدّ أنّها القبّعة...

- وهذه الجمجمة؟ أليست غير معقولة؟ وكأنّها تزدرينا، وكأنّها تستفزّنا: «إيه... ولكنّكم أيضاً، يا أولاد... هذا ما ينتظركم...».

- دعني أرى.

- هنا. ولكن ما أفضّله، هي صوره الشخصية، وما يقتلني، هو المرح الذي يرسمها به. هنا، خلال هذه الرحلة، المسألة مسألة تبادل مصالح، لا شيء سوى المقايضة: مهارتك مقابل مهارتي، صورتك الشخصية مقابل عشاء، قبّعة، زينة رخيصة

Twitter: @ketab_n

لزوجتي أو معطف من جلد الأرنب... بالنسبة لي، كنتُ لأعشق العيش في ذلك العصر... أرى أنّ المقايضة اقتصادٌ رائع...

- وكيف تنتهي هذه الحكاية؟ هل كسب المال؟

- نعم. ولكن بأيّ ثمن... لقد ازدرته مارغريت البدينة، وذهبت إلى حدّ رفض الصورة الشخصية لوالدها التي أثارت ملابسة مؤسفة لهذه البلهاء... من جرّاء ذلك، بادلها بغطاء سرير! فضلاً عن ذلك، عاد مريضاً، فقد التقط وباءً حينما ذهب لرؤية الحوت النافق... أعتقد أنّها حمّى المستنقعات... تفضّل، أنظر، هناك آلة شاغرة، هناك...

نهض متنهداً.

- أديري وجهكِ، لا أريد أن تري ملابسي الداخلية.

- أوه، لا أحتاج لأن أراها لكي أتخيّلها... بالنسبة لفيليبير، لا بدّ أنّه يرتدي سراويل داخلية مخطّطة، أمّا أنتَ، فأنا متأكّدة من أنّك ترتدي تلك السراويل الداخلية القصيرة من ماركة **هوم** التي تشدّ على الجسم والتي توجد كتابات على أحزمتها.

- كم أنتِ قوية... هيّا، مع ذلك أغمضي عينيكِ...

تحرّك بنشاط، جلب عبوة المسحوق واتّكأ على آلة الغسيل:

- ولكن كلا، لستِ قويّة إلى هذه الدرجة، وإلّا لما عملتِ مدبّرة منزل، كنتِ لفعلت مثل هذا الشخص، وعملتِ...

ساد الصمت.

- أنت محقّ... لستُ قويّة إلا في مجال السراويل الداخلية...

Twitter: @ketab_n

- وهذا لا بأس به، أليس كذلك؟ ربّما هناك فسحة ينبغي أخذها... هل لديكِ فراغٌ في الحادي والثلاثين من الشهر؟

- هل تعرض عليّ حضور حفلة؟

- كلّا. أعرض عليكِ عملاً.

16

- لكن لماذا لا؟

- لأنّني لا أصلح لشيء!

- مهلاً، ولكن سوف لن يُطلب منكِ أن تطبخي! وإنّما فقط المساعدة في التحضير...

- وما هو التحضير؟

- هو كلّ ما تحضّرينه مسبقاً لكسب الوقت أثناء اشتداد وتيرة العمل...

- وما الذي ينبغي عليّ القيام به؟

- أن تقشّري الكستناء، وتنظّفي الفطر الأصفر، وتكشطي وتنتزعي بذور الزبيب، وتغسلي الخضراوات... أقصد أن تقومي بالعديد من الأعمال التافهة...

- لستُ متأكّدة حتى من النجاح في ذلك...

- سوف أعلّمكِ كلّ شيء، وسأشرح لكِ جيّداً ما عليكِ القيام به.

- سوف لن يكون لديك الوقت لذلك...

- كلا. ولذلك سوف أشرح لكِ مسبقاً. سوف أجلب معي بعض المخدرات إلى الشقّة وسأعلّمكِ أثناء استراحتي...

Twitter: @ketab_n

- ...

- هيّا... سيكون من المفيد لكِ أن تري العالم... أنت لا تعيشين سوى مع الأموات، ولا تتحدّثين إلّا مع أشخاص لم يعودوا هنا لكي يردّوا عليكِ... أنتِ وحيدة طيلة الوقت... من الطبيعي أن تكون أمورك سيّئة...

- أموري سيّئة؟

- نعم.

- اسمعي... أطلب هذا منكِ كخدمة... لقد وعدتُ رئيس قسمي بأنني سأجد أحداً يساعدنا، ولم أجد أحداً... أنا محرَج...

- ...

- هيّا... محاولة أخيرة... وبعد ذلك سأنصرف ولن تعودي ترينني أبداً في حياتكِ...

- كنتُ أنتظر حضور حفلة...

- متى ينبغي عليكِ أن تكوني هناك؟

- لا أدري، ربّما نحو الساعة العاشرة...

- لا مشكلة. ستذهبين إليها. سأدفع لكِ أجرة السيارة...

- حسناً...

- شكراً. أديري وجهكِ مرّة أخرى، لقد جفت ثيابي الداخلية.

- عليّ أن أنصرف... لقد تأخّرت...

- حسناً إلى اللقاء غداً...

Twitter: @ketab_n

- ستنام هنا هذا المساء؟

- كلا.

- هل خاب أملكِ؟

- أوه، كم أنت ثقيييل..

- مهلاً، أقول هذا من أجلكِ، إيه! لأنّه بالنسبة إلى السراويل الداخلية، ليس من المؤكّد بأنّك محقّة، أتعرفين؟

- مهلاً، ولكنّك لو تعلم كم لا أبالي بسراويلك الداخلية!

- إنّها غلطتكِ...

17

- هل نذهب؟

- أنا أصغي إليكَ. ما هذا؟

- عَمَّ تتحدّثين؟

- عن الصندوق الصغير.

قال متنهداً:

- آه هذه؟ هذه علبة سكاكيني. ريش الرسم خاصّتي إن شئتِ... إن فقدتها، لن يعود لي فائدة في شيء. أترين بماذا تتعلّق حياتي؟

- منذ متى تملكها؟

- بفف... مذ كنتُ صغيراً جداً... جدّتي هي من اشترتها لي بمناسبة حصولي على شهادة CAP المهنية...

- هل يمكنني مشاهدتها؟

Twitter: @ketab_n

- تفضّلي.

- حدّثني....

- عن ماذا؟

- في ماذا تُستَخدَم... أحبّ كثيراً أن أتعلّم...

- حسناً... السكين الكبير، هو سكين المطبخ أو سكين الشيف، وهو يستخدم لكلّ شيء، وذو النصل المستطيل هو للعظم والمفاصل أو لتشفية اللحم، أمّا الأصغر حجماً، فهو سكين وظيفي حيث نجده في جميع المطابخ، خذيه، سوف تحتاجين إليه... أمّا الطويل فيُستخدَم لتشريح وترقيق الخضار وفرمها ناعمةً، وهذا الصغير يُستخدم لقطع الأعصاب وتقشير اللحم وإزالة الشحوم عنه، وتوأمه ذو النصل القاسي هو لنزع العظام عنه، وهذا السكين الرفيع جداً، هو لفصل شرائح السمك، وهذا الأخير يُستخدم لتقطيع الجونبون إلى شرائح...

- وهذه القطعة تُستَخدَم لشحذها...

- نعم.

- وهذا؟

- هذا، هذا لا شيء... هذا يستخدم لإعداد زينة الأطباق فقط، ولكنني لم أعد أستخدمه منذ زمنٍ طويل...

- ماذا نفعل به؟

- أشياء مدهشة... سوف أعرضها عليكِ في يومٍ آخر... حسناً، هل أنتِ جاهزة؟

- نعم.

Twitter: @ketab_n

- أنظري جيداً، إيه؟ أعلمكِ بأنّ حبّات الكستناء قد غُمِرت في ماءٍ ساخن وبالتالي أصبح تقشيرها أسهل... طبعاً، عليكِ ألا تتلفينها... يجب أن تبقى عروقها الرفيعة سليمة وظاهرة... بعد القشرة، هناك هذه الطبقة القطنية وعليكِ أن تزيليها بأقصى درجات الحرص...

- ولكن هذا عملٌ طويلٌ جداً!

- ولهذا نحتاج إليكِ...

كان صبوراً. ثمّ شرح لها كيف تنظّف الفطر بقماشة مبلّلة وكيف تكشط عنه التراب من دون أن تتلفه.

وجدت ذلك مسلّياً. كانت ماهرة اليدين. أغاظها أن تكون بطيئة جدّاً مقارنة به ولكنّها تسلّت. تدحرجت حبّات الزبيب بين أصابعها وسرعان ما التقطتها لكي تنزع منها البذور بحدّ السكين.

- حسناً، بالنسبة لما تبقّى، سنكمل غداً... سيسير الأمر بشكلٍ جيّد بالنسبة للخضراوات وسواها

- سيدرك رئيس قسمك في الحال أنّني عديمة الفائدة...

- هذا مؤكّد! ولكن لا خيار له... كم هو قياس خصرك؟

- لا أدري.

- سوف أجد لك فوطة وسترة... وكم هي نمرة حذائكِ؟

- 40.

- هل لديكِ أحذية رياضية؟

- نعم.

- إنّها ليست مثالية، ولكنّها تصلح لمرّة واحدة...

Twitter: @ketab_n

لفّت سيجارة في حين كان هو يرتّب المطبخ.

- أين ستكون حفلتكِ؟

- في **بوبيني**... في بيت فتاةٍ تعمل معي...

- ألا يخيفكِ أن نبدأ غداً في التاسعة صباحاً؟

- كلّا.

- أنّبهكِ إلى أنّه سوف لن تكون هناك سوى استراحة قصيرة... ساعة كأقصى حدّ... لا توجد خدمة في منتصف الظهيرة ولكنّنا سنحضّر أكثر من ستين طقم مائدة في المساء. وجبة كاملة للجميع... ستكون الوجبة دسمة... مائتان وعشرون يورو عن كلّ شخص، أعتقد... سأحاول أن أصرفك باكراً قدر المستطاع، ولكنني أعتقد بأنّكِ ستمكثين حتى الساعة الثامنة مساءً على الأقلّ...

- وأنت؟

- بفف... أنا، أفضّل أن لا أفكّر مجرّد تفكير في ذلك... سهرات العيد، إنّها دائماً أشغال شاقّة... ولكن حسناً، الأجور جيّدة... وسأطلب لكِ أيضاً مبلغاً جيّداً...

- أوه، ليست هذه هي المشكلة...

- أجل، أجل، هذه هي المشكلة. سوف ترين غداً مساءً...

18

- يجب أن نذهب إلى هناك... سوف نشرب قهوةً هناك.

- ولكن هذا البنطال فضفاضٌ جداً!

- لا يهمّ.

Twitter: @ketab_n

عبرا شان دي مارس عدواً.

فوجِئت كاميل بالحركة والتركيز السائدين في المطبخ.

فجأةً أصبح الجوّ حاراً جداً...

- ها هي، يا ريّس. عاملة صغيرة طريّة العود...

دمدم الآخر وصرفهما بإشارة من قفا يده. قدّمها فرانك إلى موظّفٍ كبير لم يستيقظ تماماً بعد:

- إذاً، هذا سيباستيان. إنّه خزانة الأطعمة. وهو أيضاً رئيسكِ ومعلّمك الكبير، اتّفقنا؟

- سررتُ بلقائك.

- امم... ولكنّكِ لن تكوني على صلةٍ به وإنّما بمعاونه...

ثمّ متوجّهاً إلى الفتى:

- ما اسمه؟

- مارك.

- أهو موجود؟

- في الغرف الباردة...

- حسناً سأدعها في عهدتك...

- ماذا تجيد؟

- لا شيء. ولكن سترى، إنها تعمل جيداً.

وغادر لكي يبدّل ثيابه في غرف تبديل الملابس.

- هل علّمكِ بشأن الكستناء؟

- نعم.

Twitter: @ketab_n

قال لها وهو يشير إلى كومة كبيرة منها:

- حسناً، ها هي.

- هل يمكنني الجلوس؟

- كلا.

- لماذا؟

- لا تُطرَح أسئلة في المطبخ، وإنّما يُقال: «نعم، سيّدي»، أو «نعم، يا ريّس».

- نعم، يا ريّس.

نعم أيّها البليد الضخم. ولكن لماذا قبِلَت بهذه الوظيفة؟ كانت ستنجز العمل بشكلٍ أسرع لو أنها جلست...

لحسن الحظّ، كانت غلاية قهوة تعمل. وضعت فنجانها على رفٍّ وأخذت تعمل.

بعد ذلك بربع ساعة - كانت يداها تؤلمانها- سألها أحدهم:

- كيف حالك؟

رفعت رأسها وظلّت منذهلة.

لم تتعرّف عليه. بنطالٌ بلون النيكل، وسترةٌ مكوية بعناية بصفّين من الأزرار الدائرية وقد طُرِّز اسمه عليها بأحرفٍ زرق، ووشاحٌ صغيرٌ مستدق الطرفين في رقبته، ووزرة وممسحة نظيفتان، طاقيّة جميلة على رأسه. هي التي لم تكن قد شاهدته قط إلّا في الحياة البائسة، وجدته هذه المرّة وسيماً جداً.

- ماذا هناك؟

Twitter: @ketab_n

- لا شيء. أراك وسيماً جداً.

وهو، هذا الأبله الكبير، هذا الجبان، هذا المتبجّح، مصارع الثيران القصير الريفي بخطمه الكبير، بدراجته النارية الضخمة التي تنام على مقعدها الخلفي ألف فتاة غبية، نعم، هو، لم يسعه الامتناع عن الاحمرار خجلاً.

ولكي تنقذه من ارتباكه، أضافت:

- هذا بالتأكيد سحر البزّة النظامية.

- نعم، هذا... هذا هو بالتأكيد...

ابتعد وهو يوبّخ شخصاً ويشتمه في طريقه.

لم يكن أحدٌ يتكلّم. وكانت تُسمَع فقط أصوات غلغلة السكاكين وقرقعة القصعات وزقزقة الأبواب الصفّاقة والهاتف الذي كان يرنّ كلّ خمس دقائق في مكتب رئيس الطهاة.

كانت كاميل، المبهورة، مشتّتة بين التركيز لئلا تعرّض نفسها للتوبيخ ورفع رأسها لئلا تفوّت أيّ شيء. كانت ترى فرانك من بعيد وهو يدير لها ظهره. بدا لها أكثر طولاً وهدوءاً مما هو عليه في العادة. بدا لها وكأنّها لا تعرفه.

بصوتٍ خفيض، سألت زميلها في التقشير:

- ماذا يعمل فرانك؟

- أيّ فرانك؟

- فرانك ليستافييه.

- إنّه مختصّ بإعداد المرق ويُشرِف على اللحوم.

- هل هذا عملٌ شاقّ؟

Twitter: @ketab_n

رفع زميلها ذو الوجه المبثور عينيه نحو السماء وقال:

- طبعاً. إنّه العمل الأكثر مشقّة. بعد رئيس الطهاة ومساعده، يأتي هو في المرتبة الثالثة في فريق المطبخ...

- أهو طيّب؟

- نعم. إنّه بليد ولكنّه طيّب. بل ويمكنني القول بأنّه فائق الطيبة. ثمّ إنّك سترين أنّ رئيس الطهاة يتوجّه دائماً إليه وليس إلى مساعده... رئيس الطهاة يشرف على عمل مساعده ويراقبه في حين يشاهد ليستافييه وهو يعمل...

- ولكن...

- هسّ...

حينما ضرب رئيس الطهاة يداً بيد ليعلن حلول وقت الاستراحة، رفعت رأسها عابسةً. كانت تعاني الألم في رقبتها وظهرها ورسغيها ويديها وساقيها وقدميها وكذلك أماكن أخرى ولكنها لم تعد تتذكّر أين.

سألها فرانك:

- هل ستتناولين الطعام معنا؟

- هل أنا مرغمة؟

- كلا.

- إذاً، أفضّل أن أخرج وأتمشّى قليلاً...

- كما تشائين...

سألها:

- هل أنتِ بخير؟

Twitter: @ketab_n

- نعم. ولكنّ الجوّ حار.. تعملون بقسوة...

- أتسخرين؟ نحن لا نعمل شيئاً اليوم، حتى ليس هناك زبائن!

- حسناً...

- ستعودين بعد ساعة؟

- حسناً.

- لا تخرجي فوراً، انتظري إلى أن تبردي قليلاً وإلّا ستُصابين بالبرد.

- حسناً.

- أتريدين أن آتي معكِ؟

- كلا، كلا، أريد أن أكون وحيدة...

- يجب أن تأكلي شيئاً ما، إيه؟

- نعم بابا.

رفع كتفيه:

- هسسس...

طلبت شطيرة **بانيني** رديئة من كشكٍ للسيّاح وجلست على مقعد تحت برج إيفل.

كانت مشتاقة إلى فيليبير.

أدخلت رقم هاتف القصر إلى هاتفها النقّال.

ردّ صوتٌ طفولي:

- أنا ألينور دو لا دوربيلير، مع مَنْ أتشرّف بالحديث؟

احتارت كاميل.

Twitter: @ketab_n

- أوه... هل يمكنني التحدّث إلى فيليبير، من فضلكِ؟

- نحن على المائدة. هل يمكنني أخذ رسالةٍ منكِ؟

- أليس موجوداً؟

- بلى، ولكننا على المائدة. لقد أخبرتكِ بذلك للتوّ...

- آه... حسناً... حسناً... كلا، لا شيء، أخبريه بأنني أقبّله وأتمنى له سنةً سعيدة...

- هل يمكنكِ إخباري باسمكِ؟

- كاميل.

- كاميل باختصار؟

- نعم.

- ممتاز. إلى اللقاء أيتها السيّدة باختصار.

إلى اللقاء أيّتها الحقيرة الصغيرة.

ولكن ما معنى ذلك؟ ما هذه الفوضى؟

فيليبير المسكين...

- في خمسة أحواض مياه مختلفة؟

- نعم.

- وتصبح نظيفة!

- نعم هذا صحيح.

أمضت كاميل وقتاً عصيباً في فرز الخضراوات وتنظيفها. كان عليها أن تتفحّص كلّ ورقة وتصنّفها وتعاينها بشكلٍ دقيق. لم تكن قد رأت مثيلاً لذلك، إذ كانت هناك أحجام مختلفة وأشكال مختلفة وألوان مختلفة.

Twitter: @ketab_n

- ما هذه؟

- بقلة.

- وهذه؟

- أوراق السبانخ.

- وهذه؟

- جرجير.

- وهذه؟

- نبتة فيكوييد الجليدية.

- هذا اسمٌ جميل...

سألها جارها:

- أين نشأتِ؟

لم تواصل الإجابة.

ثمّ نظّفت أعشاباً ناعمة وجفّفتها بورقٍ ماصّ. كان عليها أن تضعها في أوانٍ خزفية غير قابلة للصدأ وأن تغلّفها بعناية قبل أن توزّعها على رفوفٍ باردة. كسرت جوزاً وبندقاً وقشّرت تيناً وفصفصت كمية كبيرة من الفطر الأصفر وكوّرت كرات صغيرة من الزبدة بين ملعقتين محزّزتين. كان عليها ألا تخطئ وأن تضع فوق كلّ صفيحة كرة من الزبدة الحلوة وأخرى من الزبدة المالحة. شكّت في لحظة بأنها قد أخطأت واضطرّت لأن تتذوّق الزبدة برأس السكين. تقزّزت، لم تكن تحبّ الزبدة أبداً وضاعفت من انتباهها لئلا تخطئ ثانية. ظلّ النُدُلُ يقدّمون القهوة الايطالية لمن يطلبها وشعرت بأنّ الضغط يزداد في كلّ دقيقة.

Twitter: @ketab_n

لم يعد البعض يفتحون أفواههم، وكان آخرون يشتمون همساً وكان رئيس الطهاة يقوم بدور الساعة الناطقة:

- الساعة الخامسة وثمان وعشرون دقيقة، أيّها السادة... السادسة وثلاث دقائق، أيّها السادة... السادسة وسبع عشرة دقيقة، أيّها السادة...

بدا وكأنّه يتعمّد توتيرهم إلى أقصى حدّ...

لم يعد لديها ما تفعله فاستندت إلى طاولة العمل ورفعت إحدى قدميها ثمّ الأخرى لتريح ساقيها. كان الشخص الذي بجوارها منهمكاً في إعداد زخرفات من المرق حول شريحة من كبد الإوزّ على أطباقٍ مستطيلة الشكل. بحركة هوائية، هزّ ملعقة صغيرة وتنهّد وهو ينظر إلى زخارفه. لم يكن الأمر مرضياً أبداً. ولكن مع ذلك كانت الأطباق جميلة...

- ماذا تريد أن تفعل؟

- لا أدري... شيئاً مبتكراً بعض الشيء...

- هل يمكنني أن أحاول؟

- هيّا حاولي.

- أخشى أن أفسد الأمر...

- كلا، كلا، يمكنكِ المحاولة، هذه بقايا قديمة، تركتها فقط لكي أتدرّب عليها...

كانت المحاولات الأربع سيئة، في المحاولة الخامسة، تلقّت الثناء.

- آه، هذا ممتاز... هل يمكنكِ أن تفعلي ذلك ثانية؟

Twitter: @ketab_n

ضحكت:

- كلا، أخاف كثيراً... ولكن... أليس لديك محاقن أو شيءٌ من هذا القبيل؟

- أوه...

- جيوب صغيرة على شكل غمد؟

- بلى. انظري في الدرج...

- هلّا ملأته لي؟

- ماذا ستفعلين به؟

- مجرّد فكرة، هكذا...

انحنت، أخرجت لسانها ورسمت ثلاث إوزّات صغيرة.

استدعى الآخر رئيس الطهاة لكي يعرض الرسمة عليه.

- ما هذه الترّهات؟ هيّا... لسنا هنا في ديزني، يا أولاد!

ابتعد وهو يهزّ رأسه.

هزّت كاميل كتفيها، مرتبكة، واستدارت تهتمّ بخضراواتها.

ظلّ يدمدم متذمراً من نهاية القاعة:

- هذا ليس طبخاً... هذا مجرّد زينة... وهل تعرفون الأسوأ؟ هل تعرفون ما يقتلني؟ يقتلني أنّ هؤلاء المأفونين سيعشقون... اليوم، هذا ما يريده الناس: الزينة! أوه، ثمّ إنّ هذا يوم عيد في نهاية المطاف... هيا يا آنستي، سوف تسعدينى بأن تلوّثي لي نحو ستين طبقاً بترّهاتكِ... بسرعة يا صغيري!

همس إليها: ·

- أجيبي بـ «نعم، يا ريّس».

Twitter: @ketab_n

- نعم، يا ريّس!

ناحت كاميل:

- سوف لن أتمكّن من ذلك أبداً...

- ليس عليكِ سوى أن تنجزي واحدة منها في كلّ مرّة...

- على اليسار أم على اليمين؟

- على اليسار، سيكون ذلك أكثر منطقياً.

- هذا مزعج بعض الشيء، أليس كذلك؟

- كلا، هذا ممتع... في كلّ الأحوال، لم يعد لديكِ من خيار الآن.

- كان من الأفضل لو أنني سكت...

- المبدأ رقم واحد. كنتِ لتعلّمتِ ذلك على الأقلّ... تفضّلي، ها هو العصير اللذيذ.

- لماذا هو أحمر اللون؟

- بسبب الشمندر.... هيّا، سأمرّر إليكِ الأطباق...

تبادلا مكانيهما. كانت ترسم وكان يقطّع الكبد إلى شرائح، يحضّرها ويرشّ عليها ملحاً وبهاراً خشناً ثمّ يمرّر الطبق إلى شريكٍ ثالثٍ يعدّ السلطة بحركات شخصٍ خبير.

- ماذا يفعل الجميع؟

- سيأكلون... سوف نذهب لاحقاً... نحن سنفتتح الحفلة، وسننزل حينما يحين دورهم... هل ستساعدينني في إعداد المحار أيضاً؟

- هل يجب فتحه؟!

Twitter: @ketab_n

- كلا، كلا، فقط تزيينه... في الواقع، هل أنتِ مَنْ قشّرتِ التفاح الأخضر؟

- نعم. إنّه هناك... أوه، سحقاً وكأنّه ديكٌ رومي...

- عفواً، سأكفّ عن التحدّث معكِ.

مرّ فرانك بقربهما عابساً. وجدهما طائشين جداً، أو مبتهجين جداً.

لم ترق له تلك المسألة كثيراً...

سأل ساخراً:

- هل نتسلّى جيّداً؟

- نفعل ما بوسعنا...

- طمئنيني... ألا يدفئ هذا العمل على الأقلّ؟

- لماذا قال لكِ هذا؟

- دعك، هذا شأنٌ بيننا... الذين يمنحون الدفء يشعرون بأنّهم يقومون بمهمّة سامية، في حين أننا، نحن، حتى وان عانينا من ألمٍ شديد، سوف يظلّون يحتقروننا. نحن لا نمدّ يدنا على النار... هل تعرف ليستافييه جيّداً؟

- كلا.

- آه نعم، لقد فاجأني هذا أيضاً...

- بماذا؟

- لا، لا شيء...

بينما ذهب الآخرون لتناول العشاء، شطف رجلان أسودان أرضية المطبخ ومرّرا مكاشط لعدّة مرات لتنشيفها بأسرع ما

Twitter: @ketab_n

يمكن. كان رئيس الطهاة يتحدّث مع شخصٍ فائق الأناقة في مكتبه.

- أهذا زبون؟

- كلّا إنّه المسؤول عن تقديم الطعام...

- ولكنّه يبدو راقياً...

- كلّ موظّفي الصالة وسيمون... في بداية الخدمة، نحن من نكون نظيفين وهم يكونون بـ «التيشيرتات»، وكلّما يمضي الوقت، تنقلب الآية: تتّسخ ثيابنا وتصبح قذرة جداً، أمّا هم فيمرّون من أمامنا مثل أسماك الشبّوط بشعرهم المجعّد وبزّاتهم الأنيقة...

جاء فرانك يراها بينما كانت تنهي الصفّ الأخير من الأطباق:

قال فرانك لزميلها:

- يمكنك الانصراف إن شئت...

- أوه، كلا... لم أعد أرغب في المغادرة الآن... سأشعر بأنّني قد فوّتُ المشهد...

- هل لا يزال لديها عملٌ تقوم به؟

- كما تشاء هي! يمكنها أن تأخذ الموقد...

سألت كاميل:

- أيّ موقد؟

- أقصد تلك المشواة التي تعلو وتهبط... هل تريدين الاشتغال بالخبز المحمّص؟

Twitter: @ketab_n

- لا مشكلة... آه... بالمناسبة، هل لديّ متّسعٌ من الوقت لكي أحمّص لنفسي شريحةً من الخبز؟

- هيّا، انزلي.

رافقها فرانك.

- هل أنتِ بخير؟

- أنا بحالة رائعة. إنّ سيباستيان هذا لطيفٌ جداً...

- هاه...

-...

- لماذا أنتِ عابسة هكذا؟

- لأنني... أردتُ أن أتحدّث مع فيليبير لأتمنى له عاماً سعيداً وردّت عليّ فتاة سوقيّة صغيرة...

- مهلاً، أنا سأتّصل به...

- كلا. سيكونون مرّة أخرى إلى المائدة في هذا الوقت....

- دعيني اتّصل...

- ألو... اعذريني على إزعاجكِ، أنا فرانك دي ليستافييه، شريك فيليبير في السكن... نعم... هذا صحيح... صباح الخير يا سيّدتي... هل يمكنني التكلّم معه، أرجوكِ، يتعلّق الأمر بسخّان الماء... نعم... صحيح... إلى اللقاء يا سيّدتي...

غمز كاميل التي ابتسمت وهي تنفث دخان سيجارتها.

- فيلو! أهذا أنت يا أرنبي السمين؟ عامٌ سعيد يا كنزي! لن أقبّلك ولكنني سأعطيك أميرتك. ماذا؟ ولكن ليس لنا أيّ شأن

Twitter: @ketab_n

بسخّان الماء! هيّا، عامٌ سعيد! أتمنى لك صحّة جيّدة وقبلاتي الكثيرة لأخواتك. أقصد. . . فقط اللواتي لهنّ أثداء ضخمة، إيه!

أمسكت كاميل بالسماعة متغضّنة. كلا ليست هناك أيّ مشكلة في سخّان الماء. نعم، وأنا أيضاً أقبّلك. كلّا، لم يحجزها فرانك في خزانة. نعم، هي أيضاً، تفكّر غالباً فيه. كلا، لم تذهب بعد لأخذ عيّنات من الدم للتحليل. نعم، أنت أيضاً يا فيليبير، أتمنى لك صحّة جيّدة. . .

أضاف فرانك:

- كان صوته جميلاً، أليس كذلك؟

- لم يتلعثم إلّا ثماني مرّات.

- ما أقوله صحيحاً.

حينما عادا إلى موقعيهما، تغيّرت الأمور. الذين كانوا قد رفعوا قبّعاتهم، وضعوها من جديد، ووضع رئيس الطهاة بطنه على المصطبة وشبك ذراعيه فوقها. لم يعد يُسمَع همسٌ في المطبخ.

- إلى العمل، أيّها السادة. . .

ساد النظام القاعة. انهمك كلٌّ في عمله حريصاً على ألّا يضايق جاره. كانت الوجوه مضطربة. وانتشرت شتائم مكتومة هنا وهناك. ظلّ البعض هادئاً وبدا آخرون، مثل ذاك الياباني، على حافة الانفجار.

انتظر عمال الخدمة متقاطرين أمام المصطبة بينما كان رئيس الطهاة ينحني على كلّ صحن ويتفحّصه بدقّة. وكان الصبيّ الواقف قبالته يمسكُ بمنشفة صغيرة لكيّ يمسح الآثار المحتملة

Twitter: @ketab_n

للأصابع أو للمرق على حواف الأطباق، وحينما كان الريّس يهزّ رأسه، كان نادلٌ يرفع الصينية المفضّضة الكبيرة وهو يصرّ على أسنانه.

انشغلت كاميل بالمقبّلات مع مارك. كانت تضيف أشياءً إلى الأطباق كالتوابل وسواها. لم تعد تجرؤ على طرح الأسئلة. ثمّ رتّبت قطع الثوم البرّي.

- أسرعي، ليس لدينا الوقت الكافي هذا المساء...

وجدت قطعةً من خيط لتشدّ بنطالها واستاءت لأنّ قبّعتها الورقية لم تكفّ عن النزول على عينيها. أخرج جارها دبّاسة صغيرة من علبة سكاكينه:

- تفضّلي...

- شكراً.

ثمّ أصغت إلى أحد النذّل الذي شرح لها كيفية إعداد شرائح من الخبز المحلّى على شكل مثلّثات عبر قطع أطرافه.

- كيف تريد درجة تحميصه؟

- أريده محمّصاً جيّداً...

- هيّا، أعدّ لي نموذجاً. أظهر لي اللون الذي تريده بالضبط...

- اللون، اللون... لا يُرى هذا من اللون، هذه مسألة استشعار...

- حسناً، أنا أمشي بحسب اللون، أعدّ لي إذاً نموذجاً وإلّا سأكون متوتّرة جداً.

Twitter: @ketab_n

استلمت مهمّتها بجدية كبيرة ولم تُباغَت. كان الندل يأخذون خبزها المحمّص في ثنايا فوطة. لا بدّ أنّها كانت ستُسعَد بمجاملة صغيرة: «أوه! كاميل، يا له من خبز محمّص مدهش هذا الذي تعدّينه لنا!»، ولكن لا بأس...

كانت ترى فرانك، دائماً من الظهر، وكان منهمكاً فوق أفرانه مثل عازفٍ أمام آلته: ضربة غطاءٍ هنا وضربة غطاءٍ هناك، لعقةٌ هنا ولعقةٌ هناك. لم يكفّ الطويل النحيف، الذي كان مساعد رئيس الطهاة على ما استطاعت أن تفهم، عن طرح الأسئلة عليه، وهو قلّما أجاب عليها. كانت جميع طناجره من النحاس وكان مضطراً لأن يستعين بقطعة قماش سميكة لكي يمسك بها. لا بدّ أن أصابعه قد احترقت أحياناً لأنّها شاهدته يهزّ يده قبل أن يضعها في فمه.

كان رئيس الطهاة متوتراً. هنا، لا تجري الأمور بالسرعة الكافية. هنا تجري الأمور بسرعة أكثر من اللازم. هذا الطعام ليس ساخناً جداً. هذا الطعام ناضج أكثر من المطلوب. لا يكفّ عن ترداد: «علينا أن نركّز، أيّها السادة، علينا أن نركّز!».

كلّما استرخى فريق عمله أكثر، كلما ازداد هياجاً. كان الأمر مؤثّراً. رأتهم ينضحون عرقاً ويحكّون رؤوسهم بأكتافهم كالقطط لكي يمسحوا العرق عن جباههم. كان وجه الصبيّ الذي يعمل على المشواة على نحوٍ خاصّ محمرّاً قرمزياً وكان يرضع من قارورة ماء جيئة وذهاباً بين دواجنه. (طيور بأجنحة، بعضها أصغر من الدجاج بكثير، وبعضها الآخر بضعف حجم الدجاج...).

Twitter: @ketab_n

- لقد هلكنا... كم درجة الحرارة، هنا، برأيك؟

- لا أدري... هناك فوق الأفران، لا بدّ أنّ درجة الحرارة تبلغ على الأقلّ أربعين درجة مئوية... ربّما خمسين درجة؟ من الناحية الجسدية، هذه أقسى الأعمال... تفضّلي، خذي هذا إلى الغسيل... انتبهي جيّداً لئلا تصدمي أحداً...

حملقت وهي ترى جبل الطناجر والصواني والقدور والقصعات غير القابلة للصدأ، والمصافي وقصعات القلي المصفوفة بتوازن في حاويات الأواني. لم يعد هناك رجل أبيض واحد في المكان، والصبي الذي توجّهت إليه أخذ منها ما بيديها وهو يهزّ رأسه. بدا واضحاً أنّه لم يكن يفهم أيّ كلمة فرنسية. ظلّت كاميل للحظة ترمقه، وككلّ مرّة تجد فيها نفسها أمام شخصٍ مقتلعٍ من جذوره في أقاصي الأرض. أخذت قناديلها الصغيرة الشبيهة بالقناديل البسيطة للأم تيريزا تومض بعصبية: من أين جاء؟ من الهند؟ من باكستان؟ وكيف كانت حياته لكي يجد نفسه هنا؟ اليوم؟ أية سفن؟ أيّ تهريب؟ أيّة آمال؟ بأيّ ثمنٍ؟ أيّ إهمال وأيّ قلق؟ أيّ مستقبل؟ أين كان يعيش؟ مع كم من الأشخاص؟ وأين كان أطفاله؟

حينما أدركت أن حضورها يوتره، غادرت وهي تهزّ رأسها.

- من أين ينحدر الرجل الذي يجلي الأواني؟

- من مدغشقر.

أوّل خدعة.

- هل يتحدّث الفرنسية؟

- طبعاً! إنّه هنا منذ عشرين عاماً!

Twitter: @ketab_n

هيّا، اذهبي إلى النوم أيتها المتظاهرة بالتقوى...

كانت متعبة. كان هناك على الدوام شيءٌ جديد لكي تقشّره أو تقطّعه أو تنظّفه أو ترتّبه. يا لها من فوضى... ولكن كيف يلتهمون كلّ هذا؟ ما معنى أن يملأ المرء كرشه إلى هذه الدرجة؟ سوف ينفجرون! 220 يورو، كم يساوي هذا المبلغ؟ ما يقارب 1500 فرنك... بفف... يمكن للمرء أن يقدّم لنفسه كلّ ما يشاء بهذا الثمن... وإذا ما أحسن التدبير، يمكنه التفكير برحلة قصيرة... إلى إيطاليا مثلاً... والجلوس إلى طاولة على رصيف مقهى والتعلّل بحديث فتيات جميلات يروين لبعضهنّ بالتأكيد حماقات كلّ فتيات الدنيا نفسها وهنّ يرفعن إلى شفاههنّ فناجين سميكة من القهوة الحلوة دائماً...

كلّ هذه الرسومات، كلّ هذه الأماكن، كلّ هذه الوجوه، كلّ هذه القطط البليدة، وكلّ الأعاجيب التي يمكن للمرء أن يخزّنها بهذا الثمن... كتب، أسطوانات، بل وألبسة، وقد تكفينا طيلة حياتنا، في حين هنا، خلال بضع ساعات، سينتهي كلّ شيء، ويُلتَهَم ويُهضم ويُخلى...

كانت مخطئة في تفكيرها بهذه الطريقة، وكانت تعرف ذلك. كانت واضحة. وكانت قد بدأت تكفّ عن الاهتمام بالطعام في طفولتها لأن توقيت الوجبات كان مرادفاً للكثير من الآلام. لحظات ثقيلة الوطأة على فتاة صغيرة وحيدة وحسّاسة. فتاة صغيرة وحيدة مع والدة تدخّن مثل إطفائيّ وترمي على المائدة طبقاً مطبوخاً بلا حنان: «كلي! هذا مفيد للصحّة!» تؤكّد على هذه الكلمات وهي تشعل سيجارة. فتاة وحيدة مع والديها،

Twitter: @ketab_n

وتتحاشى النظر إليهما قدر المستطاع لئلا تعلق في شباكهما: «يا كاميل، كم تشتاقين إلى والدكِ حينما يكون غائباً؟ إيه، أهذا صحيح؟».

بعد ذلك، فات الأوان... فقدت الشهية... مهما يكن من أمر، في مرحلة ما، لم تعد والدتها تُعدّ أيّ طعام... فأُصيبت بنقص الشهية كما يتغطّى وجه آخرين بحبّ الشباب. أزعجها الجميع بسبب ذلك، ولكنّها أجادت باستمرار التخلّص من ذلك. لم ينجحوا قط في إحراجها لأنّها كانت رشيدة، إذ لم تعد تريد تلك المراهقة أيّ شيء من عالمهم الرديء، ولكنها حينما كانت تجوع كانت تأكل. طبعاً كانت تأكل وإلّا لما كانت حيّة تُرزَق اليوم! ولكن ليس معهم. في غرفتها. كانت تشرب لبناً رائباً أو تأكل فاكهة أو مزيج الشوفان باللوز والعسل وهي تفعل شيئاً آخر... وهي تقرأ أو تحلم أو ترسم شَعراً أو تنسخ كلمات أغاني جان جاك غولدمان.

طِرْ بي.

نعم، كانت تعرف نقاط ضعفها وكانت ساذجة في حكمها على أولئك الذين يحظون بسعادة التحلّق حول مائدة. ولكن مع ذلك... 220 يورو لقاء وجبة واحدة، ومن دون حساب الخمور، كان ذلك فعلاً شيئاً من العته، أليس كذلك؟

عند منتصف الليل، تمنّى لهم رئيس الطهاة عاماً سعيداً وقدّم لكلّ منهم قدحاً من الشمبانيا:

- عامٌ سعيد يا آنسة وشكراً لكِ على البطّات التي رسمتيها... أخبرني شارل بأنّ الزبائن قد سُرّوا بها... كنتُ

Twitter: @ketab_n

أعرف ذلك للأسف... عامٌ سعيد سيّد ليستافييه... غيّر شخصيتك الخنزيرية في العام 2004 وسوف أزيد لك...

- كم ستزيد لي، يا ريّس؟

- آه! سأزيد لك من احترامي!

- عامٌ سعيد يا كاميل... ألن... ألن نقبّل بعضنا؟

- أجل، أجل، سنقبّل بعضنا طبعاً!

قال سيباستيان:

- وأنا؟

أضاف مارك:

- وأنا أيضاً... هيه، ليستافييه! اركض بسرعة إلى طاولتك، هناك شيءٌ ما يطفح!

- هذا صحيح يا ديكون. حسناً، أوه... لقد أنهت عملها، أليس كذلك؟ ربّما يمكنها الجلوس؟

أضاف رئيس الطهاة:

- فكرة ممتازة، تعالي إلى مكتبي يا عزيزتي...

- كلا، كلا، أريد البقاء معكم حتى النهاية. أعطوني شيئاً أفعله...

- حسناً، سننتظر الآن الحلواني... سوف تساعدينه في تزيين أطباقه...

جمعت رقائق رقيقة كورق السيجارة، متجمّدة، مدعوكة، ومجعّدة بألف طريقة، واستعملت ذرارة الشوكولا وقشور البرتقال وفاكهة محفوظة وخليطاً من العصير والكستناء المجمّد. كان

Twitter: @ketab_n

الحلواني يشاهدها مضموم اليدين ويردّد: «أنتِ فنّانة! هذه فنّانة!». وكان رئيس الطهاة ينظر إلى هذا الإسراف في التزيين نظرة أخرى: «حسناً، لا بأس لأننا في هذه الليلة، ولكن الجمال ليس كلّ شيء... نحن لا نطبخ لإظهار الجمال، تبّاً لكم!».

كانت كاميل تبتسم وهي تبرش القشدة الانكليزية فوق العصير الأحمر.

- هيه أنتِ، كلا... ليس الجمال كلّ شيء!

كانت تعلم ذلك جيّداً...

نحو الساعة الثانية فجراً، أصبح البحر أكثر هدوءاً. لم يعد رئيس الطهاة يترك قارورة الشمبانيا وكان بعض الطبّاخين قد رفعوا قبّعاتهم. كانوا جميعاً منهكين ولكنّهم بذلوا جهداً أخيراً لكي ينظّفوا المكان وينسحبوا منه بأسرع ما يمكن. أفردوا كيلومتراتٍ من ورق الصرّ لتغليف كلّ شيء وتدافعوا أمام الغرف الباردة. علّق الكثيرون منهم على الخدمة وحلّلوا نتائجهم: ما أخفقوا فيه ولماذا، وخطأ مَنْ كان ذلك وكيف كانت المأكولات... وكمصارعين لا يزالون يدخّنون لم يتمكّنوا من فكّ منصّتهم والانكباب عليها لكي ينظّفوها أفضل ما يمكن. بدا لها أنّ ذلك وسيلة لتفريغ ضغطهم والكفّ عن إجهاد أنفسهم تماماً...

ساعدتهم كاميل حتى النهاية. كانت مقرفصة وتنظّف رفّاً في الثلاجة.

ومن ثمّ أسندت ظهرها إلى الحائط وراقبت حلقة الصبيان حول ماكينات القهوة. كان هناك صبيٌّ يدفع عربة ضخمة تحمل

Twitter: @ketab_n

حلوى وشوكولا وأعشاباً ذات روائح زكية ومربيات ومربّعات صغيرة من الحلوى وسواها... هممم... كانت ترغب أيضاً في سيجارةٍ...

- سوف تتأخّرين عن حفلتكِ...

استدارت ورأت شخصاً عجوزاً.

بذل فرانك جهداً لكي يحافظ على سحنته ولكنّه كان منهكاً، مبلّلاً، محدّباً، شاحباً، محمرّ العينين ومهزول القسمات.

- وكأنّك أكبر من عمرك بعشر سنوات...

- ممكن. لقد هلكت... لم أنم كفاية ثمّ إنني لم أعدّ هكذا وليمة من قبل... دائماً الصحن نفسه... هل تريدين أن أوصلكِ إلى **بوبيني**؟ لديّ قبّعة أخرى... عليّ فقط أن أعدّ طلباتي وسنذهب.

- كلا... لم يعد هذا يعني لي شيئاً... سيكون الجميع ثملين حينما أصل... ما هو مسلٍّ، هو أن نسكر مع الآخرين، وإلّا يكون الأمر محبطاً بعض الشيء...

- حسناً، أنا أيضاً، سأعود، لم أعد أستطيع الوقوف على قدميَّ...

قاطعهما سيباستيان:

- هل ننتظر ماركو وكيرماديك ونلتقي بعد ذلك؟

- كلا، أنا متعَب... سأعود...

- وأنتِ، يا كاميل؟

- إنها متعَبة أيضـ...

Twitter: @ketab_n

قاطعته:

- أبداً، أقصد، بلى، ولكنني مع ذلك أرغب في حضور الحفلة!

سأل فرانك:

- أأنتِ متأكّدة؟

- نعم، يجب أن نستقبل السنة الجديدة استقبالاً جيّداً... كي تكون أفضل من سابقتها، أليس كذلك؟

- كنتُ أعتقد أنّك تكرهين الحفلات...

- هذا صحيح، ولكن هذا قراري الصحيح الأوّل تخيّل: «في العام 2003، لم أكن أؤمن بذلك، في العام 2004، سأكون لعوباً!».

أضاف فرانك متنهداً:

- إلى أين ستذهبين؟

- إلى ملهى **كيتي**...

- أوه، كلا، ليس إلى هناك... تعرفين جيداً.

- حسناً، إلى **لافيجي** إذاً...

- ولا إلى هناك.

قال سيباستيان:

- أوه، أنت مزعج يا ليستافييه... بذريعة أنّك قد تشاجرت مع كلّ النادلات، لم يعد بوسعنا الذهاب إلى أيّ مكان! مَنْ منهنّ في ملهى **كيتي**؟ البدينة التي كانت تلثغ؟

ردّ فرانك ساخطاً:

Twitter: @ketab_n

- لم تكن تلثغ!

- كلا، حينما كانت ثملة كانت تتكلّم بشكلٍ طبيعي ولكنها كانت تلثغ قبل أن تشرب، أنا أصف لك... حسناً، حسناً مهما يكن من أمر، فهي لم تعد تعمل هناك...

- أأنتَ متأكّد؟

- نعم.

- والصهباء؟

- ولا الصهباء كذلك. هيه، ولكنك لا تبالي، أنتَ معها، أليس كذلك؟

ردّت كاميل ساخطة:

- كلا، ليس معي!

- حسناً... أوه... أنتما تتدبّران أمركما، ولكننا سنلتقي هناك حينما سيكونون قد أنهوا الحفلة...

- أتريد الذهاب إلى هناك؟

- نعم ولكنني أريد أن أستحمّ أوّلاً...

- حسناً، سأنتظرك. أنا لن أعود إلى الشقّة وإلّا سأنهار...

- هيه؟

- ماذا؟

- قبل قليل، لم تقبّليني...

قالت كاميل وهي تطبع قبلة صغيرة على جبينه:

- تفضّل، ها هي...

- أهذا كلّ شيء؟ اعتقدتُ أنّكِ، في العام 2004، لعوب؟

Twitter: @ketab_n

- هل اتّخذت قراراً واحداً من قراراتك؟

- كلا.

- ولا أنا.

19

لأنّها كانت أقلّ إرهاقاً منهم أو لأنّها كانت تتحمّل الكحول أكثر منهم سرعان ما اضطرّت أن تطلب شيئاً آخر غير البيرة لكي تضحك بطريقة منتظمة. شعرت بأنها قد عادت عشر سنوات إلى الوراء، إلى عهدٍ كانت لا تزال بعض الأشياء تبدو لها بديهية... الفنّ، الحياة، المستقبل، موهبتها، عاشقها، مكانتها، وفوطتها الدائرية وكلّ هذه الأشياء التافهة...

لعمري، لم يكن ذلك مزعجاً...

- هيه، يا فرانك، لن تشرب هذا المساء أم ماذا؟

- لقد هلكت...

- هيا بنا، لست أنت... ألست في عطلة أيضاً؟

- بلى.

- إذاً؟

- لقد كبرتُ في السنّ...

- هيّا، اشرب جرعةً... سوف تنام غداً...

مدّ كأسه من دون اقتناع: كلا، لن ينام غداً. غداً، سيذهب إلى **الزمن المستعاد**، مأوى العجزة، ويتناول الشوكولا الكريهة مع جدّتين أو ثلاث جدّات مهجورات، وسيلعبن بأطقم أسنانهنّ الصناعية في حين أنّ جدّته ستنظر عبر النافذة متحسّرة.

Twitter: @ketab_n

الآن، كان يعاني من ألم في البطن.

آثر ألّا يفكّر في ذلك وأفرغ كأسه دفعةً واحدة.

نظر إلى كاميل برقّة. كان نمشها يظهر أو يختفي بحسب الساعات، وكانت تلك ظاهرة غريبة جداً...

كانت قد أخبرته بأنّه وسيم وهي الآن تُعجَب بهذا الأحمق الكبير، بفف... كلّ النساء هكذا...

كان فرانك ليستافييه فاقداً للروح المعنوية، بل وراودته رغبة خفيفة في البكاء...

- إذاً؟ ما الذي لا يسير على ما يرام، يا عزيزي؟

- آه... من أين أبدأ؟

عملٌ دنيء، حياةٌ دنيئة، جدّة في الغرب وانتقالٌ محتَمل من البيت. النوم ثانية على فراشٍ عفنٍ، وإضاعة ساعة عند كلّ استراحة. لن أعود أرى فيليبير بعد الآن. لن أعود أدغدغه لكي أعلّمه كيف يدافع عن نفسه وكيف يردّ وكيف يغضب وكيف يفرض وجوده. لن أعود أناديه قطّي الصغير المصنوع من السكّر. لن أعود أفكّر أن أضع بجانبه قصعة مناسبة. لن أعود أُدهش الفتيات بسريره الشبيه بسرير ملك فرنسا وبحمّامه الشبيه بحمّام الأميرة. لن أعود أسمعهما، كاميل وهو، وهما يتحدّثان عن حرب 1914 وكأنّهما قد عاشا أحداثها، أو عن لويس الحادي عشر وكأنه قد شرب معهما كأساً. لن أعود أراقبها، لن أعود أرفع أنفي وأنا أفتح الباب لأعرف، من خلال رائحة سيجارتها، إن كانت موجودة في البيت. لن أعود أهرع إلى دفتر رسمها ما أن تدير ظهرها لكي أشاهد رسوماتها التي رسمتها خلال اليوم. لن أعود أنام وأرى برج إيفل مناراً كقنديل السهر. ثمّ البقاء في

Twitter: @ketab_n

فرنسا والاستمرار في فقد كيلوغرامٍ عند كلّ فترة خدمة واستعادته بشرب البيرة بعد ذلك مباشرة. الاستمرار في الطاعة. دائماً. طيلة الوقت. لم يكن قد فعل سوى هذا: الطاعة. والآن، كان محاصراً إلى... هيا، أخبره إلى متى! حسناً، نعم، هذا هو... إلى أن تصفق الباب... وكأنّ حياتها لم تكن تنتظم إلّا بشرطٍ وحيد هو إيلامه المتواصل...

سحقاً، ولكنّه ألمٌ لذيذ! ألا يمكنك أن تثور الآن إلّا عليّ أنا؟ هذا صحيح، ماذا، حصلتُ الآن على حصّتي...

إنّ جزمتي مليئة بالقذارة، يا أولاد، إذاً هيا انظروا إلى مكانٍ آخر إن كنتُ موجوداً فيه... هذا جيد. لقد دفعتُ الثمن.

ركلته من تحت الطاولة:

- هيه... هل أنت بخير؟

قال:

- عامٌ سعيد.

- ألستَ بخير؟

- سأنام. تصبحين على خير.

20

لم تتأخّر. كما لم يكن هؤلاء الأولاد آلة تسجيل... كانوا جميعاً يردّدون على الدوام بأنّهم يعملون في مهنة الأغبياء... أوه... والسبب في ذلك... ثمّ كان السيّد سيباستيان قد حمّاها... لكي يحظى بفرصة النوم معها، لا بدّ أن يكون هذا الأبله لطيفاً منذ الصباح. ومن هذا نتعرّف على التحرّكات الجيدة: للصبية الذين يكونون ظرفاء حتى قبل أن يطرحوكِ أرضاً...

Twitter: @ketab_n

وجدته منكمشاً على نفسه في الأريكة.

- هل نمتَ؟

- كلا.

- ألستَ على ما يُرام؟

أنّ قائلاً:

- في العام 2004، سأدع نفسي أنهار.

ابتسمت قائلةً:

- أحسنت...

- منذ ثلاث ساعات وأنا أبحث عن قافية مناسبة... لقد فكّرت كثيراً بـِ: في العام 2004، أميل للخضرة، ولكنّكِ ستكونين قد فكّرت بأنني سأتقيّأ فوق الأريكة...

- يا لكَ من شاعر...

سكتَ. كان متعباً جداً وعاجزاً عن اللعب.

- أسمعينا شيئاً من الموسيقى الجميلة كالتي كنتِ تُصغين إليها ذاك اليوم...

- كلا. إن كنتَ حزيناً، سوف لن يريحك ذلك...

- لو تضعين ألبوم كاستافيور، هل ستمكثين لبعض الوقت؟

- الوقت الذي يستغرقه تدخين سيجارة...

- لقد نجحتُ.

ووضعت كاميل، للمرّة المائة والثامنة والعشرين، **نيسي دومينوس** لفيفالدي...

- ماذا تروي هذه الأغنية؟

Twitter: @ketab_n

- مهلاً، سوف أخبرك... الربّ يغمر أصدقاءه في رقادهم...

- رائع.

- هذا جميل، أليس كذلك؟

تثاءب:

- لا، لا، لا أدري... لا أفقه شيئاً في ذلك...

- هذا غريب، هذا ما قلته لي بشأن دورر يومذاك. ولكن هذا لا يُحفَظ! هذا جميل، وهذا كلّ شيء.

- بلى، رغم ذلك، شئتِ أم أبيتِ، هذا يُحفَظ...

- ...

- هل أنتِ مؤمنة؟

- كلا. أقصد، بلى... حينما أسمع هذا النوع من الموسيقى، حينما أدخل إلى كنيسة جميلة جداً أو حينما أشاهد لوحة تهزّ مشاعري، بِشارةً على سبيل المثال، ينتفخُ قلبي إلى درجة الشعور بأنني أؤمن بالله، ولكنني أخدع نفسي: أنا أؤمن بفيفالدي، بباخ، بهاندل، أو بفرا أنجيليكو... هؤلاء هم الآلهة... أمّا الآخر، العجوز، فهو ذريعة... وهذه هي الميزة الوحيدة التي أجدها فيه: إنّه قويٌّ جداً بحيث ألهمهم جميعاً كلّ هذه الروائع...

- أبتهج كثيراً حينما تتحدّثين معي... أشعر بأنني أصبح أكثر ذكاءً...

- لا تقل هذا...

Twitter: @ketab_n

- بلى، هذا صحيح...

- لقد أفرطت في الشراب.

- لا ليس كثيراً...

- تفضّل واسمع... هذا أيضاً جميل... هذا أكثر بهجةً بكثير... هذا ما أحبّه في القداديس: تأتي اللحظات السعيدة، مثل أغاني غلوريا وسواها، دائماً لتنقذك من لحظة ثقيلة الوطأة... كما هو الحال في الحياة...

ساد صمتٌ طويل.

- هل نمتَ، الآن؟

- كلا، أنتظر أن تنهي سيجارتكِ...

- أنت تعلم، أنا...

- أنتِ ماذا؟

- أعتقدُ بأن عليك أن تبقى. أعتقدُ أنّ كلّ ما قلته لي عن فيليبير بخصوص مغادرتي ينطبق عليك أيضاً... أعتقد أن رحيلك سيحزنه كثيراً وأنّك ضمانة لتوازنه الهشّ، مثلي تماماً...

- أوه... الجملة الأخيرة، هل يمكنكِ تكرارها بوضوح؟

- ابقَ.

- كلا... أنا... أنا مختلفٌ جداً عنكما... لا تُخلَط المماسح بالفوط[1] كما تقول جدّتي...

---

(1) في القرن السابع عشر كان النبلاء يستخدمون فوطاً أثناء تناول الطعام وكان الخدم يستخدمون مماسح الطاولات، وهذه المقولة تُستخدم للتعبير عن الخلط بين الطبقات الاجتماعية. (المترجم).

Twitter: @ketab_n

- نحن مختلفون، هذا صحيح، ولكن إلى أيّ حدّ؟ ربّما أكون مخطئة ولكن يبدو لي أنّنا نشكّل فريقاً جميلاً من مكسوري الأجنحة، أليس كذلك؟

- صدقتِ...

- ثمّ، ما معنى أننا مختلفون؟ أنا التي لا أجيد سلق بيضة، قضيت النهار كلّه في المطبخ وأنت الذي لا تسمع سوى الآلات التقنية تنام الآن على أنغام فيفالدي... إنّ حكايتك عن المماسح والفوط شيءٌ تافه لا معنى له... إنّ ما يمنع الناس من العيش معاً هو حماقتهم، وليس اختلافهم... على العكس، لولاك لما عرفتُ ورقةً من البقلة...

- وفي ماذا سيفيدكِ هذا...

- هذا أيضاً شيءٌ من الحماقة. بماذا «يفيدني»؟ لماذا دائماً مفهوم المردودية هذا؟ لا يهمّني إن كان هذا يفيدني أم لا، ما يسلّيني هو أن أعرف أنّ هذا موجود...

- أنتِ ترين بأننا مختلفون... سواءً كنتِ أنتِ أو فيلو، لستما في العالم الحقيقي، ليس لديكما أيّ فكرة عن الحياة، عن كيفية الصراع من أجل البقاء وكلّ هذه الأمور... أنا لم أشاهد قط مثقّفين من قبلكما، ولكنّكما مطابقان تماماً للفكرة التي كوّنتها لنفسي عن الأمر...

- وما هي فكرتك؟

حرّك يديه:

- كانت: زقزقةً أيتها العصافير الصغيرة والفراشات الجميلة! زقزقةً كم هي صغيرة وظريفة... هل ستستعيد فصلاً يا عزيزي؟

Twitter: @ketab_n

نعم، يا عزيزي، بل فصلين! سيجنّبني هذا أن أنزل من جديد... أوه! كلا! لا تنزل ثانية، العفونة شديدة في الأسفل!

نهضت وأوقفت الموسيقى.

- أنت محقّ، سوف لن ننجح في ذلك... من الأفضل أن ترحل... ولكن دعني أقول لكَ كلمتين قبل أن أتمنّى لكَ سفراً سعيداً: الأولى تخصّ المثقفين بالضبط... من السهل السخرية من كلامهم... نعم، إنّ ذلك في غاية السهولة... غالباً لا يكونون معضلين فضلاً عن أنّهم لا يحبّذون العراك... كما لا يثيرهم ضجيج الجِزَم والميداليات وسيارات الليموزين الفارهة، وبالتالي نعم، الأمر ليس صعباً جداً... يكفي أن تنزع من أيديهم كتابهم أو قيثارتهم أو قلمهم الرصاص أو آلتهم للتصوير فلا يعود أيّ أخرقٍ من بين هؤلاء صالحاً لأيّ شيء... من جهة أخرى، إنّ أوّل ما يقوم به الطغاة هو هذا: كسر النظّارات أو حرق الكتب أو منع الحفلات الموسيقية، فهذا لا يكلّفهم غالياً وقد يجنّبهم الكثير من المضايقات لاحقاً... ولكنّك ترى، إذا كان المرء مثقفاً فهذا يعني أنّه يريد أن يتعلّم وأن يكون فضولياً ويقظاً، يريد أن تدهشه الأشياء وأن تثير مشاعره وأن يحاول فهم كيفية تماسك كلّ ما حوله ويسعى لأن ينام وقد أصبح أقلّ غباءً من الأمس، وبالتالي نعم، أنا أدّعي ذلك تماماً: لستُ مثقّفة فحسب بل أيضاً أنا فخورةٌ بأن أكون كذلك... فخورةٌ للغاية، بل... ولأنني مثقفة كما تقول، لا يسعني الامتناع عن قراءة صحفك عن الدراجات النارية التي أجدها في المراحيض وأعرف أنّ الدراجة الجديدة من طراز أر 1200 ج.أس. مزوّدة بجهازٍ

Twitter: @ketab_n

الكتروني صغير لكي تسير بالبنزين الفاسد. . . آه!

- وبماذا ستخبريني أيضاً؟

- وكمثقفة سرقتُ منك قصصك المصوّرة عن **جو بار تيم** أمس وقد جعلني ذلك أقهقه طيلة فترة ما بعد الظهيرة. . . الأمر الثاني، هو أنّك لست مؤهّلاً لإلقاء المواعظ علينا، يا غلامي العزيز. . . أتعتقد بأن مطبخك هو العالم الحقيقي؟ بالطبع لا. على العكس تماماً، أنتم لا تخرجون أبداً، وتبقون دائماً مع بعضكم. أنت ماذا تعرف عن العالم؟ لا شيء. منذ خمسة عشر عاماً وأنت تعيش حبيس مواعيدك الثابتة وتراتبيتك الهزلية الصغيرة وهريرك اليومي. أتكون قد اخترت هذه المهنة من أجل هذا؟ لكي لا تغادر قط حضن أمّك ولكي توقن بأنّك ستكون دائماً وسط الدفء والطعام الوفير. . . هيا اعلم. . . أنت تعمل عملاً شاقّاً أكثر منّا، هذا أمرٌ بديهيّ، ولكننا، كمثقّفين، نكلّف نفسنا عناء هذا العالم. بنظام مرصوص، ننزل كلّ صباح. فيليبير إلى حانوته، وأنا إلى طوابقي، ولا تبالي بأننا نتعرّض لهذا الأمر فقط لنتعرّض له. ومقولتك هذه عن الحياة. . .Life is a jungle, . struggle for life وكلّ هذا الكلام الفارغ نحن نحفظه عن ظهر قلب. . . بل ونستطيع أن نعطيك دروساً إن شئت. . . هنا، تصبح على خير، ليلة هانئة وسنة سعيدة.

- عفواً؟

- لا شيء. كنتُ أقول إنّكِ لم تكوني لعوباً جداً. . .

- كلا، أنا شرسة.

- ما معنى هذه الكلمة؟

Twitter: @ketab_n

- افتح قاموساً وستجد معناها...

- كاميل؟

- نعم.

- قولي لي كلمة لطيفة...

- لماذا؟

- لنبدأ السنة بداية جيّدة...

- كلا. لستُ صندوق جوك[1].

- هيّا...

استدارت:

- إذاً دع المماسح والفوط في نفس الدرج، فالحياة أكثر تسلية حينما يكون هناك شيءٌ من الفوضى...

- وأنا؟ ألا تريدين أن أقول لكِ شيئاً لطيفاً لكي نبدأ السنة بداية جيّدة؟

- كلا. بلى... هيّا.

- أتعرفين... لقد كان خبزكِ المحمّص رائعاً...

---

(1) آلة باسم مخترعها يضع الناس نقوداً فيها ليستمعوا إلى ما يشاؤون. (المترجم).

Twitter: @ketab_n

القسم الثالث

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

1

كانت الساعة تتجاوز الحادية عشرة بقليل حينما دخل إلى غرفته صباح اليوم التالي. أدارت له ظهرها. كانت لا تزال في الثوب الفضفاض (الكيمونو) جالسة أمام النافذة.

- ماذا تفعلين؟ أترسمين؟

- نعم.

- ماذا ترسمين؟

- اليوم الأوّل من السنة...

- أرِني.

رفعت رأسها وعضّت على نواجذها لئلا تضحك.

كان يرتدي بزّة عتيقة جداً، من ماركة **هوغو بوس** الدارجة في ثمانينات القرن الماضي، فضفاضةً ولمّاعةً بعض الشيء، مع كتّافيّات على طريقة غرندايزر، وقميصاً من الفيسكوز الأصفر الفاتح وربطة عنقٍ مبرقشة. وكان الجوربان متجانسين مع القميص وكان حذاؤه المصنوع من جلد الخنزير المعالج بمحلول النشادر يؤلم قدميه كثيراً.

سأل متذمّراً:

Twitter: @ketab_n

- ماذا هناك؟

- لا، لا شيء، أنت... أنت في غاية الأناقة...

- هذا لأنني دعوتُ جدّتي لتناول الغداء في المطعم...

انفجرت ضاحكة:

- آه حسناً... ستكون فخورة جداً بالخروج مع صبيٍّ وسيمٍ مثلك...

- لو تعلمين كم يجنّني هذا...

- أهي بوليت؟ صاحبة الوشاح؟

- نعم. ولهذا أنا هنا... ألم تقولي لي بأنّ لديكِ شيئًا ما لها؟

- بلى. تماماً.

نهضت وغيّرت مكان الأريكة وراحت تفتش في حقيبتها الصغيرة.

- اجلس هنا.

- لأفعل ماذا؟

- هديّة.

- هل سترسمينني؟

- نعم.

- لا أريد.

- لماذا؟

-...

- ألا تعرف؟

Twitter: @ketab_n

- لا أريد أن ينظر إليّ أحد.

- سأرسمك سريعاً جداً.

- كلا.

- كما تشاء... اعتقدتُ أن صورة شخصية صغيرة لك ستسعدها... إنّها حكاية ردّ الهدية، أتعلم؟ ولكنني لن ألحّ عليك. لن ألحّ أبداً. هذه ليست عادتي...

- حسناً، إذاً ارسمي بسرعة، إيه؟

- ولكن هذا غير مناسب.

- ماذا؟

- هذه البزّة... ربطة العنق هذه، وكلّ هذا الزي غير مناسب... هذا يغيّر شخصيتك.

قال هازئاً:

- أتريدين أن ترسمينني عارياً؟

أجابت من دون أن يرفّ لها رمش:

- آه نعم، سيكون هذا جيداً! شابٌ جميل عار...

- أتمزحين؟

كان مرعوباً.

- أجل، أنا أمزح... تبدو كبيراً جداً في السنّ! ثمّ لا بدّ أنّك كثيف الشعر...

- أبداً! أبداً! أنا مشعرٌ كأيّ شخصٍ عادي!

ضحكت.

- هيّا. انزع على الأقلّ السترة وربطة العنق...

Twitter: @ketab_n

- بفف. لقد أمضيت ثلاث ساعات في عقدها...

- انظر إليّ. لا، ليس هكذا... وكأنّ في مؤخّرتك مكنسة، استرخِ، لن آكلك، أيّها الغبي، سأرسمكَ.

قال راجياً:

- أوه، نعم... ارسميني، يا كاميل، ارسميني...

- ممتاز، حافظ على هذه الابتسامة البلهاء. هذا هو المطلوب تماماً.

- هل انتهى الأمر؟

- تقريباً.

- لقد ضقتُ ذرعاً. حدّثيني. اروِ لي حكاية لتمضية الوقت...

- عمّن تريد أن أحدّثك، هذه المرّة؟

- عن نفسكِ...

- ...

- ماذا ستفعلين اليوم؟

- سأقوم بترتيب البيت... وسأكوي بعض الثياب أيضاً... ثم سأذهب وأتنزّه... النهار جميل... سأنتهي بالتأكيد في مقهى أو في صالة شاي... أتناول كعكاً بنكهة الريحان... الشهيّة... وبقليلٍ من الحظ، سيكون هناك كلبٌ... الآن أعدّ مجموعة لكلاب صالونات الشاي... لديّ كرّاسة خاصّة بهم، كرّاسة صغيرة فائقة الجمال من ماركة موليسكين... سابقاً، كانت لديّ كرّاسة خاصّة بالحمام... أنا بارعة في رسم الحمام. لقد رسمت

Twitter: @ketab_n

حمام مونمارتر، وحمائم ساحة الطرف الأغر في لندن أو حمائم فينيسيا...

- أخبريني...

- نعم...

- لماذا لا زلتِ وحيدة؟

- لا أدري.

- ألا تحبّين الرجال؟

- ها نحن... إنّ فتاة لا تستجيب لسحرك الذي لا يُقاوم هي طبعاً سحاقية، أهذا صحيح؟

- كلا، كلا، كنتُ أتساءل فقط... ترتدين ألبسة قبيحة وتحلقين شعركِ على الصفر، وكلّ هذه الأمور...

ساد الصمت.

- بلى، بلى، أحبّ الصبيان كثيراً... والفتيات أيضاً، لاحظ جيداً، ولكنني أفضّل الصبيان...

- هل سبق لكِ ونمتِ مع فتيات؟

- أوه لا لا... مرّات كثيرة!

- أتمزحين؟

- نعم. هيّا، هذا جيّد. يمكنك أن ترتدي ثيابك.

- أرِني.

- سوف لن تتعرّف على نفسك. الناس لا يتعرّفون قط على أنفسهم...

- لماذا رسمتِ بقعة كبيرة هنا؟

Twitter: @ketab_n

- إنّه الظلّ.

- حقّا؟

- هذا يُسمى تصويرًا مائيًا...

- حقّاً؟ وما هذا؟

- أسلافك.

- حقاً؟

- خاب ظنّك، أليس كذلك؟ تفضّل، خذ هذه أيضاً... هذه رسمةٌ أنجزتها في اليوم الذي كنت تلعب فيه على البلاي ستايشن...

بدرت منه ابتسامة كبيرة:

- إذاً، نعم! هذا أنا!

- أنا أحبّ الأوّل أكثر، ولكن لا بأس... ما عليك إلا أن تدسّها في ظرفٍ لكي ترسلها...

- أعطني ورقةً.

- لماذا؟

- لأنّه. أنا أيضاً، يمكنني أن أرسمكِ إذا أردتُ...

رسم حلزوناً. قوقعة حلزون وفي قاعها نقطة سوداء صغيرة.

لم يبدر منها ردّ فعلٍ.

- النقطة الصغيرة، هي أنتِ.

- لقد... لقد فهمت...

ارتعشت شفتاها.

انتزع الورقة من بين يديها:

Twitter: @ketab_n

- هيه! هوه! كاميل، هذا فقط لكي نضحك! هذا أمرٌ تافه!

قالت وهي تضع يدها على جبينها:

- نعم، نعم. هذا أمرٌ تافه، أدرك ذلك جيداً... هيّا، انصرف الآن، سوف تتأخّر...

ارتدى بزّة العمل في المدخل وسحب الباب وهو يعتمر قلنسوته.

النقطة الصغيرة، هي أنتِ..

هذا الشخص مغفّل جداً.

2

لمرّة واحدة لم يكن يجرجر معه حقيبة ظهرٍ مليئة بالذخيرة، انحنى على خزّان الوقود وترك السرعة تفعل فعلها المذهل: الساقان ملتصقتان والذراعان ممدودتان والصدر دافئ والقلنسوة جاهزة، برم قبضته إلى أقصى حدّ ليترك الضجر والملل خلفه ولئلا يعود يفكّر بأيّ شيء.

قاد بسرعة. بسرعة فائقة. سرعة جنونية. سرعة مذهلة.

منذ زمنٍ بعيد، كانت لديه دراجة نارية بين ساقيه ونوع من الحكّة في راحة يده، ومنذ زمنٍ بعيد، لم يفكّر قط بالموت كمشكلة جدّية. طالما أنّه لن يعود موجوداً لكي يتعذّب، فأيّ أهمية للموت في الحقيقة؟

ما إن أصبح معه القليل من المال، حتى استدان لكي يشتري آلات كبيرة جداً على دماغه الصغير، وما إن أصبح لديه ثلاثة أصدقاء على شيءٍ من الشطارة حتى دفع ثمناً أغلى لكي

Twitter: @ketab_n

يحظى بدراجة أسرع. كان هادئاً على الإشارات الحمر. لم يترك أثراً للدواليب على الإسفلت، ولم يقارن نفسه في هذا الأمر بالآخرين، ولم ير أيّ مصلحة في الإقدام على مخاطرة حمقاء. ببساطة، ما إن كانت تواتيه الفرصة، كان يهرب، وينطلق وحيداً بسرعة ويُرهق ملاكه الحارس.

كان يحبّ السرعة. يحبّها فعلاً. يحبّها أكثر من أيّ شيءٍ في الدنيا. أكثر حتى من الفتيات. كانت تقدّم له اللحظات الوحيدة السعيدة في حياته: اللحظات الهادئة، المريحة، الحرّة... حينما كان في الرابعة عشرة، كان ملك الطرقات الضيّقة في تورين وهو يتمدّد على الدرّاجة مثل ضفدعٍ صغير فوق علبة كبريت (كانت هذه عبارة من تلك الحقبة...)، وفي سنّ العشرين، اشترى أوّل دراجة ضخمة بعد أن عمل في ظروفٍ شاقّة طيلة فصل الصيف في حانةٍ رديئة قرب سومور. واليوم، غدت هوايته الوحيدة التي يمضي فيها وقته بين دوامين هي: الحلم بدراجة نارية قديمة: شراؤها وإصلاحها وإتلافها. ثمّ الحلم بدراجة قديمة أخرى، وجرّها إلى وكيلٍ للدرّاجات، وبيع الدراجة السابقة ثانية وشرائها من جديد، وتنظيفها، الخ.

من دون الدرّاجة، كان على الأرجح لاكتفى في معظم الأحيان بالاتصال هاتفياً بجدّته العزيزة وهو يتضرّع إلى الله لئلا تروي له في كلّ مرّة قصّة حياتها...

المشكلة أنّ السرعة لم تعد بنفس الفعّالية... حتى على السرعة 200، لم يستعد راحة باله. ولا حتى على 210، و220كلم، ظلّ دماغه يجهد. عبثاً انسلّ بدراجته وانحرف بها

Twitter: @ketab_n

وجدّف، فقد ظلّت بعض الأمور البديهية تلاحقه وظلّت تنهش في رأسه بين محطّتي وقود.

واليوم أيضاً، يوم الأوّل من كانون الثاني (يناير) الجاف والمشرق مثل قطعة نقدية جديدة، من دون خُرجٍ ولا حقيبة ظهر، ومن دون أن يكون في برنامجه أيّ شيء سوى وليمة فاخرة وشهيّة مع جدّتين رائعتين، كان قد استيقظ وما عاد بحاجةٍ إلى أن يفتح ساقه لكي يشكرهم حينما كان سائقو سيارات ودودون يتنحون قفزاً وهو يتجاوزهم.

كان قد ألقى أسلحته واكتفى بالانتقال من نقطة إلى أخرى وهو يردّد دائماً نفس الأسطوانة القديمة المشروخة: لماذا هذه الحياة؟ إلى متى؟ وما العمل للخلاص منها؟ لماذا هذه الحياة؟ إلى متى؟ وما العمل للخلاص منها؟ لماذا هذه الحياة؟ إلى متـ....

كان منهكاً من شدّة التعب ولكنه في مزاجٍ رائق. كان قد دعا إيفون لكي يشكرها ولكي تتكفّل بالحديث بدلاً عنه. بفضلها، سيتمكّن من الشروع في القيادة التلقائية. ابتسامة خفيفة إلى اليمين، وابتسامة خفيفة إلى اليسار، وبعض الشتائم لإسعادهما ويحين وقت القهوة...

مرّت لتأخذ بوليت من قفصها وتواعد الثلاثة في فندق فوياجور، وهو فندقٌ صغير كان قد مارس فيه تدريبه ومن ثمّ عمل هناك وترك فيه بعض الذكريات الجميلة... كان ذلك في العام 1990. وكأنّه منذ ألف مليون سنة ضوئية....

ماذا كان لديه آنذاك؟ دراجة من طراز **فازر ياماها**، أليس كذلك؟

Twitter: @ketab_n

كان يتعرّج بين الخطوط البيض وقد رفع واقي الوجه لكي يشعر بلسعة الشمس. سوف لن ينقل مسكنه. ليس الآن. سيمكنه البقاء حيث هو، في تلك الشقّة الواسعة جداً التي استعادت الحياة ذات صباح بفضل فتاةٍ فضائية ترتدي قميص نوم. لم تكن تتكلّم كثيراً ومع ذلك، منذ وصولها، دبّ من جديد صخبٌ في البيت. خرج فيليبير أخيراً من غرفته وتناولا الشوكولا معاً كلّ صباح. لم يعد يصفق الباب لئلا يوقظها وأصبح ينام بسهولة أكبر حينما يسمعها تتحرّك في الغرفة المجاورة.

في البداية، كان يكرهها ولكن الآن، بات الأمر جيّداً. لقد قهرها...

- هيه أنت؟ هل سمعتَ ما قلته للتوّ؟

- عن ماذا؟

- مهلاً، لا تتظاهر بالبراءة... بصراحة، انظر في عيني، هل تشعر بأنك قد قهرت هذه الفتاة؟

- أوه... كلا...

- آه، حسناً! أنا أفضّل هذا... أنا أعلم أنّك لست ماهراً كصبيّ ولكن مع ذلك... أخفتَني!

- أوه، لا بأس... لو أننا نستطيع أن نمزح أكثر الآن...

3

تفقّد هندامه تحت سقف موقفٍ للحافلات وشدّ على ربطة عنقه وهو يعبر الباب.

فتحت صاحبة البار ذراعيها على وسعهما:

Twitter: @ketab_n

- ولكن كم هو جميل! آه! نراك تلبس على الطريقة الباريسية! رينيه يهديك قبلاته. سوف يمرّ بعد دوامه...

نهضت إيفون وابتسمت له جدّته بحنان.

- إذاً يا بنات؟ لقد أمضينا النهار عند المزيّن كما أرى؟

قهقهتا فوق مشروبهما الكحولي وابتعدتا لتُفسحا له المجال لرؤية نهر اللوار.

كانت جدّته قد أخرجت تايورها الخاصّ بأيام المناسبات بمشبكه المزيّف وياقته المكسوة بالفرو. كان مزيّن دار التقاعد قد زيّنها وأصبحت وردية بلون غطاء الطاولة.

- ها أنتِ، لقد لوّنك مزيّنك على نحوٍ غريب...

قاطعته إيفون:

- هذا بالضبط ما قلته، هذا لونٌ ممتاز، إيه، يا بوليت؟

هزّت بوليت رأسها وشربت رشفات صغيرة من كأسها وهي تربّت على شفتيها بمنديلٍ موشّى، كانت تلتهم حفيدها بنظراتها وتتغنّج خلف قائمة الطعام.

تمّ كلّ شيء كما توقّعه: كانت كلمات «نعم»، «كلا»، «حقّاً؟»، «أليس هذا صحيحاً»، «سحقاً إذاً...»، «عفواً»، «اللعنة»، «هوبا...» و«تباً لكِ» هي الكلمات الوحيدة التي نطق بها، وكانت إيفون تملأ الفواصل بإتقان...

لم تكن بوليت تتكلّم كثيراً.

كانت تنظر إلى النهر.

جاء رئيس الطهاة ووقف معهم في حديثٍ مملّ لبعض

Twitter: @ketab_n

الوقت ثمّ قدّم لهم مشروب أرمانياك الذي رفضته السيدتان في البداية قبل أن ترتشفاه كخمر قدّاس. روى لفرانك عن أحوال الطهاة وسأله متى سيعود للعمل في هذا الفندق...

- الباريسيون لا يجيدون تناول الطعام... النساء يمارسن نظاماً غذائياً والرجال لا يهمّهم سوى قيمة الفواتير... أنا واثق من أنّه لا يأتيك عشّاقٌ... في الظهيرة، ليس لديك سوى رجال أعمال لا يبالون كثيراً بما يأكلون وفي المساء، ليس لديك سوى أزواج جاؤوا للاحتفال بالذكرى العشرين لزواجهم وهم عابسون لأنّ سياراتهم غير مركونة في المكان المناسب ويخشون مصادرتها... هل أنا مخطئ؟

- آه، أنت تعلم، أنا لا أبالي بالأمر... أنا أقوم بعملي...

- حسناً، هذا ما أقوله! هناك حيث تعمل، تطبخ من أجل أجرتك... عُد إلى هنا، سنذهب إلى صيد السمك مع الأصدقاء...

- أتريد أن تبيع، يا رينيه؟

- بفف... لِمَن؟

بينما راحت ايفون لتجلب سيارتها، ساعد فرانك جدّته في العثور على مقبض مظلّتها:

- تفضّلي، لقد أعطتني هذا لكِ...

ساد الصمت.

- ماذا إذاً، ألم يعجبكِ هذا؟

- بلى... بلى...

Twitter: @ketab_n

بدأت تبكي:

- أنت جميلٌ جداً هنا...

وأشارت له إلى الرسمة التي لم يكن يحبّها.

- هل تعلمين، إنّها تضع وشاحك كلّ يوم...

- كاذب...

- أقسم لكِ!

فأضافت مبتسمةً:

- أنت محقٌّ إذاً... إنّ هذه الفتاة الصغيرة غير طبيعية.

- جدّتي... كفّي عن البكاء... سنخرج...

- نعم... هيّا...

-....

- أنت تعلم، أحياناً أقول في نفسي بأنني جاهزة وأحياناً أخرى، أنا... أنا...

- أوه... يا جدّتي العزيزة...

وللمرّة الأولى في حياته، ضمّها بين ذراعيه.

افترقا في المرأب وارتاح لكونه لم يضطرّ لأن يأخذها بنفسه إلى مكمنها. حينما رفع مسند الوقوف، بدت له درّاجته أثقل مما كانت عليه في العادة.

كان لديه موعد مع صديقته وكان يملك بعض المال ولديه سقفٌ يؤويه وعملٌ يؤدّيه بل ووجد مؤخراً قصّتيه المصورتين **ريبولدينغ وفيلوشار** .ومع ذلك كانت العزلة تهلكه.

يا له من قرف، غمغم تحت خوذته، يا له من قرف... لم

Twitter: @ketab_n

يكرّر ذلك لمرّة ثالثة لأنّه لم يكن هناك جدوى من ذلك فضلاً عن أن ذلك يضع المزيد من البخار على واقي وجهه.

يا له من قرف...

4

- نسيت أيضاً مفاتـ...

لم تكمل كاميل جملتها لأنّها أخطأت التوقّع. لم يكن القادم فرانك وإنّما الفتاة التي كانت بصحبته في ذاك اليوم. تلك التي رماها ليلة عيد الميلاد بعد أن ضاجعها...

- هل فرانك موجود؟

- كلا. لقد ذهب لرؤية جدّته...

- كم الساعة؟

- أعتقد أنّها نحو السابعة...

- أيزعجكِ أن أنتظره هنا؟

- بالطبع لا... تفضّلي...

- هل أزعجكِ؟

- ليس تماماً! كنتُ مسمّرة أمام التلفاز...

- أتشاهدين التلفاز؟

- نعم، لماذا؟

- أخبركِ بأنني قد اخترتُ أضعف برنامج... فتيات يرتدين ألبسة كالعاهرات ومقدّمي برامج في بزّات ملتصقة بأجسادهم يقرأون إعلانات وهم يباعدون بين سيقانهم برجولة... أعتقد بأنّ

Twitter: @ketab_n

هذا نوعٌ من البرامج الغنائية مع أناسٍ مشهورين ولكنني لم أعرف واحداً منهم...

- بلى، هو، أنتِ تعرفينه، إنّه نجم **ستار أكاديمي**...

- ما معنى **ستار أكاديمي**؟

- آه، نعم، كنتُ محقّةً... هذا بالضبط ما قاله لي فرانك، أنتِ لا تشاهدين أبداً التلفاز...

- ليس كثيراً، كلا... ولكنني أعشق هذا المكان... أشعر بأنني في وجارٍ دافئٍ جيّداً... اممم... إنّهم جميعاً وسيمون، لا يكفّون عن توزيع القبل وتحتفظ الفتيات بصباغ جفونهنّ حينما ينتحبن. سوف ترين أنّ هذا مثيرٌ للغاية...

- هل تفسحين لي مكاناً؟

قالت كاميل وهي تخلي لها الطرف الآخر من فراشها:

- تفضّلي... هل تودّين أن تشربي شيئاً ما؟

- بورغونيا بنكهة العنب.

- مهلاً، سأجلب كأساً...

- ماذا يجري هنا؟

- لا أفهم شيئاً...

- قدّمي لي جرعة، وسأخبرك.

روتا لبعضهما بعض الأشياء خلال الإعلانات. كانت تُدعى ميريام، وهي قادمة من شارتر، وتعمل في صالونٍ للتزيين وتستأجر بالتشارك شقّة في الدائرة الخامسة عشرة. اهتمتا بشأن فرانك وتركتا له رسالة ورفعتا الصوت حينما استؤنِف البرنامج. وفي نهاية الفاصل الثالث، كانتا قد أصبحتا صديقتين.

Twitter: @ketab_n

- منذ متى تعرفينه؟

- لا أدري... منذ شهر ربّما...

- هل الأمر جدّي؟

- كلا.

- لماذا؟

- لأنّه لا يفعل شيئاً سوى الكلام عنكِ! كلا، كنتُ أمزح... لقد قال لي فقط إنّكِ ترسمين جيداً... هل تريدين أن أزيّنكِ أثناء وجودي هنا؟

- عفواً؟

- أسرّح شعرك؟

- الآن؟

- نعم لأنني بعد ذلك سأكون في غاية الثمالة وقد أبتر جزءاً من أذنكِ أثناء التزيين!

- ولكن ليس لديكِ أيّ عدّة هنا، ليس لديكِ حتى مقصّ للشعر...

- ألا توجد شفرات حلاقة في الحمّام؟

- أوه... بلى. يبدو لي أنّ فيليبير لا يزال يستخدم نوعاً من الشفرات التي تعود إلى العصر الحجري...

- ماذا ستفعلين بالضبط؟

- سأنعّمك...

- هل يزعجكِ أن نقف أمام مرآةٍ؟

- أتخافين؟ تريدين أن تراقبيني؟

Twitter: @ketab_n

- كلا، بل أريد أن أشاهدكِ...

- قصّت ميريام الشعر وكاميل رسمت.

- هل ستعطينني هذه الرسمة؟

- كلا، أعطيكِ كلّ ما تريدين إلّا هذه... الصور الشخصية، حتى وإن كانت مبتورة مثل هذه، أحتفظ بها...

- لماذا؟

- لا أدري... أشعر بأنني لفرط ما أرسم سأنتهي بالتعرّف على نفسي ذات يوم...

- حينما ترين نفسكِ في مرآة، ألا تتعرّفين على نفسكِ؟

- أجد نفسي دائماً قبيحة.

- وفي رسوماتكِ؟

- في رسوماتي، ليس دائماً...

- هكذا أفضل، أليس كذلك؟

- لقد جعلتِ لي سالفين، مثل فرانك.

- هذا يناسبك كثيراً.

- هل تعرفين جان سيبيرغ؟

- كلا، من تكون؟

- هذه ممثلة. إنّها تسرّح شعرها بنفس هذه الطريقة. ولكنّها شقراء...

- أوه، إذا كان الأمر يتوقّف على هذا، أستطيع أن أصبغ شعركِ ليصبح أشقر في المرّة القادمة!

- كانت فتاة ظريفة للغاية... وكانت تعيش مع أحد الكتّاب

Twitter: @ketab_n

المفضّلين لدي... ثمّ عُثِر عليها ميتة في سيارتها ذات صباح.. كيف وجدت فتاة بهذا الجمال الشجاعة على أن تنتحر؟

- ربّما كان عليكِ أن ترسميها قبل ذلك... لكي ترى نفسها...

- كنت في الثانية من عمري...

- هذا أيضاً، أخبرني فرانك به...

- بأنها قد انتحرت؟

- كلا، بأنّكِ كنتِ تروين الكثير من الحكايات...

- هذا لأنني أحب الناس كثيراً... أوه... بكم أدين لكِ؟

- كفّي...

- سأهديكِ هدية بدل أجرتكِ...

عادت ومدّت إليها كتاباً.

- **قلق الملك سالومون**... هل هذا جيّد؟

- أفضل من هذا أيضاً... ألا ترغبين في إعادة محاولة الاتصال به، الأمر يقلقني، ربّما يكون قد تعرّض لحادث؟

- بفف... أنتِ مخطئة في قلقك... صحيحٌ أنّه قد نسيني... بدأتُ أعتاد على ذلك...

- لماذا تبقين معه، إذاً؟

- لئلا أكون وحيدة...

كانت قد شرعت في القارورة الثانية، حينما رفع خوذته.

- حسناً ماذا تفعلان هنا؟

قالتا ساخرتين:

Twitter: @ketab_n

- نشاهد فيلماً خليعاً. وجدناه في غرفتك.. شقّ علينا الاختيار، إيه، ما اسمه، هذا الفيلم؟

- **ارفع لسانك عن مؤخّرتي**.

- آه، نعم هذا هو... إنّه رائع...

- ولكن ما هذه الترّهات؟ ليست لدي أفلام خليعة!

قالت كاميل ساخرة:

- حقّاً؟ هذا غريب... أيكون قد نسيه أحدهم في غرفتك؟

أضافت ميريام:

- أو أنّك قد خُدِعت، اعتقدتَ أنّك تأخذ فيلم المهرة **آميلي** ومن ثمّ وجدتَ أنّه فيلم **ارفع لسا**...

نظر إلى الشاشة بينما كانتا تقهقهان بأعلى صوتهما.

- ولكن ما هذا... أنتما في غاية الثمالة، نعم!

قالتا مرتبكتين:

- نعم...

قالت كاميل بينما كان يغادر الصالون متذمراً:

- هيه أنت؟

- ماذا هناك أيضاً؟

- ألن تُظهِر لخطيبتكَ كم أنت وسيمٌ اليوم؟

- كلا. لا تزعجيني.

توسّلت ميريام:

- أوه بلى، أرني، يا عزيزي!

قالت كاميل:

Twitter: @ketab_n

- عرض تعرٍّ.

أضافت الأخرى:

- عارياً.

ردّدتا معاً:

- عرض تعرٍّ! عرض تعرٍّ! عرض تعرٍّ!

هزّ رأسه رافعاً عينيه إلى السماء. حاول أن يتّخذ هيئة مستاءة، ولكنه لم يستطع. كان في غاية الإنهاك وأراد أنّ يرتمي على سريره وينام لأسبوع.

- عرض تعرٍّ! عرض تعرٍّ! عرض تعرٍّ!

- ممتاز. كما تشاءان... أطفئا التلفاز واستعدا، يا حلوتي...

وضع أغنية Sexual Healing - أخيراً - وبدأ بقفازيه.

وعند تكرار قرار الأغنية:

get up, get up, get up, let's make love tonight

wake up, wake up, wake up, cause you do it right,

فكّ دفعة واحدة الأزرار الثلاثة الأخيرة لقميصه الأصفر وحوّمه فوق رأسه في حركة هزٍّ رائعة من وركيه.

كانت الفتاتان تنقران بأقدامهما على الأرض وهما تسرفان في الضحك.

لم يتبقّ عليه سوى البنطال، استدار وأنزله ببطء وهو يرتعش رعشة لإحداهنّ ثمّ للأخرى وحينما ظهر أعلى سرواله الداخلي،

Twitter: @ketab_n

وهو عبارة عن شريطٍ عريضٍ مكتوبٍ عليه DIM DIM DIM، استدار نحو كاميل ليغمزها. في تلك اللحظة، توقّفت الأغنية ورفع بنطاله بسرعة بالغة.

- حسناً، هيّا، حماقتكما ظريفة جداً، ولكنني سأنام.

- أوه...

- يا للخسارة...

قالت كاميل:

- أنا جائعة.

- وأنا أيضاً.

- فرانك، نحن جائعتان...

- حسناً، المطبخ هناك، بطريقٍ مستقيم ثمّ نحو اليسار...

ظهر من جديد بعد عدّة دقائق وهو يرتدي منامة فيليبير الشطرنجية.

- إذاً؟ ألا تأكلان؟

- كلا، لا يهمّ. سندع أنفسنا نموت جوعاً... رجلٌ يرتدي ثيابه من جديد وطبّاخٌ لا يطبخ، فعلاً، لسنا محظوظتين هذا المساء...

تنهّد:

- حسناً، ماذا تريدان؟ طعاماً مالحاً أم حلواً؟

- هممم... هذا طيّب...

أجاب بتواضع وبنبرة شبيهة بنبرة **دون باتيلو**:

- هذه ليست سوى معجّنات...

Twitter: @ketab_n

- ولكن ماذا وضعتَ فيها؟

- الواقع، بعض الأشياء البسيطة...

كرّرت كاميل:

- هذا لذيذ. وماذا ستقدّم لنا من حلوى؟

- موز ناضج جداً... اعذراني يا آنستيّ، أنا أستخدم ما يتوفّر لديّ من مواد... أقصد، سوف تريان... إنّ عرق قصب السكّر ليس من ماركة **أولد نايك** من مخازن **مونوبري**، إيه!

ردّدتا مرّة أخرى وهما تلعقان صحنيهما:

- هممم، وبعد؟

ردّ بلغة الأطفال:

- وبعد ذلك يحين وقت النوم ولمن يهمّها الأمر، غرفتي تقع هناك في آخر الشقّة إلى اليمين.

بدل ذلك، شربتا شراباً ساخناً ودخّنتا آخر سيجارة في حين كان النعاسُ يُغالب فرانك على الأريكة.

صرّت كاميل بأسنانها:

- آه، إن صاحبنا الدون جوان وسيمٌ بعافيته ومغارته المثيرة جنسياً...

- نعم، هذا صحيح، إنّه جميل...

ابتسم في شبه سباته ووضع إصبعاً أمام فمه ليرجوهما أن تسكتا.

حينما دخلت كاميل إلى الحمّام، كان فرانك وميريام قد سبقاها إليه. كانا متعبين كثيراً ولم يكن بوسعهما الاستهزاء بها

Twitter: @ketab_n

وأمسكت كاميل بفرشاة أسنانها بينما كانت ميريام تخرج وتمنّت لها ليلة هانئة.

كان فرانك منحنياً فوق المغسلة يتفّ المعجون، حينما التفت والتقت نظراتهما.

- أهي مَنْ فعلت بكِ هذا؟

- نعم.

- هذا جيّد...

ابتسما لمرآهما في المرآة، واستغرق نصف الثانية تلك أكثر من المعتاد.

صرخت ميريام من غرفتها:

- هل يمكنني ارتداء منامتكِ الرمادية؟

فرك أسنانه بشدّة وتوجّه من جديد إلى فتاة المرآة وخاطبها بكلامٍ غير مفهوم والمعجون يسيل على ذقنه:

- منحماقة عندما لا يكون للمرء سقف لكي ينام.

سألت عابسةً:

- عفواً؟

- كنتُ أقول: من الحماقة ألا يكون للمرء سقفٌ لكي ينام...

قالت مبتسمة:

- آه نعم، هذا شيءٌ من الحماقة. حقّاً...

استدارت نحوه:

- اسمعني يا فرانك، لدي أمرٌ مهم أخبرك به... اعترفت

Twitter: @ketab_n

لك البارحة بأنني لم أتّخذ قط قراراتي، ولكن الآن، هناك قرارٌ أودّ أن نتّخذه معاً ونحترم...

- أتريدين أن نكفّ عن الشرب؟!

- كلا.

- عن التدخين؟

- كلا.

- ماذا تريدين إذاً؟

- أريد أن توقف هذه اللعبة الصغيرة معي...

- أيّة لعبة؟

- أنت تعرفها جيداً.. خطّتك الجنسية، كلّ تلميحاتك المغيظة... أنا... لا أريد أن أخسرك، لا أريد أن نتشاجر. أريد أن تسير الأمور جيداً، هنا، الآن... أن يظلّ هذا مكاناً... أقصد، أنت ترى، مكاناً نكون فيه نحن الثلاثة بخير... مكاناً هادئاً، بلا صخب... أنا... أنت... سوف لن نذهب نحن الاثنان إلى أيّ مكان، تدرك ذلك جيداً، أليس كذلك؟ أقصد، أريد أن أقول، إننا... طبعاً، سيمكننا أن ننام معاً، نعم، حسناً، ولكن ليس الآن؟ بالنسبة لنا نحن الاثنين، سيكون الأمر عادياً وأنا... أقصد، سيكون من الخسارة أن نفسد كلّ شيء، ماذا...

كان في وضعٍ حرج واستغرق بضع ثوانٍ قبل أن يربّت بإصبعه على ساقها:

- مهلاً، عن ماذا تحدّثينني، هنا؟ لم أقل لكِ قطّ بأنني أرغب في النوم معكِ! حتى وإن أردت لن أستطيع أبداً! أنتِ نحيلة جداً! كيف تريدين أن يرغب رجلٌ في مداعبتكِ؟ داعبي نفسكِ، يا عزيزتي، داعبي نفسكِ! أنتِ تهذين تماماً...

Twitter: @ketab_n

- أترى كم أنا محقّة في أن أحذّرك؟ أترى كم أنا واضحة؟ لن يمكن لهذا أن يجري بيننا... أنا أحاول أن أقول لك الأشياء بأقصى ما يمكن من الرقّة وأنت، ليس لديك ما تبادلني به سوى عدوانيتك الدنيئة، حماقتك، وسوء نيتك، وخبثك. لحسن الحظّ أنّك لن تستطيع قط أن تداعبني! لحسن الحظّ! لا أريد قائمتيك المحمرّتين القذرتين وأظافرك المتآكلة! احتفظ بها إذاً لعشيقاتك الخادمات!

تشبّثت بمقبض الباب:

- حسناً، حسناً، لقد فات أوان الكلام... من الأفضل أن أسكت... أوه! أنا مغفّلة... أنا مغفّلة جداً... فضلاً عن ذلك، عادةً لا أكون هكذا، إطلاقاً... أنا بالأحرى من النوع الذي ينحني للعاصفة ريثما تمرّ وأنسلّ خلسةً حينما يكون في الأمر هرطقة...

جلس على حرف مغطس الحمّام.

- نعم هكذا أتصرّف في العادة... ولكنني، هنا، كغبية، أكرهتُ نفسي على أن أتكلّم إليك لأنّ...

رفع رأسه.

- لأنّ ماذا؟

- لأنّ... أخبرتك بذلك، لأنّه يبدو لي من المهمّ أن تبقى هذه الشقّة هادئة... سأبلغ السابعة والعشرين من عمري، وللمرّة الأولى في حياتي، أقيم في مكانٍ أشعر فيه بأنني بخير وأعود إليه مساءً وأنا سعيدة، وحتى وإن كنتُ هنا منذ وقتٍ قصير، أنت ترى، رغم كلّ الأهوال الذي تذيقني إياها، لا زلتُ أهين

Twitter: @ketab_n

كبريائي لئلا أجازف بفقدانه من هذا المكان... أوه... أتدرك ما أقوله لك أم أنّ كلامي عبارة عن رطانة غير مفهومة؟

- ...

- حسناً، جيد... سأداعب نفسي... سأنام مع نفسي...

لم يستطع الامتناع عن الابتسام:

- اعذريني، يا كاميل... أنا أتصرّف معكِ برعونة.

- نعم.

- لماذا أنا هكذا؟

- سؤالٌ جيّد... ماذا إذاً؟ هل نتصالح؟

- هيّا. أنا مستعد...

- رائع. حسناً، هل نتبادل قبلة إذاً؟

- كلا. أنام معكِ عند اللزوم، ولكن تقبيلكِ على خدّكِ فلا. لمرّة واحدة، سيكون الأمر في غاية الصعوبة...

- أنت أحمق...

استغرق لحظة قبل أن ينهض ويتلوّى ثمّ نظر مطوّلاً إلى أصابع قدميه ويديه وأظافره، وأطفأ النور وضاجع ميريام بشرود وهو يلصقها على الوسادة لئلا تسمع الأخرى.

5

حتى وإن كلّفها ذلك الحديث كثيراً، حتى وإن تعرّت في تلك الليلة وفركت جسدها بارتيابٍ أكثر، عاجزةً ومحبَطة من كلّ تلك العظام النافرة في الأماكن الأكثر استراتيجية للأنوثة، كالركبتين والردفين والكتفين، حتى وإن استغرقت وقتاً لكي تنام وهي تحصي عيوبها، فهي لم تندم عليه. فمنذ اليوم التالي، ومن

Twitter: @ketab_n

خلال طريقته في التصرّف والمزاح، حيث بدا مهتماً من دون مبالغة، وأنانياً من دون حتى أن يدرك، أدركت أنّ الرسالة قد وصلت.

سهّل حضور ميريام في حياته الأمور، وحتى وإن كان يعاملها دائماً بازدراء، فقد كان يبيت غالباً خارج البيت ويعود أكثر راحةً.

أحياناً كانت كاميل تتحسّر على مزاحهما ودعاباتهما... كانت تقول في نفسها، يا لها من دجاجة أرض، وكان ذلك مريحاً لها... ولكن أعراض الضعف تلك لم تكن تدوم طويلاً. ولكي تُظهر مكرها كثيراً، كانت تعرف جيّداً ثمن الهدوء: ثمنٌ باهظ. ثم إلى أين كانت الأمور ستصل فعلاً؟ أين كان يتوقّف الجدّ ويبدأ اللعب معه؟ كانت غارقة في هذه الهذيانات، جالسة وحيدة إلى المائدة أمام طبقٍ من الغراتان، حينما شاهدت شيئاً غريباً على حرف النافذة...

الصورة الشخصية التي رسمها لها يوم أمس.

قلب خسّة طازجة وضِع في فتحة القوقعة ...

تجمّدت في مكانها ونقرت بضرباتٍ خفيفة من شوكتها على قطع الكوسى الباردة وهي تبتسم ببلاهة.

6

ذهبا معاً لشراء غسّالة بياضات جيّدة وتشاركا في دفع قيمتها. فرِح فرانك حينما قال البائع: «ولكنّ زوجتك محقّة تماماً...». وناداها عزيزتي طيلة فترة تفحّص الآلة.

Twitter: @ketab_n

كان البائع يقول بلهجة خطابية:

- إنّ فائدة هذه الأجهزة المدمجة، جهازان في جهاز، تكمن في توفير المساحة بالتأكيد.. للأسف، لا يعرف هذا الأمر الأزواج الشبّان في أيامنا هذه...

همست له كاميل وهي تمسك بذراعه:

- أنخبره بأننا ثلاثة نقيم في بيتٍ مساحته أربعمائة متر مربّع؟

ردّ حانقاً:

- عزيزتي... أرجوكِ، دعيني أصغي إلى السيّد، هيّا...

أصرّت على توصيل الغسّالة قبل عودة فيليبير، «وإلّا سيرهقه ذلك كثيراً»، وأمضت طيلة فترة ما بعد الظهيرة في تنظيف حجرة صغيرة قرب المطبخ لا بدّ أنّها كانت تُدعى «مغسل الثياب» في ما مضى...

وجدت أكداساً مكدّسة من شراشف ومماسح مطرّزة وأغطية طاولات وفوطاً ومناشف.. قطعاً صغيرة من الصابون متصلّبة ومواد متشقّقة في علبٍ فاتنة، قطعاً شفّافة من الصودا، زيت الكتّان، حوّار، كحولاً لتنظيف الغلايين، شمع سان-فاندريل، نشاء ريمي، ناعم الملمس مثل قطعٍ من الورق المخملي... مجموعة مثيرة من فراشي الأسنان بقياسات مختلفة وأشكالٍ متنوعة، ريشة غبار جميلة تشبه مظلّة، ومضرباً مصنوعاً من أغصان الصفصاف المجدولة يُستخدم لنفض السجاد.

صفّت كلّ تلك الكنوز بدقّة ورسمتها في كراسةٍ كبيرة.

كانت قد عزمت على أن ترسم كلّ شيء لكي تتمكّن من تقديمه إلى فيليبير حينما تضطرّ لأن تغادر...

Twitter: @ketab_n

كلّما كانت تعمل على ترتيب البيت، كانت تجد نفسها جالسة وهي ترتدي تايوراً، غائصة في صناديق كرتون كبيرة مليئة بالرسائل والصور، فتمضي ساعات كاملة مع رجالٍ بشوارب وسيمين يرتدون بزّاتٍ رسمية، وسيّدات كبيرات أنيقات خارجات من لوحة لرينوار، وصبية صغار يرتدون ألبسة شبيهة بألبسة الفتيات، وهم يضعون اليد اليمنى على لعبة الحصان القلّاب في الخامسة من عمرهم، وعلى دولابٍ في السابعة، وعلى توراةٍ في الثانية عشرة، وأكتافهم منحرفة بعض الشيء، لكي يُظهروا ما بأيديهم كمتناولين للقربان مذهولين بالنعمة...

نعم، كانت تعشق هذا المكان ولم يكن من النادر أن تقفز وتنظر إلى ساعة يدها وتركض في ممرّات مترو الأنفاق وتتلقّى الشتائم من جوزي الرائعة حينما كانت هذه الأخيرة تعرض عليها ميناء ساعتها... عجباً...

- إلى أين تذهبين؟

- إلى العمل، أنا بارعة في التأخّر...

- تغطّي، الجوّ بارد...

أضافت:

- نعم بابا... في الواقع...

- نعم؟

- غداً سيعود فيليبير...

- حقّاً؟

- أنا أمضيتُ سهرتي... هل ستكون هناك؟

Twitter: @ketab_n

- لا أدري.

- حسناً...

- ضعي على الأقلّ وشا...

كان الباب قد صفق...

كان يجب أن أعرف، غمغم فرانك، حينما أغازلها، لا ينجح الأمر، حينما أقول لها أن تتغطّى، تستخفّ بكلامي. هذه الفتاة تقتلني...

سنة جديدة، وأعمال السخرة ذاتها. نفس المشمّعات الأرضية الثقيلة جداً، نفس الشرّاقات المسدودة دائماً، نفس الدلاء المرقّمة («لا مزيد من الحكايات، يا بنات!»)، نفس المواد التي جرى النقاش حولها بشدّة، نفس المغاسل المسدودة، نفس مامادو الرائعة، نفس الزميلات المنهكات، نفس جوجو المتوتّرة... كان كلّ شيء يكرّر نفسه.

كانت كاميل منهكة وأقلّ حماسة. تركت حجارتها عند المدخل وانهمكت في العمل ولاحقت ضوء النهار ولم تعد ترى أسباباً لأن تعيش بخلاف ذلك... كان الصباح هو الفترة الأكثر إنتاجية ولكن كيف ستعمل في الصباح وهي لا تنام أبداً قبل الساعة الثانية أو الثالثة فجراً، منهكةً بعملٍ بدنيٍّ موهن؟

كانت تشعر بوخزٍ في يديها وكان دماغها مشغولاً: فيليبير سيعود، والعيش ممكنٌ مع فرانك وإغراءات الشقّة لا تُقدَّر بثمن... راودتها فكرة... نوعٌ من جدارية... أوه، كلا، لم تكن جدارية، هذه كلمة كبيرة... كان إيحاءً... نعم، صحيح، إيحاء. كانت عبارة عن وقائع وسيرة للمكان الذي عاشت فيه...

Twitter: @ketab_n

كانت هناك مواد كثيرة، ذكريات كثيرة... ليس فقط الأشياء. ليس فقط الصور وإنّما بيئةٌ أيضاً. **جوٌّ**، كما كانت الأخرى تقول... همسات واختلاجات أيضاً... تلك المجلّدات، تلك الأقمشة المصبوغة، نتوءات الزينة المتعجرفة تلك، قواطع الكهرباء الخزفية تلك، تلك الأسلاك المعرّاة، تلك السخّانات المعدنية، تلك المستوعبات الصغيرة للضمادات، وقوالب الأحذية تلك، وكلّ تلك البطاقات المصفرّة...

نهايةُ عالَمٍ...

كان فيليبير قد نبّههما: ذات يوم، قد يكون غداً؟ ينبغي الرحيل، ينبغي أن يلملما ثيابهما وكتبهما وأسطواناتهما وذكرياتهما وجفنتيهما الصفراوين من ماركة تابروير ويهجرا كلّ شيء.

وبعد؟ مَنْ يدري؟ في أفضل الحالات التقاسم، وفي أسوأها الوحوش، تجار البالة. طبعاً سيجد الكارتل والقبّعات العالية مَنْ يشتريها، ولكنّ كحول تنظيف الغلايين وساقط الستارة وذيل الحصان مع بطاقة شكر صغيرة **في ذكرى فينوس، 1887-1912، الفرس الشقراء المزهوّة ذات الأنف المرقّش** وثمالة مادة الكينين في قارورتها الزرقاء على رفّ الحمام، مَنْ سيهتمّ بها؟

نقاهة؟ استرخاء؟ جنونٌ خفيف؟ لم تكن كاميل تدري، لا متى ولا كيف راودتها تلك الفكرة، ولكن ها هي قد انشغلت بهذا اليقين الصغير - بل هل يمكن أن يكون الماركيز العجوز هو الذي من أوحى لها بهذه الفكرة؟ - وكأنّ كلّ هذا، هذه الأناقة، هذا العالم المحتَضر، هذا المتحف الصغير للفنون والتقاليد

Twitter: @ketab_n

البرجوازية، لم يكن ينتظر سوى قدومها، نظرتها، رقّتها، ريشتها المدهشة لكي يقرّر أخيراً الاختفاء...

كانت هذه الفكرة الخرقاء تذهب وتأتي وتختفي وسط النهار، مطاردة غالباً بوابلٍ من البسمات الهازئة: ولكن يا لفتاتي المسكينة... إلى أين تمضين؟ ومَنْ تكونين؟ ثمّ أخبريني، من سيبالي بكلّ هذا؟

ولكن في الليل... آه! الليل!، حينما كانت لتعود من جولاتها الرهيبة التي أمضت معظم وقتها خلالها وهي مقرفصة أمام سطل وتمسح أنفها بكمّ قميصٍ من النايلون، حينما كانت تنحني، لعشر مرّات، لمائة مرّة، لترمي كؤوس بلاستيك وأوراقاً لا أهمية لها، حينما كانت تسير لكيلومترات في سراديب باهتة بحيث لم تستطع تلك الخربشات التافهة تغطية هكذا أشياء: **وهو؟ بماذا يشعر حينما يكون في داخلكم؟** حينما وضعت مفاتيحها على منضدة المدخل وعبرت تلك الشقّة الواسعة على أطراف أصابعها، لم تستطع ألّا تسمع كلّ الأشياء وهي تناديها: نادتها أرضية المنزل: «كاميل... كاميل...»، توسّلت إليها الألبسة الرثّة والأثاث القديم «خذينا معكِ...». وقال الجنرال العجوز المصوَّر على سرير احتضاره، ساخطاً «سحقاً! لماذا الجفنتان وليس نحن؟». فردّد ذوو الأزرار النحاس والنسيج الحرير البائس في لحنٍ جماعي «هذا صحيح! لماذا؟».

جلست وسط العتمة ولفّت لنفسها بهدوء سيجارة لكي تواسيهم. أولاً، لا شأن لي بجفناتكم من طراز تابروير، ثانياً، أنا هنا، ليس عليكم سوى أن توقظوني قبل منتصف الظهيرة، يا

Twitter: @ketab_n

عصابة الخبثاء السِمان. . .

كانت تحلم بالأمير سالينا، وهو يعود وحيداً، راجلاً، بعد الحفلة الراقصة. . . الأمير الذي شهد للتوّ، عاجزاً، انهيار عالمه والذي كان، وهو يرى هيكلاً عظمياً دامياً لثور وقشوراً منثوراً على طول الطريق، يبتهل إلى السماء ألا يتأخّر كثيراً. . .

كان رجل الطابق الخامس قد ترك علبة من شوكولا مون شيري مرسلة إليها. مجنون كبير، هزأت كاميل التي قدّمتها لرئيسة قسمها المفضّلة وتركت بات هيبولير تشكره نيابةً عنها: «شكراً، ولكن دعونا نرى. . . أليس لديكم شراب مغطى بالكريما؟».

كم أنا مضحكة، قالت متنهدة وهي تضع رسمتها، كم أنا مضحكة. . .

وفي هذه الحالة النفسية، حالمة، ساخرة، قدمٌ في رواية ليوبارد[1] وأخرى بين الأوساخ، **دفعت باب الحجرة الواقعة خلف المصاعد حيث يضعون صفائح ماء الجافيل الفارغة وكلّ نفاياتهم.**

كانت آخر مَنْ يغادر وبدأت تتجرّد من ثيابها وسط العتمة حينما أدركت أنّها لم تكن وحيدة. . .

توقّف قلبها عن الخفقان وشعرت بماء ساخنٍ يسيل على طول فخذيها: لقد تبوّلت عليهما.

(1) رواية كتبها الدون جوزيبي توماسي عن حياة الأمير الصقلّي فابريزيو سالينا. (المترجم).

Twitter: @ketab_n

قالت وهي تتحسّس الجدار بحثاً عن مفتاح الإنارة:

- هل... هل هناك أحد؟

كان موجوداً، جالساً على الأرض، مرعوباً، تائه النظر، غائر العينين من تأثير المخدّر أو من نقصه، كانت تعرف تلك الوجوه عن ظهر قلب. لم يتحرّك ولم يعد يتنفّس وكمّم خطم كلبه بين يديه.

ظلّا على تلك الحالة لبضع ثوانٍ، يحدّقان ببعضهما في صمت، الوقت اللازم لكي يدركا أن لا أحد منهما سيموت بخطأ الآخر، وحينما أبعد يده اليمنى لكي يضع إصبعاً على فمه، أغرقته كاميل من جديد في العتمة.

استعاد قلبها خفقانه. لا يهمّ كيف. أخذت معطفها وخرجت القهقرى.

أنّ:

- الرمز؟

- عف... عفواً؟

- رمز العمارة؟

لم تعد تعرف، غمغمت، أعطته له، بحثت عن المخرج متشبثةً بالجدران ووجدت نفسها في الشارع، لاهثةً وغارقة في العرق.

صادفت الحارس الليلي:

- الجو ليس حارّاً هذا المساء، إيه؟

- ...

Twitter: @ketab_n

- هل أنتِ بخير؟ وكأنّكِ قد رأيتِ شبحاً...

- أنا متعبة...

كانت متجمّدة من البرد، شبكت ذيول معطفها على أسفل ثوبها المبتلّ جداً وانطلقت في الاتجاه الخاطئ. حينما أدركت في النهاية أين هي، حاذت الخطّ الأبيض لتوقف سيارة أجرة.

كانت سيارة صغيرة مترفة تعلن عن درجات الحرارة في الداخل والخارج (+21 ، - 3). باعدت بين فخذيها، وضعت جبينها على زجاج السيارة وأمضت ما تبقى من المسافة في مراقبة الكتل البشرية الصغيرة المنكمشة على شبكات التهوية وفي خبايا بوابّات العربات.

المصرّون والعنيدون والذين رفضوا الأغطية المصنوعة من الألمنيوم كي لا يُحتَجزوا في مجموعة مناراتهم والذين فضّلوا الإسفلت الفاتر على خزف نانتير.

عبست.

راودتها ذكريات أليمة...

وشبحها المرعب، إذاً؟ بدا في غاية الفتوّة... وماذا عن كلبه؟ كان ذلك خطأ، هذا... لم يكن بوسعه الذهاب إلى أيّ مكانٍ معها... ربّما كان عليها أن تكلّمه، وأن تحذّره من ماتريكس الضخم وأن تسأله إن كان جائعاً... كلا، كان يريد منها مادتها المقوّية... وكلبه؟ متى حصل على آخر قسطٍ من النزهة؟ في قمّة كانيغو؟ تنهّدت. يا لها من بلهاء... الاهتمام بكلب مهجّن حينما كان نصف الإنسانية يحلم بمكانٍ على فتحة تهوية، يا لها من بلهاء... هيّا، اذهبي إلى النوم، يا جدّة، أنتِ

Twitter: @ketab_n

تخجلينني. ما معنى كلّ هذا؟ أنتِ تطفئين النور لئلا تعودي ترينه وبعد ذلك تضجرين خلف سيارة برلينية ضخمة ماضغة منديلكِ المخرّم...

اذهبي إلى النوم، اذهبي...

كانت الشقّة فارغة، بحثت عن الكحول، أيّ كحول، فقط بغية أن تجد الطريق إلى وسادتها وتنهض في الليل لتذهب وتتقيّأ.

7

كانت يداها في جيبيها وأنفها مرفوعاً في الهواء وتنطنط تحت لوحة إعلانات حينما أعطاها صوتٌ مألوفٌ المعلومة التي تبحث عنها:

- قطار قادم من نانت. الوصول إلى الرصيف في الساعة الثامنة وخمس وثلاثين دقيقة مساء. تأخير خمس عشرة دقيقة تقريباً... كالعادة...

- آه! حسناً أأنتَ هنا؟

أضاف فرانك:

- نعم... جئتُ لآخذ الشمعة... قولي إذاً، لقد تجمّلتِ! أهذا أحمر شفاهٍ أم أنا مخطئ؟

أخفت ابتسامتها خلف ثقوب وشاحها.

- أنت أحمق...

- كلا، أنا غيور. لم تضعي قط أحمر شفاه من أجلي...

- هذا ليس أحمر شفاه، هذا مرهمٌ للشفاه المشقّقة...

- كاذبة، دعيني أرى...

- كلا. ألا زلت في عطلة؟

Twitter: @ketab_n

- سأستأنف العمل غداً مساءً.

- حقّاً؟

- هل جدّتك بخير؟

- نعم.

- هل أعطيتها هديّتي؟

- نعم.

- وماذا قالت؟

- قالت بأنّه لكي ترسميني جيّداً يجب أن تكوني متدلّهة بي...

- حسناً لنرَ...

- أنشرب شيئاً؟

- كلا. لقد بقيتُ محبوسة في البيت طيلة النهار... سوف أجلس هنا وأتفرّج على الناس...

- هل يمكنني الجلوس معكِ؟

تكبّبا على مقعدٍ قرب كشكٍ لبيع الصحف وراقبا الحركة السريعة للأشخاص الشغوفين.

- هيّا! اركض يا غلامي العزيز! اركض! هوب... لقد فات الأوان...

- يورو واحد؟ كلا. عقب سيجارة إن شئت...

- هل يمكنك أن تشرح لي لماذا دائماً الفتيات المتعبات جداً يرتدين سراويل ذوات الخصر الواطئ؟ لا أفهم...

- يورو واحد؟ هيه أنت، ولكن سبق وصفعتني قبل قليل، يا عجوز!

- انظري إلى الجدّة النحيلة مع عمرتها، هل كراستكِ

Twitter: @ketab_n

معكِ؟ كلا؟ يا للخسارة... والرجل؟ انظري كم هو سعيدٌ بلقاء زوجته...

قالت كاميل:

- هذا مريب، لا بدّ أنّ هذه عشيقته...

- لماذا تقولين هذا؟

- رجلٌ يأتي مسرعاً إلى المدينة ويهرع إلى امرأة ترتدي معطفاً من الفرو ويقبّل عنقها... أوه، صدّقني، هذا مريب...

- بفف... ربّما تكون زوجته؟

- كلا! زوجته في بلدة كويمبيه، وهي تُرقد الأطفال في هذه الساعة! تفضّل ها هما زوجان، قهقهت ساخرة وهي تشير له إلى رجلٍ وامرأة يتبادلان الشتائم أمام علامة للقطار السريع...

هزّ رأسه:

- أنتِ تافهة...

- أنت عاطفي جداً...

ثمّ مرّ عجوزان نحيلان من أمامهما، مقوّسي الظهر، حنونين، حذرين ويمسكان بذراعي بعضهما. لكزها فرانك:

- آه!

- أنا أنحني...

- أنا أعشق المحطات.

ردّت كاميل:

- وأنا أيضاً.

- لمعرفة بلدٍ ما، لستِ بحاجة لأن تجولي كالبلهاء في

Twitter: @ketab_n

حافلة، تكفي زيارة المحطات والأسواق وستفهمين كلّ شيء...

- أنا متّفقة تماماً معك... إلى أين سافرت؟

- لم أذهب إلى أيّ مكان...

- ألم تغادر فرنسا قط؟

- أمضيتُ شهرين في السويد... طبّاخاً في السفارة... ولكن كان ذلك خلال فصل الشتاء ولم أشاهد أيّ شيء. لا يمكنكِ أن تشربي هناك... لا توجد حانات... لا يوجد أيّ شيء...

- حسناً... والمحطّة؟ والأسواق؟

- لم أر النهار...

- هل كان ذلك جيّداً؟ لماذا تضحك؟

- لا لشيء...

- حدّثني.

- كلا.

- لماذا؟

- لأنّ...

- أوه... أوه... هناك حكاية امرأة وراء كلّ هذا...

- كلا.

- كاذب، أرى ذلك في... في أنفك الذي يطول[1]...

قال وهو يشير لها إلى الأرصفة:

(1) في إشارة إلى بينوشيو الذي يطوله أنفه عندما يكذب.

Twitter: @ketab_n

- حسناً، هل نبتعد؟

- حدّثني أولاً...

- ولكنْ هذا أمرٌ تافه... تُرّهات...

- لقد نمتَ مع زوجة السفير، أهذا هو؟

- كلا.

- مع ابنته؟

- نعم! هذا صحيح! هل أنتِ سعيدة؟

قالت متغنّجة:

- سعيدةٌ جداً، هل كانت جميلة؟

- كانت قبيحة.

- كلللا؟

- بلى. حتى إن رجلاً سويدياً يبحث عن قوته في الدانمارك ذات مساء سبت وشكله مشوّه كسفرجلة ما كان ليرغب فيها...

- ماذا كان ذلك إذاً؟ أهو نوعٌ من الشفقة عليها أم بدافعٍ صحّي؟

- كان ذلك نوعاً من الوحشية...

- حدّثني.

- كلا. إلا إذا قلتِ لي بأنّكِ مخطئة وأنّ المرأة الشقراء التي شاهدناها منذ قليل كانت زوجته...

- أنا مخطئة: العاهرة ذات المعطف المصنوع من جلد القندس، كانت زوجته. لقد تزوّجا منذ ثلاثة عشر عاماً، لديهما أربعة صبيان وهما يعشقان بعضهما وهي الآن ترتمي على فتحة

Twitter: @ketab_n

سرواله في مصعد المرأب مبقية عيناً على ساعتها لأنّها قد وضعت طبقاً من المرق البقري على النار قبل أن تغادر البيت وتريد أن تمتّعه قبل أن يحترق الكرّاث...

- باه... لا يوجد كرّاث في مرقٍ بقري!

- حقّاً؟

- أنتِ تخلطين بينها وبين اللحم المسلوق بالخضار...

- وماذا عن عزيزتك السويدية؟

- لم تكن سويدية، قلتُ لكِ إنها كانت فرنسية... في الحقيقة، أختها هي من كانت تغويني... أميرة مدلّلة جداً... فتاة صغيرة بلهاء وثرثارة متبخترة ترتدي Spice Girl وحامية مثل الجمر... هي أيضاً، كانت تزعج نفسها، أتصوّر... ولتمضية الوقت، جاءت تضع مؤخرتها الصغيرة على مواقدنا. كانت تغري الجميع وتغطّ إصبعها في طناجري وتلعقها ببطء وهي تنظر إليّ من الأسفل... أنتِ تعرفينني، لستُ معقّداً كفتى، فالتقطتها ذات يوم في الطابق العلوي وأخذت تلك البلهاء تزقزق كالعصفورة. خشيتُ أن تذهب وتخبر والدها وكلّ ما يتبع ذلك... أو لا لا، أنا لستُ معقداً كفتى ولكنني لا أحبّ الفتيات الساعيات إلى الإثارة... فضاجعتُ شقيقتها الكبرى لكي أعلّمها الحياة...

- هذا منفرٌ بالنسبة للقبيحة!

- كلّ شيء منفر بالنسبة للقبيحات، أنتِ تعرفين ذلك جيداً...

- وبعد ذلك؟.

- بعد ذلك، غادرت...

Twitter: @ketab_n

- لماذا؟

- . . .

- حادثٌ دبلوماسي؟

- يمكننا قول هذا، هكذا... هيّا، سنذهب الآن...

- أنا أيضاً، أحبّ كثيراً أن تروي لي حكايات...

- تتحدّثين عن حكاية...

- هل لديك الكثير من هذه القصص؟

- كلا. عموماً، أنا أفضّل أن أجدّ لكي أظفر بالصغيرات الجميلات!

أنّت:

- ربّما علينا أن نذهب إلى أبعد، إذا ما أخذ تلك السلالم وصعد نحو سيارات الأجرة، سنفقد أثره...

- لا تقلقي... أنا أعرف عزيزي فيلو... يمشي باستمرار في خطّ مستقيم إلى أن يصطدم بعمودٍ فيعتذر بعد ذلك ويرفع رأسه لكي يدرك أين المخرج...

- أأنتَ متأكّد؟

- نعم... هيه أنت، هذا صحيح... أأنتِ مغرمة أم ماذا؟

- لا، ولكنك تعرف الأمر... خرجت من عربتك مع كلّ متاعك. أنت ثملٌ بعض الشيء، محبطٌ بعض الشيء... لا تنتظر أحداً، وهناك مَنْ هو في نهاية الرصيف وينتظرك... ألم تحلم قط بهذا؟

- أنا لا أحلم...

Twitter: @ketab_n

ردّدت وهي تقلّد سخرية قوّاد:

- أنا لا أحلم، أنا لا أحلم ولا أحب الساعيات إلى الإثارة. ها قد أخبرتكِ يا بنيّة...

كان مرهقاً.

أضافت:

- تفضّل، انظر، أعتقد بأنّه هو، هناك...

كان في نهاية الرصيف وكان فرانك محقاً: كان الوحيد الذي لا يرتدي بنطال جينز ولا حذاءً رياضياً ولم تكن معه لا حقيبة ظهر ولا عربة أمتعة. كان منتصباً مثل حرف الألف، ويمشي ببطء، ويمسك بيدٍ حقيبة ضخمة من الجلد محاطة بحزامٍ عسكري وبالأخرى كتاباً لا يزال مفتوحاً...

ابتسمت كاميل:

- كلا، لستُ مغرمة به، ولكنّك ترى، إنّه الشقيق الأكبر الذي كنتُ أحلم بأن يكون لي...

- هل أنتِ فتاة وحيدة؟

- أنا... لم أعد أدري...

قالت ذلك وهرعت نحو شبحها الأحول والرائع.

طبعاً ارتبك، طبعاً تلعثم، طبعاً ترك حقيبته التي سقطت على قدمي كاميل، طبعاً غالى في الاعتذار وفقد نظارته في نفس الوقت. طبعاً.

- أوه، ولكن يا كاميل، كما ترين... قد نصدّق جرواً صغيراً، ولكن، ولكن، ولكن...

Twitter: @ketab_n

قال فرانك متذمراً:

- لا تحاول... لم يعد من الممكن ضبطه.

- تفضّل، خذ حقيبته.

أمرته بذلك في حين تعلّقت برقبته، قائلةً:

- أتعرف، لدينا مفاجأة لك...

- مفاجأة، ولكن يا إلهي، كلا... أنا... أنا لا أحبّ المفاجآت، ما... ما كان يجب...

- هيه، أيها العاشقان الفتيّان! هلّا أبطأتما خطوكما؟ هناك صبيّكما المتعب، سحقاً، ماذا وضعت في هذه الحقيبة؟ أسلحة أم ماذا؟

- أوه، بعض الكتب... ولا شيء سواها...

- سحقاً، يا فيلو، لديك آلاف الكتب، تباً... ألم يكن بوسعك ترك هذه في القصر؟

همس في أذن كاميل:

- صديقنا في صحّة ممتازة، كيف حالكم أنتم؟

- مَنْ نحن؟

- أوه... حسناً، أنتم...

- عفواً؟

- أ.. أنتِ؟

ردّت مبتسمةً:

- أنا في حالة ممتازة. أنا سعيدة بوجودك هنا...

- أنا أيضاً... هل جرى كلّ شيء بخير؟ أليست هناك

Twitter: @ketab_n

خنادق في الشقّة؟ أليست هناك أسلاك شائكة؟ أليست هناك أكياس رمل؟

- لا توجد أيّ مشكلة. لديه صديقة صغيرة الآن...

- آه، ممتاز... والأعياد؟

- أيّة أعياد؟ العيد هو هذه الليلة! سوف نذهب لتناول العشاء في مكانٍ ما... أنت في ضيافتي!

دمدم فرانك:

- إلى أين؟

- إلى كوبول.

- أوه، كلا... هذا ليس مطعماً إنّه مصنعٌ للأكل...

عبست كاميل:

- بلى. سنذهب إلى كوبول. أنا أعشق هذا المكان... لا نذهب إليه لنأكل، نذهب إليه من أجل ديكوره، من أجل جوّه، من أجل الناس.. ولنكون معاً...

- ما معنى «لا نذهب إليه لنأكل»؟ يا له من كلام!

- حسناً إذا كنت لا تريد أن ترافقنا، لا بأس، فأنا أدعو فيليبير. لا تنسيا أنّ هذه نزوتي الأولى لهذه السنة!

- سوف لن نجد أمكنة...

- بلى. وإن لم نجدها، سننتظر في الحانة...

- ومكتبة السيّد الماركيز؟ أنا من سيحملها إلى هناك؟

- ليس أمامنا سوى أن نتركها في مستودع المحطّة ونستردها عند عودتنا...

Twitter: @ketab_n

- حسناً لنرَ... تباً، يا فيلو! قل شيئاً!

- فرانك؟

- نعم.

- لديّ ست أخوات...

- فإذاً؟

- إذاً أخبرك بأبسط ما يمكن: استسلم. ما تشاؤه المرأة، يشاؤه الله...

- مَنْ قال هذا؟

- الحكمة الشعبية...

- وها هو! عدنا إلى ما كنّا عليه! أنتما تزعجانني بأقوالكما المأثورة...

هدأ حينما مرّرت ذراعها تحت ذراعه، وابتعد المتسكّعون الفضوليون في جادة مونبارناس ليتيحوا لهما المرور.

من الخلف، كانوا في غاية الوسامة...

إلى اليسار، الطويل النحيل بسترته المبطّنة وعليها عبارة Retraite de Russie، إلى اليمين، القصير المتين البنية مع بلوزته المطبوعة عليها عبارة Lucky Strike وفي الوسط، فتاة تثرثر بصوتٍ خافت وتضحك وتحجل وتحلم سرّاً أن تُرفَع عن الأرض وتسمعهم يقولون: «إلى الطابق الأوّل! إلى الثاني! إلى الثالث! يووووووه...».

كانت تشدّهما إليها بأقصى قوّة ممكنة. كان كلّ توازنها بينهما اليوم. لا أمامهما ولا خلفهما وإنّما بينهما بالضبط. بين تيْنك المرفقين الحليمين...

Twitter: @ketab_n

كان الطويل النحيل يحني رأسه قليلاً وكان القصير المكين يدسّ قبضتيه في جيبيه الباليين. كان الاثنان، ومن دون أن يدركا ذلك، يفكّران في الأمر نفسه: نحن الثلاثة، هنا، الآن، جائعون، معاً، وندع الأمور تجري على أعنّتها...

خلال الدقائق العشر الأولى، كان فرانك سيئاً جداً، وانتقد بالتناوب قائمة الطعام والأسعار والخدمة والصخب والسياح والباريسيين والأمريكيين والمدخنين وغير المدخنين واللوحات والكركند وجارته وسكينته والتمثال القذر الذي سيسدّ بالتأكيد شهيته.

كان فيليبير وكاميل يتلويان من الضحك.

بعد كأسٍ من الشمبانيا، وكأسين من النبيذ وستّ محارات، صمت فرانك أخيراً.

كان فيليبير، غير المعتاد على الشرب، يضحك ببلاهة وبلا سبب. في كلّ مرّة وضع كأسه، كان يمسح فمه ويقلّد خوري قريته وهو يطلق مواعظ صوفية ومعذّبة قبل أن يختم بالقول: «آآآمين، آآاه كم أنا سعيدٌ بوجودي معكما...». محاصراً بالاثنين الآخرين، أعطاهما أخباراً عن مملكته الصغيرة، عن عائلته، عن الفيضانات، عن عيد رأس السنة عند أبناء العمّ النزيهين وشرح لهما عدداً من العادات والأعراف المذهلة بروحٍ من الدعابة، من دون أن يظهر عليه ذلك، وهذه أفرحتهما.

كان فرانك خاصّة يحملق ويردّد: «أليس كذلك؟»، «كلا!» «كلا...» كلّ عشر ثوانٍ:

– وكأنّهما خاطبان منذ سنتين وليس لديهما قط... مهلاً... لا أصدّق ذلك...

Twitter: @ketab_n

كانت كاميل تشدّه قائلةً:

- عليك أن تمثّل في المسرح، أنا متأكدة من أنّك ستكون ممثلاً بارعاً... أنت تعرف الكثير من الكلمات وتقول الأشياء بكثير من الروح... بكثيرٍ من العمق... عليك أن تروي السحر المجنون للنبالة الفرنسية القديمة أو شيئاً من هذا القبيل....

- أَ... أتعتقدين ذلك؟

- أنا متأكدة من ذلك! إيه يا فرانك؟ ولكنك... ألم تحدّثني عن فتاةٍ في المتحف أرادت أن تصطحبك إلى دروسها؟

- هذا... هذا صحيح... ولكنني... ولكنني أتلعثم كثيراً...

- كلا، حينما تروي، تتكلّم بشكلٍ طبيعي...

- هل... هل تعتقدان ذلك؟

دقّ فرانك قدحه بقدحه وقال:

- نعم. هيّا! هذا قرارك الصحيح في السنة الجديدة! إلى خشبات المسرح، يا مولانا! ولا تشتكي، إذاً، لأنّ قرارك ليس صعب الاتخاذ...

كانت كاميل تقشّر السلطعون وتكسر قوائمه وملاقطه وقشرته وتعده في شطائر مذهلة. مذ كانت صغيرة، كانت تحبّ كثيراً ثمار البحر لأنّه كان هناك باستمرار الكثير منها لكي تشتغل به والقليل منها لتأكله. بفضل جبلٍ من الجليد المنتصب بينها وبين محدِّثَيها، كان بوسعها أن تغشّ طيلة الوجبة من دون أن يتدخّل أحدٌ في الأمر أو يزعجها. وهذا المساء أيضاً، بينما دعت النادل من بعيد لتطلب قارورة أخرى، لم تلتزم بحصّتها. نظّفت أصابعها

Twitter: @ketab_n

وأمسكت بشطيرة من الخبز وأسندت ظهرها إلى المقعد مغمضةً عينيها.

طقطقة.

لم يعد أحدٌ يتحرّك.

لحظة معلّقة.

سعادة.

روى فرانك حكايات عن كربوراتور سيارة فيليبير الذي أصغى إليه بصبر، مبرهناً، مرّة أخرى، على تربيته الممتازة وطيبة قلبه الكبيرة.

قال بوقار:

- بالتأكيد، إنّ 89 يورو هو مبلغ، وما رأي صديقك... الـ... الضخم... بذلك...

- تيتي الضخم؟

- نعم!

- أوه حسناً، أنت تعلم، تيتي لا يبالي بالأمر، هو لديه قدر ما يريد من جوانات الكولاس هذه...

أجاب:

- بالتأكيد، أنا آسفٌ بصدق، تيتي الضخم، هو تيتي الضخم...

لم يكن يهزأ. لم يكن هناك أيّ سخرية منه. تيتي الضخم، كان هو تيتي الضخم ومن ثمّ هذا صحيح.

سألت كاميل من يريد أن يتقاسم الفطائر المحلاة معها. آثر فيليبير أن يأخذ عصير ليمون مثلج وسأل فرانك:

Twitter: @ketab_n

- أيّ نوعٍ من النساء أنتِ؟ من اللواتي يقلن نتقاسم ثمّ يلتهمن كلّ شيء وهنّ يخفقن برموشهنّ؟ أم من اللواتي يقلن نتقاسم ويقضمن فقط قمّة قطعةٍ من الحلوى؟ أم من اللواتي يقلن نتقاسم ويتقاسمن فعلاً؟

- اطلب وستعرف ذلك...

قال فيليبير:

- امممم، هذا لذيذ...

- كلا، لقد أُعيد تسخينها وهي سميكة جداً وفيها الكثير من الزبدة... سوف أعدّ لك منها ذات يوم وسترى الفرق...

- متى تريد...

- عندما تهدأ.

شعر فيليبير بأنّ الأجواء قد تغيّرت ولكن لم يعرف تماماً في أيّ اتجاه.

لم يكن الوحيد.

وكان هذا هو الأمر المسلّي...

بما أنّ كاميل ألحّت، وبما أنّ ما تشاؤه المرأة... إلخ، تحدّثوا عن المال: مَنْ سيدفع ماذا، متى وكيف؟ مَنْ سيشتري اللوازم؟ وكم سيكون بقشيش البوّاب؟ أيّة أسماء على صندوق الرسائل؟ هل سنركّب خطّاً هاتفياً وهل سندع أنفسنا نتأثّر بالرسائل الزائدة على خزينة الدولة بخصوص الضريبة؟ وترتيب البيت؟ كلٌّ يرتّب غرفته، حسناً، ولكن لماذا تقوم هي أو فيليبو بترتيب المطبخ والحمام؟ بالنسبة للحمام، تلزمه حاوية، سأتكفّل بها... أنت يا فرانك، فكّر في إعادة صنع علبك وافتح نافذة

Twitter: @ketab_n

غرفتك من حينٍ لآخر وإلّا ستتعفّن جميعاً... والمراحيض أيضاً. الرجاء إسدال غطاء فتحة المرحاض وحينما لا يعود هناك ورق تواليت أخبروني بذلك. ثمّ يمكننا شراء شرّاق... مكنسة **بيسيل** العائدة للحرب العالمية الأولى لا بأس بها لبعض الوقت... أوه... ماذا أيضاً؟

- إذاً يا عزيزي فيلو، أفهمت الآن لماذا كنتُ أقول لك لا تدع فتاةً تقيم في بيتك؟ أتدرك ما أردتُ قوله لك؟ أترى الآن الورطة؟ وانتظر، هذه ليست سوى البداية...

ابتسم فيليبير ماركيه دو لا دوربيليير. كلا، لم يكن يدرك. كان قد أمضى خمسة عشر يوماً مهاناً تحت النظرة الساخطة لوالده الذي لم يعد بوسعه إخفاء إنكاره له. ولدٌ بكر لا يهتمّ لا بإيجارات الأراضي ولا بالغابات ولا بالفتيات ولا بالمال ولا حتى بمكانته الاجتماعية. ولدٌ عاجز وأبله يبيع البطاقات البريدية لصالح الدولة ويرتبك حينما تطلب منه أخته الصغيرة أن يعطيها الملح. الوريث الوحيد لاسمه وغير القادر على الاحتفاظ بشيءٍ من المهابة حينما يتوجّه إلى خفير الصيد. كلا لم يكن يستحقّ ذلك، كان يقول صارّاً بأسنانه كلّ صباح حينما يباغته في غرفة شقيقته بلانش يمشي على الأربعة وهو يلعب معها لعبة الدمية...

- أليس لديك ما هو أفضل من هذا لتفعله، يا بني؟

- كلا يا أبي، ولكنني... أخبرني، إن كنتَ بحاجة إليّ، أنا...

ولكن الباب كان يُصفَق قبل أن ينهي جملته.

- أنت، ستعدّ طعاماً لنأكله وأنا سأذهب وسأشتري اللوازم

Twitter: @ketab_n

وبعد ذلك ستعدّ حلوى بالعسل ثمّ سنأخذ الأطفال في نزهة في الحديقة...

- حسناً، يا برغوثتي، حسناً. سنقول كلّ ما تريدين...

بلانش أو كاميل، بالنسبة له الأمر سيان: فتاتان صغيرتان تحبّانه وتقبّلانه أحياناً. ولهذا، كان مستعداً لأن يتحمّل احتقار والده وأن يشتري خمسين شرّاقاً لو لزم الأمر.

لا مشكلة.

ولأنّه كان يحبّ المخطوطات والوثائق والأنساب والخرائط وسواها من المواثيق، دفع فناجين القهوة إلى الطاولة المجاورة وأخرج ورقة من حقيبته كتب عليها باحتفالية: «ميثاق جادة ايميل ديشانيل في خدمة شاغليه وسواهم من زائـ...».

توقّف:

- ومن كان ايميل ديشانيل هذا، يا أولاد؟

- رئيساً للجمهورية!

- كلا. كان بول رئيساً. كان ايميل ديشانيل رجل أدب، كان أستاذاً في السوربون وفُصِل بسبب كتابه **الكاثوليكية والاشتراكية**... أو العكس، لم أعد أذكر... ثمّ هناك جدّتي التي يزعجها قليلاً اسم هذا الوغد على بطاقتها... حسناً، أوه... أين كنتُ أنا من ذلك؟

كرّر نقطة بنقطة كلّ ما بُتَّ فيه بما في ذلك ورق التواليت وأكياس الحاويات وأبرم بروتوكولهم الجديد لكي يستطيع كلّ منهم أن يضيف إليه شروطه.

تنهّد قائلاً:

Twitter: @ketab_n

- ها أنا ذا يعقوبيٌ تماماً...

وضع فرانك وكاميل كأسيهما على مضض وكتبا الكثير من الترّهات...

رابط الجأش، أخرج إصبع شمع الخَتم ووضع خاتمه أسفل الوريقة تحت النظرة الذاهلة لفرانك وكاميل ثمّ ثناها لثلاث مرات ودسّها بلا مبالاة في جيب سترته.

سأله فرانك وهو يهزّ رأسه:

- أوه... أتتجوّل دائماً ومعك عدّة لويس الرابع عشر؟

- شمعي وختمي وأملاحي وريالاتي الذهب وشعار نسبي وسمومي... بالتأكيد، يا عزيزي...

قام فرانك، الذي تعرّف على نادلٍ، بجولة في المطبخ.

- أُصرّ على رأيي، مصنعٌ للطعام، ولكنّه مصنعٌ جميل...

أخذت كاميل الحساب قائلةً: «أجل، أجل، أنا مصرّة، أنتما ستشتريان الشرّاق». واستردوا الحقيبة من المحطّة متجاوزين أيضاً بعض المتسكعين هنا وهناك. ثمّ امتطى صاحب بلوزة Lucky Strike دراجته النارية، وأوقف الآخران سيارة أجرة.

8

انتظرته عبثاً في اليوم التالي والذي بعده وكلّ الأيام التالية. لا أخبار عنه. الحارس الليلي، الذي أصبحت تتبادل معه أطراف الحديث (لم تكن خصية ماتريكس اليمنى قد نزلت، وهذه مأساة...)، لم يفدها بالمزيد من الأخبار. ومع ذلك، كانت تعلم أنّه في الأنحاء. حينما كانت تضع شريحة لحمٍ مزيّنة خلف

Twitter: @ketab_n

دوارق المنظّفات والخبز والجبن والخضار بمرق حريفٍ والموز ومعجنات فيدو، كان هو يختفي بانتظام. لا وجود أبداً لشعرة كلب أو لفتات أو أدنى رائحة... بالنسبة لبائع خردة، كانت تجد ذلك منظماً بشكلٍ جيّد، إلى درجة أنّ شكّاً قد راودها بشأن متلقي مكرماتها... هذا يحدث، لقد كان الأعوه الآخر الذي يغذّي عاهته كوحيد الخصية... جسّت الأرض قليلاً، ولكن كلا، لم يكن ماتريكس يأكل سوى كُبيبات لحم مطعّمة بفيتامينات ب 12 مع ملعقة من زيت الخروع لشعره. أمّا العلب، فكانت عبارة عن قذارة. لماذا نعطي لكلبنا شيئاً لا نريده لأنفسنا؟

حسناً، نعم، لماذا؟

- وكبيبات اللحم، أهي كذلك أيضاً؟ ألا تأكل منها...

- بالتأكيد بلى، آكل منها!

- أَصحيحٌ...

- أقسم لك!

والأسوأ هو أنّها صدّقته. ليس لديه سوى خصية واحدة وليس لديه سوى مخيخ واحد ويقضم كبيبات اللحم بالدجاج أمام فيلمٍ إباحي في سقوطهما الحامي وسط العتمة، هذا يسعه القيام به... ممتاز.

مرّت أيامٌ عديدة على هذا النحو. أحياناً، لم يكن يأتي. كان الخبز يجفّ وكانت السجائر تظلّ على حالها. أحياناً، كان يمرّ ولا يأخذ شيئاً سوى طعام كلبه... الكثير من المقويات أو ما لا يكفي لإقامة وليمة فاخرة... أحياناً، كانت هي مَنْ لا تصغي... لم تعد كاميل تهتم بذلك. كانت تلقي نظرة سريعة على عمق الحجرة لتعرف إن كان عليها إفراغ مزوده وكفى.

Twitter: @ketab_n

كانت لديها اهتمامات أخرى...

في الشقّة، ما من مشكلة، كانت الأمور تسير، بميثاق أو من دون ميثاق، بحضور ميريام أو من دون حضورها، بقلقٍ قهري أو من دونه، كان كلٌّ يصطحب رفيق دربه من دون إزعاج جاره. كانوا يتبادلون التحية كلّ صباح ويتعاطون المخدرات بتهذيب عند العودة مساءً. قنّب هندي، أعشاب، خمر، مقبلات، شمبانيا ماري أنطوانيت، بيرة هاينيكن، كان لكلٍّ ما يهواه وكانت أغاني مارفان للجميع.

في النهار، كانت ترسم، وحينما يكون فيليبير موجوداً، كان يقرأ لها ويُعلّق على ألبومات صور العائلة:

- هذا والد جدّي... والرجل الشاب بجانبه هو شقيقه، العم إيلي، وأمامهما، كلاب - الثعالب (شيان لو)... كانا ينظّمان سباقات الكلاب وهذا هو السيد الخوري، ترينه هنا جالساً أمام خطّ النهاية، وهو يُعلن الفائز في السباق.

- لم يكن ذلك يزعجهما إذاً...

- كانا محقّين تماماً... فبعد عامين من ذلك غادرا إلى جبهة آردين وبعد ستّة أشهر ماتا...

كلا، في العمل، لم تعد الأمور تسير سيراً حسناً... في البداية، اقترب منها رجل الطابق الخامس وهو يسألها أين وضعت ريشة الغبار. كان في غاية السرور بخدعته المسلية ولحق بها عبر الطابق الخامس كلّه مردداً: «أنا متأكّدٌ أنّكِ أنتِ من أخذتها! أنا متأكّدٌ أنّكِ أنتِ من أخذتها!». دعني أيّها الأبله البدين، أنت تزعجني.

Twitter: @ketab_n

وانتهت إلى القول:

- كلا، إنّها زميلتي.

ودلّته إلى جوزي الرائعة التي كانت تعاين دوالي ساقيها.

انتهت اللعبة.

ثانياً، لم يعد بوسعها تحمّل السيّدة بريدار بالضبط...

كانت حمقاء كقدميها، وكانت لديها سلطة بسيطة أساءت استخدامها (كانت رئيسة ورشة في شركة توكلين، ولم تكن هذه البنتاغون في نهاية المطاف!) كانت تنضح بالعرق ويتناثر الرذاذ من فمها وهي تتكلّم وكانت دائماً تنكش أسنانها بأغطية أقلام البيك وتطلق نكتة عنصرية في كلّ طابق مخاصمةً كاميل لكونها البيضاء الأخرى الوحيدة في الفريق.

كاميل التي تمالكت نفسها غالباً لئلا تضربها بممسحتها على فمها، والتي رجتها مراراً أن تحتفظ بترهاتها لنفسها لأنّها بدأت تتعب الجميع.

- كلا... ولكن كيف تحدّثني هذه؟ ماذا تفعلين هنا؟ ماذا تفعلين معنا؟ أتتجسسين علينا أم ماذا؟ هذا سؤالٌ طرحته على نفسي مراراً... ربّما تكونين مرسلة من قبل المعلمين لتتجسّسي علينا أو شيء من هذا القبيل... رأيتُ ذلك على ورقة راتبك ومن خلال مكان إقامتك وطريقة كلامكِ وكلّ هذه الأمور... أنتِ لستِ منّا! تفوح منكِ رائحة البرجوازية، تفوح منك رائحة الشرطي. أيتها السجّانة، انصرفي!

لم يصدر أيّ ردّ فعل من الفتيات الأخريات. دفعت كاميل عربتها وابتعدت.

Twitter: @ketab_n

استدارت:

- ما قالته لي، أنا لا أبالي به لأنني أحتقرها... ولكن أنتنّ، أنتنّ فعلاً سيئات.... لقد تكلّمت دفاعاً عنكنّ، لتكفّ عن إذلالكنّ ولا أنتظر منكن شكري، فهذا أيضاً لا أبالي به، ولكن على الأقل يمكنكنّ أن تأتين لتنظيف المراحيض معي... لأنني أنا البرجوازية أتكفّل بتنظيفها دائماً، سوف ألفت انتباهكنّ...

أصدرت مامادو صوتاً غريباً بفمها وبصقت بصقة كبيرة على قدمي جوزي في حركة وحشية فعلاً. ثمّ أمسكت بسطلها ولوحّت به أمامها ووجّهت ضربة إلى ردفي كاميل:

- كيف لفتاة لديها هذه المؤخرة الصغيرة جداً أن تملك فماً كبيراً جداً؟ أنتِ تدهشينني دائماً...

دمدمت الأخريات خبط عشواء واختفين بفتور. بالنسبة إلى سامية، كان الأمر لا يعنيها. بالنسبة لكارين، كان الأمر أقسى... كانت تحبّها كثيراً، هي التي اسمها الحقيقي رشيدة والتي لم تكن تحبّ اسمها وكانت تتملّق امرأة فاشية. كانت هذه الصغيرة لتتمادى كثيراً...

بدءاً من ذاك اليوم، تغيّرت قواعد اللعبة. ظلّ العمل قذراً وأصبح الجوّ مقزّزاً. وكان كلّ ذلك كثيراً...

خسرت كاميل علاقاتها في العمل ولكنّها ربّما كسبت صديقة... كانت مامادو تنتظرها أمام مدخل المترو وتشكّل معها فريقاً. كانت تمسك لها مقبض الباب في حين كانت تعمل بدل اثنتين. كلا، لم يكنْ ذلك بسوء نية، ولكنها فعلاً وصدقاً كانت ضخمة جداً مما يجعلها غير فاعلة. ما كانت تقوم به في ربع

Twitter: @ketab_n

ساعة، كانت كاميل تنجزه في دقيقتين، وفضلاً على ذلك، كان كلّ جسمها يؤلمها. من دون تظاهرٍ أو خداع. لم يعد هيكلها المسكين يستطيع تحمّل كلّ هذا: فخذان عملاقان ونهدان ضخمان وقلبٌ أكثر ضخامة. كان كلّ ذلك يعيقها وهذا أمرٌ طبيعي.

- يجب أن تنحفي يا مامادو...

وكانت في كلّ مرّة تردّ عليها:

- صحيح... وأنتِ؟ متى ستأكلين يخنة الدجاج في البيت؟

كانت كاميل قد عرضت عليها صفقة: أنا أعمل وأنتِ تروين لي حكاياتك.

لم تشكّ قط أنّ هذه الجملة القصيرة ستذهب بها بعيداً... الطفولة في السنغال، البحر، الغبار، العنزات الصغيرات، الطيور، البؤس، أخوتها وأخواتها التسعة، والجدّ العجوز الأبيض الذي كان يُخرِج عينه الزجاج لكي يُضحكهم، الوصول إلى فرنسا العام 1972 مع شقيقها ليوبولد، الحاويات، زواجها المتأخّر، زوجها الظريف، صبيانها، شقيقة زوجها التي كانت تقضي فترة ما بعد الظهيرة في محلّات **تاتي** للألبسة غير مكترثة بكلّ العمل المنزلي، والأخرى التي كانت لا تزال تتبرّز في سروالها ولكن على الدرج هذه المرّة، العيد، والإزعاجات، وابنة عمّها التي كانت تُدعى جيرمين والتي شنقت نفسها في السنة الماضية تاركة توأمين رائعين، فترات ما بعد ظهيرة الآحاد في مقصورة الهاتف، التنانير الهولندية، ووصفات الطبخ ومليون صورة أخرى لم تملّها كاميل أبداً. لم تعد بحاجة لقراءة صحيفة

Twitter: @ketab_n

كورييه انترناسيونال، سينغورأو طبعة سين-سان-دوني من صحيفة **لوباريزيان**، كان يكفي أن تدعك بقوة أكثر وأن تفتح أذنيها جيداً. وحينما كانت جوزي تمرّ - وكان ذلك نادراً - كانت مامادو تنحني وتضرب ضربة خفيفة بالخرقة على الأرض وتنتظر إلى أن تنتشر الرائحة لكي تنهض.

وبوح بعد بوح، تجرأت كاميل على طرح أسئلة أكثر تكتماً. روت لها زميلتها أموراً فظيعة، أو على الأقلّ بدت لها فظيعة، بلا مبالاةٍ مثيرة.

- ولكن كيف تتحمّلين؟ كيف تستطيعين؟ هذا جحيم...

- أأأنتِ تتحدثين عمّا لا تعرفينه. الجحيم أسوأ من هذا بكثير، هيا... الجحيم هو ألا يعود بوسعكِ رؤية من تحبين... كلّ ما تبقّى لا أهمية له... قولي، ألا تريدين أن أذهب وأجلب لكِ خرِقاً نظيفة؟

- يمكنك بالتأكيد أن تقومي بعملٍ أقرب إلى بيتكِ... لا ينبغي أن يبقى أولادكِ بمفردهم في المساء، لا ندري أبداً ما قد يحدث...

- شقيقة زوجي معهم.

- ولكنكِ أخبرتني بأنّكِ لا تستطيعين الاعتماد عليها...

- أحياناً بلى...

قالت كاميل وهي تنهض:

- توكلين عبارة عن شركة ضخمة، أنا واثقة من أنّكِ ستستطيعين إيجاد ورشات أقرب إلى بيتك... هل تريدين أن أساعدكِ في ذلكْ؟ أن أطلب لكِ ذلك؟ أن أكتب إلى إدارة الموظفين؟

Twitter: @ketab_n

- كلا. لا تفعلي شيئاً، يا سيئة الحظ! السيدة جوزي، مع أنها كذلك، ولكنها تتغاضى عن الكثير من الأمور، أنتِ تعلمين... ثرثارة وضخمة مثلي، أنا محظوظة بإيجاد عمل... هل تتذكّرين الزيارة الطبية عند العودة؟ الغبي الآخر، الطبيب الصغير... أراد أن يماحكني لأنّ قلبي كان غائصاً جداً في الشحوم أو لا أدري ماذا... وهي مَنْ دبّرت أمري، إذاً يجب ألاّ تفعلي شيئاً، قلتُ لكِ...

- مهلاً... هل نتحدث هنا عن المرأة نفسها؟ عن المخبولة التي لا تزال تعاملكِ كأنّكِ آخر القاذورات؟

قالت مامادو ضاحكة:

- نعم، هي بعينها! لا أعرف منهنّ إلّا واحدة. وقولي لحسن الحظّ!

- ولكنكِ بصقتِ عليها!

سألت غاضبة:

- أين رأيتِ ذلك؟ أنا لم أبصق عليها! لن أسمح لنفسي بذلك...

أفرغت كاميل فرّامة الورق بصمت. كانت الحياة مع ذلك معرضاً عجيباً للألوان رغم كلّ شيء...

- على أيّ حال، هذا لطفٌ منكِ. أنتِ امرأة لطيفة... يجب أن تأتي معي إلى البيت ذات مساء لكي يجلب لكِ أخي حياةً جميلة ملؤها الحبّ والكثير من الأولاد.

- بفف...

- ماذا «بفف»؟ ألا تريدين أطفالاً؟

Twitter: @ketab_n

- كلا.

- لا تقولي هذا، يا كاميل. سوف تجلبين سوء القَدَر...

- لقد حلّ سوء القَدر وانتهى...

نظرت إليها بخبث:

- يجب أن تخجلي من الكلام بهذه الطريقة... لديك عمل وبيت وساعدان وساقان ووطن وعشيق...

- عفواً؟

قالت مهللة:

- آه! آه! أتعتقدين بأنني لم أشاهدكِ مع نور الدين في الأسفل؟ تلاطفين دوماً كلبه الضخم... أتعتقدين بأنّ عينيّ مغمورتان أيضاً بالشحوم؟

وبدأت كاميل تحمرّ خجلاً.

لإسعاده.

نور الدين الذي كان محتداً ذاك المساء ومتوتراً أكثر من العادة في بزّته كقاضٍ. نور الدين الذي كان يحرّض كلبه ويعتبر نفسه المحقّق هاري...

سألتها مامادو:

- حسناً ماذا حدث، لماذا يدمدم عجلكِ هكذا؟

- لا أعرف ما هذا، ولكنْ، هناك شيءٌ غير طبيعي... لا تبقين هناك، يا بنات، ابقين هنا...

آه! كان سعيداً هناك... لم يعد ينقصه سوى نظارة رايبان وبندقية كلاشنيكوف...

Twitter: @ketab_n

- لا تبقين هناك، أقول لكنّ!

أجابتها:

- هيه أنتِ، اهدئي، ولا تضعي نفسكِ في هكذا حالات...

- دعيني أقوم بعملي، أيتها البدينة! لم آتِ لكي أعلّمك كيف تمسكين بمكنستك!

هوم... الطبع يغلب التطبّع...

تظاهرت كاميل بأنّها قد ركبت المترو معها ثمّ صعدت من جديد السلالم سالكةً المخرج الآخر. قامت بجولتين حول مجموعة البيوت وانتهت بالعثور عليهم في زحمة متجرٍ للأحذية. كان جالساً مديراً ظهره للواجهة وكلبه نائماً على ساقيه.

سألته مرحةً:

- كيف حالك؟

رفع عينيه واستغرق لحظة قبل أن يتعرّف عليها:

- أهذه أنتِ؟

- نعم.

- والمؤن أيضاً؟

- نعم.

- شكراً...

-...

- هل الأبله الآخر مسلّح؟

- لا أدري شيئاً عن ذلك...

Twitter: @ketab_n

- حسناً... حسناً... مرحباً...

- يمكنني أن أصعدك إلى مكانٍ لتنام فيه إن شئت...

- منزلٌ مصادر؟

- نوعاً من...

- مَنْ في داخله؟

- لا أحد...

- أهو بعيد؟

- بالقرب من برج إيفل...

- كلا.

- كما تشاء...

لم تكن قد تقدّمت ثلاث خطوات حينما سمعت صفّارة سيارة الشرطة التي وقفت أمام نور الدين المتحمس. أمسك بها على الجادة:

- ماذا تطلبين في المقابل؟

- لا شيء.

لم يأخذا المترو. سارا حتى موقف نوكتامبوس.

- تقدّم إلى الأمام واترك لي كلبك... لن يدعوك تصعده معك... ما اسمه؟

- باربيس...

- هنا وجدته...

- آه، نعم، مثل بادنغتون...

أخذته بين ذراعيها وابتسمت ابتسامة واسعة للسائق الذي لم يبدِ أيّ اهتمامٍ بالأمر.

Twitter: @ketab_n

التقيا في أسفل العمارة:

- ما جنس هذا الكلب؟

- هل نحن مضطران للنقاش أيضاً؟

- كلا.

- لقد وضعتُ قفلاً ولكن هذه مسألة رمزية... تفضّل، خذ المفتاح ولكن لا تضيّعه، فليس لدي سواه...

دفعت الباب وأضافت بهدوء:

- لا تزال هناك مؤن في العلب ... رزّ، رُبّ الطماطم، وحلويات مجففة، أعتقد... هناك ستجد أغطية... هنا السخان الكهربائي... لا تضعه على درجة قوية وإلا سيتعطّل... هناك مرحاضٌ تركي على الدرج. في الحالة الطبيعية ستستخدمه بمفردك... أقول في الحالة الطبيعية، لأنني سبق وسمعت صخباً في الجهة المقابلة، ولكنني لم أر قط أحداً... أوه... وماذا أيضاً؟ آه أجل. لقد عشتُ سابقاً مع مدمنٍ على المخدرات وبالتالي أعرف كيف ستسير الأمور بالضبط. أعرف أنّ ذات يوم، ربّما غداً، ستتوارى تماماً وتفرغ كلّ ما هو موجود هنا. أعرف أنّك ستحاول بيع كلّ شيء بثمنٍ زهيد لكي تستمتع بأوقاتٍ سعيدة. السخّان، اللوحات، الحشايا، علبة السكّر، المناشف، كلّ شيء... حسناً... أنا أعرف ذلك. الشيء الوحيد الذي أطلبه منك هو أن تكتم السرّ... هذا المكان ليس بيتي في الحقيقة... ولذلك أرجوك ألا تضعني في موقفٍ محرج... إن بقيت هنا حتى الغد، سوف أذهب لرؤية الحارسة لكي تجنّبك الخدع. اتفقنا.

سألها وهو يشير إلى الرسم الخدّاع:

- مَنْ الذي رسم هذا؟

Twitter: @ketab_n

نافذة واسعة مفتوحة على نهر السين مع نورسٍ منحنٍ على الشرفة...

- أنا...

- هل عشتِ هناك؟

- نعم.

نظر باربيس في عينيها بارتياب ثمّ تدحرج ككرة على الحشيّة.

- سأنصرف...

- هيه أنتِ؟

- نعم.

- لماذا؟

- لأنّه حصل معي الأمر نفسه بالضبط... كنتُ في الخارج وقادني أحدهم إلى هنا...

- سوف لن أمكث هنا طويلاً...

- لا أبالي. لا تقل شيئاً. أنتم لا تقولون الحقيقة مهما يكن من أمر...

- أنا ملاحقٌ في مارموتان...

- هذا هو... هيا... احلم أحلاماً جميلة...

9

بعد ثلاثة أيام، رفعت السيّدة بيريرا ستائرها المهيبة وسألتها في البهو:

Twitter: @ketab_n

- قولي، يا آنستي. . .

سحقاً، لم ينسحب الرجل. انزعجي. . لقد أعطوه خمسين يورو رغم كلّ شيء. . . .

- مرحباً.

- نعم مرحباً، هاتِ ما عندكِ. . .

عبست:

- هل ذاك الخنّوص (ولد الخنزير) صديقك؟

- عفواً؟

- ذاك الدرّاج؟

قالت وقد ارتاحت:

- أوه. . . نعم. هل من مشكلة؟

- ليست مشكلة واحدة! خمس مشاكل! بدأ هذا الصبي يغازلني! آه نعم! بدأ يعجبني! تعالي بالأحرى وشاهدي!

تبعتها عبر الباحة:

- ماذا هنالك؟

- أنا . . . أنا لا أرى . . .

- بقع الزيت . . .

في الواقع، بمساعدة مكبّرٍ مناسبٍ، كان يمكن بكل وضوح تمييز خمس نقاط سود على البلاط . . .

- الآلة جميلة ولكنها توسّخ، وبالتالي أخبريه نيابة عني بأنّ الصحف لا تُنشر للكلاب، مفهوم؟

بعد تسوية هذه المشكلة، هدأت. تعليقٌ موجز حول

Twitter: @ketab_n

الطقس: «هذا ممتاز. هذا يخلّصنا من الطفيليات». وحول لمعان القبضات البرونزية «هذا بالتأكيد لاستعادتها... هل ينبغي الانصراف إذاً؟». حول عجلات عربات المشروبات المليئة ببراز الكلاب. حول سيّدة الطابق الخامس التي فقدت للتوّ زوجها، يا للمسكينة. وكانت هادئة تماماً.

- مدام بيريرا...

- أنا هي.

- لا أدري إن كنتِ قد رأيته، ولكنني أستضيف صديقاً في الطابق السابع...

- أوه! أنا لا أتدخّل في شؤونكم! هذا يذهب، ذاك يأتي... أنا لا أقول بأنني أفهم كلّ شيء، ولكن في النهاية...

- أكلّمك عن ذاك الذي معه كلب...

- فانسان؟

- أوه...

- أجل، فانسان! المصاب بالسيدا مع كلبه البلجيكي الصغير؟

ارتبكت كاميل.

- جاء البارحة لرؤيتي لأنّ كلبي بيكو كان يزعق كمسعورٍ خلف الباب، فعرّفنا كلبينا على بعضهما.... الأمر بسيط... أنتِ تعلمين كيف يسير الأمر... شمّا مؤخرة بعضهما لمرّة وهدآ... حسناً لماذا تنظرين إليّ هكذا؟

- لماذا قلتِ إنّه مصابٌ بالسيدا؟

Twitter: @ketab_n

- يا يسوع الحبيب، لأنّه هو أخبرني بذلك! شربنا معاً كأساً من خمر بورتو... أتريدين كأساً منه؟

- لا... لا... أنا... أنا أشكركِ...

- حسناً، نعم، هذا محزن، ولكني أخبرته، هذا المرض يُعالَج الآن... لقد وجدوا الأدوية المناسبة...

كانت مرتبكة جداً إلى درجة أنّها نسيت أن تستعمل المصعد. ما هذه الورطة؟ لماذا لم تكن المماسح مع المماسح والمناشف مع المناشف؟

إلى أين نذهب؟

كانت الحياة أقلّ تعقيداً حينما لم يكن لديها سوى هذه الحصى لتكدّسها... هيا بنا، لا تقولي هذا، يا غبية...

كلا، أنتِ محقة. لن أقول هذا.

- ماذا يحدث؟

ردّ فرانك غاضباً:

- بفف... انظري إلى بلوزتي... هذا بسبب تلك الآلة اللعينة! اللعنة، كنتُ أحبها من قبل... انظري! ولكن انظري! لقد أصبحت قصيرةً الآن!

- مهلاً، سأقصّ كمّيه وستعطيه للبوّابة لتعطيه لابنها...

- حسناً، قهقهي. إنّه من ماركة رالف لوران وهو جديد تماماً...

- حسناً، لهذا بالضبط، ستكون سعيدة! وعلاوة على ذلك، سوف تعشقك...

Twitter: @ketab_n

- حقّاً؟

- لقد قالت لي ذلك للتوّ: «آه! إن لصديقكِ هيئة متبخترة على دراجته الجميلة!».

- أهذا صحيح؟

- أقسم لك.

- حسناً، حسناً، هيّا بنا... سأنزله لها حينما نخرج...

عضّت كاميل باطني خديها وفصّلت فروة أنيقة لبيكو.

- تعلم أنّك ستحظى بالحقّ في القبلة، يا محظوظ...

- مهلاً، أنا خائف...

- وفيلو؟

- أتعني سيرانو؟ في درس المسرح...

- أهذا صحيح؟

- ربّما شاهدته وهو يغادر... متنكراً في شيءٍ لا أعرف ما هو... بقبّعة مستديرة كبيرة وكلّ...

ضحكا:

- أنا أعشقه...

- وأنا أيضاً.

راحت تعدّ لنفسها فنجاناً من الشاي.

- أتريد فنجاناً؟

- كلا، شكراً، علي أن أنصرف. أخبريني...

- ماذا؟

- ألا ترغبين بالذهاب في رحلة؟

Twitter: @ketab_n

- عفواً؟

- منذ متى لم تغادري باريس؟

- منذ دهر. . .

- يوم الأحد سنقتل الخنازير، ألا تريدين المجيء؟ أنا واثقٌ بأنّ هذا سيثير اهتمامك. . . أقول هذا لأنّ له صلة بالرسم، حسناً؟

- أين سيتمّ ذلك؟

- عند أصدقاء، في بلدة **شير**. . .

- لا أدري. . .

- أجل! تعالي. . . يجب أن يرى المرء ذلك مرّة واحدة في حياته. . . ذات يوم، سينقرض هذا الطقس، أنتِ تعلمين. . .

- سوف أفكّر في الأمر.

- اتّفقنا، فكّري. التفكير خصوصيتكِ. أين بلوزتي؟

ردّت كاميل وهي تشير إلى كيسٍ رائع لونه أخضر مصفرّ:

- هناك.

- سحقاً. . . إنّه فضلاً عن ذلك من ماركة رالف لوران. . . هذا يقتلني، أقسم لكِ. . .

- هيّا. . . سنكسب صديقين في الحياة. . .

- اللعنة لم يعد له مصلحة في التبوّل على دراجتي، ذلك الآخر!

أمسكت له الباب وقهقهت:

- لا تقلق، سينجح الأمر. أجل، أجل أنا أؤكّد لك ذلك.

ثمّ أضافت بكلمات غير واضحة وهي تردّد ما قالته المرأة:

Twitter: @ketab_n

- إنّ لصديقكِ هيئة متبخترة على دراجته. . .

هرعت وأطفأت الغلاية وأخذت دفترها وجلست قرب المرآة. وأخيراً بدأت تضحك. ضحكت كمجنونة. مراهقة حقيقية. تخيّلت المشهد: الغبي الآخر، السعيد دائماً بها، ينقر الآن بلا مبالاة على زجاج نافذة الكوخ بطرف لبادته وخصيتاه على طبقٍ من فضّة. . . آه! كم كان ذلك جيداً للضحك! كم كان ذلك جيداً. . . لم تكن قد سرّحت شعرها، رسمت خصلات شعرها، وغمّازتي خديها، وحماقتها وكتبت: **كاميل، كانون الثاني (يناير) 2004**، استحمّت وقرّرت أن تذهب وتتنزّه معه.

كانت مدينة له بذلك. . .

رسالة على هاتفها النقّال. كانت والدتها. . . أوه، كلا، ليس اليوم. . . لمسح رسالتك، اضغط على زرّ النجمة.

إذاً. هوب. النجمة.

أمضت ما تبقّى من النهار مع الموسيقى، مع كنوزها وعلبة ألوانها المائية. دخّنت وأكلت ولعقت شعرها الشبيه بوبر السمّور وضحكت لوحدها وعبست حين حل موعد العمل.

لقد سبق ومهّدتِ الأرض جيّداً، فكّرت وهي تهرول حتى محطة المترو، ولكن لا يزال هناك عمل، إيه؟ ومع ذلك سوف لن تتأخّري هناك؟

سأفعل ما بوسعي، سأفعل ما بوسعي. . .

هيا، أنتِ محلّ ثقة.

كلا، كلا، لا تثقوا بي، هذا يرهقني. . .

ههه، هيّا، . . . أسرعي. لقد تأخّرتِ كثيراً. . .

Twitter: @ketab_n

10

كان فيليبير حزيناً. كان يتابع فرانك عبر الشقّة بأكملها:

- هذا غير معقول. أنت تغادر في وقتٍ متأخّرٍ جداً... بعد ساعة سيحلّ الليل... سيصبح الجوّ صقيعياً... هذا غير معقول... غادر غد... غداً صباحاً...

- غداً صباحاً، سنقتل الخنزير.

- ولكن أَ... أيّ فكرة أيضاً! يا كا... كاميل.

ثمّ أردف وهو يلوي يديه:

- ابـ... ابقي معي، سأصطحبكِ إلى قصـ... قصر آل تي....

دمدم فرانك وهو يدسّ فرشاة أسنانه مع زوجٍ من الجوارب:

- لا بأس، ومع ذلك هذه ليست نهاية العالم... سنصل خلال ساعة...

- أوه، لا... لا تقل... هـ... هذا... س... ستقود كـ... كمجنون...

- كلا...

- بلى، أنا... أنا أعـ... أعرفك...

- فيلو، كفّ عن هذا! سوف لن أسقطها في الهاوية... هل ستأتين، يا آنسة؟

- أوه... أنا... أنا...

قال منزعجاً:

- أنتِ ماذا؟

Twitter: @ketab_n

- ليس لديّ سوى... سواكما في الدنيا...

ساد الصمت.

- أو لا، لا... لا أصدّق ذلك... الكمنجات الآن...

وقفت كاميل على أطراف أصابعها لتقبّله:

- أنا أيضاً، ليس لديّ سواكما في الدنيا... لا تقلق...

تنهّد فرانك:

- ولكن مَنْ الذي أعدّ لي فريقاً من هكذا معتوهين! إننا نعوم وسط ميلودراما! تباً، لن نذهب إلى الحرب! سنفترق لثمانٍ وأربعين ساعة فقط!

قالت له كاميل وهي تدلف إلى المصعد:

- سوف أجلب لك قطعة بفتيك شهية.

انغلقت الأبواب.

- هيه أنتِ؟

- ماذا؟

- لا بفتيك في لحم الخنزير...

- حقاً؟

- طبعاً لا.

- حسناً ماذا يوجد فيه إذاً؟

رفع نظره إلى السماء.

11

لم يكونا قد وصلا إلى مدخل أورليانز حينما توقّف على الطريق الجانبي وأشار لها بأن تنزل:

Twitter: @ketab_n

- مهلاً، هناك شيءٌ ما لا يسير على ما يُرام...

- ماذا؟

- حينما أميل، عليكِ أن تميلي معي.

- أأنت متأكّد؟

- نعم، أنا متأكّد! سوف تدهورينا بهذه الحركات!

- لكن... كنتُ أعتقد بأنني بميلي في الاتجاه الآخر، أحافظُ على توازننا...

- تباً، يا كاميل... أنا لا أعطيك درساً في الرياضة ولكن هذه مسألة محور الثقل، أتفهمين؟ إذا ما ملنا معاً، تلتصق العجلات بشكلٍ أفضل...

- أأنت متأكّد؟

- بالتأكيد. ميلي معي. ثقي بي...

- فرانك؟

- ماذا أيضاً؟ أأنتِ خائفة؟ لقد حان موعد ركوب المترو ثانية، أتعرفين؟

- أشعر بالبرد.

- الآن؟

- نعم...

- حسناً... اتركي المقبضين والتصقي بي... التصقي بي قدر المستطاع ومرّري يديك من تحت بلوزتي...

- حسناً.

- هيه أنتِ؟

Twitter: @ketab_n

- ماذا؟

أضاف وهو ينزل واقي وجهه بضربة خاطفة:

- ألم تستفيدي من ذلك؟

بعد مائة متر أخرى، بردت كاميل من جديد، وقد تجمّدت خلال الطريق وعند الوصول إلى باحة المزرعة، كانت عاجزة عن سحب ذراعيها.

ساعدها على النزول وساندها حتى الباب.

- آه حسناً، ها أنت هنا، ماذا جلبت لنا؟

- فتاة بائسة.

- ادخلا إذاً، ادخلا، تفضّلا!... جانين! ها هو فرانك مع صديقته...

تأوّهت المرأة الطيّبة:

- أوه يا للصغيرة المسكينة... ماذا فعلت بها؟ أوه... ليس الأمر بسيطاً... إنّ الصبيّة مزرقّة تماماً... أفسحوا المجال أنتم الآخرين... جان-بيار! ضع لها مقعداً قرب المدفأة!

جثا فرانك أمامها:

- هيا، يجب أن تخلعي معطفكِ الآن...

لم يصدر عنها ردّ فعل.

- مهلاً، سأساعدكِ... أعطني قدميكِ...

نزع حذاءها من قدميها وأزواج جواربها الثلاثة.

- هنا... لا بأس... هيا... الأعلى الآن...

كانت مضطربة جداً بحيث تحمّل كلّ مشقّات الدنيا لكي يخرج ذراعيها من الكمّين... استرخي، يا صغيرتي الباردة...

Twitter: @ketab_n

صاح أحدهم من بين الجمع:

- يا ربّاه! أعطوها شيئاً ساخناً!

كانت مركز الجذب الجديد.

كيف يمكن إزالة الجليد عن فتاةٍ باريسية من دون تهشيمها...

قالت جانين:

- لديّ وجبة ساخنة جداً!

ساد ذعرٌ حول المدفأة. فتدخّل فرانك وقال وهو يرفع كلّ الأغطية:

- لا، لا، دعوني أتصرّف... يوجد حساءٌ هنا...

- هذه دجاجة الأمس...

- ممتاز. سأتكفّل بالأمر... قدّموا لها طبقاً من الحساء لتشربه في هذه الأثناء.

ما أن أنهت طبق الحساء حتى زال الشحوب عن خدّيها.

- هل أنتِ أفضل حالاً الآن؟

ردّت بالإيجاب بإشارة من رأسها.

- عن ماذا؟

- كنتُ أقول إنّ هذه هي المرّة الثانية التي تعدّ لي فيها أطيب حساءٍ في العالم...

- سوف أعدّ لكِ أطباقاً أخرى منها، هيّا... هل ستأتين للجلوس معنا إلى المائدة؟

- هل يمكنني البقاء لبعض الوقت الإضافي قرب المدفأة؟

Twitter: @ketab_n

- أجل! قال الآخرون، دعها إذاً، سنشبعها دخاناً كقطع الجونبون!

نهض فرانك على مضض...

- هل يمكنكِ تحريك أصابعكِ؟

- أوه... نعم...

- يجب أن ترسمي، إيه؟ أنا سأعدّ لكِ طعاماً شهيّاً، ولكن أنتِ، عليكِ أن ترسمي... يجب ألّا تتوقفي عن الرسم أبداً، مفهوم؟

- الآن؟

- كلا، ليس الآن، وإنّما دائماً...

أغمضت عينيها.

- اتّفقنا.

- حسناً... سأذهب. أعطني قدحكِ، سأملأه لكِ من جديد...

وذاب جليد كاميل تدريجياً. حينما انضمّت إليهم، كان خدّاها محمرَّين كالجمر.

حضرت نقاشهم من دون أن تدرك منه شيئاً ونظرت إلى وجوههم الرائعة وهي تبتسم كالملائكة.

- هيّا... آخر جرعة من الخمرة واذهبوا إلى الفراش! لأنّنا سنستيقظ في الصباح الباكر، إذ سيكون غاستون هنا في الساعة السابعة...

- منْ يكون غاستون؟

Twitter: @ketab_n

غمغم فرانك:

- إنّه الجزّار... سترين هذه الشخصية... إنّها مذهلة...

أضافت جانين:

- حسناً، الحمّام هنا مقابل الغرفة وقد وضعتُ لكم مناشف نظيفة على الطاولة... هل سيسير الأمر؟

أجاب فرانك:

- رائع، رائع... شكراً...

- لا تقل هذا يا عزيزي، نحن في غاية السعادة برؤيتك، أنت تعرف ذلك جيّداً... وماذا عن بوليت؟

غالبه النعاس.

قالت جانين وهي تضغط على ذراعه:

- هيّا، هيّا... لن نتحدّث في الأمر، سيُسوّى هذا الموضوع، هيّا...

- قد لا تتعرفين عليها، يا جانين...

- قلنا سوف لن نتحدّث في هذا الأمر... أنت الآن في عطلة...

حينما أغلقت الباب، قالت كاميل قلقة:

- هيه! ولكن ليس هناك سوى سريرٍ واحد...

- طبعاً ليس هناك سوى سرير واحد. نحن هنا في الريف وليس في فندق ايبيس!

سألت محتدّة:

- أقلتَ لهم بأننا معاً؟

Twitter: @ketab_n

- كلا! أخبرتهم فقط بأنني قادمٌ مع صاحبة، هذا كلّ شيء!

- حسناً لنرَ...

ردّ غاضباً:

- لنرَ ماذا؟

- صاحبة، يعني فتاة تضاجعها. أين سأنام إذاً؟

- سحقاً، أنتِ فعلاً كثيرة التشكّي، إيه؟

جلس على حافة السرير بينما كانت تُخرِج أغراضها.

- هذه هي المرّة الأولى...

- عفواً؟

- هذه أوّل مرّة أصطحب معي أحداً إلى هنا.

- هذا مؤكّد... إنّ قتل الخنزير ليس الأكثر سحراً لإثارة الحماسة...

- ليس لهذا صلة بالخنزير. ليس لهذا صلة بكِ. هذا...

- ماذا؟

استلقى فرانك على السرير وتوجّه إلى السقف:

- جانين وجان - بيار، كان لديهما ابن... فريدريك... شابٌ رائع... كان صديقي... كان صديقي الوحيد... درسنا معاً في المدرسة الفندقية وكنّا متعلقين ببعضنا تعلقاً شديداً... المهم، وباختصار... مات قبل عشرة أعوام... في حادث سيارة... ولم يكن الخطأ خطأه... وإنّما خطأ شخصٍ أرعن لم يتوقّف عند الإشارة الضوئية... وبالتالي، ها أنا ذا، لستُ فريداً بالطبع، ولكن ثمّة شبه... آتي إلى هنا كلّ سنة... الخنزير مجرّد

Twitter: @ketab_n

ذريعة... ينظران إليّ ثمّ ماذا يريان؟ ذكريات، كلمات ووجه ابنهما الذي لم يكن قد بلغ العشرين... جانين تلمسني دائماً وتجسّني... لماذا تفعل ذلك برأيكِ؟ لأنني الدليل على أنّه لا يزال حاضراً... أنا واثقٌ من أنّها قد مدّت لنا أجمل شراشفها وأنّها تمسك الآن بسلّم الدرج، في الوقت الذي كان...

- أهذه غرفته؟

- كلا، غرفته مغلقة...

- لماذا اصطحبتني إذاً؟

- لقد أخبرتكِ. لكي ترسمي ومن ثمّ...

- ومن ثمّ ماذا؟

- لا أدري، كنتُ أرغب...

حمحم.

- أمّا بالنسبة للسرير، فلا مشكلة... سنضع الحشيّة على الأرض وسوف أنام على المفرش... هل سيسير الأمر، يا أميرة؟

- سيسير الأمر.

- هل شاهدتِ **شريك**؟ فيلم الصور المتحركة؟

- كلا، لماذا؟

- لأنّكِ تذكّريني بالأميرة فيونا... حسنة القوام طبعاً...

- طبعاً.

- هيّا... هلّا ساعدتني؟ هذه الحشايا تزن طناً...

أنّت:

Twitter: @ketab_n

- معك حقّ. ماذا يوجد بداخلها؟

- لقد ماتت أجيالٌ من الفلاحين تعباً.

- هذا مريح...

- ألن تنزع ثيابك؟

- بلى... أنا أرتدي البيجاما!

- أتُبقين بلوزتك وجوربيك؟

- نعم.

- هل أطفئ النور إذاً؟

- نعم.

سألت بعد برهةٍ:

- هل نمت؟

- كلا.

- بماذا تفكّر؟

- لا شيء.

- بشبابك؟

- ربّما... لا شيء، إذاً. ما قلته صحيحاً...

- أكان شبابك عدماً؟

- لا شيء يُذكر على أيّ حال...

- لماذا؟

- سحقاً... لو بدأنا حديثاً عن ذلك، سوف لن ننتهي منه حتى الصباح...

- فرانك؟

Twitter: @ketab_n

- نعم.

- ما بها جدّتك؟

- إنّها مسنّة... ووحيدة... وقد نامت طيلة حياتها على سريرٍ وثيرٍ كهذا بحشيّة من الصوف وفوق رأسها تمثال المسيح المصلوب وهي الآن تستسلم للموت في ما يشبه صندوق حديد رديئاً...

- أهي في المستشفى؟

- كلّا في دارٍ للرعاية...

- كاميل؟

- نعم.

- هل عيناك مفتوحتان؟

- نعم.

- أتشعرين كم الليل مظلمٌ هنا؟ كم القمر جميل؟ كم النجوم متلألئة؟ أتسمعين الدار؟ القساطل، الخشب، الخزائن، ساعة الحائط، النار في الأسفل، العصافير، الحيوانات، الريح... أتسمعين كلّ هذا؟

- نعم.

- حسناً، هي تسمع أكثر... إذاً. تطلّ على مرأبِ منارٍ دائماً، وهي تترصّد الصخب المعدني للعربات وأحاديث المشرفات على رعاية المسنين وجيرانها الذين يدمدمون وتلفزيوناتهم الهادرة طيلة الليل. وهذا... وهذا يفنيها...

- ولكن ألا يسع والداك العناية بها؟

Twitter: @ketab_n

- أوه كاميل...

- ماذا؟

- لا تقوديني في هذا المسار... نامي الآن.

- لستُ نعسانة.

- فرانك؟

- ماذا هناك أيضاً؟

- أين والداك؟

- لا أعرف شيئاً عن ذلك.

- كيف هذا، لا تعرف شيئاً عن الأمر؟

- لا شيء لديّ عن ذلك...

- ...

- والدي، لم أعرفه قط... رجلٌ مجهول اعتدى على والدتي خلف سيارة قديمة... ووالدتي، أوه...

- ماذا؟

- حسناً، والدتي، لم تكن سعيدة جداً بأن يعتدي عليها مغفّل لا تتذكّر حتى اسمه بهذه الطريقة... إذاً ...أوه...

- ماذا؟

- لا شيء...

- لا شيء ماذا؟

- تخلّت عنه.

- عن الرجل؟

- كلّا، عن الطفل الصغير.

Twitter: @ketab_n

- وجدّتك هي من ربّتك؟

- جدّتي وجدّي.

- وهو، هل مات؟

- نعم.

- ألم ترها قط ثانية؟

- كاميل، أقسم لكِ، كفّي. وإلا ستشعرين بأنّكِ مرغمة على أن تأخذيني بين ذراعيكِ بعد ذلك...

- بلى أخبرني. هيّا. هذه مخاطرة تطيب لي ...

- كاذبة.

- ألم ترها قط ثانية؟

- ...

- اعذرني. سأكفّ.

سمعته وهو يستدير:

- أنا... حتى سنّ العاشرة... لم تكن لدي قط أخبارٌ عنها... وأخيراً، نعم، كنتُ أتلقى منها دائماً هدية بمناسبة عيد ميلادي أو بمناسبة أعياد الميلاد، ولكنني علمت في ما بعد بأنّ ذلك كان مجرد حيلة. أيضاً خدعة لمواساتي... خدعة لطيفة، ولكنها خدعة رغم كلّ شيء... لم تكتب لنا قط ولكنني أعرف أنّ جدّتي كانت ترسل إليها صورتي المدرسية كلّ عام... وذات سنة، سوف تعرف... لا بدّ أنني كنتُ ظريفاً أكثر من العادة... أيكون، في ذلك اليوم، المعلّم قد مشّطني لمرّة ثانية؟ أو أنّ المصوّر قد أخرج مجسّم بلاستيك لميكي ماوس لكي أبتسم؟

Twitter: @ketab_n

على كلّ حال جعلها الصبيّ الصغير على الصورة تتحسّر وتعلن بأنها ستأتي لتأخذني معها... ماذا سأروي لكِ... أنا الذي كنتُ أصرخ لكي أبقى، جدّتي التي كانت تواسيني مردّدة بأنّ الأمر سيكون رائعاً وبأنني سأحظى أخيراً بعائلة حقيقية، و لم تستطع الامتناع عن العويل بصوتٍ أقوى من صوتي وهي تشدّني إلى ثدييها الضخمين... وجدّي الذي عجز عن الكلام... كلا، لن أروي لكِ... أنتِ ذكية بما يكفي لفهم كلّ هذا، إيه؟ ولكن صدّقيني، كان الموقف صعباً...

«وبعد التخلّف عن عدّة مواعيد أعطتها لنا، جاءت أخيراً. صعدتُ إلى سيارتها. عرّفتني على زوجها وابنها الآخر وسريري الجديد...

في البداية، أعجبني ذلك كثيراً، أبهجني أن أنام في سريرٍ منضّد، ثمّ في المساء، انتحبت. أخبرتها بأنني أريد العودة إلى بيتي. فقالت إن هنا بيتي وإنّ عليّ أن أسكت وإلا سأوقِظ الطفل. في تلك الليلة، وكلّ الليالي الأخرى، تبوّلتُ في سريري. وكان ذلك يغضبها. كانت تقول: أنا متأكّدة من أنّك تفعلها عمداً، ستبقى مبلّلاً، تبّاً لك. إنّها جدّتك، هي من أفسدت أخلاقك. وبعد ذلك أصبحتُ مجنوناً.

إلى ذلك الحين، كنتُ أعيش في الحقول، كنتُ أذهب إلى صيد السمك كلّ مساء بعد الدوام المدرسي، وفي الشتاء، كان جدّي يصطحبني إلى جمع الفطر وإلى الصيد وإلى المقهى... كنتُ دائماً خارج البيت، كنت دائماً أنتعل جزمتي، وكنتُ دائماً أرمي دراجتي الهوائية وسط الأدغال لكي أذهب وأتعلّم المهنة

Twitter: @ketab_n

مع الصيّادين المخالفين ومن ثمّ وجدتُ نفسي فجأةً في شقّة عفنة في ضاحية قذرة، حبيساً بين أربعة جدران، مع تلفازٍ وطفلٍ آخرٍ يحظى بكلّ الدلال... فجنّ جنوني... أصبحتُ... كلا... لا يهمّ... بعد ثلاثة أشهر، وضعتني في القطار وهي تردّد عليّ بأنني قد أفسدتُ كلّ شيء...

لقد أفسدتَ كلّ شيء، لقد أفسدتَ كلّ شيء... حينما صعدتُ إلى سيارة جدّي من طراز سيمكا، كانت كلماتها لا تزال تتردّد أصداءها في رأسي الصغير. والأسوأ من ذلك، هو أنّ...

- أنّ ماذا؟

- هو أنّها حطّمتني إلى ألف قطعة، تلك المغفّلة... وبعد ذلك لم يعد الوضع كما كان من قبل... لم أعد طفلاً، لم أعد أرغب في ملاطفاتهم... لأنّ أسوأ ما فعلته هو ليس مجيئها لتأخذني، وإنّما كلّ تلك الأهوال التي قالتها لي عن جدّتي قبل أن ترميني مرّة أخرى. كيف حشت رأسي بأكاذيبها... قالت إنّ أمّها هي من أرغمتها على تركي قبل أن تطردها من البيت. وأنّها فعلت كلّ ما بوسعها لكي تأخذني معها ولكنّهم هدّدوها بالبندقية وكلّ تلك الأكاذيب...

- أكانت هذه أكاذيب؟

- طبعاً... ولكنني لم أكن أعرف ذلك، آنذاك... لم أكن أفهم أيّ شيء، ثمّ أيكون قد أردتُ تصديقها؟ ربّما كان يناسبني التفكير بأننا قد فُصِلنا عن بعضنا قسراً وأن لو لم يخرج جدي سلاحه لكانت لي نفس الحياة التي يعيشها الجميع ولما نعتني أحد بابن العاهرة خلف الكنيسة... كانت والدتك العاهرة التي

Twitter: @ketab_n

يتحدّثون عنها وأنت لست سوى ابن زنا (bâtard). كلمات لم أكن حتى أفهمها... بالنسبة لي، كانت كلمة (bâtard) عبارة عن نوعٍ من الخبر... أقول لكِ بأنني كنتُ أبله حقيقياً...

- وبعد ذلك؟

- بعد ذلك، أصبحتُ مغفلاً قذراً... فعلتُ كلّ ما بوسعي لكي أنتقم... لكي أجعلهم يدفعون ثمن حرماني من أمٍّ لطيفة إلى هذه الدرجة...

ضحك هازئاً:

- لقد نجحت... لقد دخّنت سجائر جدّي من طراز غلواز وسرقت الأموال من صندوق المشتريات وقمتُ بأعمال مشينة في المدرسة فطُرِدتُ منها وأمضيتُ معظم أوقاتي على دراجة أو في الصالات الخلفية للمقاهي أخدع الصبايا وأتلاعب بهنّ... بأولئك القبيحات... ليست لدي فكرة عن ذلك. كنتُ القائد. كنتُ الأفضل. ملك الأقذار...

- وبعد ذلك؟

- وبعد ذلك حان وقت النوم. البقية في الحلقة القادمة...

- إذاً؟ ألا تريدين أن تأخذيني بين ذراعيكِ الآن؟

- أنا متردّدة... فأنت لم تُغتَصَب على أيّ حال...

انحنى نحوها:

- هذا أفضل. لأنني لا أريد ذراعيكِ. أقصد ليس هكذا... لم أعد أريد هذا... لقد لعبتُ طويلاً هذه اللعبة الصغيرة، ولكن ليس الآن... لم يعد هذا يسلّيني... هذا لا ينجح أبداً... اللعنة، ولكن كم غطاء لديكِ؟

Twitter: @ketab_n

- أوه... ثلاثة بالإضافة إلى اللحاف الريشي...

- هذا غير طبيعي، هذا... من غير الطبيعي أن تشعري إلى الآن بالبرد، أن تستغرقي ساعتين لكي تستعيدي حالتك الطبيعية بعد مشوارٍ على درّاجة نارية... يجب أن تصحّي، يا كاميل...

- ...

- أنتِ أيضاً... لا أشعر فعلاً بأنّ لديكِ ألبوماً جميلاً للصور مع عائلتكِ الملتفة من حولكِ، أليس كذلك؟

- كلا.

- هل ستحدّثينني عن ذلك ذات يوم؟

- ربّما...

- أتعرفين لن... لن أزعجك بهذا الأمر مرّة أخرى...

- بأيّ أمر؟

- كنتُ أحدّثك منذ قليل عن فْريْد قائلاً لكِ بأنّه كان صديقي الوحيد، ولكنني مخطئ. لديّ صديقٌ آخر... باسكال لوشانبي، أفضل صانع حلويات في العالم... احفظي جيداً اسمه، سوف ترين... هذا الشخص، هو إله. من فطيرة السابليه البسيطة إلى سان-أونوريه مروراً بالكيك والشوكولا والميلفوي والنوغا والحلويات الخفيفة وسواها يتحوّل كلّ ما يلمسه إلى مذاق حلويات لا يُنسى. حلويات لذيذة، جميلة المنظر، رقيقة، مدهشة، وفائقة الإتقان. التقيت في حياتي بالكثير من العمال الناجحين، ولكن هذا الشخص كان فريداً... كان الكمال بعينه. كان علاوة على ذلك رجلاً رائعاً... كان محبباً، يسوعاً، كان نبياً... إذاً قد يكون هذا الشخص بديناً ولكن البدانة إلى الآن

Twitter: @ketab_n

ليست مشكلة... لقد شاهدنا أشخاصاً آخرين بدينين... المشكلة هي أنّه كان يتحرّك بشكلٍ مريع... لم يكن بوسعكِ أن تقفي إلى جانبه للحظة، من دون أن تصابي ببقع متناثرة. حسناً، سأذكر لكِ التفاصيل، السخريات، ردود الأفعال، ألواح الصابون الموضوعة في خزانته، وكلّ هذه الأغراض... ذات يوم، كنّا معاً في نفس الغرفة في فندقٍ لأنني كنتُ أرافقه في مسابقة كمساعد له... أجريت المسابقة وقد فاز فيها بالطبع، ولكن، في نهاية النهار، لن أقول لكِ في أيّ حالةٍ كنتُ... لم يعد بوسعي حتى أن أتنفّس ونويتُ أن أمضي الليل في حانة بدل أن أقضي دقيقة أخرى معه... ولكن ما أدهشني هو أنّه استحمّ في الصباح، كنتُ أعرف ذلك: كنتُ أفهم. وأخيراً، عدنا إلى الفندق وأفرطتُ في الشراب لكي أتخدّر وانتهيتُ إلى الحديث معه عن ذلك... ألا زلتِ معي؟

- نعم، نعم، أصغي إليك...

- قلتُ له: تبّاً لك يا باسكال، تفوح منك رائحة العفونة. تفوح منك رائحة الموت، أيّها العجوز. ما هذه القذارة؟ ألا تغتسل أم ماذا؟ وهنا، جاء ذاك الدبدوب الضخم، ذاك الرجل الوحشي، ذاك العفريت الصرف بضحكته المجلجلة وجبل شحومه وأخذ يبكي ويبكي ويبكي... فاضت دموعه كينبوع... أمرٌ مريع... دموعٌ مدرارة لطفلٍ رضيع... لم يكن من الممكن تهدئة هذا القميء... سحقاً، كنتُ سيئاً... بعد برهة، تعرّى فجأةً، هكذا من دون إنذار... فاستدرت وأردت الذهاب إلى الحمّام وأمسك بذراعي. قال لي: «انظر إليّ، يا ليستاف، انظر إلى هذه القذارة...»، اللعنة، كدتُ... كدتُ أن أشيح ببصري!

Twitter: @ketab_n

- لماذا؟

- أوّلاً جسمه... كان مقرفاً. ولكن بشكلٍ خاص، وذلك ما أراد أن يريني إياه، كان... آه... والعياذ بالله، إنّه لا يزال يثير تقزّزي... كان هناك نوعٌ من البقع والقشور وأشياءٍ أخرى لم أعرفها بين ثنايا جلده... وكانت رائحة العفن تفوح منها، من ذاك النوع من الجرب المدمّى... اللعنة، أقسم لكِ، لقد أفرطتُ في الشراب طيلة الليل لكي أستعيد وضعي الطبيعي... فضلاً على ذلك، روى لي بأنّه يتألّم كثيراً حينما يغتسل ولكنه يفرك جسمه كالمجنون كي يتخلّص من تلك الرائحة الكريهة وأنّه يتعطّر وهو يكزّ على أسنانه لئلا يبكي ألماً... يا لها من ليلة، يا له من غمّ، حينما أفكّر بذلك...

- وبعد ذلك؟

- في اليوم التالي، جرجرته إلى المستشفى، إلى قسم الطوارئ... كان ذلك في ليون، أتذكّر جيداً... حتى الطبيب، نفر حينما رأى ذلك. نظّف جراحه، وصنع له الكثير من الأشياء، مراهم وعبوات مختلفة. وأعطاه تعليمات لكي ينحف. وفي النهاية قال له: «ولكن لماذا انتظرت طويلاً جداً؟». فلم يجب. وأنا ألححتُ عليه في السؤال على رصيف المحطّة: «صحيح، أيّها الداعر، لماذا انتظرت طويلاً جداً؟» «لأنني كنتُ أخجل كثيراً...»، أجاب مطأطأ الرأس. وهنا، أقسمت على أنّ هذه آخر مرّة.

- آخر مرّة ماذا؟

- آخر مرّة أزعج فيها الأشخاص البدينين... آخر مرّة

Twitter: @ketab_n

أحتقرهم، آخر مرّة. ... أقصد، تعرفين ماذا، أحكم عليهم من منظرهم الخارجي. .. إذاً، لنعد إليكِ. .. لا شماتة. .. الأمر نفسه بالنسبة للنحيفين. وحتى إن كنتُ أفكّر بهذا الأمر كثيراً، حتى وإن كنتُ على يقين بأنّ ببضعة كيلوغرامات إضافية ستكونين أقلّ برودة وأكثر جاذبية، سوف لن أتحدّث عن ذلك. وعد السكير.

- فرانك؟

- هيه! قلنا بأننا سننام الآن!

- هل ستساعدني؟

- في ماذا؟ في أن تكوني أقلّ بروداً وأكثر جاذبية؟

- نعم. . .

- لا قطعاً. لكي تدعي نفسكِ تُخطفين من قبل أوّل سنّور عابر. .. أأأ. . . . أنا أفضّلك مقعدة ومعنا. . . وأنا متأكّد أن فيلو سيكون متّفقاً معي على هذا. . .

ساد الصمت.

- قليلاً إذاً. .. ما أن أرى ثدييك يكبران، سأتوقّف.

- اتّفقنا.

- حسناً، ها أنا قد تحوّلت إلى ريكا زاراي، الآن. . . سحقاً قد تفعلين بي كلّ شيء. .. ماذا سنفعل؟ أولاً، لأنك لا تشتري اللوازم، ثانيةً لأنّكِ لا تشترين سوى التوافه. قطع الزروع، الحلويات الجافة، وحلوى الفلانبي، وكلّ هذا قد انتهى. لا أدري في أيّ ساعة تستيقظين في الصباح، ولكن بدءاً من الثلاثاء، تذكّري أنني أنا من سيطعمكِ، مفهوم؟ كلّ يوم، في

Twitter: @ketab_n

الثالثة حينما أعود سأجلب لكِ ملء طبقٍ.. لا تقلقي، أنا أعرف الفتيات، سوف لن أعطيكِ لحم بطّ محفوظ أو مقادم وكروش... سوف أعدّ لكِ طبقاً شهياً من الطعام خصّيصاً لكِ... سأعدّ لكِ سمكاً، ولحماً مشوياً، وخضاراً لذيذة، وكلّ ما تشتهيه نفسك... سأعدّ لكِ كميات صغيرة ولكنكِ ستكونين مرغمة على أن تأكلي كلّ شيء وإلا سأتوقّف. وفي المساء، سوف لن أكون موجوداً وبالتالي سوف لن أزعجكِ، ولكنني سأمنعكِ عن قضم أيّ شيء. سوف أستمر في إعداد قصعة كبيرة من الحساء في بداية الأسبوع لفيلو كما كنتُ أفعل دائماً وكفى. والهدف هو أن تدمني على ما أعدّه لكِ. أن تستيقظي كلّ صباح وتطلبي ما سيكون في القائمة. حسناً، أوه... لا أعدكِ بوجبة فاخرة في كلّ مرّة، ولكن الأمر سيكون جيداً، سوف ترين... وحينما تستردين صحّتكِ، أنا...

- أنت ماذا؟

- سوف آكلكِ!

- مثل الساحرة في حكاية هانسل وغريتل؟

- بالضبط. وسوف لن أحتاج إلى أن أقدّم لنفسي عظمة حينما أريد جسّ ذراعكِ لأنني لستُ حسير النظر! الآن، لم أعد أرغب في سماع صوتكِ... الساعة تقارب الثانية وأمامنا نهارٌ طويل غداً...

- في الواقع، أنت تتظاهر بمظاهر كهذه ولكنّك شخصٌ ظريف...

- اصمتي.

Twitter: @ketab_n

12

- وقوفاً، جاء الطعام!

وضع صينية الطعام عند طرف الحشيّة.

- أوه! الفطور...

- لا تتحمّسي. لستُ أنا من أعددته، إنّها جانين. هيّا، أسرعي، لقد تأخّرنا... تناولي على الأقلّ فطيرة، أكثري من الطعام بعض الشيء وإلا ستجوعين...

كانت بالكاد قد وضعت قدماً في الخارج، ولا تزال القهوة بالحليب على شفاهها، حينما قدّموا لها كأساً من النبيذ الأبيض.

- هيّا، أيّتها السيّدة الصغيرة! تشجّعي!

كانوا جميعاً حاضرين، الذين كانوا موجودين مساء أمس وكلّ أهل الضيعة الصغيرة، نحو خمسة عشر شخصاً. وجميعهم كانوا تماماً كما تخيّلناهم، بين شخصيات مسلسل آل ديشيان وكاتالوغ موقع كاميف الالكتروني. كان المسنّون يرتدون بلوزات والشباب يرتدون ألبسة رياضية. كانوا يضربون الأرض بأقدامهم ويشدّون على أقداحهم ويتساءلون ويمزحون ويصمتون فجأةً: فقد وصل السيّد غاستون مع سكّينته الكبيرة.

أكّد فرانك التعليقات:

- هذا هو الجزّار.

- كنتُ لأشكّ في ذلك...

- هل رأيتِ يديه؟

- مذهل...

Twitter: @ketab_n

- سيُقتَل خنزيران اليوم. إنّهما ليسا مغفّلين، لم يتم إطعامهما هذا الصباح، وبالتالي يعرفان بأنّهما سيذبحان... يشعران بذلك... حسناً، ها هو الأوّل... هل كرّاستكِ معكِ؟

- نعم، نعم...

- لم تستطع كاميل أن تمتنع عن الارتجاف. لم تجده ضخماً جداً...

جرّوه إلى الفناء، انهال عليه غاستون بهراوة، طرحوه على مصطبةٍ وربطوه بسرعة فائقة تاركين رأسه مدلّى. إلى ذلك الحين كان الأمر يسير بنجاح لأنّه كان خاملاً بعض الشيء، ولكن حينما غرز الجزّار نصل سكينته في وداجه، كان الأمر رهيباً. بدل أن يقتله، بدا وكأنّه قد أيقظه. انكبّ الجميع عليه، والدم المنبجس والجدّة التي وضعت قدراً ورفعت كمّيها لتحرّكه. من دون ملعقة، من دون أيّ شيء، باليد المجرّدة. ولكن هذا أيضاً تمّ بنجاح، أما ما لا يُطاق فكان سماع صوته... كيف ظلّ يزعق ويزعق باستمرار... كلّما كان ينزف أكثر كلّما كان يزعق ويزيد زعقاً، لم يكن زعيقه يشبه صرخة حيوان... كان أقرب إلى صراخ الإنسان... حشرجات، توسّلات... كانت كاميل تشدّ على مفكّرتها، والآخرون، الذين يحفظون كلّ هذا المشهد عن ظهر قلب، لم يكونوا أكثر افتخاراً... هيّا! قدحٌ آخر لكي تتشجّعي...

- بلا كلفة، شكراً.

- هل أنتِ بخير؟

- نعم.

Twitter: @ketab_n

- ألا ترسمين؟

- كلا.

استمعت كاميل، التي لم تكن أوّل قادمة، إلى صوت العقل ولم تدلي بأيّ تعليقٍ واهن. بالنسبة لها، كان الأسوأ هو القادم. بالنسبة لها، لم يكن الأسوأ هو الموت بذاته. كلا، كان ذلك الحياة بعد كلّ شيء، ولكن ما بدا لها أكثر قسوة هو حينما جُلِب الخنزير الثاني... سواء كان ذلك ادّعاءً منها أم لا، نفاقاً أم لا، يمكننا قول ما نريد، فهي لا تبالي بقولنا، فقد شقّ عليها فعلاً أن تتمالك انفعالها. لأنّ الخنزير الآخر الذي سمع كلّ شيء، كان يعرف ما عاناه صديقه ولم ينتظر أن يُطعَن لكي ينهق مثل حمار. أقصد... «مثل حمار» هذا تعبيرٌ ساذج، وإنّما مثل خنزيرٍ يُنحَر...

- سحقاً، كان بوسعهم أن يسدّوا أذنيه!

سأل فرانك مقهقهاً:

- بالبقدونس؟

وهنا، نعم، رسمت لئلا ترى المزيد. ركّزت على يدي غاستون لئلا تعود تسمع.

لم تكن مرتاحة. كانت ترتجف.

حينما توقّفت صفارة الإنذار، وضعت كرّاستها في جيبها واقتربت. قضي الأمر، انتهى الأمر، كانت فضولية ومدّت كأسها إلى القارورة.

أخذوا الخنزيرين إلى نفّاثة النار ففاحت رائحة الشواء. هنا أيضاً، عبارة ممتازة، نُزِع الوبر إن تجرأتُ على القول، ثمّ

Twitter: @ketab_n

كشطوهما بفرشاة غريبة: لوح خشب ثُبِّتت عليها كبسولات مقلوبة.

رسمتها كاميل.

بدأ الجزّار عمله في التقطيع وانتقلت هي إلى خلف المصطبة لئلا تفوّت أيّ حركة من حركاته.

كان فرانك مستمتعاً.

- ما هذا؟

- ماذا؟

- هذه الكرة الشفّافة واللزجة؟

- المثانة... ومن غير الطبيعي أن تكون ممتلئة إلى هذه الدرجة... إنّها تزعجه في عمله...

احتجّ الرجل الفنان:

- كلا! لا تزعجني... انظر، ها هي!

أضاف ذلك وهو يضرب ضربة بالسكين.

قرفصت لكي تراها. كانت منبهرة.

كان صبية مسلّحون بالصواني يتنقّلون بين الخنزير الذي كان لا يزال الدخان يتصاعد منه والمطبخ.

- كفّي عن الشرب.

- حاضر مدام ريكا.

- أنا سعيد. لقد أحسنتِ التصرّف.

- هل كنتَ خائفاً؟

- كنتُ فضولياً... حسناً، هذا ليس كلّ شيء ولكن لديّ عمل...

Twitter: @ketab_n

- إلى أين ستذهب؟

- سأجلب دراجتي... اذهبي إلى حيث الدفء، إن شئتِ...

شاهدت صفّاً من المدبّرات المرحات في المطبخ ومعهنّ ألواحهنّ الخشب وسكاكينهنّ.

صرخت جانين:

- تعالي من هنا! من فضلكِ يا لوسيان، إفسحي لها مكاناً قرب المقلاة... أيّتها السيدات، أقدّم لكنّ صديقة فرانك، أنتنّ تعرفن، إنّها الفتاة التي حدّثكنّ عنها منذ قليل. الفتاة التي أنعشناها البارحة مساءً... تعالي إذاً واجلسي معنا...

اختلطت رائحة القهوة مع رائحة الأحشاء الساخنة وسط الهرج والمرج الذي أحال المطبخ إلى قنّ دجاجٍ حقيقي.

وصل فرانك. آه! حسناً ها هو! ها هو الطاهي المحترف! وشرعن بالقهقهة من جديد. حينما رأته، مرتدياً بزّته البيضاء، ارتبكت جانين.

لدى مروره من خلفها للوصول إلى المواقد، ضغط على كتفها. تمخّطت في ممسحتها وأخذت تضحك مع الأخريات.

في تلك اللحظة الدقيقة من التاريخ، تساءلت كاميل إن لم تكن قد وقعت في حبّه... اللعنة. لم يكن هذا متوقّعاً... لا، لا، قالت وهي تمسك بلوح خشب. لا، لا، هذا لأنّه كان قد روى لها قصة حياته... ولكنها لن تقع في الفخّ مهما يكن...

سألت:

- هل ستعطونني عملاً؟

Twitter: @ketab_n

شرحوا لها كيف يُقطّع اللحم إلى قطع صغيرة جداً.

- ليعدّ منه ماذا؟

جاءت الأجوبة من كلّ حدبٍ وصوب:

- القديد! النقانق! السجق! فطائر محشوة! مفرومة الخنزير!

انحنت على جارتها وسألتها:

- وأنتِ، ماذا تفعلين بفرشاة أسنانك؟

- أغسل الأمعاء...

- وفرانك؟

- فرانك سيعدّ لنا الشواء... والنقانق وسيسلق السجق والقَرَم...

- ماذا يعني القَرَم؟

- الرأس، الذيل، الأذنان، المقادم..

أوه... هذا عمله كمتخصّص بالتغذية، نحن متّفقون على أنّ هذا لا يبدأ قبل يوم الثلاثاء، إيه؟

حينما صعد من القبو ومعه البطاطس والبصل ورآها تنظر بطرف عينها إلى جارتها لتعرف كيف تمسك بالسكين، جاء وانتزع السكين من يدها:

- لا تلمسي هذا. لكلٍّ مهنته. ماذا لو بترتِ إحدى أصابعكِ، لكلٍّ مهنته، قلتُ لكِ، أين كرّاسك؟

ثمّ متوجهاً إلى الثرثارات:

- أخبروني... ألا يزعجكنّ إذا رسَمَتكنّ؟

- كلا.

Twitter: @ketab_n

- بلى. شعري غير مرتّب.

- هيا بنا، يا لوسيان، لا تتغنّجي! نعرف جيّداً أن شعرك مستعار!

هذا من أجل الجوّ: نادي ميد في المزرعة...

غسلت كاميل يديها ورسمت حتى المساء. في الداخل وفي الخارج. الدم واللوحة المرسومة بالألوان المائية. الكلاب والقطط والصبيان والمسنّين. النار والقوارير والقمصان والسترات. تحت الطاولة، المشّايات المبطّنة بالفراء. تحت الطاولة، الأيدي المتسخة. رسمت فرانك من الخلف ورسمت صورتها المشوّشة المنعكسة على الغطاء المحدّب لقدرٍ مصنوعٍ من معدنٍ لا يصدأ.

قدّمت لكلّ واحدة منهنّ صورتها الشخصية، فسرت فيهنّ رعشات خفيفة. ثمّ طلبت من الأطفال أن يدلّوها على المزرعة لتتنفّس قليلاً. وأيضاً لكي تصحو من نشوة السكر.

كان أطفالٌ يرتدون قمصان **باتمان** وينتعلون جزمات **لوشامو** يركضون في كلّ الاتجاهات ويلتقطون دجاجات وهم يقهقهون وكانوا يغيظون الكلاب وهم يجرجرون أمامها قطعاً طويلة من الأمعاء...

- برادلي، أنت مجنون يا بنيّ! لا تُقلع بالجرار، ستقتل نفسك!

- حسناً كنتُ أريها فقط...

- اسمك برادلي؟

- نعم!

كان برادلي زعيم العصابة على ما يبدو. تعرّى نصفياً لكي يريها ندوب جروحه.

Twitter: @ketab_n

قال بتفاخر:

- لو أوصلناها جميعاً ببعضها ستبلغ ثمانية عشر سنتمتراً من التقطيب.

هزّت كاميل رأسها بوقار ورسمت له صورتين لباتمان. باتمان محلّقاً وباتمان ضدّ الإخطبوط العملاق.

- ماذا تفعلين لكي ترسمي بهذه الجودة؟

- أنت أيضاً ترسم جيّداً. الجميع يرسمون جيداً...

في المساء، كانت الوليمة. اثنان وعشرون شخصاً حول المائدة وكان لحم الخنزير في كلّ الطوابق. كانت الأذناب والآذان تشوى في المدفأة وتم الاقتراع عليها ليجدوا في أيّة أطباقٍ ستقع. كان فرانك قد انتشى بتعاطيه المخدّر وبدأ يضع على المائدة نوعاً من الحساء الهلامي الفاح بالروائح. غمست كاميل خبزها فيها ولكنها لم تذهب عميقاً، ثمّ جاء دور النقانق والمقادم واللسان ولا أتحدّث عن المغامرات العجيبة الأخرى التي حدثت... أرجعت كرسيها إلى الخلف لبضعة سنتمترات وخدعت الحضور متظاهرة بتجرّع كأسها. بعد ذلك، جاء دور الحلويات، وقد أخذت كلّ واحدة منهنّ قطعة من الكيك أو الحلوى وأخيراً، القطرة...

- آه... هذه يا آنستي الصغيرة، يجب أن تتذوّقي هذه... الفتيات اللواتي يمتنعن عنها، يبقين عذراوات...

- حسناً، قطرة صغيرة إذاً...

أكّدت كاميل زوال بكارتها تحت النظرة المكّارة لجارها، الذي لم يكن في فمه سوى سنٍّ ونصف، واستغلّت الفوضى العارمة لتذهب وتنام.

Twitter: @ketab_n

سقطت ككتلة ونامت متأرجحة بالجلبة المرحة التي كانت تتصاعد من بين ألواح الأرضية.

كانت تغطّ في نومٍ عميقٍ حينما جاء واندسّ في فراشها. تذمّرت.

فغمغم:

- لا تقلقي، فأنا ثملٌ جداً، لن أفعل بكِ شيئاً...

ولأنّها أدارت له ظهرها، وضع أنفه على رقبتها ومرّر يده من تحتها لكي يتعلّق بها أفضل ما يمكن. كان شعرها القصير يدغدغ منخريه.

- كاميل؟

أكانت نائمة؟ أكانت تتظاهر بذلك؟ على أيّة حال، لم تردّ.

- أحبّ كثيراً أن أكون معكِ...

ابتسامة خفيفة.

أكانت تحلم؟ أكانت نائمة؟ لا ندري...

عند منتصف الظهيرة، حينما استيقظا، كان كلٌّ منهما في سريره. لم يعلّق أيّ منهما بأدنى تعليق.

بصمتٍ وتشوّشٍ وتعب، أعادا الحشية إلى مكانها وثنيا الشراشف وتناوبا على دخول الحمام وارتديا ثيابهما بصمت.

بدا لهما سلّم الدرج خطراً جداً وقدّمت جانين لكلّ منهما فنجاناً كبيراً من القهوة من دون أن تكلّمهما. كانت سيّدتان أخريان جالستين إلى طرف الطاولة وتخبّطان في لحم النقانق. أدارت كاميل كرسيها إلى أمام المدفأة وشربت قهوتها من دون

Twitter: @ketab_n

أن تفكّر في أيّ شيء. كان من الواضح أنّ القطرة فائضة وكانت تغمض عينيها بعد كلّ شفّة. باخ... كان ذلك هو الثمن الذي ينبغي دفعه لئلا تعود فتاة...

أغشتها روائح المطبخ. نهضت وصبّت لنفسها فنجاناً آخر ووضعت تبغها في جيب معطفها وراحت وجلست في الفناء على مصطبة الخنازير.

انضمّ إليها فرانك بعد برهةٍ.

- هل يمكنني؟

عدّلت من جلستها.

- ألمٌ في الجمجمة؟

أجابت بنعم.

- أنتِ تعلمين، أنا... يجب أن أذهب لرؤية جدّتي الآن... إذاً، هناك ثلاثة حلول: إمّا أن أتركَكِ هنا ثمّ أعود وآخذك بعد الظهيرة، وإمّا أن أصطحبكِ معي فتنتظرينني في مكانٍ ما ريثما ألهيها لبعض الوقت، وإمّا أن أوصلكِ إلى المحطّة في طريقي وتعودين إلى باريس بمفردكِ...

لم تجب على الفور. وضعت فنجانها. لفّت لنفسها سيجارة وأشعلتها وسحبت منها نفثاً طويلاً مهدّئاً.

- وأنتَ ما رأيك؟

كذب:

- لا أدري.

- لا أرغب في البقاء هنا من دونك...

Twitter: @ketab_n

- حسناً، سأوصلك إذاً إلى المحطة، لأنّك، نظراً لحالتك، سوف لن تتحمّلي المسافة... فالمرء يبرد أكثر حينما يكون متعباً...

أجابت:

- ممتاز.

واللعنة...

ألحّت جانين. بلى، بلى، بعض الطعام، سوف ألفّه لكما. رافقتهما إلى الطريق، وأخذت فرانك بين ذراعيها ووشوشته ببضع كلمات لم تسمعها كاميل.

وحينما وضع إحدى قدميه على الأرض، في أوّل توقّف قبل المحطة الوطنية، رفعت خوذتيهما:

- سآتي معك...

- أأنتِ متأكّدة؟

هزّت بإشارة نعم، وارتدّت إلى الوراء. كانت الحياة تتسارع فجأةً. حسناً...

ارتخت عليه وهي تكزّ على أسنانها.

13

- أتريدين أن تنتظريني في مقهى؟

- كلا، كلا، سأنتظر في الأسفل...

لم يكونا قد سارا لثلاث خطوات في البهو، حين هرعت سيّدة ترتدي بلوزة سماوية اللون نحوه. نظرت إليه وهي تهزّ رأسها بحزن:

Twitter: @ketab_n

- لقد عادت إلى عادتها...

تنهّد فرانك:

- أهي في غرفتها؟

- نعم، ولكنّها أيضاً حزمت كلّ أغراضها وترفض أن يلمسها أحد. إنّها خائرة القوى وتضع معطفها على ركبتيها منذ البارحة مساءً...

- هل أكلت؟

- كلا.

- شكراً.

استدار نحو كاميل:

- هل يمكنني أن أترك أغراضي معكِ؟

- ماذا حدث؟

- حدث أن بوليت بدأت تزعجني بترّهاتها!

كان في غاية الشحوب.

- لم أعد أدري حتى إن كانت فكرة حسنة أن أذهب إليها... أنا ضائع... وتائه تماماً...

- لماذا ترفض أن تأكل؟

- لأنّ هذه البلهاء تعتقد بأنني سأخرجها من هنا! إنّها تصدمني كلّ مرّة... أوه، لدي الرغبة في أن أموت، تفضّلي...

- أتريد أن آتي معك؟

- لن يغيّر هذا في الأمر شيئاً.

- لا، لن يغيّر هذا في الأمر شيئاً ولكنّه سيلهيها...

Twitter: @ketab_n

- أتعتقدين ذلك؟

- نعم، هيّا.. تعال.

دخل فرانك أوّلاً وقال بصوتٍ مزماريّ النغم:

- جدّتي... هذا أنا... لقد اصطحبتُ لكِ مفاجـ...

لم يمتلك الشجاعة ليكمل كلمته.

كانت السيّدة العجوز جالسة على سريرها وتحدّق في الباب. كانت مرتدية معطفها ووشاحها ونعليها بل وقبّعتها الصغيرة السوداء. وكانت حقيبة غير محكمة الإغلاق موضوعة عند قدميها.

«هذا يفطر قلبي...»، عبارة أخرى بدت مؤثّرة لكاميل التي شعرت بأن قلبها يتفتّت فجأةً.

كانت ظريفة للغاية بعينيها الصافيتين ووجهها الحادّ... فأرة صغيرة... فلزة صغيرة...

تصرّف فرانك وكأنّ شيئاً لم يكن. مازحها وهو ينزع عنها الألبسة الدافئة:

- حسناً إذاً! لا زلتِ مغطاة بالكثير من الأغطية! مع أنّ الجوّ ليس بارداً... كم هي درجة الحرارة هنا في الداخل؟ على الأقلّ خمس وعشرون درجة مئوية... وقد أخبرتهم في الأسفل بأنّهم يدفئون الغرف كثيراً ولكن لم يصغوا إليّ أبداً... نحن عائدان من قتل الخنازير عند جانين ويمكنني أن أقول لكِ بأنّ حتى الحجرة التي كانوا يعرّضون فيها القديد للدخان كانت أقل حرارةً من هنا... هل أنتِ بخير؟ قولي إذاً إنّ لديك غطاء جميلاً للسرير! أهذا يعني أنّكِ تلقيت أخيراً طردكِ من المَعْقل؟ ليس من المبكّر جداً... وبالنسبة للجوارب، هل كانت مناسبة؟ ألم أخطئ

Twitter: @ketab_n

في اختيارها؟ يجب أن أقول إنّك تكتبين بخطٍ رديء... لم أكن مغفّلاً حينما طلبت من البائعة عطر مسيو ميشيل... نظرت إلى المرأة الطيّبة مواربةً فعرضتُ عليها ورقتكِ. اضطرت لأن تذهب وتجلب نظارتها وكلّ... أوه، لن أخبرك بكلّ التفاصيل ومن ثمّ وجدت أخيراً: كان المطلوب مون-سان-ميشيل... كان يجب أن أفهم، إيه؟ تفضّلي ها هو... ولحسن الحظّ لم ينكسر...

أعاد إليها خفّيها وتكلّم كيفما كان وانتشى بالكلمات لئلا ينظر إليها.

سألت مع ابتسامة مذهلة:

- أأنتِ الفتاة الصغيرة كاميل؟

- أوه... نعم...

- تعالي إلى هنا لكي أنظر إليك...

جلست كاميل بقربها.

أمسكت بيديها:

- يداكِ باردتان جداً...

- هذا بسبب الدرّاجة...

- فرانك؟

- نعم.

- أعد لنا فنجاناً من الشاي، هيا! يجب تدفئة هذه الفتاة الصغيرة!

تنفّس الصعداء. شكراً للربّ. لقد انقضى الأمر الأصعب...

وضع لوازمه في الدرج وبحث عن الغلاية.

Twitter: @ketab_n

- خذ البسكويت من درج طاولة سريري...

ثمّ استدارت:

- إذاً، هذه أنتِ... هذه أنتِ، يا كاميل... أوه، كم أنا سعيدة برؤيتكِ...

- أنا أيضاً... شكراً على الوشاح...

- آه حسناً، تفضّلي...

نهضت وعادت مع كيسٍ مليءٍ بكاتالوغات قديمة لمتاجر **فيلدار** للمنسوجات.

- صديقتي ايفون هي من جلبتها لي من أجلكِ... قولي لي ما الذي يعجبك... ولكن لا تختاري ذات النقش الشبيه بحبيبات الرز، إيه؟... فأنا لا أجيد نسجها...

آذار (مارس) 1984. حسناً...

قلّبت كاميل ببطء الصفحات المصفرّة.

- هذه طريفة، أليس كذلك؟

كانت تشير لها إلى قطعة موشّاة بجدائل مزخرفة وأزرار مذهّبة.

- أوه... أنا أفضّل بلوزة كبيرة...

- بلوزة كبيرة؟

- نعم.

- ولكن ماذا تقصدين بكبيرة؟

- حسناً أنتِ تعرفين، تكون ذات ياقة ملفوفة...

- استديري، اذهبي إلى الرجال إذاً!

Twitter: @ketab_n

- هذه...

- فرانك، يا أرنبي، إليّ بنظارتي...

كم كان سعيداً بسماعها تتكلّم بهذه الطريقة. هذا جيّد، يا جدّتي، تابعي. أعطني الأوامر، اسخري منّي أمامها بمعاملتي كطفل ولكن لا تنتحبي. أتوسّل إليكِ. لا تنتحبي ثانية.

- حسناً... حسناً... سأدعكما. سأذهب وأتبوّل...

- وهو كذلك... وهو كذلك، دعنا.

ابتسم.

يا لها من سعادة، يا لها من سعادة...

أغلق الباب وقفز في الممرّ. كان ليعانق أوّل عجوز قادمة. يا لها من خطوة، اللعنة! لم يعد وحيداً. لم يعد وحيداً تماماً! «دعنا»، التي قالتها. أجل، أيّتها الفتاتان، سأدعكما! سحقاً، أنا لا أطلب سوى هذا! لا أطلب سوى هذا!

شكراً يا كاميل، شكراً. حتى وإن لم تأتِ ثانية، فأمامنا ثلاثة أشهر من التأجيل بفضل بلوزتكِ اللعينة! الصوف، الألوان، القياسات والتجريب... نقاشات مطوّلة... حسناً، من أين يمكنني الذهاب إلى المراحيض؟

جلست بوليت في أريكتها وأسندت كاميل ظهرها إلى جهاز التدفئة.

- تنامين على الأرض؟

- نعم.

- فرانك هو الآخر ينام دائماً على الأرض...

Twitter: @ketab_n

- هل أكلتِ قطعة بسكويت؟

- بل أربع!

- جيّد...

تفرّستا ببعضهما وقالتا في نفسيهما أشياء كثيرة بصمت. تحدّثتا عن فرانك بالطبع، وعن المسافات وفترة الشباب وبعض المناظر والموت والعزلة والزمن المنصرم والسعادة في أن تكونا معاً وعن مشقّة الحياة من دون أن تنبسا ببنتِ شفة.

رغبت كاميل كثيراً في أن ترسمها. كان وجهها يذكّرها بالعشب الناعم على المنحدرات بالبنفسج البرّي، بنبتة أذن الفأر ونبتة زرّ الذّهب... كان وجهها متفتحاً، لطيفاً، مشرقاً، ناعماً كالورق الياباني. كانت تجاعيد الأسى تختفي وسط وريقات الشاي الحلزونية وتفسح المكان لآلاف علامات الطيبة في زوايا عينيها.

وجدتها جميلة.

كانت بوليت تفكّر بالضبط بنفس الشيء. كانت هذه الصغيرة ظريفة جداً، هادئة جداً، رشيقة جداً في ألبستها الشبيهة بألبسة المتسكّعين. أرادت أن يكون الفصل ربيعاً، لكي تريها حديقتها، الأغصان المزهرة لشجرة السفرجل ورائحة نبتات السرنجة. كلا، لم تكن كغيرها من الفتيات.

ملاكٌ هبط من السماء اضطرّ لأن ينتعل حذاءين ضخمين للمعماري لكي يستطيع البقاء بيننا...

سأل فرانك قلقاً:

- هل غادرت؟

Twitter: @ketab_n

أجابت كاميل وقد رفعت ذراعها فوق السرير:

- كلا، كلا، أنا هنا!

ابتسمت بوليت. ليست بحاجة إلى النظّارة لكي ترى بعض الأشياء. شعرت بارتياحٍ كبيرٍ. كان عليها أن ترضخ للواقع. سوف ترضخ للواقع. كان عليها القبول بذلك أخيراً. من أجله. من أجلها. من أجل الجميع.

لم تعد هناك فصول، حسناً... هيّا... هكذا كان الأمر. كان لكلٍّ دوره. سوف لن تربكه ثانية. سوف لن تعود وتفكّر بحديقتها كلّ صباح، إنّها... إنّها ستحاول ألا تعود تفكّر بأيّ شيء. حان دوره ليعيش الآن.

حان دوره ليعيش...

روى لها فرانك أحداث نهار الأمس بفرحٍ غامر وعرضت عليها كاميل رسوماتها.

- ما هذه؟

- مثانة الخنزير.

- وهذه؟

- جزمات - أحذية - قباقيب ثوروية!

- وهذا الصغير؟

- أوه... لم أعد أتذكّر اسمه.

- وهذا؟

- هذا، هذا سبايدرمان... لا تخلطه مع باتمان!

- من المدهش أن تكوني بهذا القدر من الموهبة...

Twitter: @ketab_n

- أوه، هذا أمرٌ بسيط...

- لم أكن أتحدّث عن رسوماتك، يا عزيزتي، كنتُ أتحدّث عن نظرتكِ... آه! هذا هو عشائي! يجب التفكير بإعادة أطفالي الصغار... لقد حلّ الظلام...

مهلاً... أهي من طلبت منّا المغادرة؟ اندهش فرانك جداً لذلك. ارتبك جداً بحيث اضطر لأن يتمسّك بالستارة لكي ينهض. وانتزع عصاها.

- سحقاً!

- دعه، اذهب، وكفّ عن التحدّث مثل سوقيّ!

- كففت.

هيّا يا عزيزتي بوليت، هيّا. لا تنزعجي. صيحي. احتجّي. اعترضي. عودي إلى هنا.

- كاميل؟

- نعم؟

- هل يمكنني أن أطلب منكِ معروفاً؟

- طبعاً!

- اتّصلي بي عند وصولكِ لطمأنتي.... هو لا يتّصل بي أبداً وأنا... أو إن شئتِ رنّي رنّة واحدة وأغلقي السمّاعة وسأفهم الرسالة وأستطيع أن أنام...

- أعدكِ بذلك.

كانا لا يزالان في الممرّ حينما تبيّن لكاميل أنّها قد نسيت قفازيها. هرعت إلى الغرفة ورأت أنّها واقفة أمام نافذتها وتترقبهما.

Twitter: @ketab_n

- أنا . . . قفازاي . . .

لم تكن السيّدة العجوز تمتلك القدرة لتلتفت. اكتفت بأن رفعت يدها وهي تهزّ رأسها.

- هذا فظيع . . . قالت ذلك بينما كان جاثياً أمام قفل أمان الدرّاجة.

- لا، لا تقولي هذا . . . كانت في غاية الروعة اليوم! بفضلكِ، شكراً . . .

- كلا، كان ذلك فظيعاً . . .

ألقيا التحية على الشبح النحيل للطابق الثالث وعادا إلى رتل الانتظار في المحشر. شعر فرانك بأنّه أخفّ وزناً. أمّا كاميل، وعلى العكس، فلم تعد تجد الكلمات لكي تفكّر.

وقفا أمام بوابة منزلهما من دون إيقاف محرّك الدرّاجة.

- ألن تدخل؟

- كلا.

- حسناً، حسناً . . . إلى اللقاء.

14

كانت الساعة أقلّ من التاسعة بقليل وكانت الشقّة غارقة في الظلام.

- فيلو؟ أأنت هنا؟

وجدته جالساً في سريره. منهكاً تماماً. يغطّي غطاءٌ كتفيه ويمسك بيده كتاباً.

Twitter: @ketab_n

- هل أنت بخير؟

- ....

- هل أنت مريض؟

- كنتُ قلـ... قلقاً... جداً... كنـ... كنتُ أتوقّع مجيئكِ... منذ... زمنٍ طويلٍ...

تنهّدت كاميل. اللعنة، حينما لا يكون أحدهما، يكون الآخر...

استندت إلى المدفأة وأدارت له ظهرها ووضعت جبينها بين راحتي يديها:

- فيليبير، كفّ من فضلك. كفّ عن التلعثم. لا تفعل هذا. لا تفسد كلّ شيء. هذه أوّل مرّة أسافر فيها منذ سنوات... انتصب، وأزح هذا المعطف المتآكل بالعث، ضع الكتاب من يدك، وقل لي بنبرة طليقة: «إذاً، يا كاميل؟ هل انقضت نزهتك الصغيرة بخير؟».

- إ... إذاً، يا كا... كاميل؟ هل انقضت نزهتك الصغيرة بخير؟

- كانت ممتازة، أشكرك! وأنت؟ أيّ معركة عندك اليوم؟

- معركة **بافي**...

- آه... ممتاز...

- كلا، مصيبة.

- وما هي هذه المعركة؟

- آل فَالَوا ضدّ آل هابسبورغ... فرانسوا الأوّل ضدّ شارل كانط...

Twitter: @ketab_n

- نعم! شارل كانط، أعرفه! إنّه من خَلَفَ ماكسيميليان الأوّل في الإمبراطورية الجرمانية!

- يا للشيطان! وكيف تعرفين هذا؟

- لقد أفحمتك، صحيح؟

رفع نظارته لكي يفرك ملتحمة عينيه.

- هل انقضت نزهتكِ الصغيرة بخير؟

- كانت زاهية الألوان...

- هل ستريني مفكّرتكِ؟

- لو تنهض... هل بقي شيءٌ من الحساء؟

- أعتقد...

- أنتظرك في المطبخ.

- وفرانك؟

- طار...

- أتعلم أنّه كان يتيماً؟ أقصد... أنّ والدته قد تخلّت عنه؟

- ظننتُ ذلك...

كانت كاميل متعبة جداً ولم تستطع أن تنام. دحرجت مدفأتها إلى الصالون ودخّنت سجائر وهي تصغي إلى **شوبير** وتقرأ كتاب **رحلة الشتاء**.

أخذت تبكي وشعرت فجأة بالطعم الكريه للحصى في قاع حلقها.

بابا...

كفى، يا كاميل. اذهبي إلى النوم. هذا السيلان الرومانسي،

Twitter: @ketab_n

البرد، التعب، الآخر الذي يلعب بأعصابكِ، أوقفي هذا في الحال. هذا أمرٌ تافه.

أوه، اللعنة!

ماذا؟

نسيتُ أن أتّصل ببوليت...

إذاً، هيّا!

ولكن تأخّر الوقت...

هذا سببٌ إضافي! أسرعي!

- هذه أنا. أنا كاميل... هل أيقظتكِ؟

- لا، لا...

- لقد نسيت الاتصال بكِ...

ساد الصمت.

- كاميل؟

- نعم.

- يجب أن تعتني بنفسكِ، يا عزيزتي، أليس كذلك؟

-...

- كاميل؟

- حَـ... حسناً...

صباح اليوم التالي، ظلّت في سريرها حتى ساعة تنظيف البيت. حينما نهضت، رأت الصحن الذي كان فرانك قد أعدّه لها على الطاولة مع كلمة قصيرة: «شريحة ظريفة من الأمس بالخوخ المجفّف مع تالياتيلي طازجة. تسخين في المايكروويف لمدة ثلاث دقائق».

Twitter: @ketab_n

وبلا أخطاء إذاً. . .

أكلت واقفةً وشعرت فوراً بأنّها أحسن حالاً.

قامت بعملها بصمت.

عصرت المماسح وأفرغت المنافض وعقدت أكياس حاويات القمامة.

عادت سيراً على الأقدام.

فركت يديها ببعضهما لكي تتدفّأ.

رفعت رأسها.

فكّرت.

وكلّما أغرقت في التفكير أكثر، سارت بسرعة أكثر.

كانت تركض تقريباً.

كانت الساعة الثانية فجراً حينما هزّت فيليبير لتوقظه:

- يجب أن أتكلّم معك.

15

- الآن؟

- نعم.

- و. . . ولكن، كم الساعة الآن؟

- لا يهمّ، اسمعني!

- أعطني نظارتي، أرجوكِ. . .

- لستَ بحاجة إلى النظارة، نحن في العتمة. . .

- كاميل. . . من فضلكِ.

Twitter: @ketab_n

- آه، شكراً... مع نظّارتي، أسمع بشكلٍ أفضل... إذاً أيّها الجندي؟ ماذا سيكلّفني هذا الكمين؟

تنفّست كاميل وأفرغت ما في جعبتها. تكلّمت لوقتٍ طويل جداً.

- هل انتهى التقرير، سيّدي الكولونيل...

ظلّ فيليبير هادئاً.

- ألا تقول شيئاً؟

- الواقع، لا بدّ من ردّ الهجوم بهجوم...

- ألا تريد؟

- مهلاً، دعيني أفكّر...

- فنجانٌ من القهوة؟

- فكرةٌ حسنة. اذهبي وأعدّي لنفسكِ فنجاناً من القهوة ريثما أستعيد أنفاسي...

- وأنت؟

أغمض عينيه وهو يشير إليها بأن تنصرف.

- إذاً؟

- أنا... أنا أقول لكِ صراحةً: لا أعتقد بأنّ هذه فكرة حسنة...

قالت كاميل وهي تعضّ شفتها:

- آه؟

- كلا.

- لماذا؟

Twitter: @ketab_n

- لأنّ هذه مسؤولية كبيرة.

- ابحث عن ذريعة أخرى. لا أريد هذا الجواب. هذا جوابٌ لا معنى له. بئس الذين لا يتحملون مسؤولياتهم... بئس، يا فيليبير....ألم تطرح على نفسك هذا السؤال عندما جئت تأخذني من الطابق العلوي حينما لم أكن قد أكلت شيئاً منذ ثلاثة أيام...

- أجل. لقد طرحته على نفسي، تخيّلي...

- فإذاً؟ هل ندمت؟

- كلا. ولكن لا تقارني بين الموقفين. الموقف هنا مختلف...

- بلى! الموقف هو نفسه تماماً!

ساد الصمت.

- تعرفين جيداً أنني هنا لستُ في بيتي... نحن نعيش هنا بشكلٍ موقّت... قد أتلقّى رسالة مسجّلة غداً صباحاً تنذرني بمغادرة البيت خلال أسبوع...

- بفف... أنت تعرف كيف تسير حكايات الإرث... ستبقى هنا لعشر سنوات أخرى...

- لعشر سنوات أو لشهر... ولكن اعلمي... حينما تكون هناك أموال كثيرة في اللعبة، تجد كبرى المعاملات طريقها إلى الانجاز، أنتِ تعلمين...

- فيلو...

- لا تنظري إليّ هكذا. أنتِ تطلبين مني ما يفوق طاقتي...

Twitter: @ketab_n

- كلا، لا أطلب منك شيئاً. أطلب منك فقط أن تثق بي...

- كاميل...

- أنا... أنا لم أكلّمك قط عن ذلك ولكن... ولكن فعلاً كانت حياتي تافهة إلى أن التقيت بك. طبعاً، مقارنة بطفولة فرانك، ربما يكون هذا شيئاً لا يُذكر، ولكن مع ذلك، أشعر بأن هذا ليس أقل شأناً... وأنّ ذلك كان أكثر مخاتلة ربّما... كقطرة قطرة... ومن ثمّ... لا أدري ماذا فعلت... ربّما تصرّفت كبلهاء، ولكنني...

- ولكنّكِ...

- لقد... لقد فقدتُ كلّ الذين أحببتهم في طريقي و...

- وماذا؟

- وعندما قلت لك يوم ذاك بأنّ ليس لديّ أحدٌ سواك في الدنيا، لم يكن ذلك... أوه ومن ثمّ، اللعنة! أنت ترى، البارحة كان عيد ميلادي. لقد بلغتُ السابعة والعشرين والشخص الوحيد الذي ظهر هو للأسف والدتي. وهل تعرف ماذا أهدتني؟ كتاباً للتنحيف. هذا مضحك، أليس كذلك؟ هل يمكن أن يكون لدينا مزيد من الروح، أنا أسألك؟ يؤسفني أن أزعجك بهذا الأمر، ولكن يجب أيضاً أن تساعدني، يا فيليبير... مرّة أخرى... ولن أطلب منك شيئاً بعد ذلك، هذا وعدٌ مني.

سأل متأوّهاً:

- كان عيد ميلادكِ البارحة؟ لماذا لم تخبرينا بذلك؟

- لا أهمية لعيد ميلادي! لقد رويت لك هذه النكتة، كان ذلك لإبكاء مارغو ولكن في الواقع، ليس لذلك أيّ أهمية...

Twitter: @ketab_n

- أجل! كان بودّي أن أقدّم لكِ هديّة...
- حسناً، هيّا: قدّمها لي الآن.
- لو قبلت، هل ستدعينني أعاود النوم؟
- نعم.
- حسناً اتفقنا، إذاً...
طبعاً، لم يعاود النوم.

16

في الساعة السابعة من صباح اليوم التالي، كانت مستعدة للحرب. كانت قد ذهبت إلى الفرن وجلبت رغيفاً مستطيلاً لرتيبها المدلّل.

حينما دخل هذا الأخير إلى المطبخ، وجدها مقرفصة تحت المجلى.

أنّ:

- باه، بدأت المناورات الكبرى؟
- أردت أن أجلب فطوركَ إلى السرير، ولكنني لم أجرؤ...
- أحسنتِ صنعاً، أنا الوحيد الذي أجيد إعداد كوبي من الشوكولا.
- أوه، كاميل... اجلسي، أنتِ تسبّبين لي الدوار...
- إذا جلستُ، سأخبركَ أيضاً بأمرٍ خطير...
- يا للشقاء... ابقِي واقفة، إذاً...

جلست قبالته، وضعت يديها على الطاولة وحدّقت مباشرةً في عينيه:

Twitter: @ketab_n

- سأعود إلى العمل.

- عفواً؟

- لقد أرسلتُ استقالتي للتو لدى نزولي...

ساد الصمت.

- فيليبير؟

- نعم.

- تكلّم. قل لي شيئاً...

أنزل قدحه وتلمّظ شاربيه:

- كلا. لا أستطيع فعل هذا. هنا، أنتِ وحيدة، يا عزيزتي...

- أودّ الإقامة في الغرفة التي تقع في آخر الشقّة...

- ولكن يا كاميل... داخلها ركامٌ حقيقي!

- بوجود مليار ذبابة نافقة، أدري ذلك. ولكنّها أيضاً الغرفة الأكثر إنارة إذ إنّها تشكّل زاوية فيها نافذة في الغرب وأخرى في الجنوب...

- والركام الموجود فيها؟

- سأتكفّل به...

تنهّد:

- ما تشاؤه المرأة....

- سوف ترى، ستكون فخوراً بي...

- أنا واثقٌ من ذلك. وماذا بشأني؟

- ماذا؟

Twitter: @ketab_n

- هل يحقّ لي أن أطلب منكِ شيئاً أيضاً؟

- نعم...

تورّد خجلاً:

- تخـ... تخيّلي أنّكِ... أنّكِ تريدين أن تقّـ... تقدّمي هديّة لفتاة لا... لا تعرفينها، ما... ماذا... ستفعلين؟

نظرت إليه كاميل مواربة:

- عفواً؟

- لا... لا تتظاهري.... بالـ... بالغباء، لقد... فهـ... فهمتني جيّداً...

- أنا، لا أدري، وما هي المناسبة؟

- لا... مناسبة... لا مناسبة... خاصّة...

- في أيّ يوم؟

- السـ... السبت.

- قدّم لها قنينة **غيرلان**.

- عفـ... عفواً؟

- إنّه عطر...

- سوف... سوف لن أجيد الاخـ... الاختيار...

- أتريد أن آتي معك؟

- من... من فضلكِ...

- لا مشكلة! سنذهب خلال استراحتك في فترة الغداء...

- شكـ... شكراً...

- كا... كاميل؟

Twitter: @ketab_n

- نعم؟

- إنّها... إنّها مجرّد صد... صديقة، إيه؟

نهضت ضاحكة.

- طبعاً...

ثمّ وهي تقلّب وريقات المفكّرة:

- أوه، حسناً على سبيل المثال! يوم السبت يصادف عيد القديس فالنتان، أكنتَ تعرف ذلك؟

استغرق محدّقاً في قاع قدحه.

- هيا، سأدعكِ، لديّ شغل... سوف أمرّ وآخذكِ إلى المتحف في الساعة الثانية عشرة ظهراً...

لم يكن قد صعد إلى السطح بعد وكان لا يزال يبقبق في شرابه من ماركة نيسكويك حينما غادرت المطبخ ومعها مجموعة مماسحها.

حينما عاد فرانك من أجل قيلولته في بداية فترة ما بعد الظهيرة، وجد الشقّة خالية ومكركبة:

- ولكن ما هذه الكركبة أيضاً؟

ظهر نحو الساعة الخامسة. كانت كاميل تنقل قاعدة مصباح:

- ماذا يحدث هنا؟

- سأنتقل...

قال شاحباً:

- إلى أين ستذهبين؟

قالت وهي تشير إلى كومة الأثاث المحطّم وكمية الذباب النافق:

Twitter: @ketab_n

- إلى هنا.

ثمّ باعدت بين ذراعيها وقالت:

- أقدّم لك مشغلي الجديد...

- لا؟

- بلى!

- وشغلكِ؟

- سوف نرى...

- وفيلو؟

- أوه... فيلو...

- ماذا؟

- إنّه يمرّ في وقتٍ عصيب...

- ماذا؟

- لا، لا شيء.

- أتريدين مساعدة؟

- بالتأكيد!

بوجود صبيّ كان الأمر أسهل. خلال ساعة واحدة، ثم نقل كلّ الركام إلى الغرفة المجاورة. غرفة كانت نوافذها مسدودة بسبب «عيوب في الأعمدة»...

استمتعت بلحظة هادئة - شربت بيرة باردة وهي تقيس حجم العمل المنجز - لترسل دفعتها الأخيرة:

- يوم الاثنين المقبل، في وقت الغداء، أودّ الاحتفال بعيد ميلادي مع فيليبير ومعك...

Twitter: @ketab_n

- أوه... ألا تقيمين الاحتفال مساءً؟

- لماذا؟

- أنتِ تعرفين... يوم الاثنين، هو يوم سخرة بالنسبة لي...

- آه، نعم، عفواً، لقد أسأت التعبير عن رأيي: الاثنين المقبل، في وقت الغداء، أودّ الاحتفال بعيد ميلادي مع فيليبير ومعك ومع بوليت.

- هناك؟ في المأوى؟

- كلا! سوف تجد لنا مطعماً ريفياً جذّاباً!

- وكيف سنذهب إلى هناك؟

- كنتُ أقول في نفسي بأننا نستطيع أن نستأجر سيارة...

صمتَ وفكّر حتى آخر جرعة. ثمّ قال وهو يثني علبة الشراب:

- ممتاز، ولكن المشكلة هي أنّها ستشعر بعد ذلك بخيبة أمل حينما أزورها بمفردي...

- هذا ممكن...

- لا ينبغي أن تشعري بأنّكِ مرغمة على فعل ذلك من أجلي، إيه؟

- كلا، كلا، هذا من أجلي أنا.

- حسناً... بالنسبة للسيارة، أنا سأدبّرها... لدي صديق سيكون سعيداً بأن يُبادلني سيارته بدراجتي... فعلاً كلّ هذا الذباب كريه...

Twitter: @ketab_n

- كنتُ أنتظر أن تستيقظ لكي أشغّل مكنسة الكهرباء...

- هل أنتِ بخير؟

- بخير. هل رأيت صاحبك رالف لوران؟

- كلا.

غمغمت كلاماً لم يفهمه.

- وكم سيبلغ عمركِ؟

- سبعة وعشرين عاماً.

- أين كنتِ سابقاً؟

- عفواً؟

- أين كنتِ قبل أن تأتي إلى هنا؟

- في الطابق العلوي!

- وقبل ذلك؟

- ليس لدينا وقت الآن... ذات ليلة حينما تكون هنا، سأروي لك...

- تقولين هذا ثمّ...

- بلى، بلى، أشعر بأنني أفضل حالاً... سوف أروي لك الحياة البنّاءة لكاميل فوك...

- ما معنى بنّاءة؟

- سؤال جيد...

- يعني «مثل بناية»؟

- كلا. يعني «نموذجية» ولكن بسخرية...

- آه؟

Twitter: @ketab_n

- مثل بناية آيلة للانهيار إن شئتَ...

- مثل برج بيزا؟

- بالضبط!

- سحقاً، من الصعب العيش مع فتاة مثقّفة...

- كلا! على العكس! مريح جداً!

- كلا، هذا صعب. أخاف دائماً من الأخطاء الإملائية... ماذا أكلتِ عند الظهيرة؟

- شطيرة مع فيلو... ولكنني رأيتك تضع لي شيئاً في الفرن، سأتناوله في الحال... في الواقع شكراً لك... إنّه لذيذٌ للغاية.

- العفو، هيّا، سأذهب...

- وأنت، كيف حالك؟

- متعب...

- نم إذاً!

- كنت سأنام، ولكن لا أدري... لم تعد لديّ الرّغبة... هيّا... سأعود...

17

- ما هذا إذاً... لم نعد نراك منذ خمسة عشر عاماً والآن تحبس نفسك هنا تقريباً كلّ يوم!

- مرحباً يا أوديث.

تبادلا قبلاً صاخبة.

Twitter: @ketab_n

- أهي هنا؟

- كلا، ليس بعد...

- حسناً، سوف نجلس بانتظارها... تفضّلي، أقدّم لكِ أصدقائي: كاميل...

- مرحباً.

- ... وفيليبير.

- سعيدة. هذا...

- لا بأس، لا بأس! ستقدّمين مجاملاتك في ما بعد...

- أوه، لا تكن عصبياً هكذا!

- لستُ عصبياً، بل جائعاً. آه، حسناً، ها هي، تماماً... مرحباً يا جدّتي، مرحباً يا إيفون. هل تشربان معنا؟

- مرحباً يا عزيزي فرانك. كلا، أشكرك. عندي ضيوف في المنزل. أمرّ نحو أيّ ساعة؟

- سوف نعيدها...

- ولكن ليس في وقتٍ متأخّر، إيه؟ لأنّني في المرّة الأخيرة جلبتُ على نفسي شتائم... يجب أن تكون هنا قبل الساعة الخامسة والنصف...

- نعم، نعم، لا بأس يا إيفون، لا بأس.

تنفّس فرانك.

- حسناً يا جدّتي حسناً. أقدّم لكِ فيليبير...

- تحيّاتي...

انحنى لكي يقبّل يدها.

Twitter: @ketab_n

- هيّا، لنجلس. ولكن لا، يا أوديت! لا داعي لقائمة الطعام! دعوا الشيف يتصرّف!

- هل تأخذون فاتحاً للشهية؟

ردّ فيليبير:

- شمبانيا!

ثمّ استدار نحو جارته وسألها:

- هل تحبّين الشمبانيا، يا سيّدتي؟

ردّت بوليت باستحياء:

- نعم، نعم...

- تفضّلوا، هذه بعض سِلاء الخنزير لكي تتسلّوا ريثما يحضر الطعام...

كان الجميع محرجين بعض الشيء. لحسن الحظ، سرعان ما أطلقت خمور لوار وسمك الزنجور بالزبدة البيضاء وأجبان الماعز ألسنتهم. كان فيليبير يبدي اهتمامه بجارته وكانت كاميل تضحك وهي تصغي إلى ترّهات فرانك:

- عمري... بفف... كم عمري، يا جدّتي؟

- يا إلهي، إنّه عجوز... ثلاثة عشر؟ أربعة عشر عاماً؟

- كانت سنتي الأولى في التعليم... آنذاك، أتذكّر جيّداً، كان السيّد رينيه يخيفني. كنتُ قلقاً وخائفاً. ولكنه... علّمني بعض الأشياء... كما أنّه كان يزعجني... لم أعد أعرف ما الذي عرضه عليّ... أعتقد أنها كانت ملاعق الخفق، وقال لي:

«هذه تُدعى القطّة الكبيرة، والأخرى، القطّة الصغيرة. تذكّر

Twitter: @ketab_n

ذلك حينما يسألك الأستاذ، إيه... صحيحٌ أنّ هناك كتباً تعليمية ولكن هذه هي مصطلحات المطبخ الحقيقية. إنّها اللغة الخاصّة الحقيقية. ومن خلال هذا نعرف المتمرنين الجيّدين. إذاً؟ هل حفظت اسمها؟

- نعم، يا ريّس.

- ماذا تُدعى هذه؟

- القطّة الكبيرة، يا ريّس.

- والأخرى؟

- إيه... الصغيرة...

- ماذا الصغيرة، يا ليستافييه؟

- القطّة الصغيرة، يا ريّس!

- جيّد، يا بني، جيد... سوف يكون لك مستقبل لامع».

آه! كم كنتُ ساذجاً آنذاك! كم سخروا منّي... ولكن ليس يومياً، أليس كذلك يا أوديت؟ كانت هناك ركلات على المؤخّرة...

كانت أوديت، الجالسة معهم، تهزّ برأسها.

- أوه لقد هدأ الآن، تعلمين...

- بالتأكيد! صبيان اليوم ما عادوا يتقبّلون أيّ شيء!

- لا تحدّثيني عن صبيان اليوم... هذا ليس صعباً... لم يعد بوسعنا أن نقول لهم شيئاً... يحردون. لا يجيدون سوى الحرد. هذا يرهقني، تفضّلي... هذا يرهقني أكثر منكم حينما أوقدتم النار في الحاويات...

Twitter: @ketab_n

- هذا صحيح! لم أعد أتذكّر أبداً...

- ولكنني أتذكّر، أرجوك أن تصدّقني!

انطفأ النور. نفخت كاميل على شموعها وصفّقت الصالة كلّها.

توارى فيليبير وعاد مع طردٍ كبير:

- هذه هديّة منّا نحن الاثنين...

أوضح فرانك:

- نعم، ولكنّها فكرته. إن لم تعجبكِ هذه، فلستُ مسؤولاً. أنا أردتُ أن نستأجر لكِ رجلاً يقدّم عرضاً للتعرّي ولكنه رفض...

- أوه، شكراً! هذا لطفٌ منكما!

كان مسند رسم.

قرأ فيليبير الورقة وفي حلقه رجفة:

- قابل للطي وللحني بطبقتين، متين، مع سطحٍ كبير للعمل ودرجين. مصمّم للعمل جلوساً. مكوّن من أربع قوائم من الزان قابلة للثني مضمومة إلى بعضها ثنائياً بعارضة تمنحها ثباتاً ومتانة. حينما تكون القوائم مطوية تؤمّن تثبيت الدرجين قابلة للطي بفضل معلاق مزدوج. من الممكن ترتيب كدس من الأوراق من قياس 68 x 52سم. هناك بالأساس بعض الأوراق إن حدث... هناك مقبض يسمح بنقل المسند المطوي. لم ينتهِ الأمر، يا كاميل... **هناك موضعٌ لقارورة ماء صغيرة تحت المقبض!**

سأل فرانك:

Twitter: @ketab_n

- ألا يمكن أن نضع سوى الماء؟

قالت بوليت ساخرةً:

- الماء ليس للشرب، أيها الأحمق، وإنّما لمزج الألوان!

- آه نعم، أنا مغفّل...

سألها فيليبير:

- هل... هل أعجبكِ هذا؟

- هذا رائع!

- أما ... أما كنتِ لتفضّـ... لتفضّلي صـ... صبياً عارياً؟

- هل لدي الوقت لأجرّبه في الحال؟

- هيّا، هيّا، في كلّ الأحوال، نحن ننتظر رينيه ...

بحثت كاميل عن العلبة الصغيرة للألوان المائية في حقيبتها وفكّت اللوالب ووقفت أمام الكوّة المزجّجة.

رسمت نهر اللوار. البطيء، الشاسع، الهادئ، الرصين. رسمت أرصفته الرملية الفاترة، أوتاده وقواربه المتعفنة. طائر غراب كان هناك. أغصان الأسل الشاحبة وزرقة السماء. زرقة شتوية، فاقعة، ساطعة، خادعة، متكلّفة بين غيمتين واسعتين منهكتين.

كانت أوديت منبهرة.

- ولكن ماذا فعلتْ؟ ليس في لوحتها الصغيرة سوى ثمانية ألوان!

- أنا أغشّ ولكن اسكتي... خذي. هذا لكِ.

- أوه، شكراً! شكراً! رينيه! تعال وانظر إلى هذا!

Twitter: @ketab_n

- أنا سأقدّم لكم الطعام!

- أوه، كلا...

- بلى، بلى! أنا مصرٌّ على ذلك...

حينما عادت وجلست معهم، مرّرت بوليت طرداً إليها من تحت الطاولة: كانت قلنسوة منسجمة مع الوشاح. نفس التخاريم ونفس الألوان. من نفس الصنف.

وصل صيّادون، فلحق بهم فرانك إلى المطبخ مع مدير الدار لتفحّص محتويات أكياسهم. كانت كاميل تتلهّى بهديتها وكانت بوليت تروي حربها لفيليبير الذي كان يصغي إليها بشغف ممدداً ساقيه الطويلتين.

ثمّ جاءت اللحظة الحرجة، عند الغروب، بدت بوليت قلقة جداً.

صمت الجميع.

ازداد المشهد قبحاً.

طافوا بالمدينة وعبروا مناطق تجارية من دون مفاجآت: المتجر الكبير، الفنادق من فئة 29 يورو مع خدمة الإنترنت، العنابر، مستودعات الأثاث. ثمّ ركن فرانك السيارة.

في آخر المنطقة.

نهض فيليبير ليفتح له الباب ورفعت كاميل قبعتها.

داعبت بوليت خدّه.

دمدم فرانك:

- هيا، هيا، سنختصر طريقنا. لا أريد أن تشتمني الأم السامية!

Twitter: @ketab_n

حينما عاد، كان الشبح قد أزاح الستائر الكبيرة.

جلس، عبس، وتنهّد حانقاً قبل أن يدير المحرك.

لم يكن قد خرج من المرأب حينما ربّتت كاميل على كتفه:

- توقّف!

- ماذا نسيتِ أيضاً؟

- قلت لك أن تتوقّف.

18

استدار قائلاً:

- والآن؟

- كم كلّفكم هذا؟

- عفواً؟

- هذا الشيء؟ دار العجزة هذا؟

- لماذا تسألينني عن هذه؟

- كم؟

- نحو عشرة آلاف فرنك...

- مَنْ دفع؟

- تقاعد جدّي، سبعة آلاف ومائة واثنا عشر فرنكاً والمجلس العامّ ولا أدري مَنْ أيضاً...

- بالنسبة لي أطلب منك ألفي فرنك كمصروف جيب وتحتفظ أنت بالبقية وتكفّ عن العمل في يوم الأحد لكي تخفّف عنّي...

Twitter: @ketab_n

- مهلاً، عمّا تحدّثينني، هنا؟

- فيلو؟

قال بتغنّج:

- آه كلا، هذه فكرتكِ، يا عزيزتي.

- نعم، ولكن هذا بيتك، يا صديقي...

- هيه! ماذا يحدث هنا؟ ما الحيلة؟

أضاء فيليبير المصباح السقفي:

- إذا أردتِ...

أوضحت كاميل:

- وإذا أرادت، هي.

ابتسم فيليبير:

- ... سنصطحبها معنا.

غمغم فرانك:

- مع... معكم، إلى أين؟

- عندنا... في البيت...

- متى... متى هذا؟

- الآن.

- الآ... الآن؟

- أخبريني، يا كاميل، هل أبدو بهذا الاندهاش حينما أتلعثم؟

طمأنته:

- كلا، كلا، لا تكون لك أبداً هذه النظرة البلهاء...

Twitter: @ketab_n

- ومَنْ سيهتمّ بها؟

- أنا. ولكن عرضتُ عليك للتوّ شروطي...

- وشغلكِ؟

- لا شغل بعد الآن! انتهى الأمر!

- ولكن...

- ماذا؟

- أدويتها وكلّ هذه الأمور...

- حسناً أنا سأعطيها لها! ليس من الصعب عدّ الأقراص، أليس كذلك؟

- وإذا سقطت؟

- حسناً، سوف لن تسقط طالما أنا هنا!

- ولكن أوه... أين... أين ستنام؟

- سأترك لها غرفتي. كلّ شيء مهيّأ...

وضع جبينه على مقود السيارة.

- وأنت يا فيلو، ما رأيك بذلك؟

- في البداية سيكون الأمر سيئاً ومن ثمّ سيكون جيداً. أعتقد بأن حياتك ستكون أكثر بساطة إن جلبناها إلى هنا...

- ولكنها ثقيلة!

- أتعتقد ذلك؟ كم تزن جدّتك المسكينة؟ خمسين كيلوغراماً؟ بل أقلّ...

- ألا يمكن حملها هكذا؟

Twitter: @ketab_n

- حقّا؟

- كلا إذاً...

- إذا كان يجب دفع خسائر، سندفعها...

- هل يمكنني القيام بجولةٍ؟

- هيّا.

- هل يمكنكِ أن تلفّي لي سيجارة، يا كاميل؟

- تفضّل.

صفق الباب.

حينما عاد وجلس، قال:

- هذه بلاهة.

- نحن لم نقل قط عكس هذا، إيه يا فيلو؟

- أبداً. ونحن واضحان في كلّ حال!

- ألا يخيفكما هذا؟

- كلا.

- لقد رأينا آخرين، أهذا صحيح؟

- آه!

- أتعتقدان بأنّها ستكون راضية في باريس؟

- سوف لن نأخذها إلى باريس، سنجلبها إلى بيتنا!

- ألن نريها برج إيفل؟

- كلا. سنريها أشياءً كثيرة أجمل من برج إيفل...

تنهّد.

- حسناً، حسناً، ماذا سنفعل الآن؟

Twitter: @ketab_n

قالت كاميل:

- أنا سأتكفّل بالأمر.

حينما عادوا وركنوا السيارة تحت نوافذها، كانت لا تزال هناك.

انطلقت كاميل جرياً. من داخل السيارة، شاهد فرانك وفيليبير عرضاً لخيال الظلّ: شبح صغير يلتفت، بجانبها شبحٌ أكبر، حركات، هزٌّ للرأس، حركات من الكتفين، كان فرانك لا يكفّ عن الترداد: «هذه حماقة، هذه حماقة، قلت لكما إن هذه حماقة... حماقة كبيرة...».

كان فيليبير يبتسم.

غيّر الشبحان مكانهما.

- فيلو؟

- امممم...

- ما هذه الفتاة؟

- عفواً؟

- هذه الفتاة التي وجدتها لنا... ما هي بالضبط؟ كائنٌ فضائيّ؟

كان فيليبير يبتسم.

- جنّية...

- نعم، هذا صحيح... جنّية... أنت محقّ.

وهل للجنيات نشاط جنسي أم لا...

- ولكن ماذا تفعلان، سحقاً!

Twitter: @ketab_n

انطفأ النور أخيراً.

فتحت كاميل النافذة ووضعت حقيبة كبيرة على حرفها. توثّب فرانك، الذي كان يقضم أصابعه توتّراً:

- اللعنة، أهذا هوسٌ لديها أن ترمي الأشياء من النافذة أم ماذا؟

كان يضحك. كان يبكي. كان يرتجف:

- سحقاً، يا عزيزي فيلو... كانت دموعٌ غزيرة تسيل على خدّيه. منذ أشهر وأنا لم أعد أستطيع النظر في مرآة... أتصدّق هذا؟ سحقاً، أتصدّق هذا؟

أعطاه فيليبير منديله.

- كلّ شيء على ما يُرام. سوف ندلّلها لك... لا تقلق...

تمخّط فرانك، وقدّم السيارة مسرعاً نحو الفتاتين بينما كان فيليبير يأخذ الحقيبة.

- كلا، كلا، ابقَ في المقعد الأمامي، أيّها الشاب! ساقاك طويلتان...

ساد صمت القبور لبضعة كيلومترات. كان كلٌّ منهم يتساءل في داخله إن لم يكن قد ارتكب حماقة كبيرة... ثمّ، فجأةً، كسرت بوليت حاجز الصمت، قائلة بسذاجة:

- أخبروني... هل ستأخذونني إلى المسرح؟ هل سنشاهد مغناة هزلية؟

التفت فيليبير مُدندناً بلغة متكسّرة: «**أنا برازيلي، عندي ذهب، أنا آتٍ من ريو دو جانيرو، أكثر ثراءً اليوم مما مضى،**

Twitter: @ketab_n

باريس، يا باريس، سأعود إليكِ مرّة أخرى!».

أمسكت كاميل بيده وابتسم فرانك لكاميل في المرآة العاكسة.

نحن الأربعة، هنا، الآن، في هذه السيارة العفنة من طراز كليو، طلقاء، معاً، وليقع المُقدَّر...

ردّدوا معاً في لحنٍ جماعي: **كلّ ما هنالك، إنني أطير!**

Twitter: @ketab_n

القسم الرابع

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

1

هذه فرضية. ولن يذهب التاريخ بعيداً لإثباتها. ثمّ إنّ تأكيداتنا لا تصيب دائماً. ذات يوم سنتمنّى الموت ونتأكّد بأنّه كان يكفي أن ننزل بضع درجات لكي نجد المرآة العاكسة ونرى الصورة فيها على نحو أوضح بعض الشيء... مع ذلك كان هؤلاء الأشخاص الأربعة مستعدين لأن يعيشوا ما تبقّى من الوقت كأجمل أيام حياتهم.

بدءاً من هذه اللحظة المعيّنة حيث يقومون بإطلاعها على منزلها الجديد وهم يترقّبون، بشيءٍ من التأثّر والقلق، ردود فعلها وتعليقاتها (وسوف لن تبديها) وحتى لحظة المصير المقبلة ستهبّ ريحٌ فاترة على وجوههم المتعبة.

مداعبة، مهادنة، مواساة.

ويسمّيها الآخر Sentimental healing.

في عائلة ذوي **الأذرع المتكسّرة**، لدينا من الآن فصاعداً الجدّة، وحتى وإن لم تكن الأسرة كاملة، وربّما لن تكون كذلك أبداً، لم تكن لديهم النيّة في الاستسلام للانهيار.

في العائلات السبع، هل كانوا مرتبكين؟ إذاً، فلنتكلّم بلغة

Twitter: @ketab_n

البوكر! كانوا يشكّلون رباعية. حسناً، أربعة أس[1]، وربّما لا . . . الكثير من الحدبات والغمغمات والندوب في كلّ الاتجاهات لبلوغ ذلك ولكن. . . هيه! رباعية!

لم يكونوا لاعبين بارعين، للأسف. . .

حتى وإن كانوا مركّزين، حتى وإن كانوا عازمين على حماية ما في أيديهم لمرّة واحدة، كيف يُطلَب من ثائرٍ ملكي أعزل ومن جنّية ضعيفة وصبيّ مدلّل وعجوز تغطّي الكدمات أنحاء جسمها أن يجيدوا الخديعة؟

مستحيل.

باه. . . سحقاً. . . يبقى رهنٌ صغير وقفازات مضحكة أفضل من أن ينام المرء. . .

2

لم تذهب كاميل حتى النهاية في إنذارها: بالتأكيد كانت رائحة جوزي ب. نتنة جداً. كان عليها أن تمرّ على المقرّ (يا لهذه الكلمة. . .) لكي تتفاوض بشأن رحيلها ولكي تستطيع أن تقبض. . . ماذا كانوا يسمّونه سابقاً. . . أن تقبض كل حسابها. كانت قد عملت لأكثر من عام من دون عطلة أو إجازة. وازنت بين الحسنات والسيئات وقرّرت أن تستقرّ في الطابق العلوي.

حقدت عليها مامادو، وأخذت تضرب على ساقيها بالمكنسة وهي لا تكفّ عن ترداد:

---

(1) ورقة آس، وهي الورقة التي تحمل الرقم واحد في ورق اللعب. (المترجم).

Twitter: @ketab_n

- أنتِ إذاً... أنتِ إذاً... أنتِ إذاً...

وفي النهاية، قالت كاميل غاضبة:

- أنا إذاً، ماذا؟ توقّفي عن ترداد هذه الجملة، اللعنة! أنا ماذا؟

هزّت الأخرى رأسها بأسى:

- أنتِ إذاً... لا شيء.

غيّرت كاميل غرفتها.

- هيه يا مامادو... اسكتي...

- سوف أسكت وسوف أمنعكِ من أن تناديني مامادو مرّة أخرى. اسمي ليس مامادو! أكره هذا الاسم! البنات في الشغل هنّ اللواتي ينعتنني بهذا اللقب ولكن اسمي ليس مامادو. وبما أنّكِ لم تعودي واحدة من بنات الشغل، فأنا أمنعكِ من أن تناديني مرّة أخرى مامادو، هل فهمتِ؟

- حقّاً؟ إذاً ما اسمك؟

- لن أخبركِ به.

- اسمعي يا مام... أوه يا عزيزتي... سوف أقول الحقيقة: أنا لا أرحل بسبب جوزي. أنا لا أرحل بسبب الشغل. لا أرحل لمتعة الرحيل. لا أرحل بسبب المال. الحقيقة هي... الحقيقة هي أنني أرحل لأنّ لديّ مهنة أخرى... مهنة... أعتقد... أقصد... لستُ... لستُ متأكدة منها... ولكنها مهنة سأكون فيها أفضل حالاً من هنا و... وأعتقد أنني سأكون أكثر سعادة أيضاً...

Twitter: @ketab_n

ساد الصمت.

- ثمّ إنّ هذا ليس السبب الوحيد.. أنا أهتمّ الآن بسيّدة عجوز ولم أعد أريد مغادرة البيت مساءً، أفهمتِ؟ أخشى أن تسقط أرضاً...

ساد الصمت.

- حسناً، حسناً، سوف أنصرف، إذاً... وإلّا سأظلّ أعمل خادمة لكي أدفع ثمن شطيرة التاغو...

أمسكت الأخرى بذراعها وأجلستها بالقوّة.

- ابقي لمزيدٍ من الوقت أقول لكِ. إنها الساعة الثانية عشرة وأربع وثلاثون دقيقة ليس إلا...

ساد الصمت.

- ما هي؟

- عفواً؟

- ما هي مهنتكِ الأخرى؟

أعطتها كاميل كراسة رسوماتها.

قالت وهي تعيد إليها الكرّاسة:

- تفضّلي، هذا جيّد.

ثمّ أضافت وهي تلتفت:

- أنا موافقة إذاً. يمكنكِ الانصراف الآن ولكن مع ذلك... كنتُ سعيدة جداً بمعرفتكِ، أيتها الجرادة الصغيرة.

- بقيت خدمة واحدة أطلبها منكِ، يا مام...

- تريدين أن يحقّق لكِ عزيزي ليوبولد النجاح المضمون ويجذب إليكِ الزبائن أيضاً؟

Twitter: @ketab_n

- كلّا أريدكِ أن تتّخذي وضعية؟

- أتّخذ وضعية ماذا؟

- حسناً، الوضعية التي تريدين! أريد أن أتّخذكِ موديلاً للرسم...

- أنا؟

- نعم.

- أتهزئين بي أم ماذا؟

- منذ اليوم الأوّل الذي رأيتكِ فيه، حينما كنّا نعمل معاً في نويلي، أتذكّر... رغبتُ في أن أرسمكِ...

- كفّي، يا كاميل! لستُ جميلة حتى!

- بالنسبة لي نعم.

ساد الصمت.

- بالنسبة لكِ نعم؟

- بالنسبة لي نعم...

قالت وهي تشير بإصبعها إلى صورتها المنعكسة في المرآة السوداء:

- ما الجميل في هذا؟ أين الجمال الذي تتحدثين عنه؟

- إذا ما استطعتُ أن أرسم صورتكِ، إذا ما نجحتُ في ذلك، سوف يُرى فيها كلّ ما رويتِه لي منذ تعارفنا... كلّ شيء... سوف تُرى والدتكِ ووالدكِ. وأطفالكِ. والبحر. و... ماذا كان اسمها؟

- مَنْ تقصدين؟

Twitter: @ketab_n

- عنزتكِ الصغيرة؟

- بولي...

- سوف تُرى بولي. وابنة عمّكِ التي ماتت و... وكلّ ما تبقّى...

- أنتِ تتكلّمين مثل أخي! قولي إذاً إنكِ تهذرين بطرائف وأوهام!

ساد الصمت.

- ولكنني... لستُ واثقة من النجاح في ذلك...

قالت ممازحة:

- حقّاً؟ لعلمكِ حتى لو لن تُرى عنزتي بولي فوق رأسي هذا يناسبني أيضاً! ولكن ما تطلبينه منّي يستغرق وقتاً طويلاً، أليس كذلك؟

- نعم.

- إذاً لا أستطيع...

- أنتِ تعرفين رقم هاتفي... خذي إجازة ليومٍ أو يومين من توكلين وتعالي لمقابلتي. سوف أدفع لكِ أجرة الساعات التي ستقضينها عندي... فالفنان يدفع أجراً لنماذجه... هذه مهنة، أنتِ تعرفين ذلك... حسناً، سأدعكِ الآن. ألن... ألن نتعانق؟

ارتمت الأخرى عليها وضمتها إلى صدرها بشدّة.

- ما اسمكِ يا مامادو؟

- سوف لن أخبركِ به. لا أحبّ اسمي...

ركضت كاميل على طول الرصيف وهي تومئ بوضع هاتفٍ

Twitter: @ketab_n

على أذنها. قامت زميلتها السابقة بحركة يائسة من يدها. انسِني أيتها الأوروبية الصغيرة، انسِني. لقد نسيتيني...

تمخّطت بصخب.

رغِبَت أن تتحدّث معه.

هذا صحيح...

لا أحد في الدنيا سواه كان يصغي إليها أبداً.

3

في الأيام الأولى، لم تغادر بوليت غرفتها. كانت تخشى أن تُزعِج الآخرين، أن تتوه، أن تقع، وكانت تخشى خاصّة أن تضرب رأسها بشيءٍ ما.

كانت غالباً ما تتلهّى بريَش الرسم وتؤكّد أنّها تمضي عطلة سعيدة وتسأل متى ينوون أخذها إلى بيتها.

سأل فرانك حانقاً:

- أين تقصدين ببيتكِ؟

- أنت تعلم جيداً... إلى المنزل... منزلي...

غادر الغرفة متنهداً:

- لقد قلتُ لكما إنّ هذا عبث... علاوة على ذلك، لقد فقدت صوابها...

نظرت كاميل إلى فيليبير ونظر فيليبير في اتّجاهٍ آخر.

- بوليت؟

- آه، هذا أنتَ يا عزيزي... أنتَ... ما اسمكَ؟

Twitter: @ketab_n

- كاميل...

- آه صحيح! ماذا تريدين يا ابنتي العزيزة؟

خاطبتها كاميل بصراحة وكلّمتها بقسوة. ذكّرتها من أين جاءت ولماذا هي معهم وما غيّروه وسيغيّرونه في نمط حياتهم لكي تبقى برفقتهم. وأضافت الكثير من التفاصيل الأخرى القاسية التي أربكت السيّدة العجوز:

- إذاً، ألن أعود إلى بيتي أبداً؟

- كلا.

- ماذا؟

- تعالي معي يا بوليت...

أمسكت كاميل بيدها وجالت بها من جديد في الشقّة وهذه المرّة على نحوٍ أبطأ:

- هنا المغاسل... انظري، لقد ثبّت فرانك مقابض على الجدار لكي تتمكّني من التمسّك بها...

غمغم فرانك:

- عبث...

- هنا المطبخ... إنّه واسع، أليس كذلك؟ ثمّ إنّه بارد... ولهذا أصلحتُ الطاولة المتحركة البارحة... لكي نتيح لكِ تناول وجباتكِ في غرفتكِ...

أوضح فيليبير:

- ... أو في الصالون... لستِ مرغمة على أن تحبسي نفسكِ طيلة النهار، أنتِ تعلمين...

Twitter: @ketab_n

- حسناً، الممرّ... إنّه طويل جداً ولكن يمكنكِ التمسّك بخشب زينته، أليس كذلك؟ إن احتجتِ إلى المساعدة، سوف نذهب إلى الصيدلية ونستأجر كرسيًّا بعجلات...

- نعم، أفضّل ذلك...

- لا مشكلة! فلدينا أصلاً درّاجٌ في البيت...

- هنا الحمّام... وهنا يجب أن نتحدّث بجدّية يا بوليت... تفضّلي واجلسي على الكرسي... ارفعي بصركِ... انظري كم هو جميل...

- جميلٌ جداً. لم أرَ قط مثيلاً له عندنا...

- حسناً. أتعرفين ما الذي سيفعله حفيدكِ غداً مع أصدقائه؟

- كلا...

- سوف يخرّبونه. سوف ينصبون لكِ مقصورة استحمام لأنّ المغطس عالٍ ويصعب عليكِ الصعود إليه. إذاً، قبل فوات الأوان، يجب أن تحسمي أمركِ على الفور. إما أن تمكثي هنا ويبدأ الشباب بالعمل وإمّا أن تقرّري عدم البقاء، ولا مشكلة في ذلك، إذ يمكنكِ فعل ما تشائين يا بوليت، ولكن يجب أن تخبرينا الآن، هل فهمتِ؟

ردّد فيليبير: هل فهمتِ؟

تنهّدت السيّدة العجوز ونقرت على زاوية سترتها لبضع ثوانٍ بدت لهم دهراً ثمّ رفعت رأسها وسألت:

- هل فكّرتم بوضع كرسي في الحمّام؟

- عفواً؟

Twitter: @ketab_n

- لستُ كسيحة تماماً... يمكنني الاستحمام بمفردي، ولكن يجب أن تضعوا لي كرسياً في الحمام، فمن دونه...

تظاهر فيليبير بالكتابة على يده:

- كرسي في الحمام للسيّدة العزيزة! لقد دوّنت ذلك! وماذا أيضاً، أرجوكِ؟

ابتسمت:

- لا شيء آخر...

- لا شيء آخر؟

قالت أخيراً:

- أجل. أحبّ كثيراً مجلتي **تيلي ستار** وكلماتي المتقاطعة، أُبر وبعض الصوف للصغيرة، علبة **نيفيا** لأنني نسيتُ علبتي، سكاكر، راديو صغير على طاولة سريري، أشياء أنقع فيها طقم أسناني، أربطة للساق، مشّايات، وقميص نوم أكثر دفئاً لأنّ الشقّة مليئة بالتيارات الهوائية، بعض الزينة، مساحيق للوجه، عبوة الكولونيا التي نسيها فرانك أمس، وسادة إضافية، عدسة مكبّرة، كما أريد أن تنقلوا الأريكة إلى أمام النافذة و...

سأل فيليبير قلقاً:

- وماذا؟

- هذا كلّ شيء على ما أعتقد...

انضمّ فرانك إليهم ومعه صندوق عدّته وربّت على كتف زميله:

- سحقاً يا بُني، ها نحن الآن مع أميرتين...

Twitter: @ketab_n

وبّخته كاميل:

- احذر! أنت تنثر الغبار في كلّ مكان...

أضافت جدّته:

- وتوقّف عن الشتم بهذه الطريقة من فضلك!

ابتعد مجرجراً قدميه:

- أووووه يا جدّتي العزيزة... سيكون الجوّ حارّاً... نحن في حالٍ سيئة، يا صديقي، نحن في حالٍ سيئة... أنا سأعود إلى عملي، هذا أهدأ. إذا كان أحدكم سيتبضّع فليجلب لي بطاطس لأطهوها لكم... بطاطس من نوعية جيّدة هذه المرّة! انظروا... بطاطس للسلق والهرس بالحليب... الأمر ليس معقّداً، إنّها توضَع على شرائح اللحم المشوية...

«نحن في حالٍ سيئة، هنا، نحن في حالٍ سيئة...»، قال متوجّساً ومغترّاً. ولن يكونوا في حياتهم أحسن حالاً.

الحديث بهذه الطريقة فيه شيءٌ من السذاجة بالطبع، ولكن حسناً، كانت هذه هي الحقيقة ومنذ زمنٍ طويل لم تعد الضحكة تضجرهم: للمرّة الأولى شعروا بأنّ لديهم عائلة حقيقية.

كانوا مع امرأة حقيقية، امرأة مختارة، امرأة مرغوبة، امرأة تحمّلوا العناء من أجلها ولم تطلب منهم شيئاً في المقابل ليكونوا سعداء معاً. حتى وإن لم يكونوا سعداء، لم يعودوا متطلبين جداً. أن يكونوا معاً، هذا كلّ شيء. ولم يكن هذا مأمولاً في السابق.

4

بعد مسلسل الحمّام، لم تعد بوليت هي نفسها. وجدت معالمها وانخرطت في الجوّ بيُسرٍ مذهل. هل كانت بحاجة إلى

Twitter: @ketab_n

دليلٍ فقط؟ دليل على أنّها كانت منتظَرة ومرحّب بها في هذه الشقّة الشاسعة الفارغة التي كانت مصاريع أبوابها تغلق من الداخل والتي لم يلمس أحدٌ غبارها منذ عهد الإصلاح. إذا كانوا قد نصبوا لها لوحدها دوشاً، إذاً... كادت ألا تعرف ماذا تقول لأنّها كانت بحاجة إلى غرضين أو ثلاثة وغالباً ما فكّرت كاميل بهذا المشهد. كيف ساءت أحوال الناس، غالباً بسبب بعض الهنات، وكيف أمكن لكلِّ شيء أن يفسد بالسرعة القصوى لو لم يكن هناك صبيٌّ صبورٌ سأل «وماذا أيضاً؟» ممسكاً بمفكّرة وهمية... ما سبب ذلك في النهاية؟ ما المقصود في النهاية؟ صحيفة رديئة، عدسة مكبّرة، وقارورتان أو ثلاث... كان أمراً مدوّخاً... كانت فلسفة بسيطة أبهجتها وتبيّن أنّها أكثر تعقيداً حينما التقتا عند رفّ معجون الأسنان في متجر **فرانبري** لقراءة ملخّصات معجون ستيرادان وبوليدان وفيكساداn وغيرها من الأعاجيب...

- بوليت... ما تسمّينه... بعض «الزينة»، أهي...

أجابت حانقة:

- سوف لن ترغميني في نهاية المطاف على وضع طبقة كالتي يصفونها هناك بذريعة أنّها أرخص ثمناً!

ردّدت كاميل وقد بدا عليها الارتياح:

- آه! أشياء للتزيُّن! حسناً... لم أفهم أبداً...

أصبحتا اليوم تعرفان متجر **فرانبري** عن ظهر قلب بل وسرعان ما بات متجاوَزاً ومهجوراً بالنسبة لهما! والآن كانتا تجولان بخطوات وئيدة في متجر **مونوبري** ومعهما عربتهما من

Twitter: @ketab_n

طراز **كادي** وقائمة المشتريات التي أعدّها فرانك مساء أمس. . .

آه! متجر **مونوبـ**. . .

كلّ حياتهما. . .

كانت بوليت دائماً أول مَنْ يستيقظ وتنتظر أن يجلب لها أحد الصبيّين فطورها إلى سريرها. حينما كان فيليبير هو الذي يتكفّل بذلك، كان يقدّم لها الفطور على صينية مع ملقط سكّر وفوطة مطرّزة وكوب حليب. ثمّ يساعدها على النهوض ويرتّب وسائدها ويسحب الستائر وهو يبدي تعليقاً مقتضباً على حالة الطقس. أبداً لم يعاملها رجلٌ بهذا اللطف من قبل، وما كان يجب أن يحصل قد حصل: بدأت هي الأخرى تعشقه. حينما كان فرانك هو الذي يقوم بالمهمّة كان الأمر. . . أكثر خشونةً. كان يضع كوبها على طاولة سريرها ويقبّل خدها على عجلٍ لأنّه تأخّر عن عمله.

- ألا ترغبين في التبوّل؟

- سأنتظر الصغيرة. . .

- هيه يا جدّتي، الأمر جيّد هنا! دعيها قليلاً! سوف تنام لساعة أخرى! وسوف لن تتمالكي نفسك لكلّ هذا الوقت. . .

ردّدت، رابطة الجأش:

- سأنتظرها.

ابتعد فرانك مغمغماً.

- حسناً، انتظريها، هيّا. . . انتظريها. . . ليس لديها ما تهتمّ به الآن سواكِ. . . أنا أيضاً سأنتظرها، سحقاً! ماذا عليّ أن أفعل؟ أن أكسر ساقيّ لكي تعتني بي أيضاً كطفل؟ تدلّلي يا ماري بوبانس، تدلّلي. . .

Twitter: @ketab_n

كانت تخرج من غرفتها وهي تتمطّى:

- ممّ تتذمّر أيضاً؟

- لا شيء. أعيش مع الأمير شارل والأخت ايمانويل وأقهقه كأحمق. أفسحي لي المجال، لقد تأخّرت... في الحقيقة؟

- ماذا؟

- أعطِني ذراعكِ لأرى...

جسّ ذراعها ثمّ قال مبتهجاً:

- هذا ممتاز! قولي إذاً، يا بدينة... احذري... سوف تقعين في فخّي ذات يومٍ...

- ولا في الحلم، أيّها الطاهي المحترف. ولا في الحلم.

- بل أجل يا طائر السماني، هذا ما سيحصل...

كان ذلك صحيحاً، كان العالم أكثر بهجة بكثير.

عاد وسترته تحت ذراعه:

- الأربعاء القادم...

- الأربعاء القادم ماذا؟

- سيكون يوماً دسماً، لأنّه سيكون لديّ الكثير من العمل يوم الثلاثاء، وانتظريني على العشاء...

- عند منتصف الليل؟

- سأحاول أن أعود أبكر من ذلك وسأعدّ لك فطائر لم تأكلي مثلها في حياتكِ...

- آه! أنا خائفة! ظننتُ أنّك اخترتَ هذا اليوم لتضاجعني!

- سأعدّ لكِ الفطائر ومن ثمّ، بعد ذلك، أضاجعكِ.

Twitter: @ketab_n

- رائع.

رائع؟ كان ذلك سيئاً... ماذا سيفعل هذا المغفل إلى أن يحين الأربعاء؟ هل سينظر إلى نفسه في كلّ المرايا العاكسة، ويخفق في إعداد صلصاته، ويشتري ألبسة داخلية جديدة؟ اللعنة، ولكن لم يكن ذلك صحيحاً! بطريقة أو بأخرى سينال هذا الدنس منه في النهاية! القلق... شريطة أن تكون من نوعية جيّدة... وسط الشكّ قرّر في نهاية المطاف أن يشتري سروالاً داخلياً جديداً...

نعم... إذاً سينجح الأمر يا **غران مارنييه**، أنا مَنْ يخبركم بذلك، سينجح الأمر... وما لا أشعله، أشربه.

ثمّ جاءت كاميل لتنضمّ إليها وفي يدها فنجانٌ من الشاي. جلست على السرير وسحبت اللحاف وانتظرتا رحيل الصبيين لكي تشاهدا **قناة التسوّق** على التلفزيون. افتتنتا بالبضائع المعروضة وقهقهتا وسخرتا من الألبسة الرسمية للشخصيات الشرفية. واندهشت بوليت، التي لم تكن قد ألفت بعد الانتقال إلى اليورو، أدهشها الغلاء الفاحش في باريس. لم يعد هناك متّسعٌ من الوقت، فانسحبت باسترخاء من الغلّاية إلى متجر **مونوبري** ومن **مونوبري** إلى بائع الصحف.

شعرتا بأنّهما كانتا في عطلة. كانت العطلة الأولى منذ سنوات بالنسبة لكاميل والأولى في حياة السيّدة العجوز. كانتا على اتّفاق جيّد وتتفاهمان بنصف كلمة وتستعيدان شبابهما بمرور الأيام.

كانت كاميل قد أصبحت ما يسمّيه صندوق الإعانة المالية

Twitter: @ketab_n

«مساعدة على الحياة». كانت هذه الكلمات الثلاث ملائمة لها وعوّضت جهلها الشيخوخي بتبنّيها لهجة مباشرة وكلمات فجّة كانت تكبحهما.

- هيّا، يا عزيزتي بوليت، هيّا... سوف أنظّف ردفيك بالمعقّم...

- أأنتِ متأكّدة؟

- أجل!

- ألا يشعرك ذلك بالاشمئزاز؟

- كلا.

وإذ تبيّن أنّ تنصيب مقصورة استحمام مسألة معقّدة جداً، صنع فرانك درجةً مضادة للتزحلق لتسلّق مغطس الحمام وقطع قوائم كرسيّ قديم كانت كاميل تضع عليها فوطة إسفنجية قبل أن تُجلِس عليها محميّتها.

أنّت:

- أوه... ولكن هذا يزعجني... لا يمكنكِ أن تعرفي كم أنا متضايقة لأني أفرض هذا عليكِ...

- هيّا بنا...

- هذا الجسد الشائخ، ألا يثير تقزّزكِ؟ أأنتِ متأكّدة؟

- أنتِ تعرفين، أنا... أنا أعتقد بأنّ رؤيتي للأمور تختلف عن رؤيتكِ... أنا... أخذتُ دروساً في التشريح، ورسمتُ عُراة بنفس عمركِ على الأقلّ ولا مشكلة حياء عندي... أقصد، بلى، ولكن ليس في هذا الأمر. لا أدري كيف أشرح لكِ ذلك...

Twitter: @ketab_n

ولكن حينما أنظر إليكِ، لا أقول لنفسي: أوف، هذه التجاعيد وثدياها المتدليان وهذا البطن المترهّل وهذا الشعر الأبيض وهذا العضو التناسلي الرخو أو هاتان الركبتان المتماستان... كلا، ليس تماماً... ربّما سأغيظكِ ولكنني أهتمّ بجسدكِ بمعزل عنكِ. أنا أفكّر في الشغل، في الجانب التقني، في الضوء، في التقاطيع وفي اللحم الخدّاع... أفكّر في بعض اللوحات... العجائز المخبولاتِ لغُويَا، رموز لوحة **الموت**، والدة رامبرانت أو ملهمته آنا... اعذريني، يا بوليت، كلّ ما أرويه لكِ فظيع ولكن... في الحقيقة، أنظر إليكِ ببرودة شديدة!

- كحمقاء فضولية؟

- ثمّة شيءٌ من هذا... كفضولٍ بالأحرى...

- وإذاً؟

- إذاً لا شيء.

- وسوف ترسمينني أيضاً؟

- نعم.

ساد الصمت.

- نعم، إن سمحتِ لي بذلك... أودّ أن أرسمكِ حتى أعرفكِ عن ظهر قلب. إلى أن لا يعود باستطاعتكِ أن تشعري بوجودي من حولكِ...

- سوف أسمح لكِ بذلك، ولكنني هنا حقّاً... أنتِ لستِ حتى ابنتي ولا أيّ شيء وأنا... أوه... كم أنا مرتبكة...

وأخيراً تجرّدت كاميل من ثيابها وركعت أمامها على الميناء الباهت:

Twitter: @ketab_n

- اغسليني.

- عفواً؟

- أمسكي بلوح الصابون وبالقفّاز واغسليني، يا بوليت.

امتثلت ومدّت ذراعها، وهي ترتعش على كرسيّ صلاتها، إلى ظهر الفتاة الشابّة:

- هيه! أَشَدّ قوّة!

- يا إلهي، أنتِ فتيّة... حينما أفكّر بأنني كنتُ مثلكِ سابقاً... طبعاً، لم أكن بهذه الرقّة ولكن...

قاطعتها كاميل ممسكة بصنبور الماء:

- تريدين أن تقولي بهذه النحافة؟

- لا، لا، كنتُ أقصد حقاً «رقيقة»... أتذكّر حينما حدّثني فرانك عنكِ للمرّة الأولى، لم تكن على فمه سوى هذه الكلمة: «أوه يا جدّتي، كم هي نحيفة... لو ترين كم هي نحيفة...»، أمّا الآن وأنا أراكِ كما أنتِ، لستُ متّفقة معه. لستِ نحيفة، أنتِ رقيقة. أنتِ تذكّرينني بتلك المرأة الشابّة في كتاب **غران مولن**[1]... **أتعلمين؟ ماذا كان اسمها؟ ساعديني على تذكّرها...**

- لم أقرأ الكتاب.

- كان لديها اسمٌ نبيل أيضاً... أوه، يا للغباء...

- سوف نرى في المكتبة... هيّا بنا! انزلي إلى الأسفل أكثر! ليست هناك أسباب! مهلاً، سأستدير الآن... ها هو... أترين؟ نحن في المركب نفسه، يا عزيزتي! لماذا تنظرين إليّ هكذا؟

- أنا... أنظر إلى هذه الندبة، هنا...

---

(1) Le Grand Meaulnes. رواية آلان - فورنيه. (المترجم).

Twitter: @ketab_n

- أوه، هذه؟ هذه بسيطة...

- كلا... هذه ليست بسيطة... ماذا حدث لكِ؟

- قلتُ لكِ إنّها مسألة بسيطة.

ومنذ ذلك اليوم، لم تعد المسألة مسألة بشرة بينهما.

ساعدتها كاميل في الجلوس على فتحة المرحاض ومن ثمّ تحت الدوش وغسلتها بالصابون وهي تتحدّث في أمورٍ أخرى. بدا الصابون السائل أكثر نعومةً. كانت كلّما تغمض عينيها، تفقد السيّدة العجوز توازنها وترتدّ إلى الخلف. وبعد عدّة محاولات كارثية، قرّرتا أن تذهبا إلى مزيّن. ليس في الحيّ الذي كانت الأسعار فيه غالية جداً («مَنْ هي ميريام؟ أجابها فرانك القميء، أنا لا أعرف فتاةً باسم ميريام...»). ولكن في نهاية رتلٍ من الحافلات، نظرت كاميل إلى مخطّطها وتابعت بإصبعها مسارات حافلات باريس ودقّقت في الصفحات الصفر وبحثت عن بيانات حول محلٍّ لتجعيد الشعر ووقع اختيارها على صالونٍ صغير في شارع بيرينيه، أسعاره زهيدة.

في الحقيقة، لم يكن اختلاف الأسعار يبرّر رحلة كتلك ولكنّها كانت نزهة جميلة للغاية...

وهكذا، كلّ يوم جمعة، منذ الصباح الباكر، كانت بوليت تضع مجعّدة الشعر، أمام واجهة الصالون

وترسم تفاصيل باريس يومياً، وبلمح البصر أثناء ازدحام السير - زوجاً من كلاب البطباط[1] بمعاطف بوربيري على جسر

(1) نوع من الكلاب، مجعّدة الوبر، تحبّ البطبطة في المياه. (المترجم).

Twitter: @ketab_n

رويال، أو نوعاً من الزخارف التي تزيّن جدران متحف اللوفر، أقفاصاً وشجر زينة رصيف شارع ميجيسوري، قاعدة عمود جيني باستيل، أو قباب المقاهي الأدبية في بير-لاشيز، ثمّ كانت تقرأ قصص الأميرات الحبالى والمغنين المهجورين بينما كانت صديقتها تبتهج تحت مجفّفة الشعر. كانتا تتناولان الغداء في مقهى في منطقة غامبيتا. ليس في غامبيتا بالضبط، المكان العصري جداً بالنسبة لذوقهما وإنّما في حانة **ميترو** التي كانت تفوح منها رائحة التبغ البارد وأصحاب الملايين الخاسرين والصبي النزق.

كانت بوليت، التي تتذكّر تعليمها المسيحي، تأكل دوماً تورتة باللوز، وكانت كاميل، التي لم تكن لديها أيّة منظومة أخلاقية، تأكل شطيرة كروك مسيو مغمضة العينين. كانتا تطلبان قارورة من الشراب وتضربان قدحاً بقدح بابتهاج. بصحتنا! بعودتنا! كانت تجلس قبالتها وترسم بالضبط نفس الأشياء ولكن بنظرة المرأة الصغيرة الأنيقة جداً والمتبرّجة التي لم تكن تجرؤ على الاستناد إلى الواجهة الزجاج خوفاً من دعك خصلات شعرها الرائعة المصبوغة باللون الخبّازي. (كانت جوانا، المزيّنة، قد أقنعتها بتغيير لون شعرها): «إذاً هل اتّفقنا؟ سأصبغه لكِ بأوبالين ساندريه، إيه؟ انظري، إنّه الرقم 34...». أرادت بوليت استشارة كاميل بالنظر ولكنّ هذه الأخيرة كانت غارقة في أمرٍ آخر صرفها عن بوليت. سألت بقلق: «ألن يكون هذا قاتماً جداً؟». «قاتماً؟ كلا! على العكس، سيكون زاهياً جداً!»).

في الواقع، كانت... كانت الكلمة مناسبة. كان ذلك زاهياً

Twitter: @ketab_n

جداً، ويومئذٍ، نزلنا إلى زاوية شارع فولتير لتشتريا، إضافة إلى أشياء أخرى، نصف قادوسٍ جديد للرسم المائي من متجر سونيلييه.

تغيّر لون شعر بوليت من الوردي الضارب إلى الذهبيّ الفاقع إلى اللون الخبّازيّ من ويندسور.

آه! في الحال... كان ذلك أكثر أناقةً...

في الأيام الخوالي، كان هناك متجر مونوبري. كانتا تستغرقان أكثر من ساعة لتقطعا مائتي متر وتجرّبان كريم **دانيت** الجديد وتستجيبان لاستطلاعات غبية وتجرّبان أحمر الشفاه أو قماشة فظيعة من الموسلين. كانتا تتسكّعان وتهذران وتتوقّفان في الطريق وتعلّقان على مظهر البرجوازيات الكبيرات في الطابق السابع وبهجة المراهقات. ضحكاتهنّ المجنونة وحكاياتهنّ العجيبة ورنين هواتفهنّ وحقائب ظهورهنّ المبرقعة بأشياءٍ تافهة. كانتا تتلهيّان وتتنهّدان وتسخران وتنتعشان بحذر.

كان لديهما متّسع من الوقت، كانتا مقبلتين على الحياة...

5

حينما لم يكن فرانك يشرف على المطبخ، كانت كاميل تنكبّ على ذلك. بعد عدّة أطباقٍ من المعجنات المطبوخة أكثر مما يلزم، ومن العجّة المحروقة، أصرّت بوليت على أن تحدّد لها بعض مبادئ الطبخ. ظلّت جالسة أمام فرن الغاز وعلّمتها كلمات واضحة جداً مثل: باقة من الصعتر والبقدونس والغار، قدرٌ من الفونط، مقلاة ساخنة ومرق متبّل. كان منظرها بشعاً،

Twitter: @ketab_n

ولكن، من خلال الرائحة، كانت تحدّد لها الخطوات التي يجب عليها أن تتّبعها. .. البصل، شرائح الشحم، قطع اللحم، ممتاز، رائع. أضيفي المرق إلى كلّ هذا. .. هيّا، سأعلّمكِ. .. رائع!

- هذا جيّد. لا أقول إنني سأعدّ لكِ طبق كوردون بلو، ولكنني. . .

- وفرانك؟

- فرانك ماذا؟

- أأنتِ علّمتِه كلّ شيء؟

- كلا، ليس كلّ شيء! أتصوّر أنني أعطيته الذوق. .. لكن الأمور الأساسية، لم يتلقّاها منّي. .. أنا علّمته الطبخ المنزلي. .. أطباقاً بسيطة، ريفية ورخيصة الثمن. .. حينما توقّف زوجي عن العمل بسبب مرضٍ قلبي، عملتُ طاهيةً في بيتٍ برجوازي. . .

- وكان يرافقكِ؟

- نعم! أين كنتُ سأتركه وهو صغير؟ ثمّ بعد أن كبُر قليلاً، لم يعد يرافقني. .. ثم بعد ذلك. . .

- بعد ذلك ماذا؟

- أف، تعرفين جيداً كيف سارت الأمور. .. بعد ذلك شقّ عليّ أن أعرف أين يتسكّع. .. ولكنه. .. كان موهوباً. كان يميل إلى هذا العمل. كان المطبخ هو تقريباً المكان الوحيد الذي يهدأ فيه. . .

- وهو لا يزال كذلك حتى الآن.

- هل رأيتيه؟

Twitter: @ketab_n

- نعم. أخذني معه ذات يوم كعاملة إضافية... ولم أتعرّف عليه في المطبخ!

- ومع ذلك لو تعرفين المأساة التي حصلت حينما أرسلناه في دورة تعليمية... لقد حقد علينا...

- ماذا كان يريد أن يعمل؟

- لا شيء. حماقات... كاميل، أنتِ تفرطين في الشراب!

- أنتِ تمزحين! لم أعد أشرب منذ قدومكِ إلى هنا! تفضّلي، جرعة صغيرة من جاجا، إنّه مفيد للشرايين. لستُ أنا مَنْ يقول ذلك، الأطباء يقولون هذا...

- حسناً... قدحٌ صغيرٌ منه إذاً...

- ماذا إذاً؟ لا تتذمّري هكذا! هل أنتِ حزينة؟

- كلا، إنّها الذكريات...

- أكان الأمر صعباً؟

- في بعض الأوقات، نعم...

- أهو الذي كان صعباً؟

- هو، والحياة...

- لقد روى لي...

- ماذا؟

- يوم جاءت والدته لتأخذه معها... وكلّ الحكاية...

- ترين... الأسوأ هو حينما نشيخ، ليست... خذي، اسكبي لي قدحاً آخر، هيا... ليست المسألة أن يزول الجسد، كلا، المسألة هي مسألة الندم... كيف يعود ويستبدّ بك

Twitter: @ketab_n

ويعذّبك... نهاراً... وليلاً... وفي كلّ وقت... تأتي لحظات لا تعودين قادرة على معرفة إن كان عليكِ أن تبقي عينيكِ مفتوحتين أم تغمضينهما لتطردي الذكريات... تأتي لحظة حيث... يعلم الله أنني مع ذلك حاولت... حاولت أن أفهم لماذا لم تسر الأمور على ما يُرام... لماذا سارت كلّ الأمور عكس ما شئت... و...

- وماذا؟

ارتجفت:

- لا أستطيع. لا أفهم. لا...

بكت:

- من أين أبدأ؟

- أوّلاً، لقد تزوّجت في عمرٍ متأخّر... أوه! وككلّ الآخرين، كانت لي قصّتي مع الحبّ... ولكنها لم تكتمل... فتزوّجت فتى ظريفاً لكي أرضي الجميع. أخواتي كنّ قد تزوجن قبلي بكثير وفي النهاية... تزوّجتُ بدوري...

«ولكنني لم أُرزَق بأطفالٍ... وفي كلّ شهر، كنتُ ألعن بطني وأبكي وأنا أغلي ألبستي الداخلية. راجعتُ أطباء، بل جئتُ إلى هنا، إلى باريس، لأجري الفحوصات الطبية... راجعتُ أطبّاء شعبيين ومشعوذين وعجائز شريرات طلبن منّي أموراً مستحيلة... إنها أمور قمتُ بها يا كاميل، قمتُ بها بلا تردّد... التضحية بحملان عند اكتمال البدر وشرب دمائها والتهام... أوه، كلّا... كان فعلاً أمراً وحشياً، صدّقيني... أمورٌ لا تمتّ إلى هذا القرن بصلة... قيل لي إنّني **ممسوسة**. ثمّ بدأت رحلات

Twitter: @ketab_n

الحجّ.. كلّ عام، كنتُ أذهب إلى **لوبلان** وأضع إصبعي في ثقب ضريح القديس **جينيتور**، ثمّ أذهب لأتبارك بالقديس **غريليشون** في قرية **غارجيليس**... أتضحكين؟

- أضحك لهذه الأسماء...

- ولم ينتهِ الأمر، انتظري... كان عليّ أن أقدّم قرباناً من الشمع يمثّل الطفل المرغوب إلى القدّيس **غرينويار** في **بروبلي**...

- **غرينويار**؟

- **غرينويار**، كما أخبرتكِ! آه! كانوا في غاية الجمال ولكنّهم كانوا أطفالاً من الشمع، صدّقيني... عرائس حقيقية... لم يكن ينقصهم سوى أن ينطقوا... ثمّ ذات يوم، وبعد أن استسلمتُ بزمنٍ طويل، حبلتُ... كان عمري أكثر من ثلاثين عاماً.. لن تدركي ذلك، ولكنني كنتُ أهرم... وجاءت نادين، والدة فرانك... ولأننا دلّلناها، وأحطناها برعايتنا، ودلّعناها... هذه البنت... هذه الملكة... أفسدنا طبعها... لقد أحببناها بإفراط... أو أسأنا حبّها... استجبنا لكلّ نزواتها... كلّها، باستثناء النزوة الأخيرة... رفضت أن أقرضها المال الذي طلبته مني لكي تقوم بعملية إجهاض... لم أستطع، أتفهمين؟ لم أستطع. لقد عانيتُ وتألّمت كثيراً. لم يكن التديّن ولا الأخلاق ولا الثرثرات ما يردعني. وإنّما الحنق. الحنق. الخطيئة. كنتُ لأفضّل قتلها على أن أساعدها على أن تقتل جنينها... هل... هل أخطأت؟ أجيبيني. كم حياة هالكة في مهبّ خطأي؟ كم من الآلام؟ كم من...

- اسكتي.

Twitter: @ketab_n

كانت كاميل تفرك فخذها.

- اسكتي...

- وبالتالي... رُزِقَت بهذا الطفل، ثمّ تركته لي... قالت لي: «خذي، طالما كنتِ تريدينه، ها هو! هل أنتِ مسرورة الآن؟».

أغمضت عينيها وردّدت وهي تشهق:

- «هل أنتِ مسرورة الآن؟»، ردّدت عليّ ذلك وهي تعدّ حقيبتها، «أأنتِ مسرورة؟». كيف يمكن للمرء أن يقول أشياءً كهذه؟ كيف يمكن للمرء أن ينسى أموراً كهذه؟ كيف كان بوسعي ألا أسهر الليالي وألا أنهك حياتي وألا أعمل إلى حدّ الإجهاد، إذاً؟ اخبريني. اخبريني... لقد تركته، وعادت بعد بضعة أشهر، وأخذته، ثمّ أعادته ثانية. لقد أصبحنا جميعاً مجانين. وخاصّة زوجي موريس... أعتقد بأنّها أوصلته إلى نهاية صبره كرجل... لا بدّ أنّها قد أغاظته وخدعته مرّة أخرى، فقد جاءت تطلب مالاً لكي تطعمه، على حدّ زعمها، ثمّ فرّت ليلاً وتركت الطفل. وذات يوم، بعد ذلك بكثير، عادت بمعسول الكلام، فاستقبلها ببندقيته قائلاً لها: «لا أريد أن أراكِ ثانية، أنتِ لستِ سوى خائنة، أنتِ لا تخجلين ولا تستحقين هذا الطفل. سوف لن تريه ثانية. هيا انصرفي الآن. دعينا وشأننا». كاميل... كانت ابنتي... ابنتي التي انتظرتها يومياً لعشر سنوات... ابنتي التي أحببتها كثيراً. أحببتها... كيف كسرتُ بخاطرها... تملّيتها بالنظر قدر ما استطعت... فتاة صغيرة أعطيناها كلّ شيء. كلّ شيء! أجمل الأثواب. العطلة على شاطئ البحر، في الجبل، أفضل

Twitter: @ketab_n

المدارس... كلّ ما كان لدينا من طيّبات، كان لها. وما أرويه لكِ هنا حدث في قرية صغيرة... لقد غادرت ولكن بقي كلّ الذين عرفوها مذ كانت صغيرة والذين اختبأوا خلف مصاريع أبوابهم لكي يروا موريس حانقاً. وظللتُ أصادفهم. في الأيام التالية، كان الوضع... كان الوضع لا إنسانياً... كان جحيماً على الأرض. ليس هناك في الدنيا ما هو أسوأ من شفقة الناس الطيّبين. الذين يقولون لكِ بأنّهم يصلّون لأجلكِ وذلك لكي يجعلوكِ تبوحين لهم والذين يعلّمون زوجكِ شرب الكحول وهم يردّدون عليه بأنّهم كانوا لتصرّفوا بنفس الطريقة والعياذ بالله! راودتني الرغبة في القتل، صدّقيني... بل تمنيتُ لو أنني امتلكتُ القنبلة الذرية!

ضحكت.

- ثمّ ماذا؟ كان هذا الصبي موجوداً. لم يطلب أيّ شيءٍ من أحدٍ... لقد أحببناه. لقد أحببناه بقدر ما استطعنا... وربّما قسونا عليه في بعض اللحظات... لم نشأ أن نكرّر نفس الأخطاء فارتكبنا غيرها... وأنتِ، ألا تخجلين من رسمي هنا، الآن؟

- كلا.

- أنتِ محقّة. الخجل لا يقود إلى أيّ مكان، صدّقيني... خجلكِ لا يفيدكِ في شيء. إنّه فقط لإرضاء الناس المتجرّئين... وبعد ذلك حينما يغلقون أبوابهم أو يعودون من المقهى، يشعرون بالارتياح في بيوتهم. ينتعلون، مختالين، مشّاياتهم ويتبادلون النظرات مبتسمين. فكلّ هذا الاضطراب لم يحدث في عائلاتهم! ولكن... اطمئنّي. ألن ترسميني والكأس في يدي؟

Twitter: @ketab_n

ابتسمت كاميل:

- كلا.

ساد الصمت.

- ولكن بعد ذلك؟ سارت الأمور على ما يُرام...

- مع الطفل؟ نعم... كان طفلاً طيّباً... كان طائشاً ولكنّه كان صريحاً ونشيطاً. حينما لم يكن معي في المطبخ، كان في الحديقة مع جدّه... أو في الصيد... كان حانقاً ولكنه كان مستقيماً رغم كلّ شيء... حتى وإن لم تكن الحياة مسليّة مع شخصين مثلنا مسنّين وفقدا الشهية إلى التحدّث والنقاش منذ زمنٍ طويل ولكننا في النهاية بذلنا ما بوسعنا... لعبنا معه... لم نعد نقتل القطط الصغار... اصطحبناه إلى المدينة... إلى السينما... اشترينا له لوازم كرة القدم ودراجات هوائية جديدة... وكان مستواه جيّداً في المدرسة... أوه! لم يكن الأوّل على زملائه ولكنّه كان مثابراً... ثمّ عادت أمّه مرّة أخرى، وهنا اعتقدنا بأنّ من المفيد أن يرحل. وأنّ أمّاً غريبة الأطوار تبقى أفضل من لا شيء... وأنّه قد يحظى بأبٍ وأخٍ صغيرٍ، وأنّ ليس من المجدي أن يعيش ويكبر في قرية شبه ميّتة وأنّ ذهابه إلى المدينة فرصة مناسبة لدراسته... كيف وقعنا في الفخّ مرّة أخرى... كالمذهولين، وأنتِ تعرفين بقية الحكاية: حطّمته ووضعته في قطار الساعة الرابعة واثنتي عشرة دقيقة المباشر...

- ولم تسمعوا عنها أخباراً منذ ذلك الحين؟

- كلا. سوى في الأحلام... في الأحلام، أراها غالباً... أراها تضحك... أراها جميلة... أرِني ما رسمتِه.

Twitter: @ketab_n

- لا شيء. يدكِ على الطاولة...

- لماذا تدعيني أثرثر هكذا؟ لماذا تهتمّين بكلّ هذا الأمر؟

- أفرح كثيراً حينما يفرغ الناس ما في جعبتهم...

- لماذا؟

- لا أدري. هذا يشبه صورة ذاتية، أليس كذلك؟ صورة ذاتية مرفقة بكلمات...

- وأنتِ؟

- أنا لا أجيد السرد...

- ولكن بالنسبة لكِ أيضاً، ليس من الطبيعي أن تمضي فتاةٌ كلّ وقتها مع امرأة عجوز مثلي...

- حقّاً؟ وهل تعرفين ما هو الطبيعي؟

- عليكِ أن تخرجي... أن تري الدنيا... أن تري شباباً في عمركِ! هيّا... ارفعي عنّي هذا الغطاء... هل غسلتِ الفطر؟

6

سأل فرانك:

- هل نامت؟

- أعتقد ذلك...

- قولي إذاً، لقد أوقعتُ نفسي في قبضة الحارسة، يجب أن تنصرفي...

- أَلا زلنا جامدين في الحاويات؟

- كلا. هذا بسبب الرجل الذي تستضيفينه في الطابق العلوي...

Twitter: @ketab_n

- أوه اللعنة... هل ارتكب حماقة؟

باعد بين ذراعيه وهو يهزّ رأسه.

7

بدا بيكو قلقاً وفتحت بيريرا باب الشرفة ووضعت يدها على صدرها.

- ادخلي، ادخلي... اجلسي...

- ماذا حدث؟

- اجلسي، قلتُ لكِ.

باعدت كاميل بين الأرائك وجلست على حرف مقعدها المزخرف.

- لم أعد أراه...

- عمّن تتحدّثين؟ فانسان؟ ولكنني... صادفته ذاك اليوم، كان يستقلّ المترو...

- ذاك اليوم، يعني متى؟

- لم أعد أدري... في بداية الأسبوع...

- حسناً... ولكنني أقول لكِ بأنني لم أعد أراه. لقد اختفى. مع عزيزي بيكو الذي يوقظنا كلّ ليلة، لا أستطيع أن أخسره... والآن لم يعد هناك أيّ شيء. أخشى أن يكون قد حصل له مكروه... يجب أن نذهب لنرى، يا عزيزي... يجب أن نصعد.

- حسناً.

Twitter: @ketab_n

- يا يسوع الحبيب. أتعتقدين أنّه قد مات؟

فتحت كاميل الباب.

قالت وهي تتلاعب بميداليتها:

- قولي... إن كان قد مات، تأتين لرؤيتي، إيه؟ لا أريد فضيحة في العمارة، أتفهمين؟

8

- أنا كاميل، هلّا فتحت لي الباب؟

نباحٌ وأصواتٌ غامضة.

- هل ستفتح الباب أم أطلب مساعدة لخلعه؟

جاء صوتٌ أجشّ:

- لا، الآن لا أستطيع... أنا في حالة سيّئة جداً... عودي في ما بعد...

- في ما بعد، يعني متى؟

- هذا المساء.

- ألا تحتاج إلى أيّ شيء.

- لا. دعيني وشأني.

عادت كاميل على أعقابها:

- أتريد أن أُخرِجَ لك كلبك؟

لم تتلقّ جواباً.

نزلت السلالم ببطء.

كانت مشوّشة الذهن.

Twitter: @ketab_n

ربّما ما كان عليها أن تجلبه إلى هنا... من السهل أن تكون كريمة مع الآخرين... آه، هذا مؤكّد، كانت لديها هالتها الجميلة اليوم! مخدّرٌ في الطابق السابع، جدّة في سريرها، كلّ هذا العالم الصغير تحت مسؤوليتها، وهي المضطرة على الدوام للتمسّك بالسلّم لكي لا تقع. رائعة مثل لوحة... أيّ مجدٍ، حقّاً. هل أنتِ راضية عن نفسكِ، الآن؟ ألا يؤلمكِ جناحاكِ حينما تمشين؟

أوه، اسكتوا... هذا مؤكّد حينما لا نفعل شيئاً، إيه؟

لا، ولكن قيل لكِ ذلك... لا تشكّكي في ذلك، ولكنْ هناك متسكّعون آخرون في الشارع... هناك أحدهم أمام المخبز... لماذا لا تلتقطينه؟ أليس لديه كلب؟ تبّاً، ليته يعرف...

ردّت كاميل على كاميل: أنتِ تُرهقينني... أنتِ تُرهقينني كثيراً...

هيّا، سوف نخبره... ولكن ليس كلباً ضخماً، إيه؟ إنه كلبٌ صغير. كلبٌ صغير قصير القوائم، ذو وبر طويل ومجعّد يرتعد برداً، نعم، سيكون هذا مناسباً... أو جرو كلب، إذاً؟ جروٌ منكمشٌ على نفسه في قميصه الرياضي... هنا، أنتِ تفضفضين مباشرة. فضلاً عن ذلك، يبقى هناك الكثير من الغرف في بيت فيليبير...

جلست كاميل، منهكةً، على إحدى الدرجات وأرخت رأسها على ركبتيها.

فلنختصر.

Twitter: @ketab_n

لم تقابل أمّها منذ شهر. كان عليها أن تتحرّك وإلّا كانت الأخرى ستسبّب لها أزمة مع سامو. كانت قد اعتادت على ذلك منذ زمن، ولكن لا بأس، لم يكن ذلك قط جزءًا من سعادتها... ثمّ كانت تستغرق وقتاً لكي تبرأ من ذلك... هذه الفتاة الصغيرة في غاية الحساسية...

كانت بوليت تضمن حياتها تماماً بين العامين 1930 و1990 ولكنها كانت حائرة بين الأمس واليوم ولم يكن ذلك مناسباً للتصالح مع ذاتها. أيكون ذلك لفرط السعادة؟ كانت وكأنها تدع نفسها تغوص بهدوء نحو القاع... علاوة على ذلك، لم تكن ترى فيه سوى البلاط... حسناً. إلى هذا الحدّ كان الأمر سارياً... كانت تنصرف إلى قيلولتها وكان فيلو سيأتي قريباً ليشاهد معها برنامج المسابقات **أسئلة إلى بطل** وهو يعطي كلّ الإجابات من دون أن يُخطِئ. كانا يعشقان هذا البرنامج. ممتاز.

فيليبير، لنتكلّم عن ذلك، كان لويس جوفيه وساشا غيتري في نفس اللباس الرسمي. الآن كان يكتب. كان يحبس نفسه لكي يكتب ويردّد لأمسيتين في الأسبوع. لا أخبار على جبين الأحباب؟ حسناً. لا أخبار، أخبار سارّة.

بالنسبة لفرانك... لم يكن هناك أيّ شيء خاصّ. لا شيء جديداً. كان كلّ شيء على ما يُرام. كانت جدّته غارقة في الحرّ وكذلك دراجته النارية. لم يكن يعود إلّا بعد الظهيرة لكي ينام وكان يستمرّ في العمل يوم الأحد. «القليل أيضاً أفهمت قصدي. لا يمكنني تركهم هكذا...·يجب أن أجد بديلاً عنّي...».

حسناً... بديلاً أم دراجة أضخم من هذه؟ الصبي خبيث

Twitter: @ketab_n

جداً. خبيث جداً... لماذا سينزعج في مكان آخر؟ أين كانت تكمن المشكلة؟ لم يطالب بأيّ شيء. وبعد أن أمضى الأيام الأولى مزهواً، عاد إلى أرض الواقع. وفي الليل، كان عليه أن يضغط على رأس صديقته بينما كانت تنهض لكي تُطفئ جهاز التلفزيون. ولكن... لا مشكلة. لا مشكلة... كانت أيضاً تفضّل البرامج الوثائقية حول مثانة أسماك الجرانتية وآخر تبوّل في إبريق الشاي في عملها في شركة توكلين. طبعاً، كان بوسعها ألا تعمل أبداً، ولكنها لم تكن بالقوة الكافية لفعل ذلك... كانت الشركة قد درّبتها جيّداً... أكان ذلك لأنّها تفتقر إلى الثقة بنفسها، أم كان الأمر عكس ذلك تماماً؟ أهو الخوف من أن تجد نفسها في وضعٍ تكسب فيه قوتها بمذلّة؟ بقي لديها بعض الاتّصالات... ولكن ماذا؟ أتبصق على نفسها مرّة أخرى في الطابق العلوي؟ أتغلق كراريسها وتأخذ عدسة مكبّرة؟ لم تعد تملك الجرأة. لم تكن قد أصبحت أفضل حالاً، كانت قد شاخت. تبّاً.

كلا، كانت المشكلة تكمن في وجود ثلاثة طوابق نحو الأعلى... لماذا رفض أن يفتح لها الباب في البداية؟ هل لأنّه كان ثائر الأعصاب أم لأنه كان في وضعٍ مزرٍ؟ هل كانت حكاية العلاج هذه صحيحة؟ شركٌ لفتنة الفتيات البرجوازيات الصغيرات وحاجباتهنّ، نعم! لماذا لم يكن يخرج إلا ليلاً؟ هل لكي يذهب ويتربّص قبل أن يطبق على إحداهنّ تحت الشرفة؟ جميعهم هكذا... كذّابون يذرّون رماداً في عيونكِ ويحتفون بكِ ركوعاً في حين تعضّين على رسغيكِ إلى حدّ الإدماء، هؤلاء السفلة...

حينما اتّصلت ببيير قبل خمسة عشر يوماً، كانت قد استأنفت ترّهاتها: شرعت في الكذب هي الأخرى.

Twitter: @ketab_n

«كاميل، كيسلر على الخطّ. ما هذه الحكاية؟ مَنْ هذا الشخص الذي يعيش في بيتي؟ أجيبيني فوراً».

شكراً يا بيريرا البدينة، شكراً.

سيّدتنا فاتيما، صلّي من أجلنا.

بزّت غيرها في الكذب وقالت حتى قبل أن تحيّيه:

- إنّه موديل، نعمل معاً...

قاطعها:

- موديل؟

- نعم.

- أتعيشين معه؟

- كلا. لقد أخبرتك للتوّ: أنا أعمل.

- كاميل... أنا... أنا أرغب بشدّة أن أثق بكِ اليوم... هل يمكنني ذلك؟

-...

- هذه لمن؟

- لكَ.

- ماذا؟

-...

- أنتِ... أنتِ...

- لا أدري بعد. سأرسم بالطبشور الأحمر على ما أعتقد...

- حسناً...

- حسناً إلى اللقاء...

Twitter: @ketab_n

- هيه!

- ماذا؟

- أيّ نوعية ورق لديك؟

- من النوعية الجيّدة.

- أأنت متأكّد؟

- دانييل هي التي قدّمته لي...

- ممتاز. وعدا ذلك هل أنت بخير؟

- أنا أتحدّث مع التاجر الآن. بالنسبة للابتسامات، سأتّصل بكِ على الخطّ الآخر.

أُقفِل الخطّ.

هزّت علبة أعواد الثقاب متنهّدة. لم يعد لديها من خَيار.

هذا المساء، بعد أن تقترب من عجوزٍ نحيلة لن تشعر بالنعاس مهما يكن، ستصعد من جديد هذه السلالم وتأتي للتحدّث إليه.

في آخر مرّة حاولت فيها أن تستوقف مدمناً على المخدرات عند هبوط الليل، تلقّت طعنة سكين في كتفها... حسناً. كان الأمر مختلفاً. كان صديقها وكانت تحبّه ولكن رغم ذلك آلمها ذلك...

اللعنة. لم تعد هناك أعواد ثقاب. أوه يا للبؤس... يا سيّدتنا فاتيما ويا هانس كريستيان أندرسن، ابقيا هناك، ابقيا لبعض الوقت.

وكما في الحكاية، نهضت وربتت على ساقي بنطالها وذهبت لتنضمّ إلى جدّتها في الفردوس...

Twitter: @ketab_n

9

- ما هذا؟

تهزْهَز فيليبير قائلاً:

- أوه... تقريباً لا شيء في الحقيقة...

- مأساة قديمة؟

- كلل... لا...

- فودفيل؟

أمسك بقاموسه بحثاً عن معنى الكلمة:

- فاريس... فاسويار... فو... فودفيل... **مسرحية هزلية خفيفة، قائمة على مفارقات الحبكة والالتباسات والكلمات البسيطة**.. . نعم. هذا هو بالضبط، قال فيليبير وهو يغلق القاموس بضربة خاطفة. كوميديا خفيفة بكلمات بسيطة.

- عمَّ يتحدّث هذا؟

- عنّي، أنا.

سألت كاميل بصوتٍ مخنوق:

- عنكَ، أنت؟ ولكن كنتُ أعتقد بأنّه من المحظور عندك الحديث عن الذات؟

أضاف وهو يأخذ استراحة:

- الواقع، لقد تراجعت.

- و... أوه.... وهذه اللحية الصغيرة... أهي... أهي من أجل الدَور؟

- ألا تحبّينها؟

Twitter: @ketab_n

- أجل، أجل... إنّها... إنّها لطيفة... تشبه قليلاً أبطال مسلسل **كتائب النمر**، أليس كذلك؟

- تشبه ماذا؟

- صحيحٌ أنّك اكتشفت التلفزيون مع جوليان لوبير... عليّ أن أصعد وأتفقّد المستأجر عندي في الطابق السابع... هل يمكنني أن أعتمد عليك بشأن بوليت؟

هزّ رأسه وهو يمسّد شاربيه الصغيرين:

- اذهبي، اركضي، طيري واصعدي نحو مصيركِ، يا طفلتي...

- فيلو؟

- نعم؟

- إن لم أنزل بعد ساعة، هل يمكنك أن تأتي لتتفقّدني؟

10

كانت الغرفة مرتّبة بطريقة مثالية. والسرير مفروشاً ومرتبّاً وكان قد وضع فنجانين وعلبة سكّر على الطاولة. كان جالساً على كرسيّ وظهره إلى الحائط. وقد أغلق كتابه حينما نقرت على الباب.

نهض. كانا على نفس القدر من الارتباك. كانت هذه المرّة الأولى التي يلتقيان فيها... مرّ ملاكٌ.

- أ... أتريدين أن تشربي شيئاً؟

- بسرور...

- شاي؟ قهوة؟ كوكا؟

Twitter: @ketab_n

- قهوة، من فضلك.

جلست كاميل على كرسيّ بلا مسند وتساءلت كيف استطاعت أن تعيش هنا لوقتٍ طويلٍ جداً. كانت الغرفة رطبة ومعتمة وقاسية جداً. كان السقف خفيضاً والجدران قذرة جداً... كلا، لم يكن ذلك ممكناً... لا بدّ أنّها كانت فتاة أخرى، إذاً؟

وقف أمام الرفوف وأشار لها إلى مرطبان النسكافيه.

كان الكلب باربيس نائماً على السرير ويفتح عيناً بين الفينة والأخرى.

وأخيراً سحب الكرسي وجلس أمامها:

- أنا سعيدٌ برؤيتكِ... كان بوسعكِ أن تأتي في وقتٍ أبكر...

- لم أكن أجرؤ.

- ماذا؟

-...

- أنتِ نادمة على جلبي إلى هنا، أليس كذلك؟

- كلا.

- بلى. أنتِ نادمة. ولكن لا تقلقي... أنتظر الضوء الأخضر وسوف أرحل... إنّها مسألة أيام، الآن.

- إلى أين ستذهب؟

- إلى بريتانيا.

- ستنضم إلى عائلتك؟

- كلا. في مركزٍ لـ... للنفايات البشرية. لا، أنا مغفّل. في مركزٍ للحياة، هكذا يجب أن أقول...

Twitter: @ketab_n

- ...

- إنّ طبيبي هو الذي وجد لي هذا المكان... مكانٌ يُصنَع فيه سمادٌ من الطحالب... طحالب وقذارة ومعوّقون ذهنياً... هذا رائع، أليس كذلك؟ سأكون العامل الوحيد الطبيعي. أخيراً «طبيعي»، هذا أمرٌ نسبي...

ابتسم.

- تفضّلي، انظري إلى الكتب... شيءٌ أنيق، أليس كذلك؟

كان أبلهان يمسكان بمذراة ويقفان أمام ما يشبه بالوعة.

- سوف أصنع السماد من النفايات والأوساخ، من الطحالب وروث الخيل... أشعر بأنني سأعشق هذا العمل... حسناً، يبدو أنّه سيكون صعباً في البداية بسبب الرائحة ولكنني سأعتاد على ذلك...

وضع الصورة من يده وأشعل سيجارة.

- العطلة الكبيرة.

- كم من الوقت ستظلّ هناك؟

- الوقت اللازم...

- هل تأخذ جرعات من الميتادون؟

- نعم.

- منذ متى؟

حركة غامضة.

- هل أنت بخير؟

- كلا.

Twitter: @ketab_n

- هيّا... سوف ترى البحر!

- رائع... وأنتِ؟ لماذا أنتِ هنا؟

- إنّها البوابة... اعتقدت بأنّك قد متّ...

- ستُصاب بخيبة أمل...

- هذا واضح.

ضحكا.

- أَ... أتحمل فيروس HIV أيضاً؟

- كلا. قلت ذلك لإسعادها فقط... لكي تتعلّق بكلبي... لا، لا... لقد قمت بذلك بنجاح... لقد دمّرتُ نفسي.

- هل هذه المرّة الأولى التي تخضع فيها للعلاج؟

- نعم.

- وهل ستنجح في ذلك؟

- نعم.

-...

- أنا محظوظ... يجب أن نصادف الأشخاص الطيبين، أتصوّر... وأنا... أنا أعتقد بأنني قد وجدتهم، الآن...

- طبيبك؟

- طبيبتي! ولكن ليس لوحدها... طبيبٌ نفساني أيضاً... جدٌّ عجوز فتّت رأسي... أتعرفين V33؟

- ما هذا؟ أهو دواء؟

- كلا، هذا مرهم لصقل الخشب...

- آه، نعم! قارورة خضراء وحمراء، أليس كذلك؟

Twitter: @ketab_n

- نعم... هذا الرجل هو بمثابة V33 بالنسبة لي. إنّه يضع المرهم، فيحرق ويتسبّب بفقاعات، ثمّ يمسك بملعقته الصيدلانية ويكشط كلّ القذارة... انظري إليّ. تحت جمجمتي، أنا عارٍ مثل دودة!

لم يعد بوسعه أن يبتسم، وارتعشت يداه:

- اللعنة، هذا صعب... هذا صعبٌ للغاية... لم أكن أعتقد أنّ...

رفع رأسه.

- ومن ثمّ أوه... هناك شخصٌ آخر أيضاً... امرأة نحيلة ذات فخذين كفخذي ذبابة، رفعت سروالها قبل أن أحظى بالوقت الكافي لرؤية المزيد، للأسف...

- ما اسمكِ؟

- كاميل.

ردّد الاسم واستدار نحو الجدار:

- كاميل... كاميل... في اليوم الذي ظهرتِ فيه يا كاميل، كنتُ في حال سيئة.... كان الجوّ بارداً للغاية ولم تعد لدي رغبة شديدة في أن أقاوم، يبدو لي... ولكن، حسناً. كنتِ هنا... فلحقتُ بكِ... أنا رجلٌ مستهتر...

ساد الصمت.

- هل يمكنني أن أحدّثكِ أكثر أم أنّكِ ضقتِ ذرعاً؟

- اسكب لي قدحاً...

- اعذريني. هذا بسبب العجوز... لقد أصبحتُ طاحونة حقيقية للكلمات...

Twitter: @ketab_n

- قلتُ لك أنّ لا مشكلة.

- لا، ولكن هذا أمرٌ مهم... أقصد، حتى بالنسبة لكِ، أعتقد أنّ هذا أمرٌ مهم...

عبست.

- مساعدتكِ، غرفتكِ، أكلكِ، وكلّ شيء، هذا أمرٌ كبير، ولكنني أخبرتُكِ بأنني فعلاً كنتُ في حالٍ مزرية حينما قابلتِني... كنتُ دائخاً، أفهمتِ؟ كنتُ أريد أن أعود لأراهم، كنتُ... وذاك الرجل هو الذي أنقذني. ذاك الرجل وشراشفكِ.

التقط الكتاب ووضعه بينهما. تعرّفت كاميل على الكتاب. كانت رسائل فان غوغ إلى أخيه.

نسيت بأنّه حاضرٌ.

- لقد فتحته لكي أتمالك نفسي، لئلا أعبر الباب لأنّه لا يوجد أيّ شيء آخر هنا وهل تعلمين ما فعله بي هذا الكتاب؟

هزّت رأسها.

- لقد فعل بي هذا، هذا وهذا.

أمسك به ليضرب به على جمجمته وخديه.

- هذه هي المرّة الثالثة التي أعيد قراءته فيها... إنّه... إنّه كلّ شيء بالنسبة لي. هناك كلّ شيء في متنه... أعرف هذا الشخص عن ظهر قلب... إنّه أنا. إنّه أخي. أفهم كل ما يقوله. كيف يجنّ جنونه. كيف يتألّم. كيف يهذي ويعتذر ويحاول أن يفهم الآخرين ويخضع نفسه للتساؤل، كيف نُبِذَ من عائلته ومن والديه اللذين لا يعجبهما العجب، والزيارات المتكرّرة إلى المستشفى وكلّ هذه الأمور... أنا... سوف لن أروي لكِ قصّة

Twitter: @ketab_n

حياتي، لا تقلقي، ولكن هذا مقلق، أنتِ تعلمين... كيف كان مع الفتيات، كيف وقع في غرام فتاة متصنّعة، وكيف تمّ ازدراؤه في اليوم الذي قرّر أن يتزوّج من تلك العاهرة.... العاهرة الحامل... لا، سوف لن أروي لكِ قصّة حياتي، ولكن هناك من التطابقات ما جعلني أهلوس... عدا أخيه، لم يكن أحدٌ يثق به. لا أحد. ولكنّه رغم ضعفه وعاهته، كان يثق بنفسه... لقد قالها، قال بأنّ لديه الثقة والإيمان بالنفس، وبأنّه قويّ... في المرّة الأولى التي قرأته، لم أفهم ما هو مكتوب بالأحرف الرفيعة المائلة في نهاية الكتاب...

فتح الكتاب:

- رسالة وجّهها فانسان فان غوغ لنفسه في 29 تموز (يوليو) 1890...... وفقط حينما قرأتُ المقدّمة في اليوم التالي أو الذي بعده، أدركتُ أنّ هذا الأبله كان قد انتحر. وأنّه لم يرسل هذه الرسالة... وقد صدمني هذا، لم أخبركِ... كلّ ما يقوله عن جسده، أنا أحسّ به. كلّ ألمه، ليس سوى كلمات، أتفهمين؟ إنّه... أقصد... إنني لا أبالي بعمله... أقصد، لا، أنا لا أبالي، ولكن ليس هذا ما قرأته. ما قرأته هو أنّك حينما لا تكون في المقام المطلوب، ولا تستطيع أن تكون ما يُنتظَر منك أن تكون، تتألّم وتتعذّب. تعاني كبهيم في النهاية، وتنفق كبهيم. ولكن هيهات. أنا سوف لن أنفق. حبّاً به، إخاءً له، سوف لن أنفق... لا أريد ذلك.

كانت كاميل مشدودة إلى حديثه. عطست... فتناثر رماد سيجارتها في قهوتها.

Twitter: @ketab_n

- أهذا كلامٌ لا معنى له، ما قلته الآن؟

- لا، لا، على العكس... أنا...

- هل قرأتِه؟

- طبعاً.

- أولم يؤلِمكِ ذلك؟

- كنتُ أهتمّ على نحوٍ خاصّ بعمله... كان قد بدأ به متأخّراً... إنّه شخصٌ عصاميّ... إنّه... أتعرف لوحاته؟

- لوحة عبّاد الشمس، هذه؟ لا... لقد فكّرتُ بذلك للحظة، فكّرت أن أذهب وأتصفّح كتاباً ولكن ليست لدي الرغبة في ذلك، أنا أفضّل صوري...

- احتفظ به. سوف أعطيك إياه.

- أنتِ تعلمين... ذات يوم... إذا ما تخلّصت منه، سوف أشكرك. ولكن الآن لا أستطيع... لقد قلتُ لكِ ذلك، لقد انتُزِع منّي كلّ شيء. باستثناء كيس البراغيث هذا، لم يعد لديّ أيّ شيء.

- متى ستغادر؟

- في الأسبوع المقبل طبعاً...

- أتريد أن تشكرني؟

- إن استطعت...

- دعني أرسمكَ...

- أهذا كلّ شيء؟

- نعم.

Twitter: @ketab_n

- عارياً؟

- أفضّل ذلك...

- البقرة... ألم تري جسمي...

- أنا أتخيّله...

كان يعقد رباط حذائه وكان كلبه يقفز في كلّ اتّجاه.

- ستخرج؟

- طيلة الليل... كلّ ليلة... أمشي إلى حدّ الإنهاك، أمرّ وآخذ جرعتي اليومية ثمّ أعود وأنام حتى صباح اليوم التالي. لم أجد بعد ما هو أفضل حتى هذه اللحظة...

دبّ صخبٌ في الممرّ. تسمّر في مكانه. ثمّ قال مذعوراً:

- هناك أحدهم...

- كاميل؟ هل كلّ شيء على ما يُرام؟ هذا... هذا فارسكِ المقدام، يا عزيزتي...

وقف فيليبير عند عتبة الباب وفي يده سيف.

- باربيس! اهدأ!

- أنا... أنا مضحكٌ، هكذا، أليس كذلك؟

قامت بتعريفهما ببعضهما وهي تضحك:

- فانسان، هذا فيليبير ماركيه دو لا دوربيليير، قائد جيشٍ مهزوم.

ثمّ استدارت وقالت:

- فيليبير، هذا فانسان... على اسم فان غوغ...

فأجاب وهو يعيد السيف إلى غمده:

Twitter: @ketab_n

- سعيدٌ بلقائك. مضحكٌ وسعيد.. إذاً، سوف... سوف أنسحب أليس كذلك...

أجابت كاميل:

- سأنزل معك.

- وأنا أيضاً.

- هل... هل ستأتي لرؤيتي؟

- غداً.

- متى؟

- بعد الظهيرة. اتّفقنا؟ مع كلبي؟

- مع باربيس، طبعاً...

تأسّف فيليبير:

- آه! باربيس... متحسراً فيليبير أيضاً هذا مرغوب من الجمهورية... كنتُ لأفضّل رئيسة دير روشيشوارت، تفضّل!

سألها فانسان بنظرة.

رفعت كتفيها، حائرة.

استدار فيليبير وقال مبهوراً:

- بالطبع! وأن يكون اسم هذه المسكينة مارغريت دو روشيشوارت دو مونتبيبو مرتبطاً بهذا العاجز عديم الفائدة هو نوعٌ من الضلال!

ردّدت كاميل:

- دو مونتبيبو؟ تبّاً وهل لديكم هكذا أسماء... فعلاً؟ لماذا لا تشارك في برنامج المسابقات **أسئلة لبطل**؟

Twitter: @ketab_n

- آه! سوف لن تشاهديه! تعلمين جيداً لماذا...

- كلا. لماذا؟

- لأنه في اللحظة التي أدوس فيها على الدواسة، سيكون قد حان موعد نشرة الأخبار...

11

لم تنم في الليل. دارت من حول نفسها، مسحت الغبار، قاتلت أشباحاً، استحمّت، نهضت في وقتٍ متأخّر، حمّمت بوليت، وألبستها كيفما كان، تسكّعت معها لبعض الوقت في شارع غرونيل وكانت غير قادرة على تناول أيّ شيء كان.

- أنتِ متوتّرة جداً اليوم...

- لديّ موعدٌ مهم.

- مع مَنْ؟

- مع نفسي.

سألت السيّدة العجوز بقلق:

- ستذهبين إلى الطبيب؟

وكعادتها، غفت هذه الأخيرة بعد الغداء. سحبت منها كاميل بكرة الغزل وغطّتها وغادرت على رؤوس أصابعها.

أغلقت على نفسها باب غرفتها، وغيّرت لمرّات عديدة مكان كرسيها الصغير، فتّشت عن لوازمها بتأنٍ. اعتصرها قلبها.

دخل فرانك. كان يُفرغ آلة. منذ حكاية بلوزته جيفارو، كان ينشر بنفسه غسيله ويلقي خطابات حول آلات تنشيف الغسيل التي تُبلي الخيوط وتفسد الياقات.

Twitter: @ketab_n

كان مختلجاً.

هو مَنْ ذهب ليفتح الباب:

- جئتُ أقابل كاميل.

- إنها في آخر الممرّ...

ومن ثمّ أغلق على نفسه باب غرفته وكانت كاميل ممتنّة من رزانته لمرّة واحدة...

كانا متضايقين ولكن لأسبابٍ مختلفة.

خطأ.

كانا متضايقين ولنفس الأسباب: بسبب كرشيهما.

هو من خلّصهما من الورطة:

- حسناً، حسناً... هل نذهب؟ هل لديكِ مقصورة؟ حاجز واق من الهواء؟ شيءٌ من هذا القبيل؟

شَكَرَتْه.

- أرأيت؟ لقد دفّأت الغرفة تماماً. سوف لن تبرد...

- أوه! مدفأتك رائعة!

- سحقاً، أشعر بأنني لا زلتُ عند صولجانٍ، هذا يضايقني. هل... هل أنزع سروالي الداخلي أيضاً؟

- إن أردت أن تحتفظ به، احتفظ به...

- ولكن من الأفضل أن أنزعه...

- نعم، لكن على أيّة حال، أنا أبدأ دائماً بالظهر...

- اللعنة. أنا متأكّد بأن جسمي مليءٌ بالبثور...

- لا تقلق، جذعٌ عار تحت الرذاذ، سوف تختفي البثرات قبل أن تنهي حمولتك الأولى من السماد...

Twitter: @ketab_n

- أتعلمين أنّك ستكونين مزيّنة مدهشة؟

- صحيح... هيّا، أخرج من هناك الآن واجلس.

- كان بوسعكِ أن تضعيني أمام النافذة على الأقلّ... لكي أشرد...

- لستُ أنا مَنْ يقرّر.

- حقّاً؟ مَنْ يقرّر إذاً؟

- الضوء. ولا تتشكّى، بعد ذلك ستبقى واقفاً...

- لكم من الوقت؟

- إلى أن تقع...

- ستقعين قبلي.

قالت:

- امممم.

وكانت هذه الامممم طريقة لتقول: يدهشني أن...

بدأت بسلسلة من الرسمات التجريبية وهي تدور من حوله. أصبح بطنها ويدها أكثر رشاقةً.

أمّا هو، فعلى العكس، ازداد صلابةً.

حينما اقتربت منه كثيراً، أغمض عينيه.

هل كانت لديه بثورٌ؟ لم تشاهدها. شاهدت عضلاته الممدودة، كتفيه المنهكتين، فقرات رقبته التي كانت تبرز حينما يخفض رأسه، عموده الفقري الشبيه بعرفٍ طويلٍ متآكل، توتّره، اضطرابه، حنكه ووجنتيه الناتئتين. شاهدت النُقر من حول عينيه، شكل جمجمته، عظام قفصه الصدري، صدره المقعّر، ذراعيه

Twitter: @ketab_n

النحيلتين المنقّطتين بنقاطٍ غامقة. شاهدت المتاهة المؤثّرة للأوردة تحت بشرته الفاتحة ومرور الحياة على جسده. نعم. شاهدت بشكلٍ خاصّ هذا: بصمة الهاوية، علامات سلاسل عربة ضخمة غير مرئية، وأيضاً حشمته المفرطة.

بعد ساعة تقريباً، سألها إن كان بوسعه أن يقرأ.

- نعم. خلال الوقت الذي أطوّعك فيه...

- ألم... ألم تبدأي بعد؟

- كلا.

- إذاً! هل أقرأ بصوتٍ عالٍ؟

- إن شئت ذلك...

دَعَك الكتاب للحظة قبل أن يقسمه إلى نصفين:

- أشعر بأنّ أبي وأمي قد تصرّفا فطرياً بشأني (لا أقول بذكاء).

«كان هناك تردّد في استقبالي في البيت، كما يتردّد المرء في استقبال كلبٍ ضخمٍ أشعث. سوف يدخل بقوائمه ومن ثمّ يصبح أشعث جداً.

سوف يزعج الجميع. وسوف ينبح نباحاً صاخباً.

باختصار، إنّه حيوانٌ قذر.

حسناً، ولكنْ للحيوان تاريخٌ إنساني وكذلك روحٌ إنسانية وإن كان كلباً. بالإضافة إلى ذلك هي روحٌ حساسة جداً بحيث تشعر برأي الناس فيها، في حين أنّ كلباً عادياً لا يمكنه ذلك.

«أوه! هذا الكلب هو ابن والدنا، ولكننا تركناه غالباً يجري

Twitter: @ketab_n

في الشارع بحيث أصبح بالضرورة أكثر شراسةً. باه! لقد نسي الأب هذا التفصيل، وبالتالي لم يعد هناك مكانٌ للحديث عنه...

تنحنح.

- **حتـ... احم، عفواً... حتماً، الكلب نادمٌ في نفسه على المجيء حتى هنا؛ فالعزلة كانت أخفّ وطأةً في القفص الخشب مما هي عليه في هذا البيت، رغم كلّ ملاطفاتهم. فقد جاء الكلب في زيارة في ظلّ عارض ضعفٍ. آمل أن هذا الضعف سيُغفَر لي؛ أمّا أنا فسأتجنّب أن...**

قاطعته:

- كفى. توقّف من فضلك. توقّف.

- أيزعجكِ هذا؟

- نعم.

- عفواً.

- حسناً. قضي الأمر. أعرفك الآن...

أغلقت دفترها وراودتها نوبات الغثيان من جديد. رفعت ذقنها وقلبت رأسها إلى الخلف.

- هل أنتِ بخير؟

- ...

- إذاً... ستستدير نحوي وتجلس مباعداً بين ساقيك وتضع يديك بهذه الطريقة...

- يجب أن أباعد بينهما، هل أنتِ متأكّدة؟

- نعم. ويدكَ، انظر، الوِ... الوِ معصمك وباعد بين أصابعك... مهلاً... لا تتحرّك...

Twitter: @ketab_n

نبشت بين لوازمها وقدّمت له صورة مستنسخة من لوحة للرسّام انغريس...

- تماماً مثل هذه اللقطة...

- مَنْ هذا الرجل الضخم؟

- لويس-فرانسوا بيرتان.

- ومَنْ يكون؟

- بوذا البرجوازية، المتخمة، المرفّهة، الظافرة... لستُ أنا مَنْ يقول ذلك، إنّه ماني... العظيم، أليس كذلك؟

- وتريدين أن أقف مثله؟

- نعم.

- أوه... الـ... الساقان متباعدتان إذاً... أهكذا؟

طمأنته وهي تتصفّح رسوماتها الأوّلية:

- هيه أنت... كفّ عن تحريك ذيلك... هذا جيّد... لا أبالي، أنت تعرف... تفضّل، انظر. نعم هكذا...

- أوه!

كلمة صغيرة تنمّ عن خيبة أمل وتثير الشفقة.

جلست كاميل ووضعت لوح الرسم على ركبتها. ثمّ نهضت وحاولت أن تضع اللوح على مسندٍ، ولكن ذلك لم ينجح أيضاً. توتّرت، لعنت نفسها، وعرفت بفطنة أنّ كل هذا الارتباك هو لملء الفراغ.

وفي النهاية، ثبّتت ورقتها عمودياً وقررت أن تجلس على نفس علوّ موديلها.

Twitter: @ketab_n

شهقت جرعة كبيرة من الإقدام وزفرت زفرة صغيرة من الخيبة. كانت قد خُدِعت، إذ لم يكن هناك طبشورٌ أحمر. كان هناك قلم فحم، وريشة ورسمٌ مائيّ بحبر السبيدج.

تكلّم الموديل.

رفعت مرفقها. ظلّت يدها معلّقة في الهواء.

- لا تتحرّك. سوف أعود.

ركضت إلى المطبخ، أوقعت أشياءً في طريقها، أمسكت بقارورة الجِن وقضت على خوفها بجرعةٍ منها. أغمضت عينيها ووقفت عند حافة المجلى. هيّا... جرعة ثانية من أجل الطريق...

حينما عادت وجلست، كان ينظر إليها مبتسماً.

كان يعلم.

أيّاً كان خضوعهم، كان أولئك الناس، جميعاً، يعرفون بعضهم في ما بينهم.

كان ذلك أشبه بمسبار... أشبه برادار.

تواطؤ غامض وتقاسمٌ للتسامح...

- هل باتت الحال أفضل؟

- نعم.

- إذاً، هيّا الآن! ليس لدينا سوى هذا لنفعله، تبّاً!

وقف منتصباً، مائلاً على نحوٍ خفيف، كما فعلت هي الأخرى. حبس أنفاسه وتحمّل نظرة مَنْ كانت تهينه من دون أن تدري.

Twitter: @ketab_n

معتم ومشرق. ذابل. مغترٌّ بنفسه.

- كم يبلغ وزنك، يا فانسان؟

- نحو ستين كيلوغراماً...

ستون كيلوغراماً من الإثارة.

(حتى وإن لم يكن ذلك سؤالاً محبّباً إلا أنّه كان مثيراً: هل كانت كاميل فوك قد مدّت يدها إلى هذا الصبي لكي تساعده، بحسب ما كانت مقتنعة بذلك، أم لكي تشرّحه، عارياً وأعزل على كرسيّ مطبخٍ من الفورميكا الحمراء؟

أهي شفقة؟ أهو حبٌّ للإنسانية؟ حقّاً؟

ألم يكن كلّ هذا متعمّداً؟ إقامته في الطابق العلوي، قمّة كانيغو، الثقة، حَنَق بيار كيسلر، الإبعاد والإحراج؟

الفنانون وحوشٌ.

هيا بنا. كلا. سيكون الأمر معاكساً تماماً... لندع له نعمة الشكّ ولنسكت. لم تكن هذه الفتاة واضحة جداً ولكن حينما كانت تدخل في صميم الموضوع كانت لامعة. وهل يمكن أنّ سخاءها قد تجلّى الآن فقط؟ حينما كانت حدقتا عينيها تتعقّدان وحينما كانت تغدو عديمة الشفقة...).

كان الليل قد حلّ تقريباً. أشعلت الضوء من دون أن تدرك، وكانت تنضح بالعرق مثله.

- سنتوقّف. لدي تشنّجات عضلية. كل جسمي يؤلمني.

صرخت:

- كلا.

Twitter: @ketab_n

فاجأت قسوتها كليهما.

- اعذرني... لا... لا تتحرّك، أرجوك...

- في بنطالي... الجيب الأمامي... هناك علبة من أقراص ترانكزين...

ذهبت تجلب له كأساً من الماء.

- أرجوك... فقط لقليلٍ من الوقت... يمكنك أن تتّكئ إن أردت... لا يمكنني العمل بالذكريات... إذا غادرت الآن، ستموت لوحتي... أرجوك، لقد... لقد شارفتُ على الانتهاء منها.

- جيّد. يمكنك أن ترتدي ثيابك.

- هل الأمر خطير، يا دكتور؟

غمغمت:

- آمل...

عاد وهو يتمطّى، داعب كلبه وهمس ببضع كلمات رقيقة في أذنه. أشعل سيجارة.

- أتريد أن ترى؟

- كلا.

- بلى.

ظلّ مذهولاً.

- سحقاً... هذا... هذا قاسٍ.

- كلا. هذا رقيق...

- لماذا وقفتِ على كعبيك؟

Twitter: @ketab_n

- أتريد النسخة الحقيقية أم النسخة التي سأشتغل عليها؟

- الحقيقية.

- لأنني لستُ بارعة في رسم القدمين!

- والنسخة الأخرى؟

- لأنّ... الشيء العظيم يستوقفك، إيه؟

- وكلبي؟

- ها هو كلبك. لقد رسمته فوق كتفك للتوّ...

نزعت الورقة من الدفتر.

غمغمت بسبب الخطأ، أتعبوا أنفسكم، اسكتوا، أحيوهم، خلّدوهم وقدّموا لهم كلّ ما يحرّك مشاعرهم، هذه رسمة كلبهم المهجّن...

أقسم لك...

- هل أنتِ راضية عن نفسكِ؟

- نعم.

- هل سينبغي أن أعود؟

- نعم... لكي تودّعني وتعطيني عنوانك... أتريد أن تشرب قدحاً؟

- كلا. يجب أن أذهب وأنام، لستُ على ما يُرام...

سبقته كاميل عبر الممرّ ولطمت جبينها:

- بوليت! لقد نسيتها!

كانت غرفتها فارغة.

اللعنة...

Twitter: @ketab_n

- هل من مشكلة؟

- لقد أضعتُ جدّة شريكي في السكن...

- انظري... هناك كلمة مكتوبة على الطاولة...

لم نشأ أن نزعجكِ. إنّها معي. تعالي متى استطعتِ.

ملاحظة: لقد تغوّط كلب صديقكِ في الممرّ.

12

أفردت كاميل ذراعيها وحلّقت فوق حديقة شان دو مارس. لامست برج ايفل وداعبت النجوم وجاءت تأخذ مكانها أمام مدخل المطعم الخاص بالخدمة.

كانت بوليت جالسة في مكتب الشيف. وكانت منشرحة الصدر وسعيدة.

- لقد نسيتُكِ...

- ولكن لا، يا حمقاء، كنتِ تعملين... هل انتهيتِ منه؟

- نعم.

- وهل أنتِ بخير؟

- أنا جائعة!

- ليستافييه!

- نعم، يا شيف...

- أعدّ لي شريحة كبيرة من اللحم وأرسلها إلى المكتب.

استدار فرانك. شريحة؟ ولكن لم يعد لديها أسنان... حينما أدرك بأنّها لكاميل، ازداد اندهاشاً.

Twitter: @ketab_n

تواصلا بالإشارات:

- لكِ؟

أجابت وهي تهزّ رأسها:

- نعممممم.

- شريحة كبيرة؟

- نعمممم.

- هل وقعتِ على رأسكِ؟

- نعمممم.

- هيه! تكونين في غاية اللطف حينما تكونين مسرورة، أتعلمين؟

ولكنها لم تفهم هذه الإشارة وامتثلت للمصادفة.

قال الشيف، وهو يمدّ طبقها نحوها:

- أوه، أوه... لا أريد أن أقول، ولكن، هناك أناسٌ محظوظون...

كانت قطعة اللحم على شكل قلب.

قال متنهداً:

- آه كم هو قويٌّ ليستافييه هذا، كم هو قويّ...

أضافت جدّته التي كانت تلتهمه بعينيها منذ ساعتين:

- وكم هو جميل...

- نعم... لكنني سوف لن أذهب إلى هذا الحدّ... ماذا أقدّم لكِ مع هذا الطبق؟ هيّا... كأسٌ صغيرة من نبيذ **كوت دو رون**، وسأشرب معكِ:.. وأنتِ يا جدّتي؟ ألم يصل بعد طبقكِ من الحلوى؟

Twitter: @ketab_n

التهمت بوليت قطعة الحلوى.

قال وهو يتلمّظ ويحرّك لسانه:

- قولي إذاً، إنّ حفيدكِ يتدبّر أمره بطريقة عجيبة.. لم أعد أعرفه...

ثمّ متوجهاً إلى كاميل:

- ماذا فعلتِ له؟

- لا شيء.

- حسناً، ممتاز! تابعي بهذه الطريقة! هذا يُنجِحه بطريقة ممتازة! لا، بجدّ... هذا الولد جيّد... جيّد...

بكت بوليت:

- ماذا إذاً؟ ماذا قلتُ؟ اشرب، باسم الربّ! اشرب يا مكسيم...

- نعم، يا شيف؟

- اذهب واجلب لي كأساً من الشمبانيا، من فضلك...

- هل أنتِ أفضل حالاً الآن؟

تمخّطت بوليت وهي تعتذر:

- لو كنتَ تعرف درب الصليب.. لقد فُصِل من مدرسته الأولى، ثمّ من الثانية، ثم من المعهد المهني.. من دوراته التدريبية.. من تمري...، من...

ردّ:

- ولكن هذا ليس مهمّاً! انظري إليه، الآن! كم هو بارع! يسعى الجميع لإفساده! سينتهي كلبكِ الموبر بوسامٍ أو وسامين!

Twitter: @ketab_n

سألت بقلق:

- ماذا؟

- النجوم...

سألت خائبة بعض الشيء:

- آه... وليس ثلاث؟

- كلا. لأنّه سيئ المزاج للغاية. وعاطفي للغاية...

ثمّ غمز كاميل:

- اخبريني، هل هذا اللحم لذيذ؟

- لذيذٌ جداً.

- طبعاً... لذيذ، سوف أنصرف... إن احتجتِ لشيء، انقري على البلاط.

حينما عاد فرانك إلى الشقّة، توقّف أوّلاً قرب قدمي فيليبير الذي كان يقضم قلم رصاص تحت ضوء مصباح سريره:

- هل أزعجك؟

- كلا أبداً!

- لم نعد نلتقي...

- لم نعد نلتقي كثيراً، هذا صحيح... أتعمل دائماً يوم الأحد؟

- نعم.

- إذاً مرّ علينا يوم الاثنين إن شعرت بالضجر...

- ماذا تقرأ؟

- أنا أكتب.

Twitter: @ketab_n

- لِمَنْ؟

- أكتب نصّاً لمسرحيتي... للأسف، نحن مضطرون جميعاً لأن نعتلي المسرح في نهاية السنة...

- هل ستوجّه لنا الدعوة؟

- لا أدري إن كنتُ سأجرؤ...

- هيه أخبرني، أوه... هل تسير الأمور سيراً حسناً؟

- عفواً؟

- بين كاميل وجدّتي؟

- إنّهما على وفاقٍ وودّ.

- ألا تعتقد بأنّها قد ضاقت ذرعاً بها؟

- أتريد أن أخبرك بصراحة؟

سأل فرانك قلقاً:

- ماذا؟

- كلا، لم تضق ذرعاً بها، ولكن ذلك سيحصل... تذكّر أنّك قد وعدتها بأن تحلّها من مسؤوليتها ليومين في الأسبوع... لقد وعدتها بأن تساعدها...

- نعم أدري ولكن...

قاطعه:

- كفى. جنّبني حججك. هذا لا يهمّني. أنت تدري يا عجوزي، يجب أن نكبر بعض الشيء... وكأنّ الأمر من أجل هذا... (أشار له إلى دفتره المشطوب تماماً) شئنا أم أبينا، ذات يوم سنضطرّ جميعاً للمرور في هذه المرحلة...

Twitter: @ketab_n

نهض فرانك، مطرقاً في التفكير:

- سوف تخبرنا إن ضاقت ذرعاً، أليس كذلك؟

- أتعتقد ذلك؟

نظر إلى زجاج نظارته لكي ينظّفها.

- لا أدري... إنّها غامضة جداً... ماضيها... أسرتها... أصدقاؤها... نحن نجهل كلّ شيء عن هذه الفتاة... في ما يخصّني، عدا دفاتر رسمها، ليس لديّ أيّ نصّ يتيح لي طرح أيّ فرضية حول سيرتها الذاتية... لا رسائل... لا مكالمات هاتفية... لا ضيوف... أبداً، تخيّل أن نضيّعها ذات يوم، لن نعرف إلى مَنْ نتوجّه...

- لا تقل هذا.

- بلى، سأقول هذا. فكّر في الأمر، يا فرانك، لقد أقنعَتني، لقد ذهبتْ لتجلبها، وتركتْ لها غرفتها، وهي تهتمّ بها اليوم بلطفٍ غريب، بل هي لا تهتمّ بها فحسب وإنّما تعتني بها أيضاً. إنّهما تهتمان ببعضهما... لقد سمعتهما تضحكان وتثرثران طيلة النهار حينما كنتُ هنا. فضلاً على ذلك، هي تحاول أن تعمل بعد الظهيرة، وأنت غير قادرٍ حتى على الوفاء بالتزاماتك...

وضع نظارته وأمسك بخدّه لثوانٍ:

- كلا، لستُ فخوراً جداً بكَ، يا عزيزي الجندي.

ثمّ ذهب بخطى متثاقلة واقترب منها وأطفأ تلفزيونها.

همست:

Twitter: @ketab_n

- تعال إلى هنا.

اللعنة. ليست نائمة.

- أنا فخورةٌ بك، يا عزيزي...

فكّر وهو يضع جهاز التحكّم على طاولة سريرها: آه، كان يجب أن أعرف.

ثمّ قال:

- هيّا، يا جدّتي... نامي الآن...

- فخورةٌ جداً.

أفهم ذلك... أفهم ذلك...

كان باب غرفة كاميل مواربا. فدفعه قليلاً وقفز.

أنار ضوء الممرّ الشاحب مسندها.

ظلّ للحظة ساكناً بلا حراك.

وسط الذهول والهلع والانبهار.

إذاً مرّة أخرى كانت هي المحقّة؟

هل يمكننا أن نفهم أموراً من دون أن نتعلّمها؟

إذاً ألم يكن بهذه الدرجة من الغباء؟ إذ إنّه مدّ غريزياً يده نحو هذا الجسد الخليط لكي يساعده على الانتصاب، وذلك لأنّه لم يكن بهذا القدر من الغباء، إيه؟

عنكبوت المساء، صرصور. سحقه وأخذ علبة بيرة. تركها تفتر قليلاً.

ربّما ما كان عليه أن يتسكّع في الممرّ.

كلّ هذه الأضاليل، كان ذلك يشوّش وسائله للإبحار...

Twitter: @ketab_n

سحقاً...

أخيراً، كان الأمر يتحسّن. لمرّة واحدة كانت الحياة تستقيم...

رفع يده عن فمه بخفّة. لم يعد يقضم أظافره منذ أحد عشر يوماً. باستثناء الخنصر.

ولكن الأمر لم يكن مهمّاً بالنسبة له.

أن يكبر، أن يكبر... لم يكن قد فعل سوى هذا، أن يكبر...

ماذا سيحلّ بهم جميعاً، لو أنّها اختفت؟

تجشّأ. حسناً، حسناً، ليس هذا كلّ شيء، ولكن ينبغي عليّ تحضير عجينة الفطائر...

فيضٌ من الورع، حرص كثيراً على ألّا يزعجهم، وغمغم ببضع تعزيمات سرية وتركها ترتاح.

غطّاها بخرقة نظيفة وغادر المطبخ وهو يفرك يديه.

غداً، سيقدّم لها فطائر سوزيت، ليستبقيها دائماً.

هه، هه، هه... وحيداً أمام مرآة الحمّام، قلّد ضحكة ساتاناس الشيطانية في فيلم **مجانين المقود**...

هوه، هوه، هوه... كانت تلك ضحكة ديابولو.

آه لا لا... يا لها من تسلية...

13

لم يكن قد أمضى الليل معهما منذ زمنٍ طويل. حلم بأحلامٍ جميلة.

Twitter: @ketab_n

ذهب وجلب فطائر الكرواسان في صباح اليوم التالي وتناولوا الفطور معاً في غرفة بوليت. كانت السماء زرقاء وصافية. تبادل فيليبير معها المجاملات اللطيفة في حين انكبّ كلّ من فرانك وكاميل على قدحِهِ بصمت.

كان فرانك يتساءل إن كان عليه أن يغيّر شراشفه، وكانت كاميل تتساءل إن كان عليها أن تغيّر بعض التفاصيل. حاول أن يلاقي نظرتها ولكنها لم تعد حاضرة في المكان. كانت قد وصلت إلى شارع **سيغيه** في صالون بيار وماتيلد، جاهزة لأن يُغشى عليها وأن تهرب جرياً.

«إن غيّرتها الآن، لن أعود أجرؤ على أن أتمدّد بعد ظهيرة اليوم، وإذا ما غيّرتها بعد قيلولتي سيشكّل ذلك عبئاً إلى حدٍّ ما، أليس كذلك؟ أسمعها تضحك هازئةً...».

«أم أنتقل إلى المعرض؟ هل أودع كرتونتي لدى صوفي وأغادر بعدها في الحال؟».

«فضلاً على ذلك هذا يحدث أوه... حتى إننا لن نتمدّد... سنبقى واقفَيْن على أقدامنا، كما لو أننا في فيلم بحيث سنكون أوه...».

«كلا، هذه ليست فكرة حسنة... إذا كان الآن، سيستبقيني ويرغمني على الجلوس لأتحدّث معه في الأمر... وأنا لا أريد التحدّث. أنا لا أبالي بثرثرته. يأخذه أو لا يأخذه. نقطة. وثرثرته، سيحتفظ بها لزبائنه...».

«سوف آخذ دوشاً في حجرة الثياب قبل أن أغادر...».

«سوف أستقلّ سيارة أجرة وأطلب منها أن تنتظرني أمام الباب...».

Twitter: @ketab_n

المهتمون وغير المهتمين، هزّوا جميعاً بقاياهم وهم يتنهّدون وتواروا بهدوء.

كان فيليبير قد أصبح في المدخل. كان يمسك بإحدى يديه الباب لفرانك، وبالأخرى حقيبة.

- هل ستذهب في عطلة؟

- كلّا، هذه إكسسوارات.

- وماذا ستفعل بالإكسسوارات؟

- سأستخدمها في دوري في المسرحية...

- أوه تبّاً... ما هذا؟ أهذا نوعٌ من الترس والسيف؟ سوف تركض في كلّ مكان مع كلّ هذه الأمور؟

- نعم، طبعاً... سوف أتمسّك بالستارة وأرتمي وسط الحشد... هيّا... مرّ وإلّا سأطعنك بالسيف...

كانت السماء صافية لا زوردية فنزلت كاميل وبوليت «إلى الحديقة».

سارت السيّدة العجوز بصعوبة متزايدة واستغرقتا ما يقارب ساعة لقطع جادة آدرين-لوكوفرور. أحسّت كاميل بتنمّلٍ في ساقيها، أعطتها ذراعها، واستندت إلى خطواتها القصيرة ولم تستطع الامتناع عن الابتسام حينما لمحت لافتة تقول: **مخصّصة للفرسان، مشية معتدلة**... حينما توقّفتا، كان ذلك لالتقاط صورٍ مع سيّاح، أو لترك عدائين يمرّون، أو لتبادل بعض الكلمات التافهة مع مشتركين آخرين في الماراثون وهم ينتعلون أحذية من ماركة ميفيستو.

- بوليت؟

Twitter: @ketab_n

- نعم يا عزيزتي؟

- هل سيزعجكِ إن حدّثتكِ عن كرسيٍّ متحرك؟

- . . .

- حسناً. . . هذا يزعجكِ، إذاً. . .

همست:

- أهذا يعني أنّني هَرِمة جدّاً؟

- كلا! ليس تماماً! على العكس! ولكنني كنت أقول لنفسي إنّ. . . بما أنّنا نتورّط مع حفيدك المتسكّع، سوف يمكنكِ أن تدفعيه لبعض الوقت، إلى حين تتعبين، ومن ثمّ يمكنكِ أن ترتاحي وأنا سأصطحبكِ إلى نهاية العالم!

- . . .

- بوليت. . . لقد ضقتُ ذرعاً بهذه الحديقة. . . لم يعد بوسعي أن أراها. أعتقد أنني قد أحصيتُ كلّ الحصى وكلّ المقاعد وكلّ أوكار الحيوانات فيها. . . فيها أحد عشر وكراً. . . لقد ضقتُ ذرعاً بهذه العربات الضخمة الفظيعة، لقد ضقتُ ذرعاً بهذه المجموعات المفتقدة للخيال، ضقتُ ذرعاً بلقاء نفس الناس دائماً. . . وجه هؤلاء الحرّاس المغشّى بالدقيق وذاك الذي تفوح منه رائحة البول العفنة من تحت وسام جوقة الشرف الذي يعلّقه على صدره. . . هناك الكثير من الأشياء الأخرى التي ينبغي مشاهدتها في باريس. . . المتاجر، الأزقّة، الفناءات الخلفية، الممرّات المغطاة، حديقة لوكسمبورغ، تجّار الكتب القديمة، حديقة نوتردام، سوق الأزهار، ضفاف نهر السين، و. . . كلا، أؤكّد لكِ أنّ هذه المدينة رائعة. . . يمكننا الذهاب إلى السينما،

Twitter: @ketab_n

إلى الحفلات الموسيقية، الاستماع إلى الأوبيريت، وباقتي الجميلة من البنفسج وكلّ هذه الأمور.. هنا، نحن حبيستين في حيّ العجزة هذا حيث يرتدي جميع الصبيانْ الألبسة نفسها وتبدي حاضناتهم استياءهنّ بنفس الطريقة، حيث كلّ شيء متوقّع... هذا عدمٌ.

ساد الصمت.

شعرت بثقلٍ متزايد على ساعدها.

- حسناً اتّفقنا... سأكون صريحة معكِ... أنا أحاول أن أقنعكِ قدر استطاعتي، ولكن الحقيقة غير ذلك. الحقيقة هي أنني أطلب منكِ ذلك كخدمة... إذا كان معنا كرسي متحرّك ورضيتِ أن تجلسي فيه من حينٍ لآخر، سيمكننا أن نتجاوز الدور في المتاحف وأن ندخل دائماً قبل الجميع... وهذا سيناسبني تماماً... هناك الكثير من المعارض التي أحلم بمشاهدتها ولكن ليست لديّ الهمّة للوقوف في رتل الدور...

- آه حسناً كان ينبغي قول ذلك في البداية، يا فرختي! إذا كان ذلك خدمةً لكِ، لا مشكلة! أنا لا أطلب سوى هذا، أن أسعدكِ!

عضّت كاميل على نواجذها لئلا تبتسم. أخفضت رأسها ونطقت بكلمة شكراً ارتسامية مخادعة بعض الشيء.

بسرعة، بسرعة! فلندقّ الحديد وهو حامٍ، فهرعتا إلى أقرب صيدلية.

- نعمل كثيراً مع طراز كلاسيك 160 من إنتاج سانرايز... إنّه طراز قابل للطي يمنحنا الرضا التامّ... خفيف جداً، سهل

Twitter: @ketab_n

الاستعمال، يزن 14 كيلوغراماً... تسعة كيلوغرامات من دون عجلات... مساند مريحة للساقين قابلة للإخفاء لتسهيل تدليك القدمين... مسندان للمرفقين ومسند للظهر، كلها قابلة للضبط... مقعد غير قابلٍ للميلان... آه، كلا! وهذا مع ملحق... عجلات سهلة النزع والتركيب... يمكن وضعه في صندوق السيارة من دون مشكلة... كذلك يمكننا ضبط عمق الـ... أوه...

بوليت، التي كانت قد حوصِرت بين منظّفات شعرٍ جافّة وجهاز العرض **شول**، بَرطمَت بقوّة بحيث لم تجرؤ المقدّمة على المضي إلى نهاية خطبتها.

- حسناً، سأدعكما... لدي زبائن... تفضّلن، ها هو الكاتالوغ...

كانت كاميل خلفها.

- لا بأس به، أليس كذلك؟

- ...

- بصراحة كنتُ أتوقّع أسوأ... إنّه طراز ظريف... وهو أسود اللون وأنيق...

- حسناً لنرَ... أخبريني أنّه مناسب في حين أنّكِ تدركين!

- **سانرايز ميديكال**... لديهم هذه الأسماء... 37... هذه بلدتكم، أليس كذلك؟

وضعت بوليت نظارتها:

- أين؟

Twitter: @ketab_n

- أوه... شانسو-سور-شوازيل...

- آه نعم! شانسو! أعرف جيداً أين تكون!

كان ذلك في الجيب.

شكراً يا ربّي. إلى شقّة قريبة، عُدنا مع جهازٍ لتطبيب القدمين ومشّايات مقولبة.

- كم ثمن هذا؟

- 558 يورو عدا الضريبة...

- آه ومع ذلك... ولكن... ألا يمكننا استئجاره؟

- ليس هذا الطراز. بالنسبة للاستئجار، هناك طراز آخر. أكثر صلابةً وثقلاً. ولكنّكما متأكدتان تماماً، أليس كذلك؟ أتصوّر أنّ السيّدة لديها ضماناً...

شعرت بأنّها تتكلّم إلى عجوزين مخبولتين.

- سوف لن تدفعي ثمن هذا الكرسي! اذهبي إلى طبيبك واطلبي منه وصفةً... نظراً لحالتك، سوف لن تكون هناك أيّة مشكلة، تفضّلي، سأعطيك هذا الدليل الصغير... فيه كلّ المراجع... هل ستذهبين إلى طبيبٍ عام؟

- أوه...

- إن لم يكن معتاداً، اعرضي عليه هذا الرمز: 401A02.1. بالنسبة لما تبقّى، سوف ترين الأمر مع الصندوق الوطني للضمان، أليس كذلك؟

- آه... اتّفقنا... أوه... ما هذا؟

ما إن أصبحت على الرصيف، ترنّحت بوليت:

Twitter: @ketab_n

- إذا عرضتِني على طبيب، سوف يرسلني إلى المستشفى...

- هيه! عزيزتي بوليت، اهدئي... سوف لن نذهب أبداً، أنا أكرههم مثلكِ... سوف نتدبّر أمرنا... لا تقلقي...

بكت:

- سوف يعثرون عليّ... سوف يعثرون عليّ...

فقدت شهيّتها وظلّت خائرة في سريرها طيلة فترة ما بعد الظهيرة.

سأل فرانك قلقاً:

- ما بها؟

- لا شيء. لقد ذهبنا إلى الصيدلية لشراء كرسي، ولأنّ السيّدة الطيّبة تحدّثت عن مراجعة طبيب، صدمها ذلك...

- أيّ كرسيّ؟

- حسناً... كرسي متحرك!

- لاستخدامه في ماذا؟

- لتسير به، يا أحمق! لتشاهد البلد!

- سحقاً وماذا فعلتِ أيضاً؟ إنّها مرتاحة، هنا! لماذا تريدين أن ترجّيها مثل قارورة عصير برتقال؟

- أوه... بدأتَ تغيظني، هل تدري؟ ليس عليك سوى أن تهتمّ أنت أيضاً بأمرها! ليس عليك سوى أن تنظّفها من وقتٍ لآخر، سيضع هذا أفكارك في نصابها، تفضّل! بالنسبة لي، لا مشكلة أن أكلّف نفسي عبئها، فجدّتك رائعة، ولكنني أحتاج إلى

Twitter: @ketab_n

التحرّك، إلى أن أذهب وأتجوّل وأصفّي ذهني، تبّاً! بالنسبة لك، هل الأمر مطمئن، هل الأمر على ما يُرام الآن؟ طمئني، أليس هناك ما يغيظك؟ سواء كان فيلو أو بوليت أو أنت، يكفيكم البيت والطعام والشغل والنوم... بينما أنا، فكلا! أنا بدأتُ أختنق، هنا! علاوة على ذلك، أنا أعشق المشي وخاصّة في الأيام التي يكون الجوّ فيها جميلاً... وبالتالي أردّدها عليك: أن أعمل ممرّضة، أحبّ هذا كثيراً، ولكن على أن يكون ذلك مصحوباً بخيار السياحة، وإلّا سوف تـ...

- ماذا؟

- لا شيء!

- لا تضعي نفسكِ في هذه الحالة...

- ولكنني مضطرة! أنت أناني جداً بحيث إذا لم أحتجّ، لن تفعل أبداً شيئاً لمساعدتي!

غادر صافقاً الباب وأغلقت كاميل باب غرفتها على نفسها.

حينما خرجت من غرفتها كانا كلاهما في المدخل. كادت بوليت أن تطير فرحاً: كان حفيدها يهتمّ بها.

- هيّا أيّتها البدينة، اجلسي. كما هو الحال مع دراجة، لا بدّ من ضبط وتعييرٍ مناسبين للذهاب بعيداً..

كان مقرفصاً وأعدّ كلّ المقابض:

- هل قدماكِ مرتاحتان هكذا؟

- نعم.

- وذراعاكِ؟

Twitter: @ketab_n

- عاليتان بعض الشيء...

- حسناً يا كاميل، تعالي. بما أنّكِ أنتِ ستدفعين الكرسي، تعالي إلى هنا لكي نضبط لكِ المقبضين...

- ممتاز. هيّا عليّ أن أذهب... رافقاني إلى الشغل سوف نجرّبه...

- هل يدخل إلى المصعد؟

ردّ بعصبية:

- كلا. يجب طيّه... ولكن هذا أفضل.

- بروم، برررروم... اربطي حزام الأمان، أنا متأخّر.

عبروا الحديقة بأقصى سرعة. عند الضوء الأحمر، كان شعر بوليت كثيفاً وخداها متوردين.

- حسناً هيّا... سأدعكما، يا بنات. أرسلا إليّ بطاقة بريدية حينما تصلان إلى كاتمندو...

كان قد سار لبضعة أمتار، حينما استدار:

- هو! كاميل؟

- لا تنسَ هذا المساء؟

- ماذا؟

- الفطائر...

- سحقاً!

وضعت يدها على فمها:

- كنتُ قد نسيت... لستُ هنا.

كان قد فقد بضعة سنتمترات.

Twitter: @ketab_n

- علاوة على ذلك، هذا مهمّ... لا يمكنني أن ألغي... هذا من أجل الشغل...

- وهي؟

- طلبتُ من فيلو أن يحلّ محلّي...

- حسناً، حسناً... لا يهمّ إذاً؟ سنأكلها من دونك...

شعر بيأسٍ شديد وابتعد وهو يتلوّى.

كانت علامة سرواله الداخلي الجديد تخدشه.

14

كانت ماتيلد دان- كيسلر أجمل امرأة قابلتها كاميل في حياتها. كانت طويلة جداً، أطول من زوجها، رفيعة جداً، مبتهجة جداً، مثقّفة جداً. كانت تطأ كوكبنا الصغير من دون احتراس، وتهتمّ بكلّ شيء، وتندهش لأصغر أمر، وتتلهّى، وتغتاظ بفتور، وتضع يدها على يدكِ أحياناً، وتتكلّم دائماً بصوتٍ خفيض، وتجيد تماماً أربع أو خمس لغات، وتُخفي لعبتها خلف ابتسامة مثبطة للهمّة.

كانت جميلة جداً بحيث لم تراودها فكرة أن ترسمها.

كانت تلك مغامرة كبيرة، فقد كانت في غاية الحيوية.

رسمت ذات مرّة رسماً تحضيرياً لها. وجهها... جديلة شعرها وقرطيها... سرق بيار الرسم منها، ولكن الرسم لم يكن يشبهها. كان ينقصها صوتها الرزين واشراقتها وغمّازة خدّيها حينما تضحك.

كانت على عطف وكبرياء ومرح أولئك الذين ولِدوا في

Twitter: @ketab_n

شراشف متقنة النسج. كان والدها جامع تحفٍ كبير، فعاشت دائماً وسط أشياء جميلة ولم تحصي قط شيئاً في حياتها، لا أموالها ولا أصدقاءها ولا حتى أعداءها.

كانت ثرية، وكان بيار جسوراً.

كانت تسكتُ حينما يتكلّم بيار وتستأنف ترّهاتها ما أن يدير ظهره. كان يطارد مُهرة صغيرة. لم يكن يخطئ أبداً، فهو الذي رمى فوليس وباركاريس على سبيل المثال وهي التي استعدّت للاحتفاظ بهما.

كانت تحتفظ بالذي تريده.

كان اللقاء لقاءهما الأوّل، وكاميل تتذكّره جيّداً، في أكاديمية **الفنون الجميلة** خلال معرضٍ لأعمال نهاية السنة. كان نوعٌ من الهالة يسبقهما... التاجر المرعب وابنة **ويتولد دان**... كان الناس يأملون مجيئهما ويخافون منهما ويترقّبون أصغر ردود فعلهما. شعرت بأنّها بائسة حينما جاءا لتحيّتها، هي وعصابتها من الأشقياء... أخفضت رأسها وهي تصافحه وتجنّبت برعونة بعض المجاملات وبحثت بنظرها عن زاوية تتوارى فيها.

كان ذلك في حزيران (يونيو)، قبل نحو عشرة أعوام... كانت سنونوات تزقزق في لحنٍ جماعيٍّ في فناء المدرسة وكانوا يشربون نوعية رديئة من شراب البَنش وهم يستمعون بورع إلى أقوال كيسلر. لم تكن كاميل تسمع شيئاً. كانت تنظر إلى زوجته. في ذلك اليوم، كانت ترتدي قميصاً أزرق اللون وتضع حزاماً عريضاً من الفضّة يُصدِر جلجلة خفيفة حينما تتحرّك.

صعقة الحبّ...

Twitter: @ketab_n

ومن ثمّ دعوهما إلى مطعمٍ في شارع دوفين، وبعد عشاءٍ دسمٍ طلب منها صديقها العزيز أن تفتح صندوقها الكرتوني. ولكنها رفضت.

بعد ذلك ببضعة أشهر، عادت لتقابلهما.

ولكن لوحدها هذه المرّة.

كانت لدى بيار وماتيلد لوحات لتيبولو وديغاس وكاندينسكي ولكن لم يكن لديهما أطفال. لم تجرؤ كاميل قط أن تقارب هذا الموضوع واستسلمت لشباكهما من دون تحفّظ. ومن ثمّ تأكّدت من أنّها مخيّبة جداً بحيث انفصمت عقد خيوط الشِباك...

وبّخها بيار:

- هذا أمرٌ تافه! تقومين بأمرٍ تافه!

أضافت ماتيلد بلهجة ألطف:

- لماذا لا تحبّين نفسكِ؟ لماذا؟

ولم تعد تأتي إلى افتتاح معارضهما.

أثناء لقائهما الحميمي، تأسّف مرّة أخرى:

- لماذا؟

ردّت زوجته:

- لأنّها لم تُحبّ كفاية.

- نحن؟

- الجميع...

استرخى على كتفها وأنّ:

- أوه... ماتيلد... يا جميلتي... لماذا تركتِها ترحل؟

Twitter: @ketab_n

- سوف تعود. . .

- كلا. سوف تفسد كلّ شيء. . .

- سوف تعود.

وقد عادت.

- بيار هنا؟

- كلا، إنّه يتناول العشاء مع أصدقائه الإنكليز، لم أخبره بأنّكِ قد أتيتِ، أردتُ أن أراكِ قليلاً. . .

ثمّ حينما لمحت صندوقها الكرتون:

- ولكن. . . هل. . . هل لديكِ شيءٌ ما هنا؟

- لا، هذا لا شيء. . . غرضٌ بسيط كنتُ قد وعدته به في المرّة الماضية. . .

- هل يمكنني رؤيته؟

لم تردّ كاميل.

- حسناً، سوف أنتظره. . .

- هل هذا منكِ؟

- نعم. . .

- يا إلهي. . . حينما سيعلم بأنّكِ لم تأتِ لوحدكِ، سوف يُصاب بالإحباط الشديد. . . سأناديه. . .

علّقت كاميل:

- لا، لا! دعيه! قلتُ لكِ إنّه شيءٌ غير مهمّ. . . هذا شأنٌ بيننا. نوعٌ من قسيمة إيجار. . .

- ممتاز. هيّا إلى المائدة.

Twitter: @ketab_n

كان كلّ شيء جميلاً في منزلهما، المنظر، الأشياء، السجّاد، اللوحات، آنية المائدة، محمصة الخبز، كلّ شيء. حتى مراحيضهما كانت جميلة. على لوحٍ من الجصّ، كان يمكن أن نقرأ المقطع الذي كتبه الشاعر مالارميه في مراحيض بيته:

أنتَ الذي تُريح كرشك

يمكنك في هذا المأوى المعتم

أن تغنّي أو تدخّن الغليون

من دون أن تضع أصابع على الجدار

في المرّة الأولى، أزعجها ذلك:

- هل... هل اشتريتما قطعة من مساخر مالارميه؟!

ضحك بيار:

- كلا، هذا لأنني أعرف الصبي الذي صنع لهما القوالب... أتعرفين منزله؟ في فولين؟

- كلا.

- سنأخذكِ إليه ذات يوم... هذا مكانٌ ستعشقينه... تعـ-شقي-نه...

وكان كلّ شيء كذلك. حتى ورق التواليت كان أنعم من سواه...

قالت ماتيلد مغتبطة:

- كم أنتِ جميلة! يا لوجهك المليح! كم يناسبك الشعر القصير! لقد سمِنتِ، أليس كذلك؟ يا لها من سعادة أن أراكِ هكذا... أوه، يا لها من سعادة، حقّاً... لقد اشتقتُ إليكِ

Twitter: @ketab_n

كثيراً، يا كاميل... لو تدرين كم تتعبني كلّ هذه العبقريات أحياناً.. كلّما كانوا أقلّ موهبة كانوا أكثر صخباً... يسخر بيار من ذلك وهو يعمل بتمهّل، أمّا أنا، يا كاميل، فأتضايق كثيراً... تعالي واجلسي بجانبي، اروِ لي...

- لا أجيد السرد... سوف أريكِ دفاتري...

قلّبت ماتيلد الصفحات وعلّقت على الرسومات.

وبتقديمها عالمها الصغير بهذه الطريقة أدركت فعلاً إلى أيّ درجة كانت متعلّقة بهم.

كان فيليبير وفرانك وبوليت قد أصبحوا أهمّ الناس في حياتها وكانت الآن تحقّق ذلك بين أريكتين فارسيتين من القرن الثامن عشر. كانت مضطربة.

بين الدفتر الأوّل وآخر رسمة أنجزتها للتو، كانت بوليت متألّقة على كرسيها المتحرك أمام برج إيفل، لم يكن قد مضى سوى بضعة أشهر، ومع ذلك لم تكن هي نفسها... لم تعد تلك المرأة التي تمسك بقلم الرصاص... لقد حمحمت وانفعلت وفتّتت الكتل الغرانيتية التي كانت تعيقها عن التقدّم منذ سنوات عديدة...

ذاك المساء، كان أناسٌ ينتظرونها أن تعود... أناسٌ لا يبالون بمعرفة قيمتها... كانوا يحبّونها لأمرٍ آخر... يحبّونها لذاتها، ربّما...

- لذاتي؟

لذاتكِ...

سألت ماتيلد بنفاد صبر:

Twitter: @ketab_n

- فإذاً؟ لم تعودي تقولين شيئاً... من تكون، هي؟

- جوانا، مزيّنة بوليت...

- وهذا؟

- حذاء جوانا النصفي... من ماركة **روكنرول**، أليس كذلك؟ كيف يمكن لفتاة تعمل طيلة نهار واقفة على قدميها أن تتحمّل هذا؟ أتصوّر أنّها التضحية في سبيل الأناقة...

ضحكت ماتيلد. كان ذلك الحذاء فعلاً متوحشاً...

- وهو، يعود غالباً، أليس كذلك؟

- هذا فرانك، الطاهي الذي حدّثتكِ عنه منذ قليل...

- إنّه وسيم، أليس كذلك؟

- أتجدينه كذلك؟

- نعم... وكأنّه الشاب فارنيز الذي رسمه تيتيان مع عشر سنوات إضافية على عمره...

رفعت كاميل عينيها إلى السماء:

- ليس إلى هذا الحدّ...

- بلى! أؤكّد لكِ ذلك!

نهضت وعادت مع كتاب:

- تفضّلي. انظري. نفس النظرة الكئيبة، نفس المنخرين المرتعشين، نفس الذقن الطويل والمعقوف، نفس الأذنين النافرتين قليلاً... نفس النار الكامنة في داخله...

ردّدت وهي تنظر إلى الصورة في نهم:

- ليس إلى هذا الحدّ، إنّ صورتي فيها بثرات...

Twitter: @ketab_n

- أوه... أنتِ تفسدين كلّ شيء!

قالت ماتيلد متأسّفة:

- هذا كلّ شيء؟

- نعم، نعم...

- هذا جيد. هذا ممتاز. هذا... هذا مدهش...

- كفى...

- لا تعارضيني، أيّتها الشابّة، أنا لا أجيد الرسم ولكنني أجيد النظر... في السنّ الذي يذهب فيه الأطفال لمشاهدة **غينيول**، كان والدي يطوف بي في أركان الأرض الأربعة ويرفعني على كتفيه لأكون على العلوّ المناسب، وبالتالي لا تعارضيني من فضلكِ... هل ستدعينها لي؟

- ...

- لبيار...

- حسناً... ولكن حاذري، اتّفقنا؟ هذه الأشياء الصغيرة هي أوراق حياتي...

- لقد فهمت جيّداً.

- ألن تنتظريه؟

- كلا، يجب أن أنصرف...

- سيخيب أمله...

ردّت كاميل، بنبرة قدرية:

- لن تكون هذه المرّة الأولى...

- لم تحدّثيني عن والدتكِ...

Twitter: @ketab_n

قالت متعجّبة:

- حقّاً؟ هذه إشارة حسنة، أليس كذلك؟

قادتها ماتيلد إلى الباب وعانقتها:

- الأفضل.. أن تذهبي، ولا تنسي أن تعودي لرؤيتي... مع كرسيك المنجّد الذي يمكن رفع غطائه، إنّها مسألة بعض الأرصفة...

- أعدكِ.

- واستمري هكذا. كوني خفيفة.. استمتعي... بالتأكيد سيقول لكِ بيار عكس هذا الكلام ولكن لا تُصغي إليه. لا تُصغي إليه بعد الآن، لا هو ولا أيّ شخصٍ آخر... أتعلمين؟

- ماذا؟

- هل أنتِ بحاجة إلى نقود؟

ربّما كان على كاميل أن تقول كلا. منذ سبعة عشر عاماً وهي تقول كلا. كلا، أنا في حال حسنة. كلا، أشكركم. كلا، لا أحتاج إلى أيّ شيء. كلا، لا أريد أن أدين لكم بشيء. كلا، كلا، دعوني وشأني.

- نعم.

نعم. نعم أعتقد ذلك. نعم، سوف لن أعود إلى التذلّل، لا لآل ريتال ولا لبريدار، ولا لأيٍّ من هؤلاء المغفّلين. نعم، أريد أن أعمل بسلام لأوّل مرّة في حياتي. نعم، لا أرغب في أن أتشنّج كلّما مدّ فرانك نحوي الأوراق النقدية الثلاث. نعم، لقد تغيّرت. نعم، أنا بحاجة إليكم. نعم.

Twitter: @ketab_n

- ممتاز. واستفيدي من ذلك لتشتري ألبسة... بصراحة... أنتِ ترتدين سترة الجينز هذه منذ عشر سنوات...

كان ذلك صحيحاً.

15

عادت سيراً على الأقدام وهي تتفرّج على واجهات محلات بيع التحف الأثرية. كانت بالضبط أمام أكاديمية الفنون الجميلة (هذا القدر، يا له من ماكر ضخم...) حينما رنّ هاتفها النقّال. أغلقته حينما رأت أن بيار هو المتّصل.

سارت بسرعة أكبر. فقد قلبها توازنه وتخبّط.

رنّ الهاتف للمرّة الثانية. وكانت ماتيلد هي المتّصلة هذه المرّة. لم تردّ عليها هي الأخرى.

عادت أدراجها وعبرت نهر السين. كان لهذه الفتاة النحيلة حسٌّ رومانسيٌّ. وسواء كان للقفز فرحاً أو للقفز إلى الماء كان جسر الفنون لا يزال بين أفضل ما هو موجود في باريس... استندت إلى الدرابزين وأدرجت الأرقام الثلاثة لمجيبها الآلي...

لديك رسالتان جديدتان، اليوم في الساعة الحادية عشـ...

انقطعت الرسالة من دون قصد... بلوف! أوه... يا للخسارة...

كان يخور: «كاميل، اتّصلي بي فوراً وإلّا سآتي وأجلبكِ من رقبتكِ! فوراً! أتفهمينني؟».

اليوم الساعة الحادية عشرة وثمانية وثلاثون دقيقة: «أنا ماتيلد. لا تتّصلي به. لا تأتي. لا أريدكِ أن تري هذا. إنّ تاجركِ يبكي كبقرة ضخمة... إنّه ليس جميلاً للمشاهدة، أعدكِ...

Twitter: @ketab_n

بلى، إنّه جميل... إنّه جميل جداً، بل... شكراً يا كاميل، شكراً... أتسمعين ما يقوله؟ مهلاً، سأدع له الهاتف وإلّا سيجدع أذني...»، «سأقيم لكِ معرضاً، يا فوك، ولا ترفضي لأنّ بطاقات الدعوة قد وجّهت...»، انقطعت الرسالة.

أطفأت هاتفها، ولفّت سيجارة ودخّنتها واقفة بين اللوفر والأكاديمية الفرنسية ونوتردام وكونكورد.

كان إسدالٌ جميلٌ للستارة...

ثمّ قصّرت حمّالة خُرجها وركضت بسرعة كبيرة لئلا تفوّت الحلوى.

16

كانت تفوح من المطبخ رائحة شياطٍ خفيفة ولكنّ آنية المائدة كانت قد رُتِّبت بأكملها.

لم يكن هناك صخبٌ، وكانت جميع المصابيح مطفأة، ولم يكن هناك حتى شعاع نورٍ من تحت أبواب غرفهم... أوف... هي التي كانت مستعدة لأن تلتهم المقلاة دفعة واحدة...

دقّت باب فرانك.

كان يستمع إلى الموسيقى.

وقفت عند طرف سريره ووضعت قبضتيها على وركيه وقالت حانقة:

- ماذا إذاً؟

- لقد تركنا لكِ البعض منها... سوف أشيّطها لكِ غداً...

ردّدت:

Twitter: @ketab_n

- ماذا إذاً؟ ألن تضاجعني؟

- آه! آه! غريبٌ جداً...

بدأت تنزع ثيابها.

- أخبرني إذاً، يا عزيزي... سوف لن تنجو بهذه الطريقة! أطلب الوفاء بوعدِك بمضاجعتِي!

جلس في السرير لكي ينير مصباحه في حين رمت فردتي حذائها أينما كان.

- ولكن ماذا تفعلين؟ إلى أين تذهبين؟

- حسناً... أنا أتعرّى!

- أوه كلا...

- ماذا؟

- ليس بهذه الطريقة... مهلاً... منذ زمنٍ طويل وأنا أفكّر بهذه اللحظة...

- أطفئ النور.

- لماذا؟

- أخشى ألا تعود تشتهيني لو شاهدت جسدي...

صرخ نابحاً:

- ولكن يا كاميل، تباً! كفّي! كفّي!

برطمة خفيفة مغيظة:

- أتريد المزيد؟

-...

- أطفئ النور.

Twitter: @ketab_n

- كلا!

- بلى!

- لا أريد أن يتمّ هذا بيننا بهذه الطريقة...

- كيف تريد أن يتمّ هذا بيننا؟ أتريد أن تأخذني للتنزّه في الغابة؟

- عفواً؟

- تقودني في جولة في القارب وتقول لي أشعاراً وأنا أمرّر يدي في الماء...

- تعالي واجلسي بجانبي...

- أطفئ النور.

- حسناً...

- أوقف الموسيقى.

- هذا كلّ شيء؟

- نعم.

سأل باستحياء:

- أهذه أنتِ؟

- نعم.

- أأنتِ مرتاحة الآن؟

- كلا...

- تفضّلي، خذي إحدى وسائدي... كيف تمّ موعدكِ؟

- كان رائعاً.

- هل ستحدّثينني؟

Twitter: @ketab_n

- عن ماذا؟

- عن كلّ شيء. أريد أن أعرف كلّ شيء، هذا المساء... كلّ شيء. كلّ شيء. كلّ شيء.

- أنت تعلم، لو بدأت... أنت أيضاً سوف تشعر بأنّك مرغمٌ على أن تأخذني بين ذراعيك بعد...

- آه اللعنة... هل جعلتِ نفسكِ تُغتَصبين؟

- كلا...

- حسناً، حسناً... سأستطيع أن أدبِّر لكِ هذا الأمر إن شئتِ...

- أوه شكراً... هذا لطفٌ منك... أوه... من أين أبدأ؟

قلّد فرانك صوت جاك مارتان في البرنامج الموسيقي **مدرسة الهواة**:

- من أين أتيتِ يا ابنتي الصغيرة؟

- من مودون...

قال متعجباً:

- من مودون، ولكن هذا ممتاز! وأين ماما؟

- إنّها تتناول أدوية.

- حقّاً؟ ووالدكِ، أين والدكِ؟

- متوفّى...

-...

- لقد أخبرتك بذلك يا ولدي! هل لديك واقيات ذكرية على الأقلّ؟

Twitter: @ketab_n

- لا توبّخيني هكذا يا كاميل أنتِ تعلمين جيّداً، هل مات والدكِ؟

- نعم.

- كيف؟

- سقط من مكانٍ عال.

-...

- حسناً، سوف أشرح لك الأمر... اقترب منّي أكثر لأنني لا أريد أن يسمعني الآخرون...

رفع الفراش فوق رأسيهما:

- هيّا. لا أحد يستطيع أن يرانا، الآن...

17

لفّت كاميل ساقاً على ساق ووضعت يديها على بطنها وشرعت في رحلة طويلة.

بدأت بصوتٍ طفولي:

- كنتُ طفلة عادية وهادئة جدّاً... لم أكن آكل كثيراً ولكنني كنتُ أجدّ في المدرسة وأرسم طيلة الوقت. لم يكن لديّ أخ ولا أخت. كان والدي يُدعى جان-لويس ووالدتي كاترين. أعتقد أنّهما أحبّا بعضهما حينما التقيا... لا أدري، لم أجرؤ على أن أسألهما... ولكن حينما كنتُ أرسم شعر **جوني ديب** ووجهه الجميل في فيلم **21 Jump Street** لم يكونا يحبّان بعضهما. هذا أنا متأكّدةٌ منه، لأنّ والدي لم يعد يعيش معنا. لم يكن يأتي سوى في عطلة نهاية الأسبوع ليراني. كان من الطبيعي

Twitter: @ketab_n

أن يرحل وكنتُ سأفعل نفس الشيء لو كنتُ في مكانه. من جهة أخرى، كنتُ أرغب في الخروج معه مساء الأحد ولكنني لم أفعل أبداً لأنّ والدتي كانت ستحاول الانتحار مرّة أخرى. لقد حاولت والدتي الانتحار مراراً حينما كنتُ صغيرة. لحسن الحظ، كان ذلك يحدث غالباً أثناء غيابي وبعد ذلك... ولأنني كبرت، لم يعد هناك الكثير من المضايقة... دعيتُ ذات مرّة إلى عيد ميلاد إحدى زميلاتي. في المساء، ولأنّ والدتي لم تأتِ لتأخذني، رافقتني والدة إحدى زميلاتي إلى باب منزلنا وحينما وصلت إلى الصالون، رأيتها جثّة هامدة على السجّادة. جاء المسعفون ونقلوها إلى المستشفى وذهبتُ للعيش عند جارتنا لعشرة أيام. هدّدها والدي إن حاولت الانتحار مرّة أخرى فإنّه سيسحب منها حضانتي فكفّت عن ذلك. واستمرّت فقط في تناول الأدوية. كان والدي يخبرني بأنّه مضطرٌّ للذهاب بسبب عمله ولكن والدتي كانت تمنعني من تصديقه. كانت تردّد عليّ يومياً بأنّه كاذب وسافل وأنّ لديه زوجة أخرى وطفلة أخرى وأنّه يلاطفهما كلّ مساء...

استعادت نبرة صوتها الطبيعية:

- هذه أوّل مرّة أتحدّث عن ذلك... لاحظ، والدتك وبّختك قبل أن تضعك في قطار، أمّا والدتي فقد نخرت رأسي كلّ يوم، كلّ يوم... أحياناً، كانت لطيفة واشترت لي أقلام تلوين وردّدت بأنني فرحتها الوحيدة في الدنيا...

حينما كان والدي يأتي، كان يحبس نفسه في المرأب مع سيارته من طراز جاكوار ويستمع إلى أغاني الأوبرا. كانت سيارة

Twitter: @ketab_n

جاكوار قديمة بلا عجلات ولكن مع ذلك كنا نذهب للتنزّه بها وهمياً... كان يقول: «هل آخذك إلى الريفييرا، يا آنستي؟»، وكنتُ أجلس بجانبه. كنتُ أعشق تلك السيارة...

- من أيّ طرازٍ كانت؟

- من طراز MK أو ما شابه...

- MKI أو MKII؟

- سحقاً، فعلاً أنت رجل... أحاول أن أجعلك تبكي والأمر الوحيد الذي يهمّك، هو طراز السيارة الرديئة!

- عفواً.

- لا بأس...

- هيّا، تابعي...

- بفف...

- «إذاً يا آنستي؟ هل آخذك إلى الريفييرا؟».

ابتسمت كاميل:

- نعم، أرغب في ذلك كثيراً... «هل أخذتِ ثوب السباحة؟ - كان والدي يضيف - ممتاز... وفستان سهرة أيضاً! سنذهب بالتأكيد إلى الكازينو... لا تنسي ثعلبكِ الفضّي، الليالي باردة في مونت كارلو...». كانت تفوح من داخلها رائحة زكية، رائحة جلد المقاعد... وأتذكّر أنّ كلّ شيء كان جميلاً... المنفضة الكريستال والمرآة العاكسة، والمقابض الصغيرة لتنزيل زجاج الأبواب، التنجيد الداخلي للصندوق الأمامي، الخشب... كانت أشبه ببساط الريح. «بقليلٍ من الحظّ، سوف

Twitter: @ketab_n

نصل قبل هبوط الليل». كان يعدني. نعم، كان والدي من ذلك النوع من الرجال، كان حالماً كبيراً يستطيع أن يغيّر سرعات سيارة مثبّتة على مسند لساعاتٍ عديدة ويقودني إلى نهاية العالم في مرأبٍ ضاحية... كان أيضاً مهووساً بالأوبرا، فكنا نستمع إلى دون كارلوس، **لا ترافياتا** أو **عرس فيغارو** خلال الرحلة. كان يروي لي القصص: أحزان مدام باترفلاي، العشق المستحيل **لبيلياس** و**ميليزاند**، حينما كان يعترف لها بأنّ لديه ما يقوله لها ولكنّه يعجز عن البوح به، قصص الكونتيسة وصاحبها **شيريبان** الذي يختفي كلّ الوقت أو **ألسينا**، الساحرة الحسناء التي كانت تحوّل طالبي الزواج منها إلى حيوانات متوحشة... كان يحقّ لي دوماً أن أتكلّم إلّا حينما يرفع يده، وفي حكاية **ألسينا** كان يرفع يده غالباً... أغنية Tornami a vagheggiar، لم يعد بوسعي الاستماع إلى ذلك اللحن... إنّه مرحٌ جداً... ولكنني كنتُ أسكت في غالب الأحيان. كنتُ عاقلة. كنتُ أفكّر بالفتاة الصغيرة الأخرى. لم يكن لديها كلّ هذا... كان الأمر معقّداً بالنسبة لي... الآن، طبعاً، أرى ذلك بشكلٍ أوضح: رجلٌ مثله لم يكن بوسعه أن يعيش مع امرأة مثل والدتي... امرأةٌ كانت توقف الموسيقى بجفاء حينما كنا نجتمع إلى المائدة وتبعثر أحلامنا كفقاعات الصابون... لم أجدها قط سعيدة، لم أجدها قط مبتسمة... أمّا والدي، فعلى العكس، كان اللطف والطيبة بعينهما. يشبه إلى حدٍّ ما فيليبير... وفي كلّ الأحوال كانت فكرة طريفة أن يكون سافلاً في نظر أميرته الصغيرة... فعاد ذات يوم ليعيش معنا... كان ينام في مكتبه ويرحل كلّ نهاية أسبوع... لم

Twitter: @ketab_n

تعد هناك مغامرات في سالزبورغ أو روما في سيارته الجاكوار الرمادية القديمة، لم تعد هناك كازينوات أو نزهات على شواطئ البحر... ثمّ ذات صباح، ولا بدّ أنّه كان متعباً، على ما أتصوّر... كان متعباً جداً، وسقط من عمارة شاهقة...

- هل سقط أم قفز؟

- كان رجلاً رشيقاً. لقد سقط. كان مؤمِّناً وكان يمشي على سطح برجٍ لتفحّص مجاري التهوية أو شيءٍ من هذا القبيل، فتح ملفّه ولم ينظر أمامه ولم يتأكّد من موطئ قدميه...

- هذا شيءٌ من البلاهة، أنتِ ما رأيكِ بذلك؟

- لا أعتقد. بعد ذلك، جرت مراسم الدفن وكانت والدتي تلتفت باستمرار لترى إن لم تكن الزوجة الأخرى في آخر الكنيسة... ومن ثمّ باعت سيارة الجاكوار، وتوقّفتُ عن الكلام.

- لِكَم من الوقت؟

- لأشهرٍ...

- وبعد ذلك؟ أي أيمكنني أن أنزل الشرشف لأنني أختنق...

- أنا أيضاً كنتُ أختنق. بعد ذلك أصبحتُ مراهقة كئيبة ومنعزلة. وضعتُ رقم هاتف المستشفى في ذاكرة التلفون ولكنني لم أحتج إليه... أصبحتْ هادئة... تحوّلت من محاوِلة للانتحار إلى مكتئبة. وكان ذلك تطوّراً في حالتها. أصبحت أكثر هدوءاً، وأتخيّل أن موتاً كان يكفيها... بعد ذلك لم يعد لديّ سوى فكرة وحيدة: أن أنجو بنفسي: غادرت للمرّة الأولى للعيش مع صديقةٍ حينما كان عمري سبعة عشر عاماً... ذات مساء، فجأةً، كانت

Twitter: @ketab_n

أمّي برفقة رجال الشرطة أمام الباب. . إذاً كانت هذه المرأة الشريرة تعرف جيداً أين كنتُ. . . كانت غليظة بتعبير الشباب. كنا نتناول العشاء مع والديها، وأتذكّر أننا كنّا نتحدّث عن حرب الجزائر. . . وحينذاك، دقّ رجال الشرطة الباب. كنتُ ممتعضة جداً من أولئك الناس، ولكن لا بأس، لم أشأ أن أواجه مشاكل فتبعتها. . . بلغتُ الثامنة عشرة من عمري في 17 شباط (فبراير) 1995، في الساعة الثانية عشرة ودقيقة واحدة من منتصف ليلة 16 شباط (فبراير)، خرجتُ وأنا أغلق الباب بهدوء. . . حصلتُ على شهادتي الثانوية وانضممتُ إلى أكاديمية **الفنون الجميلة**. . . نلتُ المرتبة الرابعة من أصل سبعين مقبولاً في الأكاديمية. وكنتُ قد أعددتُ ملفًّا رائعاً انطلاقاً من أغاني الأوبرا في طفولتي. . . عملتُ بلا هوادة ونلتُ مباركة هيئة التحكيم. . . في تلك الفترة، لم يعد لدي أيّ اتّصالٍ مع والدتي وبدأت أعيش وضعاً مادياً صعباً لأنّ المعيشة في باريس كانت غالية جداً. . . عشتُ متنقّلة بين أصدقاء. . . وتغيّبتُ عن الكثير من الدروس. . . كنتُ أتغيّب عن الدروس النظرية وأذهب إلى المشاغل ثمّ قمتُ ببعض الحماقات. . . أوّلاً، كنتُ أملّ بعض الشيء. . . لا بدّ من القول إنني لم ألعب اللعبة: لم آخذ المسألة بجدية ولذلك لم أؤخَذ على محمل الجدّ. لم أكن فنّانة حقيقية وإنّما كنتُ ماهرة في صنعتي. . . نصحوني بالأحرى أن أذهب إلى ساحة تيرتر لكي أرسم هناك بيتاً ريفياً وراقصاتٍ صغيرات. . . ومن ثمّ أوه. . . لم أكن أفهم شيئاً. أمّا أنا فكنتُ أريد أن أرسم، ولذلك بدل الاستماع إلى ثرثرة أساتذتي كنتُ أرسم وجوههم وكانت فكرة

Twitter: @ketab_n

«الفنون البلاستيك» وإشراك الجمهور والتركيبات تغيظني. أدركتُ جيّداً أنني قد جئتُ في القرن الخطأ. كنتُ أودّ لو أنني عشتُ في القرن السادس عشر أو السابع عشر وتعلّمت في مرسم فنّانٍ عظيم... أعدّ له خلفيات لوحاته، وأنظّف فراشيه وأمزج ألوانه... ربّما لأنني لم أكن ناضجة؟ أو لأنني لم أكن أنانية؟ أو بكلّ بساطة لأنّه لم تكن هناك نارٌ مقدّسة؟ لا أدري... ثانياً، لقد قمتُ بلقاءٍ سيئ... الحيلة الظاهرة: الفتاة الصغيرة مع علبة ألوانها وخرقها المطوية بإتقان والتي وقعت في غرام النابغة المجهول. الملعون، أمير الأنواء، الأرمل، الغامض، شديد الحزن... صورة إيبينالية حقيقية: أشعر، معذّب، عبقري، منحرف المزاج، ظمآن... أبٌ أرجنتيني وأمٌّ هنغارية، مركّبٌ انفجاري، ثقافة باهرة، يعيش في مسكنٍ مستولى عليه[1] ولا ينتظر سوى هذا: فتاةٌ صغيرة خرِفة تعدّ له الطعام بينما هو يبدع وسط آلامٍ فظيعة... لقد أكّدت ذلك. ذهبتُ إلى سوق **سان بيار**، شبّكتُ أمتاراً من النسيج على الجدران لأضفي شيئاً من «الأناقة» على «غرفتنا الصغيرة» وبحثتُ عن عملٍ لكي أؤمّن قوتي... أخيراً القِذْرة أوه... فرن الغاز، سنقول... لقد أهملت المدرسة وجلستُ متربّعة أفكّر في مهنة قد أجيدها... والأسوأ، هو أنني كنتُ فخورة! كنتُ أشاهده يرسم وكنتُ أشعر بأهميتي... كنتُ الأخت، ربّة الفن، المرأة العظيمة خلف الرجل العظيم، المرأة التي ترفع الأكواب وتطعم التلاميذ وتفرغ المنافض...

(1) منزل يسكنه شخص أو أكثر من دون صكّ ملكية أو عقد إيجار. (المترجم).

Twitter: @ketab_n

ضحكت.

- كنتُ فخورة وأصبحتُ حارسة المتحف، خبيثة فائقة، أليس كذلك؟ حسناً، هنا سأتجاوز الزملاء، لأنني لمستُ كلّ عَظَمة الخدمة العامّة ولكنني... لم أكن أبالي بذلك في الحقيقة... كنتُ بخير. أخيراً، كنتُ في مرسم معلّمي الكبير... كانت اللوحات قد جفّت منذ زمنٍ طويل ولكنني بالتأكيد تعلمت أكثر مما تعلّمته في كلّ مدارس العالم... ولأنني لم أكن أنام كثيراً في تلك الفترة، استطعتُ أن أخلد للخمول والهدوء... كنتُ أتدفّأ... ولكن المشكلة كانت أنه لم يكن يحقّ لي أن أرسم ... حتى على قصاصة ورق تافهة، حتى وإن لم يكن هناك أحد والله يعلم أنّه لم يكن هناك الكثير من الناس في بعض الأيام، ولم يكن لديّ سوى أن أقلّب صفحات مصيري وأن أنتفض حينما أسمع صوت زحف نعلي زائرٍ شارد أو ألملم لوازمي بسرعة حينما أسمع أزيز رزمة مفاتيحه... في النهاية، غدت تلك هواية سيرافان تيكو المفضّلة، سيرافان تيكو، أعشق هذا الاسم... التقدّم بخطوات مختلسة ومباغتتي بالجرم المشهود. آه! كم كان مسروراً، ذاك الغبيّ، حينما كان يرغمني على أن لا أستعمل قلمي!كنتُ أجده الشخص الذي يبتعد مباعداً بين ساقيه لإراحة خصيتيه... لكن حينما كنتُ أنتفض، كان ذلك يثيرني، كان ذلك، كان ذلك يغيظني. عدد الرسومات التالفة من جراء خطأه... آه كلا! لم يعد ذلك ممكناً! من جرّاء ذلك، لعبتُ اللعبة... بدأ التعلّم من الحياة يؤتي ثماره: لقد رشوته.

- عفواً؟

Twitter: @ketab_n

- دفعتُ له رشوة. سألته كم يريد منّي ليدعني أعمل.. ثلاثون فرنكاً في اليوم؟ حسناً... ثمن ساعة من السُبات في الحرارة؟ حسناً... ودفعتها له...

- اللعنة...

أضافت شاردة الذهن:

- نعم... سيرافان تيكو العظيم... الآن وقد أصبح لدينا كرسيّ متحرك، سألقي عليه التحية ذات يوم مع بوليت...

- لماذا؟

- لأنني أحببته كثيراً... كان نشّالاً شريفاً. ليس كالأبله الآخر الذي كان يستقبلني بجفاء بعد يومٍ مجهدٍ من العمل لأنني كنتُ قد نسيتُ شراء أعقاب السجائر... وأنا كنتُ أنزل ثانية كبلهاء...

- لماذا بقيتِ معه؟

- لأنني كنتُ أحبّه. وكنتُ معجبة بعمله أيضاً... كان حرّاً، متحرراً من العُقد، واثقاً من نفسه، صارماً... على النقيض منّي تماماً... كان ليفضّل الموت فاغر الفم على أن يقبل بأدنى تسوية. كنتُ بالكاد أبلغ العشرين من عمري، أنا من كنتُ أرعاه ووجدته رائعاً...

- كنتِ حمقاء...

- نعم... كلا... بعد فترة المراهقة التي مررت بها، كان ذلك أفضل ما قد يحصل لي... كان باستمرار هناك أناس، لم نكن نتحدّث إلّا عن الفن، إلّا عن الرسم... كنا مضحكين نعم، ولكن نزيهين أيضاً. كنّا نعيش شظف العيش، نرتعد من البرد

Twitter: @ketab_n

ونقف في الدور أمام الحمّامات العامّة ولكننا كنا نشعر بأننا نعيش أفضل من الآخرين... وما قد يبدو مضحكاً اليوم هو أنني أعتقد بأننا كنّا على حقّ... كانت لدينا عاطفة... هذا البذخ... كنتُ حمقاء وسعيدة. حينما كنتُ أضيق ذرعاً بصالة، كنتُ أغيّرها وعندما لم أكن أنسى السجائر، كان ذلك عيداً! كنا نفرط في الشرب أيضاً... اعتدتُ على بعض العادات السيّئة... ومن ثمّ التقيت بآل كيسلر الذين حدّثتك عنهم أمس...

قال مقطّباً:

- أنا متأكّدٌ من أنّها كانت مفاجأة حسنة...

- أوه نعم... الأفضل في العالم... أوه... لا شيء سوى التفكير فيها. إن ذلك يثير القشعريرة في كلّ أنحاء جسمي، تفضّل...

- لا بأس، لا بأس... لقد فهما.

تنهّدت:

- كلا، ليس بهذه الفظاعة... بعد انقضاء أولى الانفعالات التالية للعذرية، أقصد... أقصد أنّه كان رجلاً أنانياً...

- آآآه...

- نعم، أوه... أنت أيضاً لا تختلف كثيراً عن هذا النوع...

- نعم، ولكن أنا لا أدخّن!

كانا يبتسمان وسط العتمة...

- وبعد ذلك فسد الأمر... كان عشيقي يخدعني... بينما

Twitter: @ketab_n

كنتُ أعاني من الدعابة الواهية لسيرفان تيكو، كان هو يعاني من السنوات الأولى، وحينما تصالحنا، اعترف بأنّه يتعاطى المخدّرات، أوه، القليل منها، بدافع المزاج فقط... لجمال الحركة... وهنا لم أعد أرغب أبداً في الحديث عن ذلك...

- لماذا؟

- لأنّ الأمر يصبح في غاية الحزن... السرعة التي كان ذاك الوغد يجعلني أركع بها، كان أمراً مذهلاً... جمال الحركة، مؤخّرتي، تحمّلتُ لبضعة أشهر ثمّ عدتُ للعيش مع والدتي. لم تكن قد رأتني منذ نحو ثلاثة أعوام، فتحت الباب وقالت لي: «أنا أنبّهكِ، ليس هناك ما تأكلينه». ذرفتُ الدموع بغزارة ومكثتُ عندها طريحة الفراش لشهرين... هنا، كانت نظيفة لمرّة واحدة... كان لديها ما يلزم لمعالجتي، سوف تقول لي... وعندما نهضتُ من الفراش، عدتُ إلى العمل. في تلك الفترة، لم أكن أتغذّى سوى على العصائد والأطعمة الخفيفة. ألو! الدكتور فرويد؟ وبعد ذلك، كانت السينما سكوب دولبي ستيريو، الأصوات، الأضواء والمؤثّرات من كلّ نوع، استأنفتُ حياةً زهيدة بالأسود والأبيض. كنتُ أشاهد التلفاز وأشعر دائماً بالدوّار على قارعة الأرصفة...

- هل فكّرتِ في ذلك؟

- نعم. كنتُ أتخيّل شبحي يصعد نحو السماء على هواء (Tornami a vagheggiar, te solo vuol amar...) ووالدي الذي كان يفتح لي ذراعيه ضاحكاً: «آه! ها أنتِ أخيراً، يا آنستي! سوف ترين، هنا أجمل حتى من الريفييرا...».

Twitter: @ketab_n

بكت.

- لا، لا تبكي...

- بلى. أرغب في البكاء.

- حسناً، إبكي إذاً.

- هذا جيّد، أنتَ لستَ معقّداً...

- هذا صحيح. لدي الكثير من العيوب، ولكنني لستُ معقّداً... أتريدين أن نتوقّف عن الحديث؟

- كلا.

- أتريدين شرب شيءٍ ما؟ أتريد كوباً صغيراً من الحليب مع زهر الليمون كما تعدّه لي بوليت؟

- كلا. أشكرك... أين وصلتُ؟

- الدوار.

- نعم، الدوار... بأمانة، لم يكن يلزمني سوى نقرة صغيرة بالإصبع على ظهري كي أنقلب أرضاً، ولكن بدل ذلك، حملت الصدفة قفّازين أسودين من جلد جدي ناعم جداً وربّتت على كتفي ذات صباح... في ذاك اليوم، كنتُ أتسلّى مع شخصيات **واتو**، كنتُ منكمشة على نفسي على مقعدي حينما مرّ رجلٌ من خلفي... كنتُ أراه غالباً... كان يجول باستمرار حول الطلّاب ويتفقّد رسوماتهم بلطف... كنتُ أعتقد أنّه يفتّش عن غانية. كانت تراودني شكوكٌ حول خصائصه الجنسية، كنتُ أشاهده يدردش بلباقة وتغنّج وكنتُ معجبة بهيئته... كان يرتدي باستمرار معاطف رائعة، طويلة جداً، وأطقماً راقية وأنيقة ومناديل رقبة وأوشحة حرير... كانت تلك استراحتي القصيرة... فكنتُ

Twitter: @ketab_n

أتقوقع على دفتري ولم أكن أرى سوى حذائه الرائع، الأنيق جداً والملمّع للغاية. سألني بتلعثم: «هل يمكنني أن أسألكِ سؤالاً تطفّلياً، يا آنستي؟ هل لديكِ مغزى لكلّ تجربة؟ أنا التي أفسدتُ سيرافان تيكو وكنتُ أحلم بأن أعاكس خلقة الله؟ أجبته: «كلا». وبسبب ذلك الجواب السريع الجسور، وقعتُ في فوضى أخرى... فوضى كبيرة هذه المرّة...

- وقعتِ في ماذا؟

- فوضى لا اسم لها.

- ماذا فعلتِ؟

- نفس ما فعلته سابقاً... ولكن بدل أن أقيم في مسكنٍ مستولى عليه وأكون خادمة شخصٍ حانق، عشتُ في أكبر فنادق أوروبا وأصبحتُ خادمة شخصٍ نصّاب.

- هل... هل مارستِ...

- الدعارة؟ كلا. مهما...

- ماذا كنتِ تفعلين؟

- كنتُ أزوّر.

- تزوّرين عملاتٍ؟

- كلا، رسومات... والأسوأ، إنّ ذلك كان يسلّيني أكثر! أقصد في البداية، بعد ذلك تحوّلت تلك الطرفة الصغيرة إلى نوع من الرقّ، ولكنها كانت فكهة جدّاً في البداية. للمرّة الأولى كنتُ أفيد في شيء! وبالتالي، عشتُ في بذخٍ لا يُصدّق... لم يعزّ أيّ شيء عليّ. كنتُ باردة؟ يقدِّم لي أفضل المعاطف الكشميرية. هل رأيتَ الكنزة الصوفية الفضفاضة الزرقاء مع قلنسوتها التي أرتديها طوال الوقت؟

Twitter: @ketab_n

- نعم.

- اشتراها لي بألف ومائة فرنك...

- غير معقول؟

- بلى. ولدي العشرات مثلها. يسألني إن كنتُ جائعة؟ يتّصل فوراً بخدمة الغرف، فيجلبون لي الكركند بكثرة. إن كنتُ عطشانة؟ يقدّم لي شمبانيا! كنتُ ضجرة؟ يصطحبني إلى عروض مسرحية وحفلات غنائية، وتسوّق! كلّ ما ترغبين فيه، اطلبيه من فيتوريو... الشيء الوحيد الذي لا يحقّ لي، هو قول: «كفاني». حينها، كان فيتوريو الوسيم يصبح سيئاً... «إن رحلتِ، ستغرقين...»، ولكن لماذا كنتُ سأرحل؟ كنتُ أتدلّل، وأتسلّى، وأفعل ما أشاء، وأزور كلّ المتاحف التي حلمتُ بها، وأجري اللقاءات، في الليل، كنتُ أنسلّ من الغرفة، لستُ متأكّدة ولكنني أعتقد بأنني قد نمتُ مع جيريمي أيرونس...

- من يكون هذا؟

- أوه... أنت لجوج... حسناً، لا يهمّ... كنتُ أقرأ، أستمع إلى الموسيقى، أكسب المال... بالعودة إلى تلك الفترة، أقول لنفسي بأنّ ذلك كان شكلاً آخر للانتحار... أكثر راحةً... لقد انقطعتُ عن الحياة وعن الناس القلائل الذين أحبّوني. عن بيار وماتيلد كيسلر، بشكلٍ خاصّ، اللذين حقدا عليّ إلى حدّ الموت، وعن زملائي القدامى الصغار، وعن الواقع، وعن السلوك، وعن الطريق القويم، وعن نفسي...

- أكنتِ تشتغلين طيلة الوقت؟

- طيلة الوقت. لم أكن أنتج المزيد ولكن كان عليّ أن أعيد

Twitter: @ketab_n

الأمر نفسه لآلاف المرّات بسبب مشاكل تقنية... الزنجار، والركيزة وكلّ هذه الأمور... أخيراً، كان الرسم شحيحاً، كانت شيخوخته المعقّدة. عملتُ مع جان، وهو هولنديٌّ كان يزوّدنا بالورق القديم. كانت تلك مهنته: أن يجول في العالم ويعود ببكراتٍ من الورق. كانت لديه موهبة كيماوية وكان يسعى بلا هوادة لتعتيق الورق... لم أسمعه قط يتفوّه بكلمة واحدة، كان شخصاً ساحراً... ومن ثمّ، فقدت مفهوم الزمن... بطريقة ما، تركتُ نفسي مخدّرة في تلك اللاحياة... لم يكن ذلك يُرى بالعين المجرّدة، ولكنني أصبحتُ حطاماً، حطامًا أنيقًا... الحنجرة هابطة، قمصانٌ على المقاس، وتقزّزٌ من نفسي... لا أدري كيف كان لكلّ ذلك أن ينتهي لو لم ينقذني ليوناردو...

- مَنْ ليوناردو؟

- ليوناردو دافنشي. حينها، ثرتُ في الحال... وطالما كان يتمّ الاحتفاظ بالمعلّمين الصغار، بمخططات الرسومات، والرسيمات، وتعديلات التعديلات على اللوحات، كان يمكن خداع التجّار الذين لا يدقّقون كثيراً، ولكن آنذاك، لم يكن ذلك أمراً مهمّاً... قلتُ ذلك ولكن لم يُسمَع كلامي... أصبح فيتوريو نهماً جداً... لا أدري بالضبط ماذا كان يفعل بماله ولكن كلّما كان يقبض المزيد منه كان يعوزه أكثر... لا بدّ أنه هو الآخر كانت لديه نقاط ضعفه... فالتزمتُ الصمت. لم يكن ذلك مشكلتي في نهاية المطاف... عدتُ إلى متحف اللوفر، إلى دور الفنون الغرافيكية حيث استطعت أن أحصل على بعض الوثائق وأحفظها عن ظهر قلبْ... كان فيتوريو يريد أمراً صغيراً. «أترين، هذه الدراسة؟ استوحي منها، ولكن تلك الشخصية،

Twitter: @ketab_n

اتركيها لي...». في تلك الفترة، لم نعد نعيش في الفندق وإنّما في شقة مفروشة فاخرة. أجريتُ المطلوب وانتظرت... ازداد عصبيةً. كان يمضي ساعات على الهاتف ويحت الموكيت ويبصق على لوحة السيّدة العذراء. ذات صباح، دخل إلى غرفتي مثل مجنون: «علي أن أرحل، ولكنّكِ لن تتحرّكي من هنا، اتّفقنا؟ لا تخرجي من هنا طالما لم أقل لكِ ذلك، أفهمتِ؟ لا تتحرّكي من هنا!». في المساء، تلقيّت مكالمة من رجلٍ آخر لم أكن أعرفه: «احرقي كلّ شيء» وأغلق السمّاعة. حسناً... جمعتُ أكداساً من الأكاذيب وأتلفتها في المجلى. وانتظرت أكثر... لعدّة أيام... لم أكن أجرؤ على الخروج. لم أكن أجرؤ على النظر من النافذة. أصبحتُ مرعوبة تماماً. ولكن بعد مضي أسبوع، غادرت. كنتُ جائعة، وأردتُ أن أدخّن، لم يعد لديّ أيّ شيء أخسره... عدتُ إلى مودون مشياً على القدمين ووجدتُ داراً علّقت على سورها لوحة إعلان مكتوب عليها: **للبيع**. هل ماتت؟ تسلّقت الجدار ونمتُ في المرأب. عدتُ إلى باريس. بقدر ما كنتُ أمشي، كنتُ أقف على قدمَيّ. تسكّعتُ حول العمارة تحسّباً لعودة فيتوريو... لم يكن لديّ لا مال، ولا بوصلة، ولم تعد هناك لا معالم ولا أيّ شيء. أمضيتُ ليلتين إضافيتين في الخارج في معطفي الكشمير ذي الألفي فرنك، طلبتُ أعقاب سجائر وتلفّعتُ بمعطفي. في الليلة الثالثة، طرقتُ باب منزل بيار وماتيلد وانهرتُ أمام بابهما. اهتمّا بأمري وأسكناني هنا في الطابق السابع. ظللتُ لأسبوع أفترشُ الأرض وأنا أفكّر في مهنة قد أجيدها... كل ما كنتُ أعرفه هو أنني لم أعد أريد أن أرسم في حياتي. كما لم أكن مستعدة للعودة إلى العالم. كان الناس يُخيفونني...

Twitter: @ketab_n

فأصبحتُ عاملة تنظيفات ليلية. عشُت هكذا لأكثر من عام بقليل. في غضون ذلك، عثرتُ على أمّي. لم تطرح عليّ أسئلة... لم أعرف قط إن كان ذلك بدافع اللامبالاة أم التحفّظ... لم أنقّب في الأمر، لم يكن بوسعي أن أسمح لنفسي بذلك: لم يعد لديّ سواها...

«يا لسخرية القدر... لقد فعلتُ كلّ شيء لأفرّ منها وها هي... العودة إلى خانة الانطلاق، الأحلام على الأقلّ... عشتُ بتقتير، استمتعتُ بالشرب وحيدة وفتّشتُ عن مخرجٍ للنجاة في غرفتي البالغة عشرة أمتار مربّعة... ثمّ مرِضتُ في بداية الشتاء وحملني فيليبير على السلالم ونقلني إلى الغرفة المجاورة... والبقية، أنت تعرفها...

ساد صمتٌ طويل.

ردّد فرانك مراراً:

- حسناً... حسناً...

كان منتصباً ومصالباً ذراعيه.

- حسناً... تتحدّثين عن حياة... هذا من البلاهة... والآن؟ ماذا ستفعلين، الآن؟

- ...

نامت.

رفع الفراش حتى أنفها وأخذ أغراضه وخرج خلسةً. الآن وقد عرفها، لم يعد يجرؤ على التمدّد بجانبها. ثمّ كانت تشغل المكان كلّه...

كلّ المكان.

Twitter: @ketab_n

18

كان تائهاً.

جال للحظة في الشقّة، توجّه نحو المطبخ، فتح أبواب الخزائن ثم أغلقها وهو يهزّ رأسه.

على حرف النافذة، كان قلب الخسّ ذابلاً تماماً. رماه في حاوية النفايات ليعود ويجلس ممسكاً بقلم رصاص لكي ينهي رسمته. تردّد بشأن العينين... هل كان عليه أن يرسم نقطتين سوداوين في طرف القرنيتين أم نقطة واحدة في الأسفل؟

اللعنة... حتى في رسم الحلزون، كان فاشلاً!

هيّا، نقطة واحدة، هذا أحلى.

ارتدى ثيابه ودفع درّاجته وهو يضغط على ردفيه إلى أمام الكوخ. شاهده بيكوش يمرّ من دون اعتراض. لا بأس يا بنيّ، لا بأس... ستحصل هذا الصيف على لباس ماركة لاكوست، سار لبضعة أمتارٍ أخرى قبل أن يضغط على دواسة تشغيل المحرّك وينطلق في جنح الظلام.

سلك أول شارعٍ إلى اليسار وسار في خطٍّ مستقيم. حينما وصل إلى البحر، وضع خوذته على بطنه ونظر إلى منارات البحّارة الصيّادين. استغلّ ذلك ليقول كلمتين أو ثلاثاً لدرّاجته. فلتتفهّم قليلاً الموقف...

رغبة خفيفة في طقطقة أصابعه.

الكثير من الريح، ربّما؟

حمحم.

Twitter: @ketab_n

ها هو! هذا ما كان يبحث عنه الآن: مرشحة قهوة! انتظمت أفكاره... فسار على طول الميناء إلى أن وصل إلى أوّل مقهى صغير وشرب عصيراً وسط مشمّعات لامعة. حينما رفع بصره، اكتشف أحد معارفه القدامى في انعكاس المرآة: هو نفسه.

اندهشت صورته بصمت:

- إذاً... أهذا أنت؟

- نعم...

- ماذا تفعل هنا؟

- جئتُ أشرب فنجاناً من القهوة.

- أريد أن أقول إنّ لديك فماً قذراً...

- أنا متعب...

- ألا زلت تبحث عن المغامرات العاطفية؟

- كلا.

- هيّا أخبرني... ألم تكن مع فتاةٍ، هذه الليلة؟

- لم تكن فتاة حقيقية...

- ماذا كانت إذاً؟

- لا أدري.

قال الشبح:

- هيه أنت، يا بنيّ... هيه يا معلّمه! خذوا فنجانه، هناك، صديقي الذي يبرش السمك، هناك!

- لا، لا، اترك...

- اترك ماذا؟

Twitter: @ketab_n

- كلّ شيء.

- حسناً ما بك يا ليستاف؟

- ألمٌ في القلب...

- أووه، أنت عاشقٌ؟

- قد يكون ذلك...

- حسناً! هذا خبرٌ سارّ! ابتهج يا عزيزي العجوز! ابتهج! اصعد إلى البار! غنّي!

- كفى.

- ولكن ما بك؟

- لا شيء... إنّها... إنّها جيدة، هذه مناسبة جدّاً لي على أيّ حال...

- ولكن لا... هذه ترّهات! لا أحد يناسب الآخر جدّاً... خاصّة النساء!

- قلت لك إنّها ليست امرأة...

- أهو رجل؟!

- كلا...

- إنسانٌ آلي؟ أهي لارا كروفت؟

- أفضل من هذا...

- أفضل من لارا كروفت؟ يا للهول! هناك أناسٌ في الشرفة، إذاً؟

- سأقول A 85...

ابتسم لنفسه:

Twitter: @ketab_n

- حسناً. . . إن كنتَ مغرماً بلوحة لتقطيع الخبز، أنت في مأزق، أنا أفهم هذا على نحو أفضل. . .

كان يلعن نفسه:

- كلا، أنت لا تفهم شيئاً! أنت لم تفهم قط شيئاً! لا تزال هنا، تمطّ فمك الكبير لتتناسى أنّك لا تفهم شيئاً! مذ كنتَ صبيّاً، أنت تزعج عالمك! أنت تثير شفقتي. . . حينما تكلّمني هذه الفتاة، لا أفهم نصف كلماتها، أتفهم؟ أشعر بنفسي جاهلاً إلى جانبها. قد ترى كلّ ما عاشته سابقاً. . . اللعنة، أنا لا أضمن. . . أعتقد بأنني سأستسلم. . .

برطمت الصورة المنعكسة في المرآة.

تذمّر فرانك:

- ماذا؟

- أنت فاسدٌ للغاية. . .

- لقد تغيّرت.

- كلا. . . أنت متعبٌ فقط. . .

- منذ عشرين سنة وأنا متعب. . .

- ماذا عانت في حياتها؟

- الأمرّين.

- حسناً، هذا ممتاز! ليس عليك سوى أن تقترح عليها أمراً آخر!

- ماذا؟

- آ! أتتعمّد أم ماذا؟

Twitter: @ketab_n

- كلا.

- بلى. أنت تتعمّد لكي تثير شفقتي.. فكّر قليلاً. أنا واثقٌ من أنّك سوف تجد...

- أنا خائف.

- هذه إشارة حسنة.

- نعم ولكن لو أنني...

تشوّشت المرآة.

قالت المعلّمة:

- أيّها السادة، لقد وصل الخبز، مَنْ منكم يريد شطيرة؟ الشابّ؟

- شكراً، سينجح الأمر.

نعم، سينجح الأمر.

في الجدار أو في مكانٍ آخر...

سوف نرى.

كانوا يجهّزون السوق. اشترى فرانك زهوراً من مؤخّرة الشاحنة، ألديك التتمّة، يا صبيّ؟ ودسّها تحت بلوزته.

زهورٌ، لا بأس بذلك كبداية، أليس كذلك؟

ألديك البقية يا صبيّ؟ بالتأكيد، يا عجوز! بالتأكيد!

وللمرّة الأولى في حياته، سار نحو باريس وهو يشاهد الشمس ترتفع.

كان فيليبير يستحمّ. حمل الفطور إلى بوليت وعانقها ممسّداً خدّيها المتهدّلتين:

Twitter: @ketab_n

- إذاً يا جدّتي، ألستِ مرتاحة هنا؟

- ولكنّك متجمّد من البرد؟ من أين جاءك هذا أيضاً؟

نهض قائلاً:

- أوه هناك...

كانت تفوح من بلوزته رائحة الميموزا. لعدم وجود مزهرية، قطع قارورة بلاستيك بسكين الخبز.

- هيه، يا فيلو؟

- انتظر لحظة، أنا أعدّ لنفسي كوباً من رقائق الذرة... هل أعددت لنا قائمة المشتريات؟

- نعم... كيف تُكتَب كلمة ريفييرا؟

- تُكتَب بحرفٍ كبير ومن دون شدّة.

- شكراً.

ثنى كلمته الصغيرة ووضعها مع المزهرية قرب القوقعة الحلزونية.

حلق ذقنه.

سأل الآخر:

- أين كنّا؟ مرّة أخرى في المرآة.

- كلا، هذا جيّد. سوف أتدبّر أمري...

- حسناً، حسناً.. حظّاً سعيداً، اتّفقنا؟

عبس فرانك.

رشّ عطراً بعد الحلاقة.

كان متأخراً بعشر دقائق وكان الاجتماع قد بدأ.

Twitter: @ketab_n

أشار الشيف:

- ها هو قلبنا الجميل...

جلس مبتسماً.

19

كما في كلّ مرّة يكون فيها منهكاً، حرق نفسه بخطورة. أصرّ صديقه الأمين على أن يعالجه وانتهى إلى أن مدّ ذراعه بصمت. لا طاقة له على التشكّي أو التألّم. آلة متفجرة. خارج الخدمة، خارج الاستخدام، خارج القدرة على الإيذاء، خارج كلّ شيء...

عاد مترنّحاً، ضبط ساعته المنبّهة ليتأكّد من أنّه لن ينام حتى صباح اليوم التالي، خلع حذاءه من دون أن يحلّ الرباط وسقط على سريره متصالب الذراعين. الآن نعم، كانت يده تؤلمه وأطلق صرخة ألم قبل أن يستغرق في النوم.

كان قد نام منذ أكثر من ساعة حينما جاءت كاميل لمقابلته في الحلم - وكانت خفيفة جداً بحيث لم يكن من الممكن إلا أن تكون هي -.

للأسف، لم يرَ إن كانت عارية... كانت ممدّة فوقه. الفخذان على الفخذين، البطن على البطن، الكتفان على الكتفين.

وضعت فمها على أذنه وهمست:

- ليستافييه، سأغتصبك...

كان يبتسم في نومه. أوّلاً لأنّ ذلك كان هذياناً جميلاً وثانياً لأنّ ألمه كان يدغدغه وراء الهاويات.

Twitter: @ketab_n

- نعم... لننتهِ من الأمر.. سأغتصبك ليكون لدي سببٌ وجيه لآخذك بين ذراعي... ولكن لا تتحرّك... إن قاومت، سأخنقك يا غلامي الصغير...

أراد أن يضمّ كلّ شيء، جسده، يديه وشراشفه ليتأكّد من أنه لن يستيقظ ولكن أحداً أمسكه من معصميه.

من جرّاء الألم، تبيّن له أنّه لم يكن يحلم، ولأنّه كان يتألّم، أدرك سعادته.

واضعة راحتي يديها على راحتيه، شعرت كاميل بملمس شاش الجراحة:

- هل تتألّم؟

- نعم.

- هذا أفضل.

وبدأت بالحركة.

وهو أيضاً.

قالت غاضبة:

- تتت تتت، دعني أفعلها...

أخرجت قطعة بلاستيك وقبّعتها، توقّفت عند رقبته ونزلت قليلاً ومرّرت يديها تحت خاصرتيه.

بعد عدّة لمسات ومداعبات صامتة، تشبّثت بكتفيه، تقوّست وبلغت اللذّة خلال لحظة قصيرة جداً.

سأل، محبطاً بعض الشيء:

- هل بلغتِ الذروة؟

Twitter: @ketab_n

- نعم...

- أوه...

- كنتُ جائعة جدّاً...

أغلق فرانك ذراعيه على ظهرها.

أضافت:

- آسفة...

- لا جدوى من التأسّف، يا آنستي... سوف أقدّم شكوى.

- بكلّ سرور...

- كلا، ليس الآن... أنا مرتاحٌ جداً هكذا، ابقي كما أنتِ، أرجوكِ... أوه سحقاً...

- ماذا؟

- أنا أغطّي كلّ جسمكِ بكريم **البيافين**...

ابتسمت:

- هذا أفضل، سيكون هذا مفيداً دائماً...

أغمض فرانك عينيه. كان يلامس الجائزة الكبرى. فتاة حلوة وذكيّة ومشاغِبة. أوه... شكراً يا ربّي، شكراً... كان أمراً جميلاً جداً لو كان صحيحاً.

دبقان بعض الشيء، دهنيان بعض الشيء، ناما مجدّداً تحت شرشفٍ تفوح منه رائحة الفجور وآثار الحريق.

20

حينما نهضت كاميل لتذهب وترى بوليت، داست على ساعته المنبّهة وفصلتها. لم يجرؤ أحدٌ على إيقاظه. لا الأسرة الساهية ولا رئيس قسمه الذي عمل بديلاً عنه من دون اعتراض.

Twitter: @ketab_n

كم كان عليه أن يتألّم، المسكين...

خرج من غرفته نحو الساعة الثانية فجراً ودقّ باب الغرفة التي تقع في نهاية الشقّة.

جثا عند طرف حشيّتها.

كانت تقرأ.

- احم... احم...

أنزلت صحيفتها ورفعت رأسها وسألت مندهشة:

- هل من مشكلة؟

- أوه... يا سيّدي الضابط، لقد... لقد جئتُ شاكياً...

- هل سُرِق منك شيء ما؟

هيه، لا بأس! لنهدأ! سوف لن يجيب بعبارة «يا قلبي» أو بحماقة من هذا القبيل...

- هذا يعني أنّ... أوه... أننا قد اندسسنا إلى غرفتي البارحة...

- حقّاً؟

- نعم.

- ولكنّك كنت هنا؟

- كنتُ نائماً...

- هل شاهدت شيئاً؟

- كلا.

- كم هذا محزن.:. كنتَ جريئاً على الأقلّ؟

أجاب مرتبكاً:

Twitter: @ketab_n

- كلّا.

تنهّدت:

- هذه شهادة غامضة... أنا أدري أن هذه الأمور ليست مريحة جداً أبداً، ولكن... أنت تعلم... سيكون من الأفضل إجراء إعادة تمثيل الوقائع...

- ماذا؟

- نعم...

بقفزة واحدة، كان فوقها. صاحت.

- أنا أيضاً جائع جداً، أنا أيضاً! لم أتناول شيئاً منذ البارحة مساءً وأنتِ ستخسرين يا ماري بوبانس. سحقاً... مذ بدأ بطني يقرقر... سأتضايق، تفضّلي...

التهمها من رأسها حتى أخمص قدميها.

بدأ بنمشها ثمّ مصمصها، داعبها، التهمها، لعقها، ابتلعها، فصفصها، نهشها، عضعضها، وقضمها حتى العظام. بمرور اللحظات، استلذّت به وبادلته اللذّة.

ما عادا يجرؤان على تبادل الكلام ولا حتى النظر.

أبدت كاميل أسفها.

فسأل فرانك قلقاً:

- ماذا هناك؟

- آه يا سيّدي... أنا أدري، هذه حماقة كبيرة، ولكن يلزمني نسخة أخرى لأرشيفنا وقد نسيتُ أن أضع ورق الكربون... وسيكون علينا أن نبدأ كلّ شيء من البداية...

Twitter: @ketab_n

- الآن؟؟

- كلا. ليس الآن. ولكن أيضاً لا ينبغي أن نؤجّل كثيراً... بعدد المرات التي كنتَ تنسى فيها بعض التفصيلات...

- حسناً... وأنتِ، أنتِ... أتعتقدين بأنني سأسترد حقّي؟

- سيدهشني ذلك...

- لقد أخذ كلّ شيء، أتعلمين؟

- كلّ شيء؟

- تقريباً كلّ شيء...

- صعبٌ...

كانت كاميل ممدّة على بطنها وتضع ذقنها على يديها.

- أنتِ جميلة.

قالت وهي تغمر نفسها بتجويف ذراعيه:

- كفى...

- لا، أنتِ محقّة، لستِ جميلة، أنتِ... لا أدري كيف أعبّر... أنتِ نابضة بالحياة... كلّ شيء فيك ينبض بالحياة: شعركِ، عيناكِ، أذناكِ، أنفكِ الصغير، فمكِ الكبير، يداكِ، مؤخرتكِ الرائعة، ساقاكِ الطويلتان، تكشيرتكِ، صوتكِ، عذوبتكِ، صمتكِ، ...كِ ...كِ ...كِ...

- أعضاء جسمي؟

- نعم...

- لستُ جميلة ولكن أعضاء جسمي نابضة بالحياة. رائعٌ هذا الاعتراف... لم يعترف أحدٌ لي بهذا من قبل...

Twitter: @ketab_n

قال مغتمّاً:

- لا تتلاعبي بالكلمات، هذا سهلٌ للغاية بالنسبة لكِ...

أوه...

- ماذا؟

- أنا لا زلتُ أكثر جوعاً من ذي قبل... يجب فعلاً أن أذهب لأتناول شيئاً ما، الآن...

- حسناً إذاً... إلى اللذّة، كما يُقال.

قال مرعوباً:

- ألا... ألا تريدين أن أجلب لكِ شيئاً؟

قالت وهي تتمطّى:

- ماذا تقترح عليّ؟

- ما تشائين...

ثمّ، بعد لحظة من التفكير:

- ... لا شيء... كلّ شيء...

- حسناً. سآكل.

كان مسنداً ظهره إلى الجدار، وصينية الطعام على ركبتيه. فتح قارورةً وقدّم لها كأساً. وضعت مفكّرتها.

ضربا قدحيهما ببعضهما.

- نخب المستقبل...

صحّحت له:

- كلا. بل نخب هذه اللحظة.

آخ!

Twitter: @ketab_n

- المستقبل أوه... أنتِ... أنت...

حدّقت في عينيه:

- طمئني يا فرانك، ألن نصبح عاشقين في نهاية المطاف؟

تظاهر بالاختناق:

- امم، همم... أأنتِ مجنونة أم ماذا؟ بالطبع لا!

- آه! لقد أخفتني... لقد سبق وارتكبنا، نحن الاثنان، الكثير من الحماقات...

- أجل. أنا. أجل.

- ماذا؟

- نعم. فلنتضاجع، ولنضرب الأقداح بالأقداح، ولنخرج للتنزّه، ولنتعاون، تعلّقي برقبتي ودعيني أطوف بكِ إن شئتِ ولكن... فلنتجنّب التحوّل إلى عاشقين... من فضلكِ...

- ممتاز. سأكتب ذلك.

- أترسمينني؟

- نعم.

- كيف ترسمينني؟

- كما أراك...

- هل أنا جيّد؟

- أنا معجبةٌ بك.

أضاف مرقاً إلى صحنه ووضع كأسه واستسلم للعودة إلى تسوية بعض الهنّات الإدارية...

أخذا وقتهما هذه المرّة وحينما تدحرج كلّ منهما على

Twitter: @ketab_n

جانبه، وقد شبعا ووصلا إلى حافة الهاوية، نظر فرانك إلى السقف قائلاً:

- حسناً يا كاميل، سوف لن أحبّك قط.

- شكراً يا فرانك، وأنا كذلك.

Twitter: @ketab_n

القسم الخامس

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

1

لم يتغيّر أيّ شيء، تغيّر كلّ شيء. فقد فرانك شهيّته، واستأنفت كاميل الرسم. غدت باريس أجمل وأبهى وأبهج. أصبح الناس أكثر ابتساماً. بدا كلّ شيء في متناول اليد، أصبحت حدود العالم أكثر وضوحاً وأصبح العالم أخفّ وطأةً.

أهو مناخٌ محليّ في شان دو مارس؟ أهو ارتفاع حرارة كوكبهم؟ أهي نهاية عابرة لانعدام الجاذبية؟ لم يعد هناك من معنى لأيّ شيء ولم يعد هناك من أهمية لأيّ شيء.

كانا ينتقلان من سرير أحدهما إلى حشيّة الآخر، يتمدّدان بحذر ويتبادلان كلمات رقيقة فيما يداعب كل منهما ظهر الآخر. لم يشأ أيّ منهما أن يتعرّى أمام الآخر، كانا على شيءٍ من الرعونة، وشيءٍ من الحماقة ويشعران بأنّهما مرغمان على سحب الغطاء على حشمتهما قبل أن يستغرقا في الفسق والفجور.

أهو تمرينٌ جديد أم أوّل مشروعٍ لمرسومٍ يُعدّ بقلم رصاص؟ كانا حذرين ويثابران بصمت.

نزع بيكو سترته وأخرجت السيّدة بيريرا أصص زهورها. أمّا بالنسبة لإناث الببغاء، فكان الوقت لا يزال مبكّراً بعض الشيء.

Twitter: @ketab_n

قالت ذات صباح:

- هب، هب، هب، لديّ شيءٌ لكِ...

كانت الرسالة قد أُرسِلت من **كوت دارمور.**

10 أيلول (سبتمبر) 1889 .افتحوا القوسين. **المشكلة التي كنتُ أعاني منها في حلقي على وشك الزوال، لا زلتُ آكل بصعوبة، ولكن المهمّ هو أنني شُفيت.** أغلقوا القوسين. شكراً.

حينما قلبت البطاقة، اكتشفت كاميل الوجه المضطرب لفان غوغ.

دسّته في كرّاستها.

تلقّى متجر مونوبري ضربة موجعة. بفضل الكتب الثلاثة التي أهداها فيليبير له، **باريس السرية والغريبة، باريس 300 واجهة معمارية للفضوليين و دليل مقاهي الشاي في باريس،** رفعت كاميل بصرها ولم تعد تتفوّه بسوءٍ عن حيّها حيث ينفتح **الفنّ الجديد** على السماء المفتوحة.

بعد ذلك، تمشيا بدءاً من البيوت التقليدية في جادة بوسيجور حتى حي موزايا، من حديقة بوت-شومون مروزاً **بفندق الشمال** ومقبرة سان-فانسان التي كانتا تتنزهان فيها يوم ذاك مع موريس أوتريلو وأوجين بودان على قبر مارسيل آيميه.

- **أمّا تيوفيل آلكسندر ستاينلن، الرسام المدهش للقطط والبؤس الإنساني، فهو يرقد تحت شجرة، في الركن الجنوبي الشرقي للمقبرة.**

وضعت كاميل الدليل على ركبتيها وردّدت:

- **الرسام المدهش للقطط والبؤس الإنساني، فهو يرقد**

Twitter: @ketab_n

تحت شجرة، في الركن الجنوبي الشرقي للمقبرة... عبارة جميلة، أليس كذلك؟

- لماذا تصطحبينني دائماً إلى الموتى؟

- عفواً؟

-...

- إلى أين تريدين أن تذهبي، يا عزيزتي بوليت؟ إلى ملهى ليلي؟

-...

- أوهوه! بوليت؟

- لنعد. أنا متعبة.

وهذه المرّة أيضاً، انتظرتا كثيراً لتأمين سيارة أجرة أبدى سائقها استياءه بسبب الكرسي المتحرّك.

كان ذاك المعقد اختباراً حقيقياً للمغفّلين...

كانت متعبة.

ازدادت تعباً وثقلاً. لم تشأ كاميل أن توافقها الرأي ولكنها ظلّت باستمرار تحرص على استبقائها والتعارك معها لكي تلبسها ثيابها وتُطعمها وتُرغمها على الخوض في أحاديث. لم تكن تخوض أيّ حديثٍ بل ولم تكن تردّ على أيّ سؤالٍ. أبت السيّدة العجوز العنيدة أن تراجع طبيباً ولم تحاول الشابّة المتسامحة أن تعارض رغبتها، أوّلاً لأن ذلك لم يكن من عادتها وثانياً لأنّ فرانك كان قد أقنعها بذلك. ولكن حينما ذهبتا إلى المكتبة، استغرقت في مجلّات وكتب طبية وقرأت أموراً محبِطة حول

Twitter: @ketab_n

تهالك الدماغ وأعراضٍ أخرى لألزهايمر. ثمّ رتّبت علب الباندور واتّخذت قراراتها الصعبة ولكن الصائبة: إن لم تشأ أن تُعَالج، إن لم تشأ أن تهتمّ بعالم اليوم، إن لم تشأ أن تُنهي طبقها من الطعام، إن شاءت أن ترتدي معطفها فوق قميص نومها لتذهب وتتنزّه، فهذا من حقها. حقّها المشروع. سوف لن تزعجها بذلك وسوف لن تفعل سوى الحديث عن ماضيها، عن والدتها، عن أماسي قطف العنب، عن اليوم الذي كاد فيه السيّد القسّ أن يغرق في **لوير** لأنّه تسرّع في رمي شبكة الصيد وعلِقت هذه بأحد أزرار جُبّته، أو أيضاً عن حديقتها لترى اللمعان في عينيها اللتين غدتا شبه معتمتين. على أيّ حال، لم تجد كاميل ما هو أفضل من ذلك...

- أيّ نوعٍ من الخسّ كنتم تزرعون؟

- دو **لارين ميه** أو **لاغروس بلوند باريسوز.**

- وأيّ نوعٍ من الجزر؟

- **لا باليزو** بالطبع...

- والسبانخ؟

- أوه... السبانخ... **لو مونستريو دو فيروفلاي.** كان هذا النوع غزير الإنتاج...

- ولكن كيف تتذكّرين كلّ هذه الأسماء؟

- لا زلتُ أتذكّر الكثير منها... كنتُ أتصفّح كاتالوغ **فيلمورَن** كلّ مساء، مثلما يقرأ البعض كتب القدّاس... كنتُ أعشق ذلك... كان زوجي يتأمّل في جُعَب الخراطيش وهو يقرأ دليل **مانوفرانس** وأنا كنتُ أحبّ النباتات... أتعرفين أنّ الناس

Twitter: @ketab_n

الطيّبين كانوا يأتون من بعيد لكي يبدو إعجابهم بحديقتي؟

كانت تضعها تحت الضوء وترسمها وهي تصغي إليها.

وكلّما كانت ترسمها أكثر، كانت تزداد حبّاً لها.

هل كانت ستكافح أكثر لتبقى واقفة على قدميها لو لم يكن هناك الكرسيّ المتحرّك؟ هل كانت ستُعاملها كطفلة متوسّلةً إليها لتجلس في كلّ آنٍ للذهاب بسرعة أكثر؟ على الأرجح...

مهما يكن... لم يكن بوسع أحدٍ أن يأخذ منهما ما كانتا تعيشانه، كل تلك النظرات المتبادلة وتلك الأيادي الممدودة في حين كانت الحياة تتفتّت لأصغر ذكرى. لا فرانك ولا فيليبير الذي كان بعيداً كلّ البعد عن فهم صداقتهما غير المعقولة، ولا الأطباء الذين لم يمنعوا قطّ عجوزاً من الرجوع إلى ضفاف النهر والعودة إلى سنّ الثامنة والصراخ: «سيّدي القسّ! سيّدي القس» وهي تبكي لأنّه لو غرق القس لذهب كلّ أطفال جوقته إلى الجحيم مباشرة...

– أنا رميتُ له مسبحتي، تصوّري ماذا بوسع ذلك أن يساعد هذا الرجل المسكين... أعتقد أنني بدأتُ أفقد الثقة في ذلك اليوم لأنّه بدل أن يتضرّع إلى الربّ، كان يستغيثُ مستنجداً بوالدته... وجدتُ ذلك مُريباً...

2

– فرانك؟

– اممم...

– أنا قلقة على بوليت...

Twitter: @ketab_n

- أعلم ذلك.

- ما الذي ينبغي فعله؟ أن أرغمها على أن يعاينه طبيبٌ؟

- أعتقدُ أنني سأبيع درّاجتي...

- حسناً. أنت تهزأ مما أقول...

3

لم يبعها. بادلها بسيارة **غولف** قديمة. كان في قاع الهاوية في ذاك الأسبوع ولكنّه تجنّب ركوبها، وفي يوم الأحد التالي، رتّب الأمور لكي يجتمعوا ثلاثتهم حول سرير بوليت.

لحسن الحظّ، كان الطقس جميلاً.

سألته:

- ألن تذهب إلى العمل؟

- لا رغبة لديّ بالذهاب اليوم... أخبريني إذاً... أوه... ألم يكن الأمس ربيعاً؟

احتار الآخرون بين مَنْ كان يعيش في طلاسمه واللواتي فقدن مفهوم الزمن منذ أسابيع، كان الأمل في أدنى استجابة نوعاً من خداع الذات...

لم يضطرب:

- أجل، أيّها الباريسيون! إنّه الربيع، أنا أخبركم بذلك!

- ماذا؟

كان الحضور متراخياً بعض الشيء...

- هل الأمر لديكم سواء؟

Twitter: @ketab_n

- كلا، كلا...

- بلى. الأمر لديكم سواء، أرى ذلك بوضوح...

اقترب من النافذة:

- لا، ولكنني أقول هذا جزافاً... كنتُ أقول فقط بأنّه من المؤسف أن نبقى هنا ننظر إلى الصينيين وهم يصلون إلى شان دو مارس في حين لدينا بيتٌ ريفيٌّ جميل ككلّ أثرياء العمارة وإن استعجلتم قليلاً سيمكننا التوقّف في سوق آزاي وشراء ما يمكن تحضيره للغداء... أقصد، أنا... هذا ما قلته، اتّفقنا؟ إذا كان هذا لا يستهويكم، سأعود إلى النوم...

مثل سلحفاةٍ، ثنت بوليت رقبتها الشائخة المكسوة بالتجاعيد وخرجت من تحت قوقعتها:

- عفواً؟

- أوه... أمرٌ بسيط... كنتُ أفكّر في طبقٍ من أضلاع العجل مع خضارٍ مطهوّة... وربّما فراولة كحلوى... إن كانت جميلة، إيه؟ وإلّا سأعدّ فطيرة محشوة بالتفاح... يجب أن نرى... وفوق كلّ هذا قارورة صغيرة من نبيذ **بورغوي** المقدّمة من صديقي كريستوف وقيلولة مناسبة تحت الشمس، هل هذا يعنيك؟

سأل فيليبير:

- وعملك؟

- أوف... لقد عملتُ كثيراً، أليس كذلك؟

سألت كاميل ساخرةً:

Twitter: @ketab_n

- وكيف نذهب إلى هناك؟ بسيارتك الرائعة؟

ارتشف قليلاً من القهوة وقال بهدوء:

- لديّ سيارة جميلة، وهي أمام البيت، لقد دشّنها لي هذا الوغد بيكو مرّتين هذا الصباح. الكرسي المتحرك مثنيّ في الصندوق الخلفي، وقد ملأت الخزّان بالوقود للتوّ...

وضع فنجانه ورفع الصينية.

- هيّا... أسرعوا يا شباب. لديّ بعض البازيلاء صغيرة ينبغي أن أُحبحبها...

سقطت بوليت من سريرها. لم يكن ذلك لخللٍ في مخّها وإنّما لتعجّلها.

ما قيل نُفِّذ وما نُفِّذ تكرّر أسبوعياً.

ككلّ الأثرياء - ولكن من دونهم بما أنّ توقيتهم كان مختلاً - كانوا يستيقظون باكراً جدّاً يوم الأحد ويعودون الاثنين مساءً، وأيديهم محمّلة بالأطعمة والزهور والرسوم والتعب.

نهضت بوليت.

أحياناً كانت كاميل تعاني في بلوغ الصفاء مجابهة الأمور بلا خوف. ما كانت تعيشه مع فرانك كان ممتعاً. لنكن مبتهجين، لنكن مجنونين، لنسمّر الأبواب، لنحفر على لحاء الشجر، لنتبادل عيّنات من دمنا، لنكفّ عن التفكير بالأمر، لنكتشف أنفسنا، لتتساقط أوراقنا، لنعاني قليلاً، لنقطف بدءاً من اليوم ورود الحياة ولكن قد لا ينجح ذلك أبداً. لم تكن تريد أن تستلقي هناك في الطابق العلوي، ولكن حسناً، كانت قضيّتهم فاشلة. كانت هناك الكثير من الفوارق، الكثير من... فلنختصر.

Twitter: @ketab_n

لا بأس. هي لم تنجح في دفع كاميل إلى الاستسلام وكانت كاميل مترصِّدة. كانت هناك باستمرار إحداهنّ تنظر إلى الأخرى مغضّنة أنفها.

كان الأمر محزناً ولكنّه كان هكذا في الواقع.

ولكن أحياناً لا. كانت تنجح في التخطيط للأمر وكانت المزعجتان تتحدان كامرأة واحدة، حمقاء وعزلاء. أحياناً كانت تُخدَع.

يومئذٍ مثلاً... حادث السيارة، حادث القيلولة، حادث السوق الساذج وكلّ شيء، لم يكن سيئاً، ولكن القادم كان الأعظم.

كان الأعظم، حينما توقّف عند مدخل القرية والتفت:

- جدّتي، عليكِ أن تمشي قليلاً وتكملي الطريق مع كاميل... أمّا نحن فسنفتح باب البيت في هذه الأثناء...

عبقرية.

لأنّه كان يجب رؤية الأمّ النحيلة، بخفّين من قماشٍ ناعم متشبّثة بذراع قصبة شبابه، القصبة التي كانت تفارق الشاطئ منذ شهور لتغوص في مزهرية، والتي تقدّمت بكلّ هدوء في البداية، بكلّ هدوء لئلا تتزحلق، ثمّ رفعت رأسها وركبتيها وخفّفت من تشنّجها...

كان يجب رؤية ذلك لكي يوزن كلمات ساذجة مثل **السعادة** أو **الغِبطة**. ذاك الوجه الذي نَضُر فجأةً، تلك الهيئة الملكية، ضرباتها الخفيفة بالذقن على الستائر وتعليقاتها اللاذعة حول حالة حمّالات الأصص وعتبات الأبواب...

Twitter: @ketab_n

فجأة سارت بسرعة، وعاد الدم إليها مع الذكريات ورائحة القطران الفاتر...

- انظري، يا كاميل، هذا بيتي. هذا هو.

4

تجمّدت كاميل في مكانها.

- ماذا إذاً؟ ما بكِ؟

- أهذا... أهذا بيتكِ؟

- طبعاً نعم! أوه انظري، هذا الركام... لم يُهيّأ أيّ شيء... يا له من بؤس...

- وكأنّه بيتي...

- عفواً؟

بيتها، ليس بيت مودون الذي كان والداها يتشاجران فيه وإنّما البيت الذي كانت ترسمه لنفسها منذ أن صارت في سنّ الإمساك بريشة الرسم. بيتها الصغير المتخيَّل، المكان الذي كانت تلجأ إليه مع أحلامها بالدجاج وعلب الصفيح. عرائس **بولي بوكيت** البلاستيك خاصّتها، سيارة باربي للتخييم خاصّتها، عشّ حيوانات **مارسوبيلامي**[1] **المتخيّلة خاصّتها، بيتها الأزرق المعلّق على الرابية، تارا**[2]**، مزرعتها الأفريقية، ملاذها في الجبال...**

---

(1) مارسوبيلامي: حيوان متخيّل، ابتدعه أندريه فرانكان عام 1952، وظهر في سلسلة سبيرو وفانتازيو للصور المتحركة. (المترجم).

(2) تارا: عاصمة إيرلندا القديمة، بحسب الأسطورة السلتية. (المترجم).

Twitter: @ketab_n

كان منزل بوليت أشبه بامرأة مسنّة نحيلة تشرئبّ بعنقها وتستقبلك مثبتة اليدين على الوركين بالهيئة المعهودة للنساء المتصنّعات. اللواتي يخفضن عيونهنّ ويتظاهرن بالتواضع في حين ينضح كلّ شيءٍ فيهنّ بالقناعة والرضا التامّين.

كان منزل بوليت أشبه بضفدعٍ أراد أن يصبح بضخامة ثور. كوخُ حراسة صغير لم يخشَ منافسة قصري **شامبور** و**شينونسو**.

أحلام عَظَمة، فلّاحة صغيرة مزهوّة وفخورة قائلة:

- انظري جيّداً يا أختاه. هل هذا يكفي، أخبريني. سقفي القرميدي مع هذه الصفائح الطباشيرية البيض التي تعلو أطر الباب والنوافذ، أهو بلا قيمة؟

- لا، لا، أبداً.

- حقّاً؟ ونافذتاي الصغيرتان تلك؟ أجميلة هاتين الطاقتين المنحوتتين من الصخر؟

- إطلاقاً.

- إطلاقاً؟ والإفريز؟ لقد نحته لي أحد الأصدقاء!

- لا تقتربي منه أبداً، يا عزيزتي.

اغتاظت البليدة الهزيلة كثيراً بحيث توارت تحت عريشة العنب وبين أصص الزهور غير المتجانسة ودفعت الازدراء إلى حدّ أنّها علّقت حدوة حصان كانت موجودة فوق الباب. لم تكن **آنييس سوريل** وبقيّة سيّدات **بواتييه** يملكن هذا.

كان بيت بوليت **موجوداً**.

لم ترغب في الدخول، أرادت أن ترى حديقتها. يا

Twitter: @ketab_n

للبؤس... كان كلّ شيء هالكاً... كان نبات النجيل متعرّشاً في كلّ مكان... ثمّ حان موسم زراعة... الملفوف، الجزر، الفراولة، الكرّاث... كلّ هذه الأرض المليئة بنبات الطرخشفون... يا للبؤس... لحسن الحظّ لديّ زهوري... أقصد أنّ الوقت هنا لا يزال مبكّراً بعض الشيء... أين النرجس؟ آه! ها هو! والزعفران؟ وهذا، انظري يا كاميل، انحني، كم هذا جميل... لا أراها، ولكن لا بدّ أنّها في مكانٍ ما من هنا...

- الزرقاء الصغيرة؟

- نعم.

- ما اسمها؟

أنّت:

- بُلبوس...

- ماذا؟

- حسناً، ينبغي تقسيمها...

- لا مشكلة! سنعتني بها غداً! سوف تشرحين لي...

- ستقومين بهذا العمل؟

- طبعاً! وسوف ترين أنني سأكون مجدّة أكثر مما أكون في المطبخ!

- وزهر البازيلاء ذو الرائحة أيضاً... يجب زرعه... كانت الزهرة المفضّلة لوالدتي...

- كلّ ما تريدينه...

Twitter: @ketab_n

جسّت كاميل حقيبتها. هذا جيّد، لم تنسَ ألوانها...

دُفِعَ الكرسي المتحرّك إلى الشمس وساعدها فيليبير على الجلوس. ثارت انفعالات كثيرة.

- انظري، يا جدّتي! انظري مَنْ هناك؟

كان فرانك واقفاً على درج المدخل، وسكينٌ كبير في يدٍ وقطٌّ في الأخرى.

- في النهاية، أعتقد بأنني سأعدُّ لكِ وجبة أرانب!

أخرجوا كراسي وتنزّهوا بمعاطفهم. أفرطوا في تناول الحلوى واغمضوا عيونهم ومدّدوا سيقانهم واستمتعوا بالشمس اللطيفة في الريف.

كانت العصافير تزقزق، وكان فرانك وفيليبير يتجادلان:

- أقول لك إنّ هذا شحرور...

- كلا، هذا عندليب.

- شحرور!

- عندليب! تبّاً، هذا بيتي! أنا أعرف هذه الطيور!

تنهّد فيليبير:

- كفى، كنتَ دائماً منهمكاً في تهريب الدرّاجات، كيف استطعت أن تسمعها؟ في حين أنا الذي أقرأ بصمت، لديّ كلّ الوقت لتكون لهجاتها مألوفة بالنسبة لي.. غناء الشحرور يكون متواصلاً ومديداً في حين أنّ غناء أبو الحنّاء يشبه قطرات ماءٍ صغيرة متساقطة.. وهنا أؤكّد لك بأنّ هذا شحرور.. إنّ **بافاروتي** هو الذي يؤدّي هذه التنغيمات...

Twitter: @ketab_n

- جدّتي... ما هذا؟

كانت نائمة.

- كاميل... ما هذا؟

- بَطْريقان يفسدان عليّ الصمت.

- ممتاز... بما أنّ الأمر هكذا... تعال يا فيلو سأصطحبك إلى الصيد.

- ماذا؟ أوه... لستُ... لستُ موهوباً في الصيد... لا زلتُ... لا زلتُ أتعثّر...

ضحك فرانك.

- تعال يا عزيزي فيلو، تعال. تعال وحدّثني عن عشيقتك لكي أشرح لك أين هي بكرة قصبة الصيد...

حملق فيليبير في كاميل.

دافعتْ عن نفسها:

- هيه! أنا لم أقل شيئاً!

- كلا، ليست هي من أخبرتني. إنّه خنصري...

ابتعد **غروكينيول** الطويل وفي رقبته عقدة الفراشة وعلى عينه نظارة ذات زجاجة واحدة و**فيلوشار** القصير وقد عصّب رأسه بعصابة القرصان وهما يرفعان يداً وينزلان أخرى...

- إذاً، أخبرني يا غلامي العزيز، أخبر عمو فرانك بما لديك من طُعم... الطُعم مهم جداً، أَتدري؟ لأنّ تلك الحيوانات ليست مغفّلة... أووه، كلللللا... ليست مغفّلة أبداً...

Twitter: @ketab_n

حينما استيقظت بوليت، قامتا بجولة حول القرية بالسيارة ثمّ أرغمتها كاميل على الاستحمام لكي تدفّئها.

كانت تعضّ على نواجذها.

لم يكن كلّ ذلك معقولاً...

لا بأس.

أضرم فيليبير النار وأعدّ فرانك العشاء.

نامت بوليت باكراً ورسمتهما كاميل وهما يلعبان الشطرنج.

- كاميل؟

- امم...

- لماذا ترسمين دائماً؟

- لأنّني لا أجيد شيئاً سوى الرسم...

- والآن؟ مَنْ ترسمين؟

- **المجنون والفارس.**

كان من المقرّر أن ينام الصبيّان على الأريكة وكاميل على سرير فرانك الصغير.

قال فيليبير:

- أوه... ألن يكون من الأفضل أن تنام كاميل على السرير الكبير...

نظرا إليه وهما يبتسمان.

- صحيحٌ أنني مصاب بقصر النظر، ولكن ليس إلى هذه الدرجة...

علّق فرانك:

Twitter: @ketab_n

- لا، لا، ستذهب إلى غرفتي... سنفعل مثل جيرانك... لا شيء قبل الزواج...

هذا لأنّه كان يريد أن ينام معها في سرير طفولته. تحت صور لاعبي كرة القدم وكؤوس سباقات الدراجات في الطرق الوعرة. سوف لن يكون ذلك مريحاً ولا رومانسياً ولكنّه كان الدليل على أنّ الحياة فتاة طيّبة رغم كلّ شيء.

كان في غاية الضجر في تلك الغرفة... في غاية الضجر...

لو قيل له بأنّه ذات يوم سيصطحب أميرة إلى هنا ويتمدّد هنا، بجانبها، في هذا السرير الصغير المصنوع من الأصفر والذي كان مثقوباً في ما مضى، والذي كان ينام فيه حينما كان طفلاً ومن ثمّ يتقلّب فيه حالماً بنساءٍ حقيرات أقلّ جمالاً منها بكثير... لما صدّق... هو المبتور ذو القدمين الكبيرتين والذي كان يضع طنجرة صغيرة من البرونز على رأسه... كلّا، لم تكن هذه القضية رابحة في ما مضى...

نعم، كانت الحياة مطبَخاً غريب الأطوار... أمضيتُ سنواتٍ في غرفة باردة وفجأةً! بين ليلة وضحاها، أصبحت على المشواة، يا بني!

سألت كاميل:

- بماذا تفكّر؟

- لا شيء... ترّهات... وأنتِ، أأنتِ بخير؟

- لا أستطيع أن أصدّق بأنّك قد كبرت هنا...

- لماذا؟

- لأنّه مكانٌ بائسٌ جداً... إنّه مكانٌ لا يرقى حتى إلى

Twitter: @ketab_n

مستوى قرية، إنّه... إنّه لا شيء... سوى بيوتٍ صغيرة مع نوافذ صغيرة وقديمة... وذاك الكوخ الخشب، الذي لم يتغيّر فيه شيءٌ منذ الخمسينات... لم أرَ في حياتي مطبخاً كهذا... والمقلاة التي تأخذ كلّ المكان! والمقصورات في الحديقة! كيف يمكن لطفلٍ أن يترعرع هنا؟ ماذا فعلتَ؟ ماذا فعلتَ لتعيش؟

- كنتُ أبحث عنكِ...

- كفى... ليس عن هذا، قلنا...

- **أنتِ** قلتِ...

- هيّا...

- تعرفين جيّداً ما فعلتُ، أنتِ عشتِ الأمر نفسه... سوى أنني، كانت لديّ الطبيعة... حظيتُ بهذه الفرصة... كنتُ دائماً خارج البيت... وقال فيلو عبثاً ما يريده، كان ذاك عندليباً، أنا أعرف ذلك، جدّي هو من قال لي ذلك وكان جدّي العقعق الذي يغنّي... لم يكن في حاجةٍ إلى طيورٍ يستخدمها كطعم...

- وماذا فعلت لتعيش في باريس؟

- لم أعش...

- ألا يوجد عملٌ هنا؟

- كلا. لا شيء يُذكَر. ولكنني لو رزقتُ بأولادٍ ذات يوم، أقسم لكِ بأنني سوف لن أدعهم يكبرون بين السيارات، هذا لن يحدث... إنّ طفلاً لا يملك جزمة طويلة وقصبة صيدٍ ومقلاع، ليس طفلاً حقيقياً. لماذا تبتسمين؟

- لا شيء. أجدك ظريفاً.

Twitter: @ketab_n

- أودّ لو تريني شيئاً مختلفاً...

- لستَ سعيداً قط.

- كم واحداً تريدين؟

- عفواً؟

- كم طفلاً؟

تذمّرت:

- هيه... أتتقصّدني أم ماذا؟

- مهلاً، لقد قلتُ لكِ هذا، ليس بالضرورة أن يكون الأولاد منّي!

- لا أريد أولاداً.

قال محبطاً:

- حقّاً؟

- كلا.

- لماذا؟

- لأنّ.

طوّق رقبتها وشدّها بقوّة نحوه وهمس في أذنها:

- أخبريني...

- كلا.

- بلى. أخبريني. لن أبوح بذلك لأحدٍ...

- لا، لا أريد أن يبقوا لوحدهم، إذا متّ...

- أنتِ محقّة. ولهذا يجب أن ننجب الكثير منهم... ثمّ إنّكِ تعلمين...

Twitter: @ketab_n

ضمّها بشدّة أكثر.

- لن تموتي... أنتِ ملاك... والملاك لا يموت أبداً...

بكت.

- ما بكِ إذاً؟

- لا، لا شيء...هذا لأنّ دورتي الشهرية ستأتي... في كلّ مرّة، يحدث الأمر ذاته... أتألّم في كلّ مكانٍ من جسمي وأبكي لكلمة نعم أو لا...

ابتسمت:

- ها أنت ترى أنني لستُ ملاكاً...

5

كانا في العتمة منذ زمنٍ طويل، غير مرتاحين ومتشابكين، عندما قال فرانك:

- ثمّة أمرٌ يُكدِّرني...

- ما هو؟

- لديك أخت، أليس كذلك؟

- نعم...

- لماذا لا تلتقين بها؟

- لا أدري.

- هذه حجة واهية! يجب أن تلتقي بها!

- لماذا؟

- لأنّه! من الرائع أن يكون للمرء أخت! أنا كنتُ لأعطي

Twitter: @ketab_n

كلّ شيء لتكون لي أخت! كلّ شيء! حتى دراجتي الهوائية! حتى أماكني الأكثر سريّة للصيد! حتى كرات البليار الكهربائي خاصّتي! كما في الأغنية، تعلمين... أزواج القفازات، أزواج قبّعات الرسميات...

- أعلم... لقد فكّرتُ في ذلك للحظة ولكنني لم أجرؤ...

- لماذا؟

- ربّما بسبب والدتي...

- كفّي عن الحديث عن والدتكِ... إنّها لا تجلب لكِ سوى الآلام... لا تكوني مازوشية... لستِ مدينة لها بشيء، أتعلمين؟

- بالطبع بلى.

- بالطبع كلا. حينما يتصرّف الوالدان بطريقة سيّئة، لسنا مضطرين لأن نحبّهم.

- بالطبع بلى.

- لماذا؟

- حسناً فقط لأنّهما والداك...

قال متذمراً:

- ليس من الصعب أن نكون والدين، يكفي أن نتضاجع. ولكن الأمر يتعقّد بعد ذلك... أنا مثلاً، سوف لن أحبّ امرأة بذريعة أنّها ضاجعتني في مرأب... ليس بوسعي أن أفعل شيئاً...

- ولكنّ حالتي مختلفة...

Twitter: @ketab_n

- كلا، هذا أسوأ... في أيّ حالٍ تعودين كلّما تقابلينها... في حالة مريعة. يكون وجهكِ...

- كفى! لا أريد الحديث عن ذلك.

- حسناً، حسناً، نقطة أخيرة. لستِ مضطرّة لأن تحبّيها. هذا كلّ ما عليّ قوله. سوف تقولين لي بأنني هكذا بسبب نزعتي الشريرة وربّما تكونين على حقّ. ولكن هذا فقط لأنني سرتُ في هذا الطريق الذي أرشدكِ إليه: لسنا مضطرين لأن نحبّ والدينا حينما يتصرّفان كأوغاد، هذا كلّ ما في الأمر.

-...

- هل غضبتِ؟

- كلا.

- اعذريني.

-...

- أنتِ محقّة. وضعكِ يختلف... لطالما اهتمّت بكِ... ولكن ليس من حقّها أن تمنعكِ من رؤية أختكِ... بصراحة، هي لا تستحقّ هذه التضحية...

- كلا...

- كلا.

6

في اليوم التالي، عملت كاميل في الحديقة بحسب تعليمات بوليت، وجلس فيليبير في عمق الحديقة لكي يكتب، وأعدّ لهم فرانك طبقاً شهيّاً من السلطة.

Twitter: @ketab_n

بعد شرب القهوة، نام على الكرسي الطويل. كان ظهره يؤلمه.

سوف يطلب حشيّة في المرّة القادمة. لن ينام ليلتين بهذه الطريقة... كلّا... كانت الحياة فتاة طيّبة ولكن الأمر لم يكن يستحق عناء التعرّض لمخاطر وحماقات... أوه كلّا...

عادوا كلّ نهاية أسبوع. مع أو من دون فيليبير. ولكن غالباً معه.

كانت كاميل - وكانت تعلم ذلك منذ البداية - تصبح مناصرة للبستنة.

هدّأت بوليت من حماستها:

- كلا. لا يمكننا زرع هذه! تذكّري أننا لا نأتي إلّا مرّة واحدة في الأسبوع. يلزمنا نبتات قويّة ومعمّرة... نحتاج إلى بسلات إن شئتِ، إلى قبسات، إلى نبتات زينة... إنّها نبتات جميلة جداً، وخفيفة تماماً، سوف تروق لكِ، تفضّلي...

وعثر فرانك، بوساطة قريب زميل شقيقة تيتي الضخم، لنفسه على درّاجة نارية قديمة ليذهب بها إلى السوق أو ليلقي تحيّة الصباح على رينيه...

وكان قد قضى اثنين وثلاثين يوماً من دون درّاجة وكان لا يزال يتساءل كيف تحمّل ذلك...

كانت عتيقة، كانت قبيحة ولكنّها كانت تدوّي صراخاً.

كان يصرخ فيهم من السقيفة التي يلجأ إليها حينما لا يكون في المطبخ:

- دعوني أسمع هذه، دعوني أسمع هذه المعجزة!

Twitter: @ketab_n

رفع الجميع رؤوسهم بفتور من مشاتلهم أو من كتابهم.

«بيييت، بيت، بيت، بيت».

- إذاً؟ هذا مجنون أليس كذلك؟ وكأنّه **هارلي! موايف**...

عادوا إلى انشغالاتهم من دون إبداء أدنى تعليق...

- بفف... أنتم لا تفقهون شيئاً...

سألت بوليت كاميل:

- مَنْ تكون آرليت هذه؟

- آرليت دافيدسون... مغنّية رائعة...

- لا أعرفها.

اخترع فيليبير لعبة المعارف. كان على كلّ واحدٍ أن يعلّم الآخرين شيئاً في إطار فكرة نقل المعرفة.

كان فيليبير أستاذاً بارعاً...

ذات يوم، روت لهم بوليت كيف يتمّ التقاط الخنافس:

- في الصباح، حينما لا تزال مخدّرة ببرد الليل وساكنة على الأوراق، نهزّ الأشجار التي تقف على أوراقها، ونحرّك الأغصان بمخبط ونجمعها على قطعة قماش. ندقّها ونغطّيها بالكلس ونضعها في حفرة، فيصبح سماداً آزوتياً ممتازاً... ولا تنسوا تغطية رؤوسكم!

وفي يومٍ آخر، قطّع لهم فرانك لحم عجلٍ:

- حسناً، القِطَع التي تأتي في المرتبة الأولى: لوزة الكتف، ما تحت لوزة الكتف، لوْزة الحلواني، الورك، نصف الصُلب، الفتيلة الصغيرة، الربع المغطّى، أيّ الأضلاع الخمس الأولى

Twitter: @ketab_n

والأضلاع الثلاث التالية، الربع المكشوف والكتف. والآن قِطَع المرتبة الثانية: الصدر، الغضاريف والشريحة. وأخيراً قِطَع المرتبة الثالثة: قوس الساق، العرقوب و... آه، اللعنة، نسيتُ قطعة...

أمّا فيليبير، فكان يعطي دروساً في الإدراك لهؤلاء الكفرة الذين لا يعرفون شيئاً عن هنري الرابع

عدا طبقه من الدجاج بالفخّارة وقاتله **رافاياك** وقضيبه الشهير الذي **كان يجهل بأنّه ليس عظماً**...

- ولِد هنري الرابع في بو العام 1553 ومات في باريس العام 1610. وهو ابن أنطوان دو بوربون وجان دو آلبير. إحدى قريباتي البعيدات بين قوسين. في العام 1572، تزوّج ابنة هنري الثاني، مارغريت دو فالوا، وهي ابنة عمّ والدتي. وكزعيمٍ للحزب الكالفيني، ارتدّ عن البروتستانتية لكي يتهرّب من سان-بارتيلمي. في العام 1594، جرى ترسيمه في شارتر ودخل إلى باريس. وأقام السلم الديني بموجب معاهدة نانت في العام 1598. وكان شعبياً جداً. سوف أتجاوز كلّ معاركه، فهي لا تعنيكم، كما أتصوّر... ولكن من المهمّ أن نتذكّر بأنّه كان محاطاً، من بين آخرين، برجلين عظيمين: ماكسيميليان دو بيتون، دوق سولي، الذي أصلح الوضع المالي للبلاد، وأوليفيه دو سير الذي كان نعمة لزراعة ذلك العصر...

أمّا كاميل، فلم تشأ أن تروي شيئاً. كانت تقول:

- أنا لا أعرف شيئاً، ولستُ متأكّدة مما أعتقده...

كانوا يشجّعونها:

- حدّثينا عن الرسّامين! عن الحركات والعصور الفنية

Twitter: @ketab_n

واللوحات الشهيرة أو عن عدّتكِ إن شئتِ!

- كلا، لا أجيد الحديث، أخشى أن أخدعكم...

- أيّ عصرٍ تفضّلين؟

- عصر النهضة.

- لماذا؟

- لأنّ... لا أدري... كلّ شيءٍ فيه جميل. كلّ مكان... كلّ...

- كلّ ماذا؟

- كلّ شيء.

مازحها فيليبير:

- حسناً.. شكراً. لا يسعنا أن نختصر أكثر. لمن يودّ معرفة المزيد، أشير إلى أنّ **تاريخ الفن** لكاتبه إيلي فور موجودٌ في مراحيضنا خلف آندوروا 2003.

أضافت بوليت:

- وأخبرينا من تحبين.

- من الرسّامين؟

- نعم.

- أوه... من دون ترتيب... رامبرانت، دورر، دافنشي، مونتينيا، لوتانتوريه، لاتور، تورنر، بونينغتون، دولاكروا، غوغان، فالوتون، كورو، بونار، سيزان، شاردان، دويغاس، بوش، فيلاسكيز، غويا، لوتو، هيروشيج، بيرو ديلا فرانسيسكا، فان آيك، الأخوان هولبان، بيلليني، تيبولو، بوسان، مونيه، شو

Twitter: @ketab_n

تا، مانيه، كونستابل، زييم، فويار أوه... هذا فظيع، لا بدّ أنني نسيت الكثيرين منهم...

- ولا تستطيعين أن تقولي لنا شيئاً عن أحد هؤلاء الرسّامين؟

- كلا.

- مثلاً... بيلليني... لماذا تحبّينه؟

- بسبب بورتريه الدوج[1] لليوناردو لوردان.

- لماذا؟

- لا أدري... يجب الذهاب إلى لندن، إلى **المعرض الوطني** إذا ما كنتُ أتذكّر جيّداً، ومشاهدة هذه اللوحة لامتلاك هذا اليقين الذي أنا عليه... إنّها... إنّها... كلا، لا أريد أن أضع يديّ الكبيرتين عليها...

سلّموا بكلامها:

- حسناً... هذه ليست سوى لعبة في نهاية المطاف... سوف لن نرغمكِ...

ابتهج فرانك:

- آه! عرفتُ ما نسيته! الرقبة طبعاً! أو العنق، كما نشاء... يُعدُّ منه طبقٌ بالصلصة البيضاء...

عندها تشتّتت كاميل، كان ذلك واضحاً.

ومع ذلك، ذات مساء يوم اثنين، وسط الازدحام بعد عبور سان- آرنو، وبينما كانوا جميعاً متعبين ومتذمّرين، قالت فجأةً:

(1) قاضٍ أوّل في جمهوريتي جنوى والبندقية. (المترجم).

Twitter: @ketab_n

- وجدتها!

- عفواً؟

- معرفتي! معرفتي الوحيدة التي أمتلكها! علاوة على ذلك، أحفظها عن ظهر قلب منذ سنوات!

- هيا، كلّنا آذانٌ صاغية...

- إنّه هوكوساي، رسّامٌ أعشقه... أتعرفون الموجة؟ ومشاهد مونت فوجي؟ أجلللللل... الموجة الفيروزية الموشّاة بالزبد؟ يا لها من تحفة... ليتكم تعرفون كلّ ما رسمه، شيءٌ لا يمكن تخيّله...

- هذا كلّ شيء؟ عدا «يا لها من تحفة» ليس لديكِ شيءٌ تضيفينه؟

- بلى، بلى... أستجمع ذاكرتي...

وفي عتمة تلك الضاحية غير المفاجِئة، بين مركزٍ تجاري في اليسار وشركة فوارفوي في اليمين، بين اللون الرمادي للمدينة وعدوانية القطيع العائد إلى الحظيرة، تلفّظت كاميل بكلماتها القليلة:

منذ سنّ السادسة، كان لديّ هوسٌ برسم أشكال الأشياء.

نحو الخمسين من عمري، نشرتُ رسومات لا تُحصى، ولكنّ كلّ ما رسمته قبل سنّ السبعين، لم يكن جديراً بمشقّة الحسبان.

في سنّ الثالثة والستين، بدأت تدريجياً أدرك تكوين الطبيعة الحقيقية، الحيوانات، الأشجار، الطيور، الحشرات.

Twitter: @ketab_n

في المحصّلة، في سنّ الثمانين، سأحقق المزيد من التقدّم؛ في سنّ التسعين، سألج سرّ الأشياء؛ في سنّ المائة، سأصل حتماً إلى درجة مدهشة، وحينما أبلغ المائة وعشر سنوات، في بيتي، سواء كانت نقطة، أو كان خطّاً، سيغدو كلّ شيء نابضاً بالحياة.

أطلب من الذين سيعيشون بمقدار عمري، أن يروا إن كنتُ سألتزم بكلامي.

كُتِب هذا الكلام من قبلي في سنّ الخامسة والسبعين، هوكوساي، العجوز المجنون بالرسم.

ردّدت كاميل:

«**سواء كانت نقطة، أو كان خطّاً، سيغدو كلّ شيء نابضاً بالحياة. . .**».

ربّما أدلى كلٌّ بدلوه، فظلّت نهاية الحكاية من دون تعليق.

7

بمناسبة عيد الفصح، تمّت دعوتهم إلى القصر.

كان فيليبير متوتّراً.

كان يخشى أن يفقد شيئاً من هيبته.

خاطب ذويه باحترام ولباقة، وخاطبه ذووه باحترام ولباقة، كما تخاطبوا في ما بينهم باحترامٍ ولباقة.

- صباح الخير، يا أبي.

- آه ها أنت هنا، يا بنيّ. . . إيزابيل، هيّا أخبري والدتكِ، أرجوكِ. . . ماري-لورانس، أتعرفين أين زجاجة الويسكي؟ يستحيل وضع اليد عليها. . .

Twitter: @ketab_n

- صلّي للقديس أنطوان، يا صديقي!

في البداية، بدا لهم ذلك غريباً ومن ثمّ لم يعد ذلك يثير انتباههم.

كان العشاء متكلّفاً. طرح المركيز والمركيزة سيلاً من الأسئلة عليهم ولكنّهما لم ينتظرا إجابة للحكم عليهم. علاوة على ذلك، كانت الأسئلة حامية بعض الشيء، من نمط:

- وماذا يعمل والدك؟

- إنّه متوفّى.

- آه، عفواً.

- أرجوك...

- أوه... ووالدكِ أنتِ؟

- لم أعرفه...

- ممتاز... أنتِ... أتأخذين قليلاً من طبق مقدونيا؟

- كلا شكراً.

قافلة ملائكة في قاعة الطعام المائلة السطح...

- وأنتَ إذاً... أنتَ طبّاخ، أليس كذلك؟

- نعم...

- وأنتِ؟

التفتت كاميل نحو فيليبير.

أجاب نيابةً عنها:

- إنها فنّانة.

- فنّانة؟ كم هذا جميل! وأنتِ... أأنتِ راضية عن ذلك؟

Twitter: @ketab_n

- نعم. أقصد... أنا... أعتقد...

- كم هذا جميل... وتعيشان في نفس العمارة، أهذا صحيح؟

- نعم. في الطابق العلوي.

- في الطابق العلوي، في الطابق العلوي...

كان يبحث ذهنياً في ذاكرة دليله الاجتماعي.

- ... أنتِ روليه مورتمار صغيرة إذاً!

ردّت كاميل هلعةً:

- أوه... أُدعى فوك...

أخرجت كلّ ما في جعبتها:

- كاميل، ماري، إليزابيت، فوك.

- فوك؟ كم هذا جميل... لقد سبق وتعرّفتُ على شخصٍ يُدعى فوك... رجلٌ في غاية الجسارة، أعتقد أنّه كان يُدعى... شارل، أهو أحد أقاربكِ؟

- أوه... كلا...

لم تفتح بوليت فمها خلال السهرة. لأكثر من أربعين عاماً، كانت قد أعدّت المائدة لدى أناسٍ من هذا النمط وكان من الصعب عليها أن تنثر الملح على الغطاء المطرّز.

كان شرب القهوة متكلّفاً هو الآخر...

هذه المرّة، جاء دور فيلو في اللعبة:

- إذاً، يا بنيّ؟ ألا زلت تعمل في البطاقات البريدية؟

- لا أزال، يا أبي...

Twitter: @ketab_n

- عملٌ مشوّق، أليس كذلك؟

- لم أرغمك على قول ذلك..

- لا تكن ساخراً، أرجوك... السخرية هي استعراض الكسالى، لقد قلتُ لك ذلك مراراً...

- نعم، يا أبي... **قلعة** سان - اكز...

- عفواً؟

- سان - اكزوبيري.

ازدرد الآخر ريقه.

وعندما استطاعوا، أخيراً، أن يغادروا تلك الغرفة المخضرّة المزرقّة التي اجتمعت فيها كلّ حيوانات المكان فوق رؤوسهم، حتى شادنٍ لعين، حتى **بامبي**، حمل فرانك بوليت إلى غرفتها. وهمس في أذنها: «مثل عروس»، وهزّ رأسه حزيناً حينما أدرك أنّه سينام على بعد ألف مليار كيلومتر من أميرتيه، على علوّ طابقين منهما.

التفّ ولمس قائمة خنزيرٍ برّي مفتولة في حين كانت كاميل تجرّدها من ثيابها.

- لا، ولكنني لا أصدّق ذلك... هل رأيتما الطعام السيئ الذي أكلناه؟ ما هذا التخريف؟ كان ذلك كريهاً! ما كنتُ لأجرؤ قط على أن أقدّم هكذا طعام لضيوفي! في هذه الحالة، من الأفضل إعداد طبقٍ من العجّة أو معكرونة البانزاني!

- ربّما ليست لديهم الموارد؟

- سحقاً ولكن بمقدور الجميع إعداد طبقٍ مناسبٍ من

Twitter: @ketab_n

العجّة، أليس كذلك؟ لا أفهم هذا... لا أفهم... تناول القذارة في صحونٍ من الفضّة وتقديم خمرة سيئة في دورقٍ من الكريستال، لا بدّ أنني أبله ولكن هناك شيءٌ ما يحيّرني... إذا باعوا واحداً فقط من شمعداناتهم الاثنين والخمسين، سوف يتناولون طعاماً لائقاً لمدّة عام...

- أتصوّر أنّهم لا يرون الأمور بهذه الطريقة... لا بدّ أنّ بيع نكّاشة أسنان واحدة للعائلة يبدو لهم أمراً غير لائقٍ مثلما سيكون الأمر بالنسبة لك لو أنّك قدّمت لضيوفك طبق مقدونيا في علبةٍ...

- سحقاً، علاوة على ذلك، لم يكن الطعام لذيذاً! رأيتُ العلبة فارغة في الحاوية... كانت معلبات **ليدر برايس**! هلّ تصدّقين؟ الإقامة في قصرٍ كهذا محاطٍ بخنادق لتجميع الماء الزائد، وفيه ثريات، وآلاف الهكتارات من الأراضي وكلّ هذه الممتلكات، ويتناولون معلّبات **ليدر برايس**! لا أفهم هذا... يجعل الحارسَ يناديه **السيّد المركيز** ويقدّم لك وجبة مقدونيا البائسة...

- هيّا، اهدأ... المسألة ليست مهمّة جدّاً...

- بلى، المسألة مهمّة جدّاً، اللعنة! بلى، المسألة مهمّة جدّاً! ما معنى أن تنقل التراث إلى أبنائك إذا كنت لا تجيد حتى أن تخاطبهم بلطف! كلا، ولكن هل رأيتِ كيف تكلّم مع عزيزي فيلو؟ لقد رأيتِ شفته الصغيرة تتقوّس وهو يقول: ألا زلت تعمل في البطاقات البريدية، يا بنيّ؟ كان يقصد: «يا ولدي الأحمق؟». أقسم لكِ، لقد راودتني رغبة جامحة في أن أوجّه له لكمةً... إنّ

Twitter: @ketab_n

عزيزي فيلو أشبه بإله، إنّه أروع إنسانٍ قابلته في حياتي والآخر الذي أزعجه، هذا الأبله القميء...

أبدت بوليت أسفها:

- سحقاً يا فرانك، كفّ عن الشتم.

فكفّ فرانك عن ألفاظه السوقية.

- أففف... علاوة على ذلك، سأنام في الحمّام هيه، أخبركما بأنني سوف لن أذهب إلى القدّاس غداً! شُكراً وحمداً على ماذا أوّلاً؟ سواء كنتَ أنت يا فيلو أو أنا، من الأولى بنا أن نلتقي في ميتمٍ...

- أوه، نعم! في منزل الآنسة بوني!

- لماذا؟

- لا شيء.

- هل ستذهبين إلى القدّاس؟

- نعم، أرغب في ذلك...

- وأنتِ، يا جدّتي؟

-...

- أنتِ ستمكثين معي. سوف نري هؤلاء القرويين كيف يكون الطعام اللذيذ... طالما ليست لديهم الموارد، سوف نقوم نحن بإطعامهم!

- لم أعد مؤهّلة للقيام بالشيء الكثير، أنت تعلم...

- هل تتذكّرين وصفتكِ لإعداد فطيرة الفصح؟

- طبعاً.

Twitter: @ketab_n

- لا بأس، ولكن أقول لكِ إن هذا لن يدوم طويلاً! حسناً، سأغادر وإلّا سأجد نفسي في السجن...

وفي اليوم التالي، ما أشدّ ما كانت دهشة ماري-لورانس حينما نزلت إلى مطبخها في الساعة الثامنة صباحاً. كان فرانك قد عاد من السوق وأخذ ينظّم عمل مجموع خدمه غير المرئيين.

كانت مذهولة:

- يا إلهي، ولكن...

كان يغنّي وهو يفتح كلّ الخزنات:

- كلّ شيء يسير على ما يُرام يا سيّدتي المركيزة. كلّ شيء يسير سيراً ممتازاً، ممتازاً، ممتاااازاً! لا تشغلي بالكِ بشيء، أنا أتحمّل مسؤولية الغداء...

- و... ووجبتي من فخذ الخروف؟

- وضعتها في المجمّدة. أخبريني، أليست لديكِ صينية؟

- عفواً؟

- لا، لا شيء. مصفاة صينية ربّما؟

- أوه... نعم، هنا، في هذه الخزنة...

قال مذهولاً، وهو يرفع المصفاة التي كانت إحدى قوائمها ناقصة:

- أوه! ولكن هذا رائع! إلى أيّ عصر تعود هذه؟ وكأنّها من نهاية القرن الثاني عشر، أليس كذلك؟

وصلوا جائعين وبمزاجٍ رائق، كان يسوع قد عاد وانضمّ إليهم، وجلسوا إلى المائدة وهم يتلمّظون. فجأةً، نهض فرانك وكاميل بخفّة. نسوا أيضاً صلاة المائدة...

Twitter: @ketab_n

تنحنح ربّ الأسرة المتسلّط:

- باركنا يا ربّ، بارك هذا الطعام والذين أعدّوه (غمزة من فيلو لمساعده) وامنح الخبز للذين لا يملكونه...

ردّت جوقة المراهقات بتململ:

- آمين.

أضاف:

- بما أنّ الأمر هكذا، سوف نأكل بشهيّة هذه الوجبة المدهشة... لويس، اذهب واجلب لي قارورتين من أونكل هوبير، من فضلك...

- أوه، يا صديقي، أأنتَ متأكّد؟

- نعم، نعم... وأنتِ يا بلانش، كفّي عن تمشيط شعر أخيكِ، لسنا في صالون تجميل على ما أعلم...

قُدِّم لهم هليون بصلصة مخفوقة ثمّ جاءت فطيرة الفصح المعدّة من قبل بوليت ليستافييه ثمّ ربع خاروف محمّص مع زبادي فخارية فيها طماطم وباذنجان مع وريقاتٍ من الصعتر، ومن ثمّ كعكة بالفراولة وفراولة برية مع كريم شانتيي.

- وصلصة الزيت، من فضلك...

نادراً ما كانوا سعداء حول هذه المائدة ذات الاثنتي عشرة وصلة وأبداً لم يضحكوا عن طيب قلب إلى هذه الدرجة. بعد عدّة كؤوسٍ من الشراب، أسقط المركيز منديل العنق وروى حكايات غريبة عن الصيد الذي لم يكن له دائماً دور حسن فيه... كان فرانك غالباً في المطبخ وكان فيلو يقوم بالخدمة. كانا ممتازين.

Twitter: @ketab_n

همست بوليت لكاميل:

- ينبغي عليهما أن يعملا معاً. الفائر الصغير على الأفران، والمجامل الكبير في الصالة. سيكون الأمر مذهلاً...

شربوا القهوة على درج المدخل وأبدت بلانش المزيد من الرقّة والتكلّف قبل أن تعود وتجلس على ركبتي فيلبير.

أوف... لقد جلس فرانك أخيراً. بعد خدمة كهذه، لا بدّ أنّه أراد أن يرتاح قليلاً...

سألته كاميل حينما لمحت السلّة التي يرتمي الجميع عليها:

- ما هذا؟

ردّ ساخراً:

- ملفوفية، كانت أقوى منّي، لم أستطع الامتناع عنها...

نزل درجةً واستند إلى ساقي فتاته.

وضعت كرّاستها على رأسه.

سألها:

- ألستِ مرتاحة هنا.

- مرتاحة جدّاً.

- إذاً، عليكِ أن تفكّري بالأمر يا حلوتي...

- بماذا؟

- في هذا. في حالنا، هنا الآن...

- لا أفهم شيئاً... أتريد أن أفلّي شعرك من القمل؟

- نعم... فلّي شعري وسأعدّ لكِ الكثير من دفاتر الرسم.

تنهّدت:

Twitter: @ketab_n

- فرانك...

- لا، لا، كانت مسألة رمزية! أن أستند إليكِ وأن تشتغلي عليّ. شيءٌ من هذا القبيل، ترين...

- أنت خطير...

- نعم... تفضّلي، سأسنّ سكاكيني، حينما أتوفّر على الوقت... أنا متأكّدٌ أن هناك ما ينبغي فعله هنا...

قاموا بجولة في المكان مع بوليت على الكرسي المتحرّك وافترقوا من دون الكثير من الكلام. أهدتهم كاميل قصرهم مرسوماً بالألوان المائية، وأهدت فيليبير رسماً جانبياً لبلانش.

- أنتِ تهبين كلّ شيء... لن تصبحي ثرية أبداً...

- لا يهمّ.

في نهاية الممرّ المزيّن بشجر الحور، ضرب على جبينه، مطلقاً شتيمة إسبانية:

- كرَمبا! لقد نسيتُ أن أخبرهم...

لم يبدر ردّ فعلٍ في البيت.

فكرّر بصوتٍ أعلى:

- كرَمبا! لقد نسيتُ أن أخبرهم...

- ماذا؟

- بشأن ماذا؟

- أوه، لا شيء... تفصيلٌ صغير...

حسناً.

ساد الصمت من جديد.

Twitter: @ketab_n

- فرانك وكاميل؟

- نحن نعرف، نحن نعرف... سوف تشكرنا لأنّك رأيت والدك يمزح للمرّة الأولى منذ سقوط مزهرية **سواسون**...

- لا... لا أبداً.

- ماذا هناك؟

- أ... أتقبلون أن تكونوا... ش... ش... ش...

- ش ماذا؟ شراغيف؟

- كلا. ش...

- كلاب الزئني الألمانية؟

- ك... كلا، ش... ش...

- ش ماذا؟ تبّاً!

- شه... شهود زواج.

انعطفت السيارة وقضمت كاميل مسند الرأس.

8

لم يشأ أن يخبرهم بالمزيد عن الأمر.

- سأخبركم عندما أعرف أكثر...

- إذاً؟ ولكن... طمئننا... هل لديك صاحبة على الأقلّ؟

ردّ حانقاً:

- لم تكن لي صاحبة قط في حياتي! صاحبة... يا لها من كلمة مبتذلة... خطيبة، كلمة أثيرة...

- ولكن... هل هي تعلم بالأمر؟

Twitter: @ketab_n

- عفواً؟

- بأنّكما خطيبان؟

اعترف والنعاس يغالبه:

- ليس بعد...

تنهّد فرانك:

- أرى العمل... المركّز لفيلو، هذا... حسناً، جيّد... لا تنتظر مساءً دعوتنا، اتّفقنا؟ لعلّي أحظى بالوقت الكافي لأشتري لباساً رجالياً أنيقاً...

أضافت كاميل:

- وأنا سأشتري ثوباً!

علّقت بوليت:

- وأنا سأشتري قبّعةً...

9

جاء آل كيسلر لتناول العشاء ذات مساء. قاموا بجولة حول العمارة بصمت. كان بورجوازيان بوهيميان عجوزان يقعيان هناك. كان في الحقيقة منظراً مبهجاً.

لم يكن فرانك حاضراً وكان فيليبير رائعاً.

أرَتهم كاميل ورشتها. وجدت بوليت نفسها في كلّ الوضعيات، بكلّ التقنيات وبكلّ القياسات. كان معبداً لبهجتها، لرقّتها وحسرتها وذكرياتها المحفورة أخاديد على وجهها أحياناً...

Twitter: @ketab_n

كانت ماتيلد مضطربة وبيار واثقاً:

- هذا جيّد! هذا ممتاز! بسبب قيظ الصيف الماضي، أصبح العجوز منظّماً جداً، أتعرفين؟ سينجح الأمر... أنا واثقٌ من ذلك.

كانت كاميل مرهقة.

مر... هقة.

أضافت زوجته:

- دعك من ذلك، هذا تحريضٌ... إنّ هذا الرجل الطيّب متأثّر...

- أوه! وهذا! هذا عظيم!

- لم تنتهِ اللوحة...

- هل ستدعينها لي؟ هل ستخصّني بها؟

وافقت كاميل على ذلك.

كلا. سوف لن تعطيه قط لأنّ اللوحة لم تنتهِ وسوف لن تنتهي لأنّ موديلها لن يعود أبداً... كانت تعلم ذلك...

هذا مؤسف.

ولكن لا بأس.

إذاً سوف لن تترك هذه الرسمة الأوّلية أبداً... لأنّها لم تنتهِ... ستبقى معلّقة... مثل صداقتهما المستحيلة... مثل كلّ ما كان يفرّقهما في الدنيا...

كان ذلك في صباح يوم السبت، قبل بضعة أسابيع... كانت كاميل منهمكة في العمل. حتى إنّها لم تسمع رنين الجرس حينما دقّ فيليبير بابها:

Twitter: @ketab_n

- كاميل؟

- ماذا؟

- ملكة... ملكة سبأ هنا... في صالوني.

كانت مامادو رائعة. كانت قد ارتدت أجمل قمصانها الفضفاضة وكلّ مصاغها. وكان شعرها مرفوعاً حتى ثلثي جمجمتها وترتدي خماراً متناسقاً مع تنّورتها.

- لقد قلتُ لكِ بأنني سآتي ولكن يجب أن تستعجلي لأنني سأذهب إلى حفلة زواجٍ عند عائلتي في الساعة الرابعة... إذاً تسكنين هنا؟ تعملين هنا؟

- أنا سعيدة جداً بلقائكِ!

- هيّا... قلتُ لكِ لا تضيّعي الوقت...

أجلستها كاميل في وضعية مريحة.

- حسناً. اجلسي منتصبة القامة!

- ولكنني دائماً أجلس منتصبة القامة!

بعد عدّة رسومات تجريبية، وضعت قلمها الرصاص على لوح الرسم:

- لا أستطيع أن أرسمكِ ما لم أعرف اسمكِ...

رفعت الأخرى رأسها ورمقتها بنظرة مع ازدراءٍ رائع:

- اسمي ماري-آناستازي بامونديلا مبابيه.

لن تعود ماري-آناستازي بامونديلا مبابيه أبداً إلى هذا الحيّ المكسو على طريقة ملكة ديولولو، قرية طفولتها، وكانت كاميل على يقينٍ من ذلك. سوف لن ينتهي البورتريه خاصّتها أبداً وسوف

Twitter: @ketab_n

لن يكون لبيار كيسلر العاجز عن أن يصبح بولي الصغير بين ذراعي هذه «الزنجية الجميلة». . .

عدا هاتين الزيارتين، عدا تلك الحفلة الراقصة الصغيرة التي ذهب إليها ثلاثتهم للاحتفال بعيد الميلاد الثلاثين لأحد زملاء فرانك والتي صرخت فيها كاميل بأنّها قد فقدت شهيتها، لم يحدث أيّ شيء استثنائي.

كانت الأيام تطول والشقّة تتّسخ وفيليبير يكرّر أقواله وكاميل تعمل وفرانك يفقد كلّ يوم بعض الثقة فيها. كانت تحبّه ولكنّها لا تريده، كانت تعرض نفسها ولكنّها لا تنذرها، ومع ذلك كانت تحاول ولكنها لم تكن مقتنعة بذلك.

ذات ليلة، تغيّب عن البيت. لكي يرى ردّ فعلها.

لم تعلّق بأيّ كلمة.

ثمّ تغيّب ثانية، ثمّ ثالثة. لكي يشرب.

كان ينام في منزل كيرماديك. وحيداً لمعظم الوقت، مع فتاة، ليلة موتٍ مفاجئ.

أمتعها وأدار لها ظهره.

- ماذا؟

- دعيني وشأني.

10

لم تعد بوليت تمشي تقريباً وتجنّبت كاميل طرح الأسئلة عليها. كانت تُبقيها بطريقة مختلفة. في ضوء النهار أو تحت هالة المصابيح. كان حالها يسوء في بعض الأيام ويتحسّن في أخرى. كان ذلك مضنياً.

Twitter: @ketab_n

أين يتوقّف احترام الآخر ومن أين يبدأ مبدأ عدم مساعدة شخصٍ في خطر؟ كان هذا السؤال يؤرقها وكلّما كانت تنهض ليلاً، عازمةً على تحديد موعدٍ عند طبيب، كانت السيّدة العجوز تستيقظ مبتهجة ومتفتحة مثل وردة...

وفرانك الذي لم يستطع أن يستخلص من أحد فتوحاته المخبرية القديمة أدويتها من دون وصفة طبية...

لم تعد تتناول أيّ شيء منذ أسابيع...

مساء عرض فيليبير على سبيل المثال، كانت خائرة القوى واضطروا لأن يطلبوا من السيّدة بيريرا مرافقتها...

- لا مشكلة! كانت جدّتي معي في المنزل لاثنتي عشرة سنة، وبالتالي، أنا أجيد... أجيد رعاية المسنين!

جرى العرض في دارٍ للشباب والثقافة في نهاية الخط A لشبكة القطارات السريعة.

استقلّوا مترو الساعة السابعة وأربع وثلاثين دقيقة مساءً، وجلس أحدهم قبالة الآخر ودفعوا الأجرة بصمت.

كانت كاميل تنظر إلى فرانك مبتسمةً.

احتفظي بابتسامتكِ الصفراء الصغيرة، لا أريدها. هذا كلّ ما تجيدين إعطاءه... ابتسامات صغيرة لخداع الناس... احتفظي بها، هيّا، احتفظي بها. ستنتهين وحيدة في برجكِ مع أقلامكِ للرسم وسيكون ذلك مناسباً لكِ. أنا أشعر بالتعب هنا... أنا دودة أرضٍ مغرمة بنجمة في السماء...

كان فرانك ينظر إلى كاميل وهي تكزّ على أسنانها.

كم أنت لذيذٌ حينما تكون غاضباً... كم أنت جميلٌ حينما

Twitter: @ketab_n

تفقد توازنك... لماذا لا أستطيع ترك نفسي أنجرف معك؟ لماذا أؤلِمكَ؟ لماذا أرتدي مشدّاً تحت درعي وجعبتي خراطيش ذات حمالة؟ لماذا أركّز على تفاصيل واهية؟ خذ فتّاحة علبٍ، اللعنة! انظر في صندوقك الصغير، أنا متأكّدة من أنّ لديك ما يلزم لجعلي أتنفّس...

سألها:

- في ماذا تفكّرين؟

- في اسمك... لقد قرأت أمس في قاموسٍ قديم أنّ شخصاً يُدعى ليستافييه كان خادماً شهيراً يتبع فارساً ويساعده...

- حقّاً؟

- نعم.

- خادمٌ، ماذا...

- فرانك ليستافييه؟

- حاضر.

- حينما لا تنام معي، مع مَنْ تنام؟

-...

أضافت وهي تعضّ شفتها:

- أتفعل بهم نفس ما تفعل بي؟

- كلا.

مدّوا يد العون لبعضهم في الصعود من نفق المترو إلى السطح.

اليد، هذه نعمة.

Twitter: @ketab_n

كان المكان محزناً بعض الشيء.

كانت تفوح منه رائحة مشروباته الفاترة وأحلامه المختلّة بالمجد. كانت إعلانات مصفرّة تعلن جولة رامون ريوبامبو الظافرة وفرقته المرتدية لألبسة من جلد الجمل الأمريكي. أخذ فرانك وكاميل بطاقتيهما واحتارا في اختيار مكانهما...

شيئاً فشيئاً، امتلأت الصالة. كان الجوّ جوّ احتفالٍ شعبي وخيري. كانت الأمّهات قد تجمّلن والآباء تحقّقوا من بطّاريات كاميراتهم.

وككلّ مرّة يكون متوتّراً فيها، كان فرانك يهزّ قدمه. وضعت كاميل يدها على ركبته لتهدئته.

- إن فكرة أن يجد عزيزي فيلو نفسه وحيداً أمام كلّ هؤلاء الناس تقتلني... أعتقد بأنني سوف لن أتحمّل... تخيّلي أن تخونه الذاكرة... تخيّلي أن يبدأ بالتلعثم... بفف... سيكون أيضاً مناسباً للتجميع بالملعقة الصغيرة...

- اسكت... سيتمّ كلّ شيء على ما يُرام...

- أقسم لكِ لو أنّ شخصاً واحداً ضحك هازئاً به، سأنقضّ عليه وأضربه...

- هدوء...

- هدوء، هدوء! أتمنى أن أجدكِ هادئة! سوف تجذبين الأنظار إليكِ، هنا أمام كلّ هؤلاء المجهولين؟

أوّلاً، كان هذا عرضٌ للأطفال. عرض **سكابان وكينو والأمير الصغير** ولشارع **بروكا**.

لم تستطع كاميل أن ترسمهم، كانت ساهية جداً.

Twitter: @ketab_n

ثمّ جاءت جماعة من المراهقين المخلّعين في مشيتهم تؤدّي دورها التجريبي وهم يعرضون أنفسهم من خلال التلويح بسلاسل ثقيلة مطلية بالذهب.

تساءل فرانك:

- أوه ولكن ماذا يضعون على رؤوسهم؟ أثواباً لصوقة أم ماذا؟

بدأت الاستراحة الفاصلة.

اللعنة. فترت الفانتا ولم يظهر فيليبير في الأفق...

حينما أُطفِئت الأنوار، ظهرت فتاةٌ غريبة المظهر.

كانت قصيرة القامة جدّاً وتنتعل حذاءً من طراز كونفيرس زهريّ اللون بحلّة جديدة وترتدي ثوباً للرقص مخطّطاً متعدّد الألوان، وتنوّرة قصيرة من التول الأخضر اللون وبلوزة طيّار قصيرة مطرّزة باللؤلؤ. كان لون شعرها متناسقاً مع لون حذائها.

جنّية... وتناثرت حفنة من نثار الورق الملوّن... جنّية رعناء حيوية كالتي نحبّها من النظرة الأولى أو لا نفهمهما أبداً.

انحنت كاميل ورأت فرانك يضحك ببلاهة.

- مساء الخير... إذاً سنبدأ... لقد... لقد فكّرتُ كثيراً في الطريقة التي أستطيع أن أقدّم بها لكم المشهد التالي وفي النهاية، فكّرتُ... فكّرتُ أنه... سيكون من الأفضل أن أروي لكم لقاءنا...

همس:

- أوه، أوه... بدأ التلعثم. هذا بسببنا.

Twitter: @ketab_n

- أوه إذاً... كان ذلك في العام الماضي تقريباً...

كانت تحرّك يديها في كلّ الاتجاهات.

- أنتم تعلمون أنني أقيم بعض الورشات للأطفال في بوبورغ وقد اخترته لأنّه كان دائماً يدور حول المساند الدوّارة لكي يحصي ويعيد إحصاء بطاقاته البريدية... كلّما كنتُ أمرّ، كنتُ أتهيّأ لمباغتته وكان لا مفرّ من ذلك: كان منهمكاً في إحصاء بطاقاته البريدية وهو يئنّ. مثل... مثل شابلن، أترون؟ مع هذه الغصّة التي تنتاب حلوقكم... عندما لا تعودون تعلمون إن كان عليكم أن تضحكوا أم تبكوا... حينما لا تعودون تعلمون شيئاً... حينما تمكثون، هنا، ببلاهة تامّة، بقلبٍ حائرٍ بين الحزن والفرح... ذات يوم، ساعدته و... وأحببته كثيراً... ماذا... أنتم أيضاً... سوف ترون... لا يمكننا إلا أن نحبّه... هذا الصبيّ، إنّ... إنّ كلّ أنوار المدينة له وحده....

كانت كاميل تضغط على يد فرانك.

- آه! هناك أمرٌ آخر... حينما قدّم نفسه للمرّة الأولى، قال لي: «فيليبير دو لا دوربيليير» فأجبته، أنا الطبيعية والمهذّبة، بنفس الطريقة، بالنسب الجغرافي: «سوزي... أوه... سوزي دو بيلفيل...»، فصرخ: «آه! هل أنتِ إحدى سليلات جيوفروا دو لاجيم الذي قاتل آل هابسبورغ في العام 1672؟». فتلعثمت: «لا، دو... دو بيلفيل دو... دو باريس ماذا...». وهل تعرفون ما هو الأسوأ؟ لم يشعر حتى بالإحباط...

كانت تحجل.

- إذاً هذه هي الحكاية، لقد قيل كلّ شيء. وأطلب منكم أن تصفّقوا له بقوّة...

Twitter: @ketab_n

صفّر فرانك من بين أصابعه.

دخل فيليبير بتثاقل. في شكّة دوره. الزرد والخوذة والسيف الكبير والترس والخُردة.

سرت قشعريرةٌ في الحضور.

بدأ بالكلام ولكن لم يُفهَم منه شيءٌ.

بعد انقضاء عدّة دقائق، اقترب صبيٌّ ومعه كرسيٌّ بلا مسند ليرفع له مقدّمة خوذته. فأصبح كلامه مسموعاً.

وافترّت الابتسامات.

لم يكن معلوماً بعد إن كان إنساناً أم خنزيراً...

فبدأ فيليبير بعرضٍ رائعٍ للتعرّي. في كلّ مرّة ينزع فيها قطعة من شكّته، كان غلامه الصغير يسمّيها بصوتٍ قويّ:

- الخوذة... القلنسوة الحديد... طوق الرقبة... مجنّ الرقبة والكتفين... واقي الصدر... واقي الجذع... أربطة الزند... الكفوف الجلد... درع الفخذ... واقيات الركبتين... واقيات الساقين...

انتهى فارسنا، الرخو تماماً، إلى الانهيار ونزع الصبي «جوربيه».

أعلن أخيراً وهو يرفعهما فوق رأسه ويسدّ أنفه:

- المَداسَان.

تصاعدت ضحكاتٌ حقيقية هذه المرّة.

لا شيء يساوي عرضاً هزلياً كبيراً لإثارة الحماسة في قاعة...

Twitter: @ketab_n

في الأثناء، كان فيليبير، جان، لويس-ماري، جورج ماركيه دو لا دوربيليير، يروي بالتفصيل، بصوتٍ أحادي النبرة ومتقزّز، فروع شجرة نسبه وهو يعدّد بطولات سلالته المهيبة.

جدّه شارل كان ضدّ الأتراك إلى جانب سان لويس في العام 1271، وجدّه بيرتران الذي هاجم آزينكور في العام 1415، وعمّه بيدول في معركة فونتونوا، وجدّه لويس على جروف موان في شوليه، وشقيق جدّه ماكسيميليان إلى جانب نابليون، ووالد جدّه على **طريق السيّدات** وجدّه لأمّه سجين الألمان في بوميراني.

والكثير الكثير جدّاً من التفصيلات. لم ينبس الصبيان بكلمة. **تاريخ فرنسا في 3 D**. فنٌّ عظيم.

وختم قائلاً:

- والآن ها هي الورقة الأخيرة من الشجرة.

نهض، شاحباً ونحيلاً جداً، يرتدي فقط سروالاً داخلياً مطبّعاً بأزهار الزنبق.

- الورقة الأخيرة هي أنا، أتعلمون؟ الذي يحصي بطاقاته البريدية...

جلب له غلامه معطفاً عسكرياً.

سألهم:

- لماذا؟ لماذا، يا للشيطان، يحصي وريث عرش هكذا موكب، ويعيد إحصاء قصاصات الورق في مكانٍ يمقته؟ حسناً، أنا سأخبركم بالأمر...

وهنا، تغيّر اتجاه الريح. تحدّث عن ولادته المختلّة لأنّه جاء خطأً، تنهّد قائلاً: «سابقاً...». ولأنّ والدته رفضت الذهاب إلى

Twitter: @ketab_n

مستشفى تُجرى فيه عمليات إجهاض. تحدّث عن طفولته المقطوعة عن العالم والتي علّموه خلالها بأن يبتعد عن الطبقة الدنيا. روى سنواته الأخّاذة مع غافيو مثل رمحٍ والأعمال الدنيئة العديدة التي كان ضحيّتها، وهو الذي لم يكن يعرف عن علاقات القوّة سوى الحركات البطيئة لجنوده الدُمى...

وضحِكَ الناس.

ضحكوا لأنّ ذلك كان مضحكاً. الضربة التي تلقّاها بالإناء الزجاجي للبول، والسخريات، النظارات المرمية في المراحيض، والتحريض على الاستمناء، وقسوة فلاحي فانديه الصغار والمداعبات المريبة للحارس. الحمامة البيضاء وصلوات المساء الطويلة للذين أهانونا وعدم إخضاعنا للإغراء ووالده الذي كان يسأله كلّ سبت إن كان قد تصرّف بكفاءة ورفع رأس أجداده بينما كان يتململ لأنّهم كانوا قد أدخلوا فيه القضيب بالصابون الأسود.

نعم، كان الناس يضحكون. لأنّه هو الذي يسخر من ذلك وهم كانوا معه بدءاً من تلك اللحظة.

كلّهم أمراء...

كلّهم خلف الريشة البيضاء لقبّعته...

كلّهم منفعلون.

تحدّث عن اضطراباته الوسواسيّة القهرية. أوراق ضمانه الاجتماعي التي لم يرد فيها اسمه أبداً، وتأتآته، واضطراباته، حينما تورّط لسانه في اختلاله، ونوبات قلقه في الأماكن العامّة، أسنانه التي انحسرت عنها اللثّة، وجمجمته الصلعاء، وظهره

Twitter: @ketab_n

المحدّب قليلاً وكلّ ما فقده خلال طريقه ليولَد في قرنٍ آخر. ويتربّى بلا تلفزيون، بلا صحف، بلا نزهات، بلا فكاهة وخاصّة بلا أدنى عطفٍ للعالم المحيط به.

أعطى دروساً في الوقار، في قواعد آداب السلوك، وذكر العادات الحسنة وسواها في العالم مردّداً عن ظهر قلب كرّاس جدّته:

«الأشخاص الكرماء والحسّاسون لا يقدّمون لأنفسهم الطعام، بحضور خادمٍ، في مقارنة قد تكون شائنة بالنسبة له. مثلاً: «فلان يتصرّف مثل غلام». لم تكن السيّدات العظيمات في الماضي يتبجّحن بهكذا حساسية، هيّا قولوا وأنا أعرف في الواقع أنّ دوقة من القرن الثامن عشر اعتادت على إرسال حاشيتها إلى مكان الإضراب عند كلّ إعدام وهي تقول لهم بفظاظة: «اذهبوا إلى المدرسة!».

«اليوم، نوفّر على نحوٍ أفضل الكرامة الإنسانية والحساسية المنصفة للصغار وعامّة الناس؛ هذا هو مجد عصرنا...

ثمّ زايد قائلاً:

ولكن بعد كلّ حساب! لا ينبغي لتهذيب السادة حيال الخدم أن يتحوّل إلى نوعٍ من البساطة الوضيعة. مثلاً، لا شيء يساوي في ابتذاله إصغاء المرء إلى نمائم خدمه...».

وظلّ الناس يضحكون. وإن لم يكن الأمر مضحكاً.

أخيراً، تحدّث باللغة الإغريقية القديمة، وتلا صلواتٍ كثيرة باللاتينية واعترف بأنّه لم يشاهد قط فيلم **لاغراند فادروي** لأنّه يسخر من الأديان...

Twitter: @ketab_n

- أعتقد بأنني الفرنسيّ الوحيد الذي لم يشاهد فيلم **لاغراند فادروي**، أليس كذلك؟

تصاعدت أصواتٌ لطيفة قائلة: لا، لا... لستَ الوحيد...

- لحسن الحظّ أنا... أنا أفضل حالاً. لقد... لقد أنزلتُ الجسر المتحرّك، أعتقد... وأنا... غادرتُ أراضيّ لأحبّ الحياة... التقيتُ أناساً أكثر نبلاً منّي بكثير... و... أقصد... بعضهم في القاعة ولا أريد أن... أن أعكّر مزاجهم ولكن...

ولأنّه كان ينظر إليهما، التفت الجميع نحو فرانك وكاميل اللذين كانا يحاولان يائسين ابـ... ابـ... ابتلاع الغصّة التي في حلقهما.

لأنّ هذا الشخص الذي يتحدّث، هذا النحيل الطويل الذي جعل جميعهم يتلوّون من الضحك وهو يروي مآسيه، كان صديقهما فيلو، ملاكهما الحارس، **سوبر-نيسكويك** خاصّتهما القادم من السماء. الذي كان قد أنقذهما مغلقاً ذراعيه الطويلتين النحيلتين جداً على ظهريهما المحبطين...

بينما كان الناس يصفّقون له، انتهى إلى البدء بارتداء لباسه من جديد. كان الآن يرتدي رداءً مع ذيل وقبّعة رسميات.

- هذه هي الحكاية إذاً... أعتقد بأنني قلتُ كلّ شيء... أتمنى ألا أكون قد أزعجتكم بهذه الهذيانات الغابرة... وإذا كانت هذه هي الحالة، للأسف، أرجوكم أن تعذروني وأن تقدّموا شكاواكم إلى تلك الآنسة الشريفة الوفيّة ذات الشعر الوردي لأنّها هي من أرغمتني على أن أقف أمامكم هذا

Twitter: @ketab_n

المساء... أعدكم بألّا أكرّر هذا، ولكن أوه..

حرّك عصاه باتجاه الكواليس وعاد خادمه بزوجٍ من القفازات وباقة زهورٍ.

أضاف وهو ينسّقها:

- لاحظوا اللون... زبدةٌ طازجة... يا إلهي... أنا ذو نزعة كلاسيكية لا يمكن إصلاحها... هل كنتُ كذلك سابقاً؟ آه، نعم! الشعر الوردي... أنا... أنا... أعلم أن السيّد والسيّدة مارتان، والدا الآنسة بيلفيل، موجودان في القاعة وأنا... وأنا... وأنا.... وأنا....

جثا على ركبتيه:

- أنا أتلعثم، أليس كذلك؟

تصاعدت الضحكات.

- أنا أتلعثم وهذا أمرٌ جد طبيعي بما أنني جئتُ أطلب يد ابنـ...

في تلك اللحظة، عبرت كرةُ مدفعٍ المسرح ورنّحته. فاختفى وجهه تحت تويجٍ من التول وسُمِع صوته:

- هيييييييييي، سأصبح مركيييييييييزاً!!!!

كانت نظارته مائلة، نهض ممسكاً بها بين ذراعيه:

- إنّه فتحٌ مبين، ألا ترون ذلك؟

ابتسم:

- يستطيع أجدادي أن يفخروا بي...

Twitter: @ketab_n

11

لم يحضر فرانك وكاميل احتفال نهاية السنة مع الجماعة لأنّهما لم يشاءا تفويت مترو الساعة الحادية عشرة وثمانٍ وخمسين دقيقة.

كانا جالسين بجوار بعضهما هذه المرّة ولم يثرثرا كما فعلا خلال رحلة الذهاب.

الكثير من الصور، الكثير من الارتجاجات...

- أتعتقدين أنّه سيعود هذا المساء؟

- هممم... لا تبدو هذه الفتاة صارمة جدّاً حيال قواعد الأصول...

- إنّه مجنون، إذاً؟

- مجنونٌ تماماً...

- هل تتخيّلين شكل ماري-لورانس حينما تكتشف كنّتها الجديدة؟

- برأيي، لن يستمرّ ذلك طويلاً...

- لماذا تقولين هذا؟

- لا أدري... حدسٌ أنثوي... يوم أمس، في القصر، عندما كنّا نتنزّه بعد الغداء مع بوليت، قال لنا وهو يرتعد غيظاً: «أتفهمون؟ هذا عيد الفصح، ولم يخبّئوا حتى بيضاً لبلانش...». ربّما أكون مخطئة ولكنني شعرتُ بأنّ تلك كانت القشّة التي قصمت ظهر البعير... لقد أذاقوه كلّ شيء من دون أن يستاء، أمّا الآن... أن لا يُخبّأ بيضٌ لهذه الفتاة الصغيرة، فذلك محزنٌ

Twitter: @ketab_n

للغاية... محزنٌ للغاية... لقد شعرتُ بأنّه يفرغ جام غضبه متّخذاً تدابير صارمة... قد تقول لي إنّ هذا أفضل... أنت المحقّ: لم يكونوا يستحقون ذلك...

هزّ فرانك رأسه واكتفيا بذلك. ولو ذهبا أبعد من ذلك، لاضطرا أن يتحدّثا عن المستقبل افتراضياً (وإن تزوّجا، أين سيعيشان؟ ونحن، أين سنعيش؟ الخ). ولم يكونا مستعدّين لخوض هذا النوع من الحديث... الخطِر للغاية... المغامر للغاية...

دفع فرانك أجرة السيّدة بيريرا بينما كانت كاميل تروي الخبر لبوليت ثمّ تناولوا بعض الطعام وهم يصغون إلى حديثٍ عن التقنية المحتملَة.

- هذه ليست تقنية، هذه معلوماتية.

- آه، عذراً...

في الواقع، لم يعد فيليبير إلى البيت تلك الليلة وبدت لهما العمارة فارغة على نحوٍ مريع... كانا سعيدين له وتعيسين لنفسيهما... عاودهما شعورٌ قديمٌ بالهجران...

فيلو...

لم يكونا بحاجة للكلام للإفصاح عن قلقهما. كان ذلك بادياً عليهما بوضوح.

اتّخذا من زواج صديقهما ذريعة للإفراط في الكحول وشرب أنخاب كلّ يتامى العالم. كان هناك الكثير والكثير من الخمر لينهوا تلك السهرة المضطربة بسكرةٍ عظيمة.

عظيمة ومريرة.

Twitter: @ketab_n

ماركيه دو لا دوربيليير، فيليبير، جان، لويس-ماري، جورج، مولود في 27 أيلول (سبتمبر) 1967 في لاروش-سور-يون (فانديه)، تزوّج مارتان، سوزي، المولودة في 5 كانون الثاني (يناير) 1980 في مونتروي (سين-سان-دوني) في بلدية الدائرة عشرين في باريس في أوّل اثنين من شهر حزيران (يونيو) 2004 تحت الأنظار المضطربة للشاهدين ليستافييه، فرانك، جيرمان، موريس، المولود في 8 آب (أغسطس) 1970 في تور (إندر- ايه- لوار) وفوك، كاميل، ماري، اليزابيت، المولودة في 17 شباط (فبراير) 1977 في مودون (هوت- دو- سين) وبحضور ليستافييه بوليت التي رفضت الإفصاح عن عمرها.

وحضر أيضاً والدا العروس وكذلك صديقها الأقرب، وهو صبيٌّ طويل القامة ذو شعرٍ أصفر كان أكثر رزانةً منها بقليل...

كان فيليبير يرتدي بزّة رائعة من الكتان الأبيض مع منديل جيب وردي اللون فيه دوائر صغيرة خضراء اللون.

كانت سوزي ترتدي تنّورة قصيرة رائعة وردية اللون فيها دوائر صغيرة خضراء اللون مع مؤخّرة مستعارة وذيل ثوبٍ يطول لأكثر من مترين. كانت تردّد: «حلمي!».

كانت تضحك طيلة الوقت.

كان فرانك يرتدي بزّة كالتي يرتديها فيليبير. كانت بوليت ترتدي قبّعة صنعتها كاميل. قبّعة نسائية صغيرة منقوشة بالعصافير والريش من كلّ الجهات وكانت كاميل ترتدي قميصاً من

Twitter: @ketab_n

السموكينغ أبيض اللون من قمصان جدّ فيليبير والذي كان ينزل حتى ركبتيها. وكانت قد عقدت ربطة عنق حول خصرها ودشّنت صندلين أحمرين جميلين جداً. كانت تلك المرّة الأولى التي ترتدي فيها تنوّرة منذ زمنٍ طويلٍ جداً...

ثمّ راح كلّ هذا الجمع الجميل للتنزّه في حدائق بوت-شومون مع سلّة لا دوربيليير الكبيرة التي يستخدمها في توزيع الطعام وهم يتحايلون لئلا يراهم الحرّاس.

نقل فيليبير عدداً قليلاً من كتبه الكثيرة إلى الشقّة الصغيرة لزوجته التي لم تتخيّل للحظة أن تترك حيّها المعشوق لتُدفَن على الجانب الآخر من نهر السين....

هذا يدلّ على أنّها لا مبالية وعلى أنّه يحبّها...

ومع ذلك احتفظ بغرفته وكانا ينامان فيها كلّما يأتيان لتناول العشاء. وقد استغلّها فيليبير ليضع فيها كتباً ويأخذ منها أخرى بينما استغلتها كاميل في إكمال بورتريه سوزي.

لم تكن تشعر بذلك... كانت لا تزال امرأة لا تستسلم... هيه! مخاطر المهنة...

لم يعد فيليبير يتلعثم ولكنّه كان يكفّ عن التنفّس ما أن تخرج عن مدى رؤيته.

وحينما أبدت كاميل دهشتها من سرعة اتّفاقهما على الزواج، نظرا إليها بغرابة. ماذا ننتظر؟ لماذا نهدر وقت سعادتنا؟ هذا شيءٌ من البلاهة الخالصة...

هزّت رأسها، مُرتابة، متأثّرة، بينما كان فرانك ينظر إليها خلسةً...

Twitter: @ketab_n

دعكِ من هذا، أنتِ لا تستطيعين أن تفهمي... لا تستطيعين أن تفهمي هذا... أنتِ مليئة بالعُقَد... ليس لديك ما هو جميلٌ سوى رسوماتكِ... أنتِ منكمشة على نفسكِ تماماً... حينما أفكّر بأنني أعتقدتُ أنّكِ حيوية... تبّاً، لا بدّ أنني كنتُ ثملاً في ذلك المساء لأضع إصبعي في عينيّ حينها... اعتقدتُ أنّكِ جئتِ لتمارسي الحبّ معي في حين كنتِ فقط جائعة... كم أنا أبله، أقسِم لكِ...

أتدرين ما الذي يجب فعله؟ يجب إفراغ رأسكِ كما تُفرَغ أحشاء الدجاجة وإخراج كلّ القذارة المتراكمة فيه دفعة واحدة. سيكون رجلاً قوياً مَنْ ينجح في فكّ عقدكِ... وليس من المؤكّد أنّه موجود... يقول لي فيلو إنّكِ ترسمين جيّداً لأنّكِ هكذا، سحقاً إذاً، إنّه لثمنٌ غال...

هزّه فيليبير:

- ماذا يا عزيزي فرانك؟ تبدو مضطرباً الآن...

- أنا متعب...

- لا بأس... لقد اقتربت العطلة...

- أفف... ما زال أمامنا كلّ شهر يوليو (تموز).... سوف أذهب إلى النوم لأنني سأستيقظ باكراً غداً: سآخذ هاتين السيّدتين للاستجمام في الريف...

قضاء الصيف في الريف... كانت تلك فكرة كاميل ولم تجد بوليت في ذلك ضيراً... بل تحمّست الجدّة للفكرة...

حينما أخبرته بخطّتها، استسلم فرانك لها.

كانت تستطيع العيش بعيداً عنه. لم تكن مغرمة ولن تكون

Twitter: @ketab_n

كذلك أبداً. بل أخبرته: «شكراً فرانك، وأنا أيضاً». ثمّ إنّها مشكلته إن كان قد اعتقد بأنّه أقوى منها ومن العالم أجمع. لا يا ولدي، لستَ الأقوى... لا... أنتَ من أوهمت نفسك بذلك، إيه؟ ولكنّك عنيدٌ للغاية، ومتبجّحٌ للغاية...

كانت حياتك بائسة وعديمة القيمة مذ ولِدت فلماذا إذاً سيتغيّر الأمر الآن؟ ماذا كنتَ تظنّ؟ سوى لأنّك كنت تضاجعها برضاك ولأنّك كنت لطيفاً معها... هذا سيُنزِل عليك السعادة... أفف... شيءٌ لا يُغتَفر... انظر إلى لعبتكَ قليلاً، هل رأيتها؟ إلى أين كنت تنوي الوصول، أخبرني؟ إلى أين كنت تنوي الوصول؟ بصراحة؟

وضعت جزدانها وحقيبة بوليت في الممرّ وانضمت إليه في المطبخ.

- أنا عطشانة.

- ...

- أأنت متضايق؟ أيزعجك أن نغادر؟

- لا أبداً! سأرتاح قليلاً...

نهضت وأمسكت بيده:

- هيّا، تعال...

- إلى أين؟

- إلى النوم.

- معكِ؟

- نعم!

Twitter: @ketab_n

- كلا.

- لماذا؟

- لا أرغب... أنتِ رقيقة ولا تتحمّلين ضربة على الأنف... أنتِ تخدعينني فحسب، لقد ضقتُ ذرعاً...

- حسناً...

- أنتِ متقلّبة في مواقفكِ... هذه طريقة كريهة للتصرّف...

-...

- هذه طريقة كريهة...

- ولكنني جيّدة معكَ...

ردّد ساخراً:

- «ولكنني جيّدة معك...». لا يهمّني في شيء أن تكوني جيّدة معي. أنا أريد أن تكوني معي فحسب. أمّا ما تبقّى... تميّزكِ وتشوّشكِ الفني وتدابيرك الصغيرة حيال مؤخرتك وضميركِ... احتفظي بكلّ هذا لأبله آخر. أمّا الداعي، فقد سلّم كلّ شيء. لن تأخذي منه أيّ شيءٍ آخر، يمكنكِ أن تكفّي عن الاهتمام بالأمر، يا أميرة...

- أنت مغرم، أهذا صحيح؟

- أوه، أنتِ مزعجة يا كاميل! هذا صحيح! حدّثيني وكأنني مريضٌ الآن! تبّاً لكِ، القليل من الحياء، اللعنة! هيّا، سترحلين، وهذا سيريحني... لماذا سأزعج نفسي بامرأة تطيب لها فكرة قضاء شهرين في جحرٍ بائسٍ وحيدةً مع امرأة عجوز؟ أنتِ لستِ فتاة طبيعية ولو كنتِ تتمتّعين بالحدّ الأدنى من الحصافة لذهبتِ للعلاج قبل الإمساك بأوّل أبله يمرّ.

Twitter: @ketab_n

- بوليت محقّة. أنت فظٌّ لدرجةٍ غير معقولة...

صباح اليوم التالي، بدت المسافة طويلة جداً.

ترك لهما السيارة وعاد بدراجته النارية القديمة.

- هل ستعود السبت المقبل؟

- لأفعل ماذا؟

- امم... لترتاح هنا...

- سنرى...

- أطلب منك ذلك...

- سنرى...

- ألن نتعانق؟

- لا. سوف آتي وأقبّلك السبت المقبل إن لم أجد ما هو أفضل للقيام به ولكنّني لن أعانقكِ بعد الآن.

- حسناً.

ذهب ليودّع جدّته ثمّ توارى في نهاية الطريق.

عادت كاميل إلى الأنابيب الضخمة لألوانها. كانت مستسلمة الآن للتزيين الداخلي...

بدأت بالتفكير ثمّ عدلت عن ذلك. أخرجت ريشها من ماركة وايت-سبيريت ومسحتها مطوّلاً. كان محقّاً: سوف نرى.

واستأنفت حياتها البسيطة. كما كان الحال في باريس ولكن بشكلٍ أبطأ. وتحت الشمس.

تعرّفت كاميل على زوجين انكليزيين كانا يرمّمان البيت المجاور. تمّ تبادل أشياء وطُرفٍ وأدوات وكؤوس مشروب **جن تونيك** بينما كانت طيور السمامة تتراقص.

Twitter: @ketab_n

ذهبتا إلى متحف الفنون الجميلة في تور، انتظرت بوليت في ظلّ شجرة أرزٍ كبيرة (الكثير من الدرجات) بينما كانت كاميل تكتشف الحديقة، السيّدة الجميلة جداً وحفيد الرسّام ادوار ديبا-بونسان. لم يكن هذا موجوداً في القاموس... مثل ايمانويل لانسييه الذي كانتا قد زارتا متحفه في لوش قبل بضعة أيام من ذلك... كانت كاميل تحبّ كثيراً هؤلاء الرسّامين غير الموجودين في القاموس، هؤلاء الأساتذة الصغار، كما كان يُقال... محليّو المرحلة، الذين لم تكن لديهم مساند رسم سوى المدن التي استقبلتهم. سيبقى الأوّل إلى الأبد جدّ أوليفييه دوبريه والثاني تلميذ كورو... من دون غطاء العبقرية والسلالة، كانت لوحاتهما تثير الإعجاب على نحوٍ أكثر هدوءاً، وربّما على نحوٍ أكثر إخلاصاً...

كانت كاميل تسألها باستمرار إن كانت تريد الذهاب إلى المراحيض. كانت هذه الثرثرة نوعاً من الغباء ولكنّها كانت تتشبّث بهذه الفكرة الثابتة لاستبقائها قريبة منها... استجابت لها السيّدة العجوز لمرّة أو مرّتين ووبّختها بكثرة:

«آه! كلا، يا عزيزتي بوليت، لكِ كلّ ما تريدين إلّا هذا! أنا هنا فقط من أجلكِ! اسأليني! ابقي معي، تبّاً لكِ! ما معنى أن تتغوّطي على كرسيكِ؟ لستِ محبوسة في قفصٍ على ما أعلم؟

- ...

- هيه! بوليت! ردّي عليّ. هل أصابكِ الصّمَم أيضاً؟

- لا أريد أن أزعجكِ...

- كاذبة! لم تريدي أن تزعجي نفسكِ!».

Twitter: @ketab_n

في ما تبقّى من الوقت، كانت تعتني بالحديقة وتشتغل في المنزل بأشغال يدوية وتعمل وتفكّر في فرانك وتقرأ -أخيراً- **رباعي الإسكندرية**. بصوتٍ خفيضٍ أحياناً.. ليضعها في الجوّ.. ثمّ كان يحين دورها في الغناء الأوبرالي...

«اسمعي هذه، هذه جميلة جداً... يقترح دون رودريغز على صديقه أن يذهب للموت في الحرب إلى جانبه لينسيه بأنّه مغرمٌ بإليزابيت...

انتظري، سأرفع الصوت... دعيني أسمع هذا الثنائي، يا بوليت... يا إلهي، أنت تزرع في أررررواحنا... كانت تدندن وهي تحرّك رسغيها، نا نينانا نينانا...

هذا جميل، إيه؟».

كانت قد غفت.

لم يأتِ فرانك في عطلة نهاية الأسبوع التالي ولكنّهما تلقّتا زيارة السيّد والسيّدة ماركيه المتلازمين.

وضعت سوزي مخدّة رياضة اليوغا على العشب وكان فيليبير يقرأ في كرسيٍّ طويلٍ كرّاسات سياحية حول إسبانيا التي كانا سيسافران إليها في الأسبوع التالي لقضاء شهر العسل فيها.

- عند خوان كارلوس... ابن عمّي بالمصاهرة.

ابتسمت كاميل:

- ربّما كان عليّ أن أشكّ في ذلك...

- لكن... وفرانك؟ أليس هنا؟

- كلا.

Twitter: @ketab_n

- أيقوم بجولةٍ على دراجته؟

- لا أدري...

- أتعنين أنّه قد بقي في باريس؟

- أتصوّر ذلك...

تأسّف:

- أوه يا كاميل...

ردّت غاضبة:

- ماذا يا كاميل؟ ماذا؟ أنتَ من أخبرتني حينما حدّثتني عنه لأوّل مرّة بأنّه لا يُطاق... وأنّه لم يقرأ في حياته سوى الإعلانات القصيرة في **موتوبوفيلان ماغازين**، وأنّه... وأنه...

- اسكتي. اهدئي. لا أعاتبكِ على شيء.

- كلا، أنت تفعل ما هو أسوأ...

- كنتِ تبدين سعيدة...

- نعم. إذاً يكفي. لنتوقّف هنا. دعنا لا نشوّه كلّ شيء...

- أتعتقدين أنّها كرصاصات قلمكِ؟ أتعتقدين أنّها تُستَهلك حينما نستعملها؟

- ماذا تقصد؟

- المشاعر.

- إلى متى يعود آخر بورتريه شخصي لكِ؟

- لماذا تسألني هذا السؤال؟

- إلى متى يعود؟

- إلى زمنٍ بعيد...

Twitter: @ketab_n

- هذا ما اعتقدته بالضبط...

- لا علاقة لهذا بالأمر.

- كلا طبعاً...

- كاميل؟

- امم...

- الأوّل من تشرين الأول (أكتوبر) 2004 الساعة الثامنة صباحاً...

- ماذا؟

مدّ نحوها رسالة المعلّم بوزو، الكاتب العدل في باريس.

قرأتها كاميل وأعادتها إليه واستلقت على العشب عند قدميه.

- عفواً؟

- كان حرياً بذلك أن يستمر...

- أنا متأسّف...

- كفى.

- تشاهد سوزي الإعلانات في حيّنا... هذا جيد أيضاً، أتدري؟ هذا... هذا رائع كما كان والدي يقول...

- كفى. وفرانك، أيعلم بالأمر؟

- ليس بعد.

قال بأنّه سيصل في الأسبوع التالي.

همست له كاميل على الهاتف:

- هل اشتقتَ إليّ كثيراً؟

- لا. لدي بعض الأمور التي ينبغي القيام بها على درّاجتي... هل أطلعكِ فيليبير على الرسالة؟

Twitter: @ketab_n

- نعم.

- . . .

- أتفكّر في بوليت؟

- نعم.

- أنا أيضاً.

- كان من الأفضل تركها حيث كانت. . .

أضافت كاميل:

- أتعتقد ذلك فعلاً؟

- كلا.

13

انقضى الأسبوع.

غسلت كاميل يديها وعادت إلى الحديقة وانضمّت إلى بوليت التي كانت تتشمّس في أريكتها.

كانت قد أعدّت حلوى الكيش. . . وهي كعكة فيها قطعٌ من شحم الخنزير. . . المهمّ أنّها تؤكَل. . .

كامرأة صغيرة خانعة في انتظار زوجها. . .

كانت جاثية على ركبتيها تنكش الأرض حينما همست رفيقتها العجوز من وراء ظهرها:

- لقد قتلته.

- عفواً؟

كانت تتلفّظ بمزيدٍ من الحماقات في الفترة الأخيرة. . .

Twitter: @ketab_n

- موريس... زوجي... قتلته.

انتصبت كاميل من دون أن تلتفت.

- كنتُ في المطبخ أبحث عن محفظة نقودي لأذهب وأجلب الخبز و... ورأيته يسقط... كان يعاني من مرضٍ عضال في القلب، أنتِ تدرين... كان يتحشرج ويتأوّه وكان وجهه... ارتديتُ... ارتديتُ سترتي وخرجت...

«أخذتُ كلّ وقتي... توقّفتُ أمام كلّ بيت... والصغير، كيف حاله؟ وهل شفي من الروماتيزم؟ وهل رأيتم الإعصار؟ أنا التي لا أتكلّم كثيراً، كنتُ ودودة جداً، ذاك الصباح، والأسوأ من كلّ هذا أنني لعبتُ اللوتو... هل فهمتِ؟ وكأنّه كان يوم حظّي... حسناً ومن ثمّ... عدتُ في نهاية المطاف وكان ميّتاً».

صمتت.

- رميتُ بطاقتي لأنّني ما كنتُ لأحظى بوقاحة التحقّق من الأرقام الرابحة وطلبتُ الإسعاف... أو النجدة... لم أعد أعرف... وكان الأوان قد فات... وكنتُ أعرف ذلك...

صمتت.

- ألا تقولين شيئاً؟

- كلا.

- لماذا لا تقولين شيئاً؟

- لأنني أعتقد أن تلك كانت ساعته.

قالت بلهجة متوسّلة:.

- أتعتقدين ذلك؟

Twitter: @ketab_n

- أنا متأكّدة من ذلك. أزمة قلبية، هذه أزمة قلبية. لقد أخبرتِني ذات يوم بأنّه كان يعاني منها منذ خمسة عشر عاماً.

ولتثبت لها حسن نيّتها، انهمكت في العمل وكأنّ شيئاً لم يكن.

- كاميل؟

- نعم.

- شكراً.

حينما استيقظت بعد ذلك بنصف ساعة، كانت الأخرى قد نامت وهي تبتسم.

فراحت وجلبت لها غطاءً.

ومن ثمّ لفّت لنفسها سيجارة.

ثم نظّفت أظافرها بعود ثقاب.

ثم ذهبت تتفقّد حلوى «الكيش».

ثم قطعت ثلاث وريقات من الخسّ وبضع وريقات من الثوم المعمّر.

ثمّ غسلتها.

ثمّ قدّمت لنفسها كأساً من النبيذ الأبيض.

ثمّ استحمّت.

ثمّ عادت إلى الحديقة وهي ترتدي بلوزةً.

وضعت يداً على كتفها:

- هيه... ستبردين يا عزيزتي بوليت...

هزّتها بلطف:

- عزيزتي بوليت؟

Twitter: @ketab_n

أبداً لم تتطلّب رسمةً هذا القدر من العناء منها.

لم ترسم سوى رسمة واحدة.

وربّما كانت الأجمل.

14

كانت الساعة تتجاوز الواحدة ليلاً حينما أيقظ فرانك كلّ القرية بضجيج درّاجته.

كانت كاميل في المطبخ.

- مرّة أخرى الإفراط في الشراب؟

وضع بلوزته على كرسيٍّ والتقطت كأساً من على رفٍّ يقع فوق رأسها.

- لا تتحرّكي.

جلس قبالتها:

- هل نامت جدّتي؟

- إنّها في الحديقة...

- في الحد...

وحينما رفعت كاميل وجهها، بدأ يئنّ.

- أوه لا، تبّاً... أوه لا...

15

- وماذا عن الموسيقى؟ هل لديكِ ما تفضّلينه؟

التفت نحو كاميل.

Twitter: @ketab_n

كانت تبكي.

- سوف تجدين لنا شيئاً جميلاً، إيه؟

هزّت رأسها.

- وماذا عن البول؟ هل... هل شاهدتِ التعرفة؟

16

لم تمتلك كاميل الشجاعة للعودة إلى المدينة للبحث عن CD مناسب. فضلاً عن أنّها لم تكن متأكّدة من أنّها ستعثر عليه... ثمّ إنّها لم تكن تمتلك الجرأة.

أخرجت الكاسيت الذي كان لا يزال موجوداً في الجهاز ومدّته نحو المشرف على مكان حرق الجثث.

- أليس هناك ما ينبغي فعله؟

- كلا.

لأنّه كان فعلاً الكاسيت المفضّل لديها... والدليل هو أنّها قد غنّت أغنية لها، إذاً...

وكانت كاميل قد ألّفتها لها لتشكرها على البلوزة التي حاكتها لها خلال الشتاء وكانتا تستمعان إليها يوم عادتا من حدائق **فيلاندري**.

شاهدتها تبتسم عبر المرآة العاكسة...

حينما كان هذا الشاب الطويل القامّة يغنّي، كانت في العشرين من عمرها.

وقد رأته في العام 1952 في وقتٍ كان يوجد مسرح المنوعات قرب دور السينما.

Twitter: @ketab_n

تنهّدت:

- آه... كان في غاية الوسامة... في غاية الوسامة...

فأوكِلت إلى المونسنيور مونتان القيام بمهمّة التأبين.

وبصلاة الجنازة...

حينما كنا نغادر في الصباح الباكر، حينما كنا ننطلق في الطرقات،

على دراااا-جة،

كنّا بضعة أصدقاء،

كان هناك فيرنان، كان هناك فيرمان، كان هناك فرانسيس وسيباستيان،

ومن ثمّ بوليييت...

كنّا جميعاً مغرمين بها، كنا نشعر وكأننا نطير بأجنحة،

على دراااا-جة...

وفيلو الذي لم يحضر حتى...

غادر إلى قصوره في إسبانيا...

وقف فرانك منتصباً، ويداه خلف ظهره.

كانت كاميل تبكي.

لا، لا، لا... وكأنّ شيئاً لم يكن،

ها هي قد عادت،

الأغنية الصغيييرة...

كانت قد اختفت،

كان بلاط الطريق

Twitter: @ketab_n

موحشاً جداً...

أيّها الأشقياء، أيتّها المركيزات

لقد انطلق حلقي...

كانت تبتسم... **أيّها الأشقياء، أيتّها المركيزات**... ولكن هؤلاء نحن...

لا، لا، لا، ردّدوا معي

عالياً...

الأغنية الصغيييرة...

كانت السيّدة كارمينو تتلاعب بمسبحتها وهي تشهق.

كم كان عددهم في هذه المصلّى الزائف المصنوع من المرمر الزائف؟

العشرات ربّما؟

عدا الإنكليز، لم يكن هناك سوى عجائز...

عجائز فقط.

فقط عجائز كنّ يهززن رؤوسهنّ بحزن.

كانت كاميل خائرة على كتف فرانك الذي ظلّ يطقطق أصابع يده.

ثلاث علامات موسيقية صغيرة،

غادرن،

إلى عمق الذكرى...

انتهين من جلبتهنّ،

وقلبن الصفحة،

Twitter: @ketab_n

وذهبن إلى النوم. . .

أشار الرجل ذو الشوارب الكثيفة بإشارة إلى فرانك.

فوافق.

انفتح باب الموقد، سار النعش، أُغلق عليه الباب و. . . اشتعلت فيه النار. . .

اكتوت بوليت للمرّة الأخيرة بالنار وهي تصغي إلى معبودها مغنّي الأغاني العاطفية.

ورحلت. . . عرجاً. . . في سعير الشمس. . . في مهبّ الريح. . .

وتعانق الحاضرون. العجائز أخبرن فرانك كم كنّ يحببن جدّته. وابتسم لهنّ. وكان يعضّ على نواجذه لئلا يبكي.

تفرّق جمع الناس الطيّبين. أشار له السيّد إلى أوراقٍ ومدّ له آخرُ علبة سوداء صغيرة.

جميلةٌ جداً. أنيقةٌ جداً.

العلبة التي لمعت تحت الضوء الباهت للثريا الزائفة.

دعتهما إيفون إلى تناول مشروبٍ منشّط.

- لا شكراً.

- أكيد؟

ردّ فرانك ممسكاً بذراعها:

- أكيد.

ووجدا نفسيهما في الشارع.

وحيدين.

Twitter: @ketab_n

كلاهما لوحدهما.

اقتربت منهما سيّدة في الخمسينات من عمرها.

دعتهما إلى بيتها.

لحقا بها بالسيارة.

كانا ليلحقا بأيٍّ كان.

17

أعدّت لهما كوباً من الشاي وأخرجت من الفرن قطعة من الحلوى.

عرّفتهما بنفسها. كانت ابنة جان لوفيل.

لم يكن قد رآها من قبل.

- هذا طبيعي. حينما جئتُ أسكن بيت أمّي، كنتَ قد رحلتَ منذ زمنٍ طويل...

تركتهما يشربان ويأكلان بهدوء.

ذهبت كاميل تدخّن في الحديقة. كانت يداها ترتجفان.

حينما عادت وجلست معهما، ذهب ضيفها يبحث عن علبة كبيرة.

- انتظر، انتظر، سوف أجدها لك... آه! ها هي! تفضّل...

كانت صورة صغيرة محزّزة سكرية اللون مع توقيعٍ مبهرجٍ في أسفل يمينها.

امرأتان شابّتان. كانت الواقفة إلى الطرف الأيمن تضحك

Twitter: @ketab_n

وهي تحدّق في الكاميرا بينما كانت الأخرى تخفض عينيها تحت قبّعة سوداء.

كانتا صلعاوين.

- هل عرفتها؟

- عفواً؟

- هنا . . . هذه جدّتك.

- هذه؟

- نعم. وبجانبها خالتي لوسيان. . . الشقيقة الكبرى لأمّي. . .

مدّ فرانك الصورة نحو كاميل.

- كانت خالتي معلّمة مدرسة. يُقال بأنّها كانت أجمل فتاةٍ في البلاد. . . ويقال أيضاً بأنّها كانت متعالية جدّاً. . . كانت مثقّفة ورفضت مراراً المتقدّمين للزواج منها، وبالتالي نعم، كانت فعلاً متعالية غريبة. . . في 3 تموز (يوليو) 1945، صرّحت خيّاطتها رولاند ف.، . . . كانت أمي تحفظ المحضر الرسمي عن ظهر قلب. . . **شاهدتها تتسلّى وتضحك وتمزح بل وذات يوم تلعب معهم (الضبّاط الألمان) لعبة رشّ الماء بلباس الحمّام في باحة المدرسة.**

ساد الصمت.

سألت كاميل في النهاية:

- هل حلقوا لها شعرها؟

- نعم. روت لي أمّي أنّها بقيت منهكة لأيامٍ طويلة وأنّ

Twitter: @ketab_n

صديقتها بوليت موغان جاءت ذات صباح وأخذتها. كانت قد حلقت شعرها بموسى قصيرٍ لوالدها وضحكت أمام بابهم. أمسكتها بيدها وأرغمتها على مرافقتها إلى المدينة لتذهبا إلى مصوّر. قالت لها: «هيّا... تعالي... ستكون هذه ذكرى لنا... أقول لكِ، تعالي! لا تدعيهم يشمتون بكِ... هيّا... ارفعي رأسكِ، عزيزتي لولو... أنت أفضل منهم، هيّا...». لم تجرؤ خالتي على الخروج بلا قبّعة ولم ترفعها عند المصوّر، ولكنّ جدّتك، انظر إلى هذه الكياسة... كم كان عمرها آنذاك؟ عشرين عاماً؟

- إنّها من مواليد تشرين الثاني (نوفمبر) 1921.

- ثلاثة وعشرون عاماً... امرأة صغيرة طيّبة وشجاعة، أليس كذلك؟ تفضّل... أمنحك هذه الصورة...

ردّ فرانك ملويّ الفم:

- شكراً.

ما إن أصبحا في الشارع، التفت إليها وخاطبها بافتخار:

- كانت جدّتي امرأة قديرة، أليس كذلك؟

وأخذ يبكي.

أخيراً.

كان ينتحب:

- جدّتي العزيزة... جدّتي العزيزة... لم يكن لي سواها في الدنيا...

تجمّدت كاميل فجأةً في مكانها واستدارت ثم ركضت لتجلب جرّة الرماد.

Twitter: @ketab_n

نام في الأريكة واستيقظ باكراً جدّاً صباح اليوم التالي.

من نافذة غرفتها، شاهدته كاميل ينثر رماداً ناعماً جداً فوق نباتات الخشخاش العطرة والبازيلاء...

لم تجرؤ على الخروج في الحال وعندما قرّرت في النهاية أن تحمل إليه فنجاناً من القهوة الساخنة، سمعت هدير دراجته يبتعد.

انكسر الفنجان وخارت فوق طاولت المطبخ.

18

نهضت بعد عدّة ساعات من ذلك، أنّبت ذاتها، أخذت حماماً بارداً وعادت إلى أنابيب ألوانها.

كانت قد بدأت بإعادة رسم هذا المنزل اللعين وكانت على وشك إنهاء عملها.

تواصلت عبر موجة FM وأمضت النهارات التالية على سلّم.

كانت ترسل رسالة إلى فرانك كلّ ساعتين تقريباً لتخبره إلى أين وصلت.

9,13 أندوشين، فوق صوّان السُّفرة.

11,37 عائشة، عائشة، اسمعيني، حول النافذة.

13,44 سوشون، سيجارة في حديقة.

16,12 نوغارو، السقف.

19,00 الأخبار، جونبون بالزبدة.

10,15 بيتش بويز، حمّام.

Twitter: @ketab_n

11,55 بينابار، هذا أنا، هذه ناتالي.

15,03 ساردو، غسل الريَش.

لم يجبها سوى مرّة واحدة:

01,16 صمت.

هل أراد القول: نهاية الخدمة، السلام، الهدوء، أم أراد القول: الصمت؟

وسط الشك، أغلقت هاتفها النقّال.

19

أغلقت كاميل مصراعي النافذة وراحت تودّع... تودّع الأزهار وداعبت الهرّ وهي تغمض عينيها.

نهاية شهر تموز (يوليو).

كانت باريس تختنق.

كانت العمارة صامتة. وكأنّها قد طردت سكّانها...

قالت له: هب، هب، هب، ما زال لديّ شيءٌ يجب أن أنهيه، أنا...

اشترت دفتراً جميلاً جداً، وألصقت على صفحته الأولى الميثاق الساذج الذي كتبوه ذات مساءٍ في الأكاديمية ثمّ جمعت كلّ رسوماتها ومخططاتها ورسوماتها الإعدادية وما إلى ذلك. لتتذكّر كلّ ما تركوه خلفهم وما سيختفي في نفس الوقت...

كان هناك ما يستدعي بناء عشرة أقفاص فاخرة للأرانب في هذه السفينة الضخمة...

Twitter: @ketab_n

ثمّ كانت ستهتمّ فقط بتفريغ الغرفة المجاورة.

ومن ثمّ...

حينما ستكون مشابك الشعر وماسورة البوليدان هي الأخرى قد ماتت...

وهي تفرز رسوماتها، وضعت جانباً بورتريهات صديقتها.

إلى تلك اللحظة، لم تكن متحمّسة جداً لفكرة المعرض تلك ولكنّها الآن شغفت بها. أصبحت الآن فكرتها الثابتة: أن تحييها مرّة أخرى. أن تفكّر فيها، أن تتحدّث عنها، أن تعرض وجهها، ظهرها، رقبتها، يديها... تحسّرت على أنّها لم تدوّن كلامها حينما روت لها ذكريات طفولتها على سبيل المثال... أو حبّها العظيم.

«سيبقى هذا بيننا، اتّفقنا؟».

- نعم نعم...

- إذاً، كان يُدعى جان-بابتيست... ألا تجدين أنّ هذا اسمٌ جميل؟ أنا لو رزقتُ بطفلٍ لسمّيته جان- بابتيست...».

إلى تلك اللحظة، كانت لا تزال تسمع صدى صوته ولكن... إلى متى؟

ولأنّها كانت معتادة على أن تقوم بالأعمال المنزلية وهي تصغي إلى الموسيقى، ذهبت إلى غرفة فرانك لكي تستعير مسجّلته.

لم تجدها.

لم يعد هناك أيّ شيء.

Twitter: @ketab_n

فقط ثلاثة صناديق كرتون مصفوفة على طول الجدار.

وضعت رأسها على مصراع الباب واستحالت الأرضية رمالاً متحركة.

أوه، كلا... هو أيضاً غير موجود... هو أيضاً غير موجود...

كانت قلقة.

أوه، كلا... كانت تردّد ذلك... كانت هي الأخرى تفقد الجميع...

أوه، كلا، اللعنة...

أوه، كلا...

صفقت الباب وهرعت إلى المطعم.

سألت لاهثة:

- فرانك هنا؟

ردّ عليها رجلٌ ضخمٌ ومترهل بفتور:

- فرانك؟ لا، لا أعتقد.

كانت تمسك بأنفها لئلا تبكي.

- ألم... ألم يعد يعمل هنا؟

- لا...

أفلتت أنفها و...

- أقصد لن يعود يعمل بعد هذا المساء... آه... ها هو!

كان يصعد من غرف تبديل الملابس ومعه كلّ ألبسته المطوية.

Twitter: @ketab_n

حينما شاهدها، قال:

- آها، آها... ها هي مرّة أخرى بستانيتنا الجميلة...

كانت تبكي.

- ماذا هناك؟

- اعتقدتُ أنّك قد رحلت...

- غداً.

- ماذا؟

- سأرحل غداً.

- إلى أين؟

- إلى انكلترا.

- لِـ... لماذا؟

- أوّلاً لآخذ عطلة ومن ثمّ لأعمل هناك... لقد وجد لي رئيسي في العمل مكاناً رائعاً...

حاولت أن تبتسم قائلة:

- سوف تُطعِم الملكة؟

- لا، أفضل من هذا... رئيس قسم في وستمنستر...

- حقّاً؟

- قمّة القمم.

- آه...

- هل أنتِ بخير؟

- ...

- هيّا، تعالي لنشرب كأساً... سوف لن نفترق بهذه الطريقة مهما يكن...

Twitter: @ketab_n

20

- في الداخل أم على الرصيف؟

- في الداخل. . .

نظر إليها، مغيظاً:

- لقد فقدتِ كلّ الكيلوغرامات التي منحتكِ إيّاها. . .

- لماذا سترحل؟

- لقد أخبرتكِ. . . لأنّ هذه ترقية رائعة لي ثمّ أوه. . . لا أدري، يعني. . . ليست لديّ القدرة على التأقلم مع باريس، أنا. . . سوف تقولين إنّ بمقدوري أن أبيع منزل بوليت ولكنني لا أستطيع. . .

- أنا أفهم ذلك. . .

- لا، لا، المسألة ليست كذلك. . . ليس بسبب ذكرياتي فيه. . . أوه. . . لا، وإنّما لأنّ هذا الكوخ ليس ملكي.

- أهو ملك والدتك؟

- كلا، هو ملككِ.

- . . .

أضاف وهو يُخرِج رسالة من محفظته:

- آخر رغبات بوليت. . . تفضّلي، يمكنكِ أن تقرئيها. . .

عزيزي فرانك،

لا تنظر إلى خطّي السيئ، لم أعد أرى شيئاً.

ولكنني أرى جيّداً أنّ هذه الصغيرة كاميل تحبّ حديقتي كثيراً ولذلك أرغب أن أورثها إيّاها إن لم ترَ مانعاً في ذلك. . .

Twitter: @ketab_n

اعتنِ جيّداً بنفسك وبها، إن استطعت.

أقبّلك بقوّة،

جدّتك

- متى تلقّيت هذه الرسالة؟

- بضعة أيامٍ قبل... قبل رحيلها... تلقّيتها يوم أبلغني فيلو ببيع الشقّة... لقد... لقد أدركتْ أنّ هذا يضعنا في مأزق...

أوووف... كان يعزف بخبث على الوتر الحسّاس...

لحسن الحظّ، وصل نادلٌ وسأله:

- ماذا يطلب السيّد؟

- مياهاً غازية بالليمون، من فضلك...

- والآنسة؟

- كونياك.... دوبل...

- تتحدّث عن الحديقة، وليس عن المنزل...

- نعم... أوه... سوف لن نتخاصم، اتّفقنا؟

- سترحل؟

- لقد أخبرتكِ. حجزتُ التذكرة...

- متى سترحل؟

- غداً مساءً...

- عفواً؟

- كنتُ أعتقد بأنّك قد ضقتَ ذرعاً بالعمل لدى الآخرين...

- بالطبع ضقتُ ذرعاً، ولكن ماذا تريدين أن أفعل غير ذلك؟

Twitter: @ketab_n

نبشت كاميل في حقيبتها وأخرجت كرّاستها.

احتمى مشبكاً يديه أمام وجهه:

- لا، لا، لقد انتهى الأمر. لم أعد هنا، قلتُ لكِ...

كانت تقلّب الصفحات.

قالت وهي تدير الكراسة نحوه:

- انظر...

- ما هذه القائمة؟

- هذه قائمة بكلّ الأمكنة التي اكتشفناها، بوليت وأنا، خلال نزهاتنا...

- أمكنة ماذا؟

- الأمكنة الشاغرة التي يمكنك أن تنقل عملك إليها... وقبل أن ندوّن العناوين، تناقشنا كثيراً نحن الاثنتان! الأماكن المشار إليها هي الأفضل... هذا المكان خاصّة، سيكون رائعاً... ساحة صغيرة خلف **البانثيون**... مقهى قديم جميل، أنا متأكّدة من أنّ هذا سوف يُعجِبُك...

تجرّعت آخر رشفة من الكونياك.

- أنتِ تهذين تماماً... أتعرفين كم يكلّف فتح مطعمٍ؟

- كلا.

- أنتِ تهذين تماماً... حسناً، هيّا... يجب أن أذهب وأنهي ترتيب أغراضي... سأتناول العشاء عند فيلو وسوزي، هل تأتين؟

أمسكت بذراعه لتمنعه من النهوض.

Twitter: @ketab_n

- أنا أملك المال...

- أنتِ؟ لطالما عشتِ كمتسوّلة!

- نعم لأنني لا أريد المسّ بهذا المال... أنا لا أحبّه، ولكنني سأمنحك إياه...

- ...

- هل تتذكّر حينما أخبرتك بأنّ والدي كان مؤمّناً وأنّه قد مات في... في حادث عمل، أتتذكّر؟

- نعم.

- حسناً، لقد أحسن تدبير الأمور... ولأنّه كان يدرك بأنّه سيتركني، فقد فكّر في تأمين مستقبلي.

- لم أفهم.

- تأمينٌ على الحياة... باسمي...

- ولماذا... ولماذا لم تشترِ لنفسكِ قط حذاءً لائقاً؟

- لقد أخبرتك بالسبب... لا أريد هذا المال. تفوح منه رائحة الجثّة. كنتُ أريد والدي حيّاً، لا هذا المال.

- كم المبلغ؟

- ما يكفي لأن يبتسم لك مصرفيٌّ ويعرض عليك قرضاً مناسباً، على ما أعتقد...

أمسكت بكرّاستها من جديد.

- مهلاً، أعتقد بأنني قد رسمته في مكانٍ ما...

انتزعها من بين يديها.

- كفّي، يا كاميل... كفّي عن هذا. كفّي عن الاختباء

Twitter: @ketab_n

خلف هذه الكرّاسة اللعينة. كفّي... لمرّة واحدة فقط... أتوسّل إليكِ...

كانت تنظر إلى طاولة الشراب.

- هيه! أنا أكلّمكِ!

نظرت إلى قميصه الرياضي.

- لا، انظري إليّ، انظري إليّ أنا.

نظرت إليه.

- لماذا لا تقولين لي ببساطة: «أنا لا أريدك أن ترحل»؟ أنا مثلكِ، أنا أيضاً لا حاجة لي بهذا المال إن كنتُ سأنفقه بمفردي... أنا... أنا لا أدري، اللعنة... «أنا لا أريدك أن ترحل» هذه ليست جملة عصيّة على القول، أليس كذلك؟

- لقد سبق وقلتُ لك هذا.

- ماذا؟

- لقد سبق وقلتُ لكَ هذا...

- متى؟

- ليلة الحادي والثلاثين من كانون الأول (ديسمبر)...

- نعم، ولكن لم يكن ذلك محسوباً... كان ذلك بشأن فيلو...

ساد الصمت.

- كاميل؟

أريد لفظ الكلام واضحاً:

- أنا... لا... أريدك... أن... تر... حل.

Twitter: @ketab_n

- أنا...

- جيّد، تابعي... لا...

- أنا خائفة.

- خائفة من ماذا؟

- خائفة منك، خائفة منّي، خائفة من كلّ شيء.

تنهّد.

وتنهّد أيضاً.

- انظري. افعلي مثلي.

كان يتخّذ وضعية لاعب كمال الأجسام الذي يُبرز عضلاته في مسابقة.

- شدّدي قبضتيكِ... كوّري ظهركِ، اثني ذراعيكِ وصالبيهما وضعيهما أمام ذقنكِ... هكذا...

قالت مستغربة:

- لماذا؟

- لأنّه... يجب أن تمزّقي هذا الجلد الذي يضيق كثيراً عليكِ... انظري... أنتِ تختنقين داخله... يجب أن تخرجي منه الآن... هيّا... أريد أن أسمع تقصّف تمزّقه عند فقرات ظهركِ...

ابتسمت.

- لا... احتفظي بابتسامتكِ في جوزة حلقكِ... لا أريدها... ليس هذا ما أطلبه منكِ! أنا أطلب منكِ أن تعيشي، تبّاً لكِ! لا أن تبتسمي لي! هناك مقدّمات النشرات الجويّة ليفعلن

Twitter: @ketab_n

هذا... حسناً، سوف أنصرف وإلّا سأغضب مرّة أخرى... هيّا، إلى اللقاء هذا المساء...

21

فتحت كاميل لنفسها فسحة بين العدد الهائل لمخدّات سوزي المبرقشة، لم تلمس طبقها وشربت ما يكفي لكي تضحك في الأوقات المناسبة.

حتى من دون شرائط الأفلام، حضروا عرضاً للفيلم الوثائقي **معرفة العالم**...

أوضح فيليبير:

- آراغون أو كاستيل.

كانت تردّد عند كلّ صورة.

-... إنّهم أثداء المصير!

كانت مبتهجة.

حزينة ومبتهجة.

تركهم فرانك بسرعة لأنّه أراد أن يدفن حياته كفرنسي مع زملائه.

حينما نجحت كاميل أخيراً في أن تنهض، رافقها فيليبير حتى الطريق المرصوف بالحصى.

- هل ستتمكّنين من الذهاب؟

- نعم.

- هل تريدين أن أطلب لكِ سيارة أجرة؟

Twitter: @ketab_n

- كلا شكراً. أرغب أن أمشي.

- حسناً... نزهة سعيدة، إذاً...

- كاميل؟

- نعم.

التفتت.

- غداً... في الساعة الخامسة والربع مساءً في محطّة الشمال...

- هل ستكون هناك؟

هزّ رأسه نافياً:

- للأسف، كلا... سأكون في العمل...

- كاميل؟

التفتت مرّة أخرى.

- أنتِ... اذهبي إلى هناك كرمى لي... من فضلكِ...

22

- جئتِ لتلوّحي بمنديلكِ؟

- نعم.

- هذا لطفٌ منكِ...

- كم عددنا؟

- عدد مَنْ؟

- الفتيات اللواتي جئن للتلويح بمناديلهنّ وطبعن خدّيك بأحمر شفاههنّ؟

Twitter: @ketab_n

- انظري إذاً...

- ليس هناك سواي؟!

قال ممتعضاً:

- إيه نعم... الأوقات صعبة... لحسن الحظّ أنّ الانكليزيات حاميات... أقصد، هذا ما قيل لي!

- سوف تعلمهنّ القبلة الفرنسية؟

- من بين أمورٍ أخرى... سترافقينني حتى رصيف القطار؟

- نعم.

نظر إلى ساعة المحطّة. مازحها بطريقة مصطنعة:

- حسناً. لم يتبقّ أمامكِ سوى خمس دقائق لتتفوّهي بجملة من خمس كلمات، هذا ممكن، أليس كذلك؟ هيّا، إذا كانت خمس كلمات كثيرة، يكفيني ثلاث... ولكن الكلمات المناسبة، اتّفقنا؟ اللعنة! لم أختم بطاقتي... ماذا قلتِ؟

ساد الصمت.

- يا للخسارة... سأبقى غلاماً...

وضع حقيبته الكبيرة على كتفه وأدار لها ظهره.

ركض لكي يختم بطاقته لدى مكتب المراقبة.

شاهدته يستردّ بطاقته ويلوّح لها بيده...

وانسلّ بين حشود ركّاب اليوروستار...

وأخذت دجاجة الأرض الضخمة تلك تبكي.

ولم تعد ترى سوى نقطة رمادية من بعيد...

رنّ هاتفها النقّال.

Twitter: @ketab_n

- هذا أنا.

- أعرف، ظهر رقمك عندي...

- أنا متأكّد من أنّكِ وسط مشهدٍ فائق الرومانسية... أنا متأكّد أنّك وحيدة في نهاية الرصيف، كما في فيلمٍ سينمائيّ، تبكين حبّك الضائع وسط سحابة من الدخان الأبيض...

بكت مبتسمة.

استطاعت أن تردّ:

- ليس... ليس تماماً، كنتُ... كنتُ فقط أخرج من المحطّة...

جاءها صوتٌ من خلف ظهرها: «كاذبة».

سقطت بين ذراعيه وضمّته بشدّة بشدّة بشدّة بشدّة.

إلى أن طقطق ظهراهما.

كانت تبكي.

أجهشت بالبكاء، تمخّطت في قميصه، وزادت بكاءً، طردت سبعة وعشرين عاماً من العزلة، من الحزن، من المصائب التي حلّت على رأسها، بكت الحنان الذي لم تلقاه أبداً، طيش والدتها، المسعفون الجاثون على السجّادة، حيرة والدها، الأشغال الشاقّة التي مارستها، السنوات المتواصلة، أبداً، البرد، متعة الجوع، الانحرافات السيّئة، والخيانات التي فُرِضَت عليها وهذا الدوار الذي تشعر به دائماً، هذا الدوار على حافة الهاوية والمضائق. والشكوك، وجسدها المتواري دائماً ومذاق الأثير والخوف الدائم من عدم الجدارة. وبوليت أيضاً. عذوبة بوليت التي سُحِقَت في خمس ثوانٍ ونصف...

Twitter: @ketab_n

ضمّ بلوزته عليها ووضع ذقنه على رأسها.

- هيّا... هيّا...

همس لها بلطف من دون أن يدري إن كان يقصد: هيّا واصلي البكاء، أم هيّا كفّي عنه.

كما تشاء هي.

دغدغه شعرها، فشعر بغاية الراحة والسعادة.

كان سعيداً للغاية.

ابتسم. للمرّة الأولى في حياته، كان في المكان المناسب واللحظة المناسبة.

حكّ ذقنه فوق جمجمتها.

- هيّا يا برغوثتي... لا تقلقي، سوف ننجح، لن نكون أفضل من غيرنا ولكننا لن نكون أسوأ منهم أيضاً... أقول لكِ إننا سوف ننجح... ليس لدينا ما نخسره، طالما ليس لدينا شيء... هيّا... تعالي.

Twitter: @ketab_n

خاتمة

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

كان يتحشرج لإخفاء سعادته:

- اللعنة لا أصدّق هذا... لا أصدّق... هذا الأبله لا يتحدّث سوى عن فيلو! وهذا الدوام وذاك الدوام... طبعاً! هذا ليس صعباً عليه! العادات الحسنة في دمه! والاستقبال والديكور ورسومات فوك... ومطبخي إذاً؟ الجميع لا يبالون بمطبخي؟

انتزعت سوزي الصحيفة من بين يديه.

- يتلهف قلبي على تلك الحانة التي قدّم لنا فيها الطاهي الشاب فرانك ليستافييه من أطايبه وهو يعيد ابتكار طبخٍ منزليّ أكثر حيويّة، أكثر ابتهاجاً... بكلمة واحدة كلّ يوم هناك سعادة وجبة يوم الأحد من دون الخالات المسنّات ومن دون يوم الاثنين... ماذا إذاً؟ ما هذا؟ أسعار البورصة أم دجاجٌ مشوي؟

صرخ في الناس الذين رفعوا الستار:

- لا، المطعم مغلق! ولكن بلى، تعالوا، تفضّلوا... تعالوا... سيكون هناك ما يكفي للجميع... فينسانت، خذ كلبك اللعين وإلّا سأوسعه ضرباً!

أمره فيليبير:

- ابتعد يا روشوشوارت!

Twitter: @ketab_n

- باربيس... ليس روشوشوارت...

- أنا أفضّل روشوشوارت... أليس روشوشوارت حقيقياً؟ تعال إلى عمّك العجوز فيلو، ستحصل على عَظْمةٍ كبيرة.

كانت سوزي تضحك.

إلى الآن لا تزال سوزي تضحك طيلة الوقت.

- آه، ها أنت ذا! هذا جيّد، لقد رفعت نظارتك الشمسية لمرّة واحدة!

كانت تتغنّج قليلاً.

إذا لم يكن قد أوقع بالشابّة بعد، فإنّ العجوز فوك كانت مضمونة. كانت والدة كاميل تتّخذ دائماً حذرها بحضوره وتنظر إليه بعينين مبلولتين مثل الذين يخرّون على طريقة بروزاك.

- ماما، أقدّم لكِ آنييس، صديقتي... وبيتر زوجها وطفلهما فالنتان...

آثرت أن تقول «صديقتي» بدل أن تقول «أختي».

لم تشأ أن تتحمّل مشقّة الإفصاح عن الأمر طالما الجميع لا يبالون به... كما كانت فعلاً قد أصبحت صديقتها، وبالتالي...

صرخ فرانك:

- آه! أخيراً! ها هي مامادو وشركاؤها! هل جلبتِ لي ما طلبته منكِ، يا مامادو؟

- أوه نعم وأرجوك أن تنتبه لأنّ هذا ليس فلفل العصافير، هذا... هذا مختلف...

- شكراً، رائع، تعالي وساعديني خلف...

Twitter: @ketab_n

- أنا قادمة... سيسي انتبهي إلى الكلب!

- لا، لا، إنّه لطيف...

- لا تشغل نفسك، لا تشغل نفسك بتربيتي... إذاً؟ أين المطبخ؟ أوه ولكنه ضيّق جداً!

- هذا مؤكّد! أنتِ تشغلين كلّ المكان!

قالت وهي تشير إلى الإطار الزجاجي للصورة:

- أوه ولكن هذه هي السيّدة العجوز التي شاهدتها عندك، أليس كذلك؟

- لا... لا تلمسيها. هذه تعويذتي...

كانت ماتيلد كيسلر تغوي فانسان وصديقه في حين كان بيار يعلّق قائمة للطعام بصمت. كانت كاميل غارقة في نشرة **لوغازيتان دي كوميستيبل**، وهي دورية تعود إلى العام 1767، وتستوحي منها أفكاراً لكي ترسم مآكل جنونية ... كان ذلك رائعاً. أوه... وأين... وأين النسخ الأصلية؟

كان فرانك متوتراً، إذ كان في المطبخ منذ الفجر... ما أن أصبح الجميع حاضراً...

- هيّا، هيّا إلى المائدة، سيبرد الطعام! الساخن! الساخن أوّلاً!

وضع قِدراً كبيراً وسط الطاولة وراح يجلب مغرفةً.

ملأ فيلو الكؤوس. ممتاز، كما هو دائماً.

لولاه، لما كان النجاح سريعاً. كانت لديه تلك الموهبة العجيبة في إراحة الناس، كان يجد دائماً كلمةً مجاملة، موضوعاً

Twitter: @ketab_n

للنقاش، دعابةً، لمسةً من السحر الفرنسي... وكان يعانق كلّ أفراد الحيّ... وهم جميعاً على صلة ودٍّ به...

حينما كان هو الذي يستقبل الناس، كان يحسن تدارك الأمور ويشرحها بوضوح وتأتيه الكلمات المناسبة بسهولة ويسر.

ومثلما كتب عنه صحافيٌ، كان «روح» ذلك المطعم الصغير الأنيق.

تذمّر فرانك:

- هيّا، هيّا، مدّوا أطباقكم نحوي...

في تلك اللحظة، قالت كاميل، التي كانت تلاعب الطفل فالنتان منذ ساعة، الكلام التالي:

- أوه، يا فرانك... أريد طفلاً كهذا...

أخيراً قدّم طبق ماتيلد، تنهّد... تبّاً، يجب فعلاً أن أفعل كلّ شيء، هنا... وضع المغرفة في الطبق، فكّ عقدة فوطته، وضعها على مسند كرسيّه، أمسك بالطفل وأودعه بين ذراعي والدته، رفع حبيبته، ثبّتها على كتفه مثل كيس بطاطس أو نصف هيكل ثورٍ، أنّ تحتها... وذلك لأنّ الصغيرة كانت قد حبلت... فتح الباب، عبر الساحة، دخل إلى الفندق المقابل، صافح فيشايان، صديقه البوّاب، الذي كان يطعمه بين برقيتي فاكس، أخذ المفتاح، شكره وصعد السلالم مبتسماً.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

آنا غافالدا

معـــــاً...

طريفة، مؤثّرة، إنسانية، حنونة، صادقة. هذه الكلمات القليلة قد تكون كافية لوصف هذه الرواية الجديدة لآنا غافالدا والتي تُعدّ نشيداً حقيقياً للحبّ والصداقة والمسرّة.

إنّها تروي حكاية اللقاء ومن ثمّ الخلافات والحنان والصداقة والتشدّق والمصالحات... كلّ ما يحدث بين أربعة أشخاص يعيشون تحت سقفٍ واحد. أربعة أشخاص لا شيء مشترك بينهم وربّما ما كان عليهم أن يلتقوا قط. تائهون جداً ووحيدون جداً ومنهكون جداً... ومع ذلك سيتكفّل القدر أو الحياة أو الصدفة أو الحبّ - سمّوه ما شئتم - بتوبيخهم وزعزعتهم بعض الشيء.

حكايتهم هي نظرية الدومينو ولكن باتّجاهٍ معاكس. بدل أن يُسقطوا بعضهم، يتعاونون على النهوض.

@ketab_n

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء:ص.ب 4006 (سيدنا)

بيروت:ص.ب 113/5158

markaz@wanadoo.net.ma

cca_casa_bey@yahoo.com

ISBN 978-9953-68-536-3

9789953685366